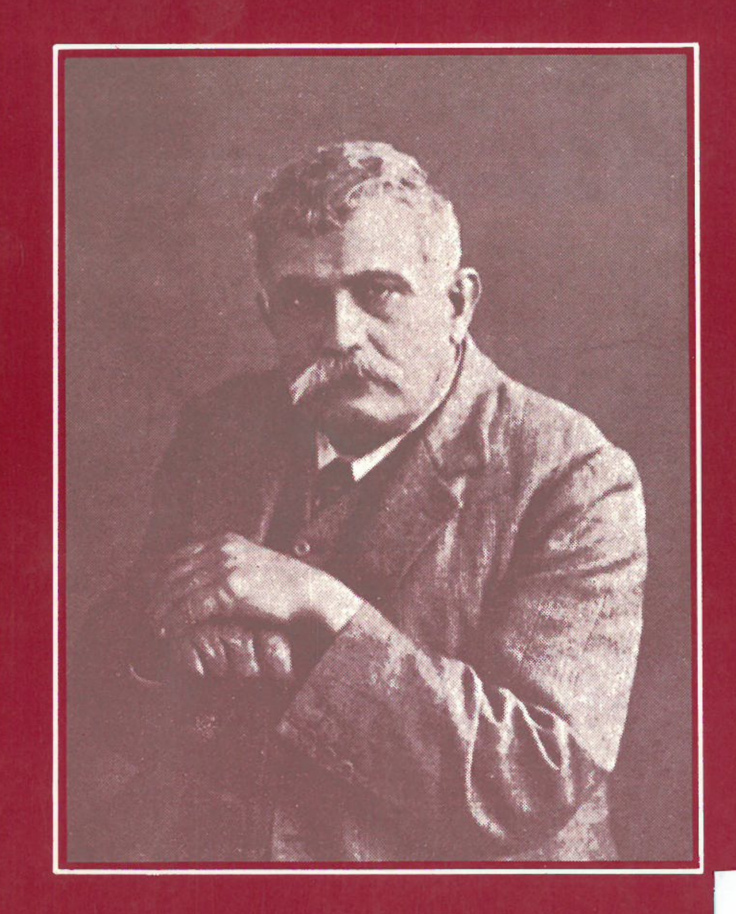
حوادث وخواطر

مذكرات الدكتور شبلي شميل

جمع واعداد وتحقيق
الدكتور اسعد رزّوق



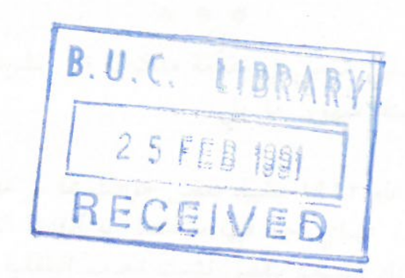


دار الحمراء

حوادث وخواطر

مذكرات الدكتور شبلي شميل

جمع واعداد وتحقيق
الدكتور اسعد رزّوق







رأس بيروت، شارع الكويت، بناية مكارم، الطابق الخامس، تلفون: ٨٠١٦٨٨

الطبعة الأولى
بيروت ١٩٩١

تمهيد

هذه المذكّرات في حوادثها وخواطرها

مذكرات الدكتور شبلي شميّل (١٨٥٠ ـ ١٩١٧) لها قصة، ولا تخلو قصّتها من الغرابة والطرافة، لا بل من الملابسات والتساؤلات والاستفسارات التي عبثاً تنتظر الاجابة الحاسمة والردّ المقنع، من جانب أطراف امتنعت طيلة ثلاثين عاماً ونيف عن تنوير الباحثين بشأن مصير كتاب حوادث وخواطر الذي عكف الدكتور شميّل على تدوينه وإعداده للطبع منذ صيف العام ١٩١٢. فما هي قصّة هذا الكتاب الذي لم يبصر النور؟ ولم يُنشر حتى في أعقاب وفاة صاحبه ومؤلّفه (١٩١٧)، وأحجم الوَرَثة الأدبيون عن إصداره بالرغم من إلحاح المتشوّقين للإطّلاع على خواطر شبلي شميّل ونوادره والحوادث التي جرت له مع أركان النهضة الحديثة ومع كبار الأدباء والمفكرين النهضويين الذين عرفهم واتصل بهم وتناظر معهم وتردّدوا إلى مجالسه واستمعوا إلى نوادره وآرائه الجريئة، واطلعوا على مواقفه الصريحة.

* * *

سوف نحاول في الصفحات التالية، وبصورة مُقتضبة، متابعة المراحل التي اجتازها كتاب حوادث وخواطر، دون ان يظهر إلى حيّز الوجود ويبصر النور، كما توسّم له صاحبه: «من كل وادٍ عصا» أو «من كل نبتة زهرة»!

* * *

يقول الدكتور شبلي شميّل في مقدّمة مذكراته التي نشرتها مجلّة الهلال (ج ٢٥، ١٩١٧) بعد وفاته بستة شهور ما يلي:

> «عُنيت في صيف عام ١٩١٢ بتقييد بعض حوادث مما مَرّ عليّ، وتعليق بعض خواطر ممّا يعنّ لي، عساي أجد فيها ما أُشغل به أوقات الفراغ وأُفرّج كرب العزلة. حتى إذا كاد الصيف ينقضي نَشَبت الحرب البلقانية، فوقفت في تلك حيث وقفت وعلّقت على هذه ما علّقت. ثم ضممت إلى ذلك بعض ما تيسّر لي العثور عليه من مطويّ لم يُنشر ومنثور مُبَعْثر. وجمعت الكلّ في هذا الكتاب فجاء «من كل وادٍ عصا» أو من كل نبتةٍ زهرة ـ على ذوق القارىء ـ وسمّيته: حوادث وخواطر».

وكانت مجلّة **فتاة الشرق** (١٩١٢) قد نشرت على حلقتين متواليتين ذكريات الشميّل، ابن كفرشيما، عن الشيخ ناصيف وابنه الشيخ ابراهيم اليازجي. وفي العام نفسه بادرت مجلّة **الزهور** لصاحبيها انطون الجميل وأمين تقيّ الدين إلى نشر قسم من المقدّمة التي أعدّها شبلي شميّل لكتاب «**حوادث وخواطر**» تحت عنوان «الإنشاء المترهّل»، وصدّرتها بالفقرة التالية:

*شرع الدكتور شميّل بطبع كتابه **حوادث وخواطر**، وأتيح لنا أن نقف على مقدّمته، فاقتطفنا منها الكلمة التالية في انتقاد هذا النوع من الإنشاء الذي ضاع فيه فريق من كتّاب العصر.*

[**مجلة الزهور**، السنة ٤ (أيار ١٩١٣) ص ١٤٨].

ثم عادت مجلّة **الزهور** (السنة ٣، ١٩١٣) ونشرت فصلاً من حوادث الشميّل وخواطره تحت عنوان «جمال الدين الافغاني في نظر الدكتور شبلي شميّل» وقدّمت له بالعبارة التالية:

*«يشتغل الدكتور شميّل في هذه الأثناء بوضع كتاب كبير عنوانه **حوادث وخواطر**، أو هو مجموعة مذكّراته كما يدلّ عليه الاسم ...»*

وفي مطلع العام ١٩١٣ (**مقتطف** يناير) نشر الدكتور شميّل مقالة «الاشتراكية الصحيحة»، ثم أردفها بمقالتين من كتاب **حوادث وخواطر**: آثار ملحم شميّل (أخ أكبر غير شقيق للدكتور شبلي شميّل) في **مقتطف** نيسان ١٩١٤، و«قصيدة الدهريّة» (**المقتطف**، أيار ١٩١٤).

ولم نعثر في المجلاّت والصحف المشار إليها أعلاه على فصول أو مقتطفات سواها من كتاب **حوادث وخواطر** نُشرت فيها خلال السنوات الأخيرة من حياة صاحب المذكرات، أي بين العامين ١٩١٢ و١٩١٦.

أما القسم الذي تولّت نشره مجلّة **الهلال** منذ أواسط العام ١٩١٧ ـ بعد وفاة الدكتور شبلي شميّل ـ فقد أدرجناه بحذافيره ابتداءً من مقدّمة المذكرات (**الهلال** ج ٢٥ و٢٦: ١٩١٧ ـ ١٩١٨) ومروراً بالسنوات التالية: ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ و١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ و١٩٢٤ ـ ١٩٢٥.

للمرحوم الدكتور شبلي شميّل مذكرات ضمنها حوادث ونوادر ممتعة شيّقة يتعلق معظمها بأركان النهضة الحديثة وكبار الأدباء المتأخرين ممن كانت له صلة بهم. وقد تفضّل الاستاذ جبرائيل بولاد شميّل فأذن للهلال بنشر الصفحات الآتية من

هذه المذكرات قبل طبعها. وإنها لمنّة نشكرها له آملين أن لا يتأخر صدور هذا الأثر النفيس الذي يتشوق كثير من المتأدبين إلى مطالعته.

[**الهلال**. ج ٣٢ (١٩٢٣) ص ٢٤].

وفجأة توقفت مجلّة **الهلال** عن متابعة نشر المقالات والفصول التي أمدّها بها وأذن لها بنشرها جبرائيل بولاد شميّل. فتعذّر العثور على شيء من بقايا «**حوادث وخواطر**» بعد العام ١٩٢٥:

تفضّل الاستاذ جبرائيل بولاد شميّل فأذن بنشر الصفحات التالية من مذكرات المرحوم الدكتور شبلي شميّل التي تتضمن حوادث ونوادر ممتعة. وقد وعد بإتحافنا بصفحات أخرى للأعداد القادمة فاستحق شكرنا وشكر قرائنا.

[**الهلال**. ج ٣٣، (١٩٢٤) ص ١٣٧].

وخلاصة القول إن مواد كتاب **حوادث وخواطر** أو مذكرات الدكتور شبلي شميّل انتهت إلى عهدة ربيب الدكتور شميّل الاستاذ جبرائيل بولاد شميّل، ولغاية العام ١٩٢٥ لم تكن قد أبصرت النور. ولم تسفر جميع التنقيبات والاستفسارات التي ثابرنا عليها منذ العام ١٩٥٧ ـ ومنها مراسلة مع الاستاذ موريس شميّل في القاهرة ـ عن نتيجة حاسمة، اللهم سوى الاستنتاج ان كتاب «**حوادث وخواطر**» لم يُنشر على حدة، وان صدوره المُرتَقَب تأخرّ حتى غار في زوايا النسيان، أو طرأ ما أدّى إلى العدول عن اصداره وإلى كتمان أمره.

فكان ان صمّمنا على تجميع ما أمكن تجميعه من الفصول والمواد وإدراج الكتابات التي تتناسب مع موضوعه لكي نضع بين يديّ القارىء المهتمّ بفكر الدكتور شميّل وآرائه ومواقفه «هذا الأثر النفيس الذي يتشوّق كثير من المتأدّبين إلى مطالعته». (**الهلال**: ١٩٢٣). وجرى اعتماد الفصول المنشورة بمثابة النواة لهذا الكتاب الذي نضعه بين يدي القارىء في حلّته الحاضرة.

وأضفنا إلى الفصول التي أعدّها شبلي شميّل بنفسه لتؤلّف كتاب «**حوادث وخواطر**» ما تيسّر العثور عليه من ذكريات وأصداء وتعليقات وآراء مبثوثة في السنوات الخمس من مجلة **الشفاء** ومنها ما كتبه بنفسه عن رحلته الثانية إلى أوروبا لزيارة معرض باريس (١٨٨٩) وفي الذكرى المئوية الأولى لقيام الثورة الفرنسيّة. كما أدرجنا المراسلات التي نشرها صاحب **الشفاء** من ڤيينا وبرلين وباريس في رحلته الثالثة إلى أوروبا (١٨٩٠ ـ ١٨٩١) للإطلاع على علاج كوخ في مكافحة التدرّن والسلّ الرئوي.

ولم نغفل أزمة الحرب الكونية الأولى ومأساتها التي أسأمت الدكتور شميّل فأسقمته وجعلته يتحوّل إلى كتب الأدب القديم وما كانت لتشغله في الماضي، على سبيل الالهاء والفكاهة ولئلاّ يتحتّم عليه ان يطالع حوادث الحرب الجنونية المروّعة وسماع أخبارها الشائنة. وينبغي لنا تذكير القارىء في هذا المقام بأن اسم الدكتور شميّل كان مُدرجاً في لائحة جمال باشا السفّاح التي ضمّت أسماء المحكومين بالاعدام غيابيّاً: ١٩١٥ و١٩١٦.

ويمكن اعتبار المختارات من الكتابات السياسيّة والإصلاحية (التي سوف تصدر في كتاب مستقل) بمثابة تتمة لهذه المذكرات، لأنها تتضمن الكثير من الحوادث والخواطر وتسلّط الأضواء على العديد من مواقف الدكتور شميّل وآرائه وتعليقاته وخواطره، منذ مارس الكتابة في الصحف والمجلات وراح يجاهر بآرائه الاصلاحية ويرفع الشكوى معلّقاً آماله على بوادر الإصلاح وتباشير الحريّة والاستقلال.

* * *

هذه، باختصار، قصة المراحل التي مرّت بها مذكرات الدكتور شبلي شميّل، منذ بدأ بتدوينها وإعدادها للصدور في كتاب اختار له عنوان «حوادث وخواطر». ونترك لذوق القارىء ان يقف عند العبارة التي سجّلها الدكتور شميّل في مستهلّ المقدّمة التي أعدّها بنفسه لكي تتصدّر حوادثه وخواطره وأفكاره ونوادره: «فجاء [هذا الكتاب] «من كل وادٍ عصا» أو «من كل نبتةٍ زهرة».

وعسى ان يسهم إخراج الكتاب في صورته الحالية بتعريف القارىء والباحث في الشأن النهضوي ببعض النواحي المجهولة أو المغمورة والمطموسة من أعمال وحياة أعلام نهضتنا الحديثة وروّادها البارزين.

بيروت، في ٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٠

الدكتور أسعد رزّوق

مقدّمة مذكّرات الدكتور شبلي شميّل

حوادث وخواطر

مقدمة

مذكرات شبلي شميل

مجلّة الهلال

(الهلال) ننشر اليوم المقدمة التي أعدها المرحوم شبلي شميّل لمذكراته قياماً بوعدنا أن نتحف القراء بمقتطفات من آثار الفقيد غير المنشورة. ولا ريب في أن هذه المقدمة هي من أحسن ما كتبه الشميل.

عنيت في صيف عام ١٩١٢ بتقييد بعض حوادث مما مرّ عليّ، وتعليق بعض خواطر مما يعنّ لي، عساي أجد فيها ما أشغل به أوقات الفراغ وأفرج كرب العزلة. حتى إذا كاد الصيف ينقضي نشبت الحرب البلقانية، فوقفت في تلك حيث وقفت وعلّقت على هذه ما علّقت. ثم ضممت إلى ذلك بعض ما تيسر لي العثور عليه من مطويّ لم ينشر، ومنشور مبعثر. وجمعت الكل في هذا الكتاب فجاء «من كل وادٍ عصاً» أو من كل نبتة زهرة - على ذوق القارىء - وسمّيته حوادث وخواطر.

حوادث هي بعض مذكراتي في حياتي القليلة الاختلاط الكثيرة الاعتزال. ان لم تتسع للرواية فقد تستوقف بدقة التحليل، وإن أقفرت من القديم والمأنوس فقد يكون فيها شيء من الجديد الطلي، وإن كثر فيها الجد فقد لا تخلو من الفكاهة، وإن أكثرت فيها المعلقات الخصوصية فلم أهمل من خلالها المرامي العمومية. حوادث لم أنقلها عن يومية مدوّن فيها كل ما كان يعرض لي كما يفعل البعض ولا سيما الافرنج في مذكراتهم، ولكنني اعتمدت فيها على ذاكرة قلما تخونني في الوقائع، وإن كانت تتعثر كثيراً في التاريخ.

وخواطر هي بعض أفكاري أطلقها تجول في ما حولي، وتمر بي حتى أعماق نفسي، وتنطق عن نظري الخاص ولو خالفت أحكامي أحكام سواي. وإن لم أدّع لها العصمة فإني أربأ بها أن تميل مع الهوى ولو لقيت ما لقيت من عواصف العواطف الغالبة حتى الساعة على أفعال سائر الناس، والمتمكنة فينا أكثر من سوانا على نوع خاص.

[«الانشاء المترهل»]

حوادث وخواطر سردتها سرداً، كما جاءت عفواً غير متبع فيها نهجاً مخصوصاً. ولم أتعمّل فيها غالباً لئلا يجمح بي جواد المبنى فيخرجني عن جادة المعنى. فهجرت الوحشي الفحلي، ولم أقع في الحضري المترهل، وتقربت كثيراً من العامة عسى أن تكون البلاغة في ما كان أدنى إلى تبليغ المراد.

قلت الحضري المترهل لأني أرى اليوم ميلاً كبيراً للتباري في نهج من الانشاء أن أجاد فيه البعض فقد قلّ فيه المفلحون. وإن حلا في بعض المواقف فمن المصاب ما يغشي. يرقق فيه اللفظ حتى لا يكاد يغشى السمع. يطوف على الأزهار ويناجي نفوس الكواكب، ويستمطر دموع الملائكة، ويثير أشجان القلوب. ولكن يحار الانسان في فهمه إذا تقصاه إلى لبّه. فلا هو نشيد الأناشيد، ولا هو مراثي أرميا، ولا هو مصابرة أيوب، حتى ولا تسبيح داود على قيثارته. وهو خليط منها يتلألأ ولكن كالبرق الخلّب ولا يبقى من جيده في الذهن إلاّ أثر النسيم على صفحات الماء، أو من رديئه إلاّ أثر الكابوس في الحالم. وشأنه في الحالين شأن الماس الكاذب، فلا هو حلية للتنافس، ولا هو الفحم النافع باعتبار أن الماس الحقيقي فحم متبلور. كأننا لم نهجر التقعر الجاف إلاّ لنقع في الرقيق المائع. وبينهما ضحايا الفكر مقتولة على مذبح هيكل العواطف الثائرة أو الذابلة. ولكم عرض لي وأنا أسمع هذا الشعر الجديد المنثور، أن تذبل عيناي، وتتدلى يداي، ويتهادى ذراعاي، كأنهما جناحان هبّا بي للتصفيق ولكنهما هبّا متكسرين فصرت بها كالطير الواقع. وما الناس بحاجة إلى هذا التنويم المخدر بعد ذلك المثار الجاهلي المدمر.

حوادث وخواطر لم أدار فيها ولم أحاب وان أغضب تلك النفوس التي لم تألف إلاّ الهدهدة. وإذا كنت أكثر فيها من الانتقاد أطلقه على ما حولي وأتناول به حتى نفسي فلأن الانتقاد يبعث على التفكير. عسى أن يغلب علينا ما لا نحب مما يحمد «فنحس بفكرنا» لا لأننا نفتكر دائماً بشعورنا وقلما تنجح أعمال العقل إذا غلبته العواطف.

ولا أخشى حملات العقلاء فاحترام كل فكر ضروري لحياة الفكر. والاصغاء إلى كل نظر واجب. وادفع حملات سواهم مستنصراً عليهم أبناءهم من أصلابهم. فهم الذين يثأرون منهم. يثأرون للأفراد المجني عليهم والمجتمع الذين يسيئون إليه. وسرعان ما يكون هذا الاثئار اليوم.

* * *

قلت إني تقربت كثيراً إلى العامة ولا أريد بذلك أني تنزلت إليهم، بل أريد أني تحدّيت الاسلوب الذي ينفتح للجميع على حدٍ سوا، بدون أن يضطر فيه إلى عمل يوجبه التأنق في الانشاء كثيراً ما يذهب بجهد الكاتب، وقد يُستمهل فهم القارىء حيث يجب أن يستحث، ونحن إن لم نكن في عصر الوقت فيه ثمين لنا فهو ثمين لسوانا، عسانا أن لا نبقى مقيدين في الاغلال على مدى الأجيال. واستعملت كثيراً من ألفاظهم التي تعبر جيداً عن المراد والتي إن وجد بعد العناء في معجم اللغة ما يقوم مقامها، فقد يعزّ حتى على الأديب مغزاه حتى يتقصاه في مكانه، والمقصود من الكتابة ليس الاغلاق. كما أني أثبتُّ كثيراً م كلامهم الجاري مجرى المثل، لأن الأمثال حكمة الشعوب التي تعبر عن أحوالهم ومجرى أفكارهم في كل أطوارهم، ونهجت نهج الأمم الراقية من متقدّمين ومتأخرين، ونهج العرب أنفسهم في إبان حضارتهم في مستحدثات الصناعة ومستنبطات العلم فلم أتحول عن مسمياتها في لغاتها، إلاّ حيث أمنت اللبس ولم أخش التشويش، ولا سيما في هذا العصر الكهربائي الذي يتدفق فيه المستجد كل يوم تدفق السيل، حتى صار التحول عنه إلى أوضاع الاجتهاد خروجاً عن المأنوس المدرك إلى الوحشي المغلق. متبعاً في كل ذلك سنّة التحول التي تتناول كل شيء في الطبيعة والانسان في العمران، والتي لا يقوى عليها حتى ولا الجامدون المتمكنون من جمودهم مهما جمدوا.

* * *

العمران اليوم لم يعد يخشى عليه من التقهقر ولا من الوقوف، حتى يبقى الأبناء كالآباء، أو يخطوا عنهم كما كان يحصل كثيراً في الماضي. فلم يبق كثير التخاذل ـ وكل سنّ بسنّ ـ حتى يكثر التذبذب في ارتقائه، ولا ضعيف الوسائل في الذود عن مدنيته حتى تمتد إليه يد الهمجية وتعبث به، ولا كثير التشرد في علمه حتى يضلل كثيراً في دنياه*. ولا يبعد الزمن الذي يصبح التمدن فيه شديد التضامن يطلق يده في سائر المعمورة اطلاق الشريك، ويقوم هو نفسه بالتنفيذ قيام القدير.

كان استقلال الأوطان في القديم عظيماً لشدة انفصالها بعضها عن بعض، والتخاذل كثيراً جداً لشدة تباين مصالحها في اعتبارها. وكانت الحروب الطاحنة مستمرة. والبشر يكادون يكونون متساوين في وسائل الدفاع والهجوم ـ متمدنين كانوا أم متوحشين ـ فلم يكن من الصعب على أية أمة بربرية ذات نجدة في الحروب أن

* مجلة الهلال، ج ٩، مجلد ٢٥، حزيران / تموز، ١٩١٧، ص ٧٢٦ ـ ٧٣٢. وقد سبق لمجلة الزهور (السنة ٤، ١٩١٣، ص ١٤٨ ـ ١٥٠) أن اقتطفت من هذه المقدمة بضع فقرات ونشرتها تحت عنوان «الانشاء المترهل».

تتغلب على أعظم أمة متمدنة أزالت منها رفاهية المدنية كثيراً من مزايا هذه النجدة، فإما تبيدها أو تنزلها إلى الحضيض وتعيدها معها إلى التوحش. فكانت الحروب اندفاعاً وشجاعة وصبراً على المشقات، أكثر منها رأياً وتدبيراً واستعصاماً بالمعدات، والنصر فيها متوقفاً على هذه النجدة أكثر منها على العلم. وأما اليوم فقد صارت المدنية لا تغلب، وصار النصر في الحروب من ثمار العلم وحده.

[«أهلاً بدولة العلم الحديث»]

فالعلم اليوم لم يبق كله أو جله كما كان في الماضي علم كلام ونظر، تتباين فيه الأفكار، وتختلف المشارب وتبقى الأوطان متباعدة فيما بينها. بل صار علم تجربة وعَمَل قلب كل ذلك إلى الضد. فتوطدت المدنية بالاكتشافات العجيبة، والاختراعات الناجحة، وانهارت على الأقطار، وشرعت تسطو على الأفكار، لسهولة اختلاط الناس بتقريب المسافات. وسيكون لهذا العامل في الفتح شأن أعظم من السيف الذي صار اليوم خادماً للعلم، نصيراً للمدنية، لازماً أحياناً لسرعة انتشارها، بعد أن كان يستعصي عليها ويعبث بها غالباً.

بعد أن كانت المدنية في الماضي كشعلة النار تطفئها الرياح والأعاصير وتترك في ركامها الرماد الهامد، صارت اليوم كبقعة الزيت في الثوب تمتد فيه وتنتشر مع بقائها ثابتة في مكانها. ولا ريب أن المركز الذي ستنتشر منه أشعة هذا التمدن الزاهر في الأقطار القريبة والبعيدة، كما تنتشر أشعة الشمس فوق الأرض، هو اليوم ممالك أميركا المتحدة في العالم الجديد، وأوروبا في العالم القديم، لأنها مصدر هذا العلم الراقي ومسرحه اليوم، ولأن أممها به أرقى الأمم، وستبقيان كذلك. إلّا إذا صح تخرص العلماء ـ والعلماء لهم تخرصات ـ وطغى الجليد في آلاف السنين، وغطى أوروبا كما هو في القطب، فتزحف أممها زحفاً إلى أقطار تؤهل، لا انها تنقرض انقراضاً كما كان يحصل لو كان العمران على حالاته الأولى القديمة ولا يكون الخلف حينئذٍ أضعف من السلف حيثما كان.

ولكن أوروبا نفسها حتى اليوم ليست واحدة في منازعها، ولا متفقة في مراميها، ولا تزال متخاذلة حتى الساعة في المصالح العامة. لأن العلم الحديث لم ينشأ فيها حقيقة إلّا منذ قرن، ولم ترسخ قدمه إلّا منذ نصف قرن، ولم ينتشر بعد بين الجماهير انتشار العلوم القديمة، ولم يتناول نظاماتها ليزيل أثر القديم منها ـ ومع ذلك فأوروبا فعلت اليوم في هذا السبيل كثيراً في هذا الزمن القصير، ولو أنها لم تستطع حتى الساعة التوفيق التام فيما بينها ومنع الحروب البربرية مع سواها، لنشر دعوة المدنية تامة عامة بسبب هذا التخاذل.

ولكن أوروبا اليوم على فجر نهضة لا تطول كثيراً حتى يصبح هذا التخاذل الباقي فيها اتفاقاً وتضامناً يتكفلان بنشر هذه الدعوة في زمن قريب بالنسبة إلى الأجيال الماضية، ويحولان أوروبا نفسها ممالك متحدة. ولا شك أن هذا القول سيبدو غريباً جداً للذين لا يزالون حتى اليوم عائشين بعلومهم وأفكارهم في الماضي (البعيد) فيقيسون كل شيء عليه، والذين لا يعنون كثيراً بتاريخ المقابلة فلا يرون الفرق العظيم بين سرعة سير العمران اليوم وتباطؤه في الماضي، والذين يذهلون عن تأثير العلوم الحديثة في الذرائع والأخلاق، فلا يقدرون ارتقاء العمران اليوم في القوة المادّية ورجاحة العقل حق قدره، والذين تستوقفهم الجزئيات فلا يشملون بنظرهم الكليات فلا يرون إلّا عثرات الانتقال من طور إلى طور وأكثرها من متخلفات الماضي، ويغضون الطرف عن المحاسن الأخرى الكلية ـ ولكنه قول لا ريب فيه للذين ينظرون إلى كل ذلك ويحسبون حساباً لسرعة ارتقاء العمران المتسارعة على نسبة النواميس الطبيعية نفسها كجاذبية الثقل فيعلمون أن السنة اليوم صارت كمئات السنين في الماضي بل آلافها.

فمتى انتشر التعليم الحديث، وصار الأهم في المدارس، لا كما هو حتى اليوم أقرب إلى الكماليات منه إلى الحاجيات الضروريات، ورسخت الكليات المستخرجة منه في الطبائع، وانتقلت في الأخلاق إلى تطبيق نظامات الاجتماع عليها ضرورة، أصبح هذا الذي يبدو لنا اليوم مستحيلاً في غاية الامكان بل صار في حكم الواجب الضروري، لأن الأخلاق والطبائع ونظامات الاجتماع ليست إلّا نتيجة التربية العقلية نفسها وهذه خاضعة لنوع العلم ـ وما تمخض الأمم الراقية اليوم لمقاومة نزعات دولها وحكوماتها الغالب فيها حتى الساعة نظام التربية القديمة إلّا دليل على قرب هذا اليوم، وقرب تبديل هذا العتيق الرث بما يقتضيه نظام الاجتماع الجديد الراقي من التضامن الكلي حتى يتأيد العمران التام، وتصبح الأوطان المختلفة ممالك متحدة فيه مبتدئة بالأرقى. ومتى تم ذلك لأوروبا سهل عليها حينئذٍ أن تجعل إرادتها حكماً لا يعارض، وتضامنها قوة نافذة من دون أن تضطر إلى حروب كالحروب التي نشاهدها حتى اليوم، ولو على قلة، واتسعت حلقة المدنية حتى يصبح انتشارها في العالم سلمياً بحتاً، وإذا دعت الحال إلى حرب فلا يطول أمرها، للاقتدار العظيم حينئذٍ على قمع ثورات الهمجية مهما كانت حتى لا يبقى للهمجية مكان.

حينئذٍ تصير المراكز الراقية تعتبر الأمم المتقهقرة والحكومات المخربة أوبئة اجتماعية حقيقية بالنظر إلى خيرات الأرض الضائعة وإلى قوى البشر الذاهبة سدىً، وتقوم في وجهها كما هي تقوم اليوم في وجه الأوبئة المرضية لصدها حتى في أقصى المعمورة. وما كان العمران يفعل ذلك في الأمراض في الماضي، حتى أن أبقراط رفض

متشائماً إغاثة ملك الفرس لدفع الطاعون عن بلاده كما في أخبار الأولين، ولو أنها أخبار في حكم الأساطير، وما الأساطير نفسها إلاّ عنوان مستوى العقول، وكيفية نظرها في الأمور وفهمها لها. وأما اليوم وإن كانت الحروب لا تزال بشناعة حروب الأولين وأقسى بالنظر إلى عددها، فإن الأعداء صاروا يعطفون بعضهم على بعض ويحسنون إلى الجرحى والأسرى وصار الناس يؤلفون الوفود للمساعدات المالية والاعانات الطبية وكان الأمر على الضد في الماضي.

وحينئذٍ يبطل التغني كما نفعل اليوم بابطال الهم كما أسميهم أي ابطال الهمجية الذين يبنون صروح مجدهم بروؤس القتلى على ظهور الحمقى في أرض أقفرت إلاّ من الجهل. ويصير الابطال الحقيقيون اولئك الذين يخدمون الاجتماع باكتشافاتهم واختراعاتهم وارشادهم كالمعري ونيوتون ودَروين وجنّر وبستور وغيرهم من أبطال الفكر والعلم والاحسان. ولا يبقى من أبطال الحروب الذين يستحقون هذا الاسم إلاّ اولئك الذين لم يخوضوا غمارها إلاّ مضطرين لدك حصون الهمجية نصراً لدعوة التمدّن العام لا اولئك الذين يقومون بجهلهم ويحاولون أن يدوسوا بسنابك خيلهم معالم المدنية ليقفوا سداً في وجه العمران.

والذي يحقق هذا القول هو ان العمران لم يشهد في كل القرون الماضية، مهما غالى المغالون بتمدن الأقدمين، حركة مثل هذه الحركة التي تدفعه اليوم إلى هذه الغاية الكبرى. بل لم يكن من الممكن لأحد أن يستخرج من مبادىء التمدن القديم ما يحمله على هذا الأمل بناء على تأثير العلم فيه يومئذٍ. لأن العلم في الماضي لم يكن يتسع فيه مثل هذا القول للباحثين. ولذلك ظل العالم رغماً من أديانه وتعاليم كبار فلاسفته ميداناً للحروب البربرية المخربة، لإخضاع الأمم اخضاع إذلال وإضاعة حقوق الجماهير في مصلحة الأفراد. بل كثيراً ما كانت المنازع الدينية من أكبر أسباب هذه الحروب ـ وما ذلك إلاّ لقيام دعوة المصلحين على مبادىء منتشرة أن صدقت مرة أخطأت مراراً وإن صحت في القول لم تصدق في العمل، لاختلاف تأثيرها في التربية الاجتماعية العامة، وللاستناد فيها على علم أكثره موضوع غير مطبوع. فضلاً عن استئثار الخاصة دون العامة بهذه المبادىء واستئثارهم وحدهم بالعصر، وصرفها إلى مصلحتهم ضد مصلحة الجمهور، الذي لم يكن من السهل عليه الالمام بها، ولا الوقوف عند حد يسهل الاتفاق عليه ـ حتى أن الثورة الفرنسويّة التي قامت على شيء من تفهم حقوق الأمم، بناء على شيء من العلم الصحيح ضعيف، وبناء على الظلم خاصة الذي جعل الناس يميلون بعامل الانفجار من شدة الغيظ إلى استماع كلمة المصلحين، لم يطل أمرها حتى عادت إلى التخبط والوقوع في الفوضى. لأنها لم تجد في مبادىء التعاليم التي كانت تتجاذبها ما يثبتها في خطتها الاصلاحية ـ وأما اليوم فلا

خوف على المجتمعات المنتشرة فيها مبادىء التعاليم الحديثة أن تتضلل، لوحدة مبدأ هذه التعاليم الطبيعي، حتى لو قُسرت اليوم أمم أوروبا بجهل حكوماتها على حرب بينها لما كان ذلك إلاّ لخير العمران، ولدارت الدائرة على العروش المقلقلة، والتيجان الصادئة، وقامت الأمم مسرعة تتصافح من فوق.

وكل هذا البيان الطويل يبين بالبرهان القاطع، هذه الحقيقة الصغيرة بنفسها، الكبيرة جداً بنتائجها في العمران، وهي أن الاولاد اليوم سيكونون دائماً خيراً من الآباء والأجداد، وما كانوا كذلك في الماضي، بل كثيراً ما كانوا يتخطونهم بمرتبة النشوء في الطبيعة العمياء، ولو أدت إلى الارتقاء أخيراً، ولكن بعد الوقوف الكثير والتقهقر غالباً. وهي كانت سنة العمران أيضاً في الماضي ـ وأما اليوم فإن هذا التذبذب والتقهقر في سير الاجتماع صار غير متعذر علينا، لما بلغناه من العلم الصحيح الذي سنسرع فيه ويسرع بنا، حتى يصير ارتقاء العمران العام مطرداً لا تقهقراً أو وقوفاً يعتد به في نواميس الاجتماع. وحتى يكتسح العمران الراقي العالم أجمع.

ولا يكون هذا الاكتساح إذلالاً للأمم المكتسحة، وإفناء واستعباداً لها كما كان في الماضي، وكما قد يتهمه البعض اليوم، اعناتاً أو اذلالاً أو توهماً، بل يكون نشراً للمدنية الصحيحة وادماجاً يستغرق الناس بعضهم في بعض لتعمير الأرض بهم كما تدل الدلائل الكثيرة اليوم ـ فأهلاً بدولة العلم الحديث وسلام على أبطاله الفاتحين.

شبلي شميل

﴿عيادة الدكتور شميّل في الغورية بملك الأوقاف﴾

[الهلال، ج ٤ (١٨٩٥) ص ١٢٠].

لا يخفى ما لحضرة العالم النطاسي الدكتور شبلي شميّل من الشهرة الطائرة في التطبيب الباطني والجراحة. ويسرُّنا ان نبشّر آل الغورية وما جاورها انه أنشأ فيها محلاً للعيادة يطبّب فيه كل الأمراض باطنية أو جراحية أو أمراض العيون وقد أعد فيه محلاً مستوفياً مع المساعدين اللازمين للعمليات الجراحية وألحَق به احدى الحكيمات لمعالجة أمراض النساء وقد عَيَّن أوقات العيادة كل يوم من الساعة التاسعة إلى الحادية عشرة قبل الظهر ومن الساعة الرابعة إلى الخامسة بعد الظهر على الحساب الافرنجي. والفقراء يُعالجون مجاناً. فنثني على حضرة الدكتور ونرجو ان ينتفع المرضى بعلمه وعمله.

جرنالوفوبيا وجرنالوفاجيا

جرْنا لوفُوبيا وجُرْنا لُوفَاجيا

الأول معناهُ «الخوف» من الجرائد والثاني «التهامها» وقد نَحَت لهما بعضهم اسمين عربيين فسمَّى الأول «الجَنْفرَة» من النفور والثاني «الجَبْلَعَة» من «البلع» أو «الجأكلة» ايضاً من «الأكل». وهما مرضان لم يسبق لأحد وصفهما. ومن اعراض الأول ان الواحد إذا ورد له أي مطبوع كان بادر إلى رده قبل ان يتحقق ما هو خوفاً من ان يكون جريدة، فتلصق به. مثال ذلك ما وقع لادارة المقتطف اخيراً فلا يخفى انها وعدت مشتركيها بهديّة تبعث بها إلى من يدفع لها سلفية الاشتراك بالمقتطف مُعَجَّلاً. فورد إليها نسخ من هذه الهدية لم تفتح مردودة ومكتوباً عليها «مرفوض» أو «مرضوض لم مرتب» ظَنّاً انها جريدة. وهو مرض حميد بالنسبة إلى الثاني. ومن اعراض الثاني ان الواحد يقبل الجريدة إذا لم يردّها في آخر اعدادها ولكنه يلتهم ثمنها وهو مرض أشد ضرراً من الأول. وقال بعض المحققين بل المرضان طوران مختلفان لمرض واحد كالخنازيري والسل لا مَرَضان مختلفان، بدعوى ان السبب فيها واحد ولو كره البروفسور بَتَر[1] وذهب الميكورغرافي بستور إلى انه مكروب غريب من جنس البراسيت يندسّ في المعارف فيجعلها مهارف تحت رواق رواه اقاصيص ومخاوف. والحق يقال ان الذنب ليس على هؤلاء وحدهم بل على اصحاب الجرائد ايضاً فانهم هنا خلافاً لأوروبا يطرحون جرائدهم على الناس خوفاً من انهم لو حذوا حذوا اهل اوروبا ولم يرسلوا الجريدة إلا لمن يطلبها ويدفع قيمتها سلفاً لربما لم يجدوا مَن يشترك حتى صار العلم وصناعة الأدب في البلاد بضاعة مزجاة. فها نحن قد وصفنا الداء فعلى الطبيب الحاذق ان يجد الدواء.

[نشرها الدكتور شميّل في الاهرام قبل ان يعيد نشرها في مجلّة الشفاء، وذلك قبل خمسة أعوام].

(1) البروفسور بتر أحد مشاهير الاطباء الكلينيكيين الفرنساويين فانك اذا كررت امامه لفظة مكروب ثلاث مرات يكاد يغمى عليه وقد رد ذات يوم على من زعم ان الخنازيري والسل مرض واحد بحجة ان الباشلس الضمي يلتقي في كليهما بقوله «لو اتاك فلاح واهداك تفاحة وكمثراة وانت قلت له انهما ثمر واحد بحجة ان قاعدتهما الحامض التفاحيك لما وسعه الا ان يجيبك بقوله «مع كل احترامي لعلمك يا سيدي العالم لا اصدق الاّ انهما ثمرتان مختلفتان، اهـ
انظر: الشفاء، جزء ١، السنة ٢، ١٥ شباط (فبراير) ١٨٨٧، ص ٤٠

حوادث وأفكار*

بقلم جناب الدكتور شبلي أفندي شميّل

نُشرت مقالة «حوادث وأفكار» للمرة الأولى عام ١٨٧٩ في جريدة مصر الفتاة التي أصدرتها جمعية مصر الفتاة وحرّرها أديب اسحق في الاسكندرية. وكان الشميّل آنذاك مقيماً في طنطا. صدرت كجريدة اسبوعية سياسية باللغتين العربية والفرنسية، بعد اعتلاء الخديوي توفيق العرش. وكان شعارها: «البحث عن حقوق كل انسان فاكر». لكنها تعطلت بعد ظهورها بوقت قصير. وقد عطّلها رياض باشا، رئيس الوزراء، لأنها طعنت في سياسته طعناً موجعاً. وعاد الشميل فنشر المقالة في مجلّة المقتطف على مرحلتين.

لا أعلم من الفلسفة إلاّ اسمها ولا أعي من العلوم إلاّ رسمها ولا أعرف عن البسيطة الشيء الكثير ولا أدري عن الانسان إلاّ اليسير فلا ترجُ أيها القارىء أن ترى من فلسفة ارسطو أو فصاحة ديموستين أو رواية طاسيت أو تثبت ابن رشد أو إحاطة ابن سينا أو علم نيوتون أو خواطر باسكال أو اسهاب فولتير أو اصابة روسو فما هي إلاّ حوادث يومي وأفكار ليلي. وإن شئت فقل حوادث يومك وأفكار ليلك حوادث تتوالى على الانسان وتتناقلها الحواس فتؤثر في العقل تأثيراً يجعل فيه تفكيراً يقف به تارة على الأرض وأخرى يرتفع إلى السماء وطوراً يدخل به إليه فإن في طاقة العقل أن يحكم في أعمال ذاته كما يحكم في أعمال العالم الخارجي.

والمؤثرات إما مرئيات أو مسموعات أو مشمومات أو مذوقات أو ملموسات وكل منها إما لذيذ وإما مؤلم وبحسب درجته من اللذة والألم لم يكن تأثيره في العقل فإن الحواس ليست إلاّ ناقلة لتلك الاحساسات لا شاعرة بها فأما كيفية شعور العقل بها مع كوننا نحسبها مرسومة في الحواس نفسها فمن أدق مسائل علم المعقول ومن أقوى الأدلة على وجوب تقسيم الأعمال.

إلاّ أن تأثُّر العقل بالمؤثرات وأحكامه بها تختلف كثيراً بالنظر إلى اختلافها واختباره إياها فكلما كانت أشد غرابة وأعظم اختلافاً كان العقل أشد انفعالاً بها وأعظم تأثراً ولهذا كانت أميال العقل وتصوُّراته تختلف على حسب اختلاف الأقاليم. وكلما كان العقل أقل اختباراً للمؤثرات كان أكثر توهماً فيها فإنه كثيراً ما يتوهم بها أمراً

* المقتطف، جز ٩، السنة ٦، شباط ١٨٨٢، ص ٢٣٠ - ٢٣٢.

ثم لا يلبث أن ينفيه عنها بعد أن يزداد اختباراً لها وقد يصعب عليه ذلك ان تمكّن الوهم فيه.

* * *

ولما كان الأوائل أقلّ اختباراً من الأواخر كانوا بالضرورة أقلّ علماً منهم بل كان معظم علمهم جهلاً وأجلّ أفكارهم وهماً. وكان الخلف يشتغلون كل يوم باصلاح ما أفسده السلف بحسب ما يتبين لهم بازدياد اختبارهم واتساع معارفهم. إلاّ أن إزالة ما فسد من المبادىء من عقول الناس لا بد وان تحول من دونها مصاعب ربما أدت إلى إراقة الدماء. فإن الأوهام الراسخة في العقل بواسطة النقل مدة قرون تكون كالحقائق الراهنة لا تحتمل تأويلاً ولا تدع للجدال سبيلاً ولا سيما أن أفراد الأمم لا يتساوون جميعاً في سيرهم المعنوي فلا نرى في كل جيل وفي كل عصر غير أفراد قليلين سابقين قومهم بكثير من السنين. فعدد الجاهلين هو العدد الكثير فهو القوي من هذه الحيثية والقوة تغلب الحق في مثل هذه الأحوال ولكن غلبتها حالية وقتية وأما في المستقبل فيتأيد هذا الحق وتجني الأواخر ثمرة اجتهاد الأوائل الذين كثيراً ما لا يحصدون ما يزرعون.

* * *

والغريب أن الناس لا يصبرون على بيان الحقيقة بالأدلة والبراهين إذا كانت مخالفة لآرائهم مغايرة لأهوائهم بل ينقضونها بالقوة وهذا مخالف للعقل غير موافق للنقل فقد عُلِم أن كثيراً من هذه الحقائق التي حاولوا اطفاء نورها تأيَّدت وعمَّت أخيراً فلا ينبغي للانسان العاقل أن ينبذ حقيقة لقلة نصرائها وكثرة أعدائها فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. فكم من حقيقة ضاعت لكثرة الجَلَبة ثم كانت لها الغَلَبة بقوّة الحق.

ولا شك أن الأمة التي تتخذ القوة القاهرة سلاحاً في نقض المبادىء المخالفة لمألوفها بعيدة عن أسباب التقدم ووسائل التمدن حتى تقطع السلاسل وتمزق الحجب الحائلة بينها وبين حرية البحث التي تطلق للعقل عنان الفكر فتزيد معرفة بالأسباب والحقائق إذ يشتغل بكل ما يعرض له فيتمسك بما تؤيده الشواهد وهكذا يستخدم أفكاره لفهم الحوادث عوضاً عن أن يستخدم الحوادث لتأييد أفكاره حرصاً عليها.
وأغرب منه أن المصائب التي تحل بأولئك الأفراد الذين ساء بختهم لوجودهم قبل أوانهم والتي مصدرها البشر تعتبر قصاصاً عادلاً عند من يعتقد أن الجزاء يكون على قدر الاستحقاق صادراً عن قوة سرية تراقب أعمال الانسان فيقول هذا جزاء الضالين وهو أشد فساداً من أن يبرهن على فساده. فلو تجاسر أحد في زمن جاهلية اليونان على أن يكفر بجوبيتر أبي الآلهة أنها كان يتساقط عليه غضب جوبيتر متجسداً بأيدي الكهنة والشعب فهل يجب والحالة هذه مع معرفتنا فساد تلك الشريعة أن نعتبر أن ذلك القصاص كان عدلاً. كلاّ.

* * *

ولذلك لا يليق بنا أن نتمسك بما كان في الأعصر الخالية من الأوهام تمسُّك الأعمى بقائده ولا أن نطرح ما تبديه لنا الاكتشافات والحوادث من الحقائق لمجرد كونه مخالفاً لما انطبع في عقولنا ورسخ في أذهاننا كما أنه لا يجب أن نعتبر القصاص الذي يقع على بعض الأفراد لمناقضتهم بعض المبادىء العامة مفعول قوة ساهرة تعدل كل شيء على قدر الاستحقاق بل يجب علينا أن نحارب الأوهام ونبددها بقوة الحقيقة لكيلا يقوى أمرها فنعدم اسباب التقدم. فإن الانسان إذا تمكّن الوهم منه سقطت قواه وفقد أسباب العمل إذ يستولي الخوف على طباعه والرعب على حواسه تستلفته حوادث الكون فيتهيبها عوضاً عن أن يبحث فيها ويستفيد منها ولا تهمه شمس تسطع أو قمر يلمع أو ريح تهب أو نار تشب وإذا نظر إلى السماء كفّ عنها الطرف خشيةً واحتراماً لأنه لا يرى كواكبها إلاّ آلهة ولا يحسب صواعقها إلاّ عذاباً وإذا نظر إلى الأرض قال أمي ارحميني ولا تحبسي عني قوتاً يغذيني وماء يرويني ولا يتجاسر أن يقطع منها سنبلة قمح أو يتناول قبضة أرز إلاّ بعد الاستغفار والتكفير إذ يرى في كل شيء آلهة قاهرة وأرواحاً ساحرة فيستدعي في حركاته وسكناته أرواح الأشجار وقوات الجبال ونفوس الكواكب وما يستدعي إلاّ خيالات وأوهاماً لا تجلب له خيراً ولا تدفع عنه ضيراً ولا يستفيد منها إلاّ توسيع نطاق الأوهام في دائرة عقله حتى تتبلّد قواه وتكلّ مشاعره ولا يعود يعتبر للعمل في الأرض قيمة ولا للبحث في الكائنات فائدة ولا في التعاون مزية فيكسل وتصير حياته كحياة الحيوان منفردة ذاتية منفرزة عن الهيئة الاجتماعية ولا يهمه إلاّ الحصول على ما يقيه من الموت برداً وجوعاً إذ يعتقد أن كل شيء قسمة فلا يجديه الاجتهاد فيه نفعاً فيسكن الأكواخ ويلبس المسوح ويأكل القشور وهي قسمة ليست من الانسانية في شيء.

فالأمة التي تتخذ هذه المبادىء شعارها لا تلبث أن ترى نفسها متقهقرة كلما خطا العالم نحو التقدم خطوة تأخرت عنه خطوات حتى تصبح أخيراً لا علوم لها ولا شرائع ولا صنائع مفتقرة إلى غيرها من الأمم المتمدنة افتقار الصلة للموصول ولا تحسن نسج ثوب ولا غزل خيط ولا صنع ابرة بل تكون كالعلق على بدن الانسانية تكدر راحتها وتمتص دمها.

* * *

ان في الانسان صفة اوليّة ضرورية جداً لحفظه وهي مصدر كثير من الصفات الأخر الموجودة فيه. وهذه الصفة هي محبة الذات التي تدفع كل فرد من أفراد الانسان لاستحصال كل ما هو موافق او يظهر له انه كذلك واجتناب ما هو مضر. ولا يقتصر وجودها على الانسان فقط بل هي موجودة في الحيوان ايضاً بدليل ان الحيوان يعمل دائماً بقصد المحافظة على كونه والمحاماة عن ذاته حتى في اعماله البديهية التي لا محل فيها للنظر او الكسب. وهي صفة بديهية ومما يدلنا على كونها كذلك الاعمال البديهية التي يجريها الانسان بدون توسط الارادة فيها اذ تحمله على ان يدافع عن نفسه بما يقيه من الضرر عند المفاجأة وقبل ان تحصل فرصة للارادة لأن تتوسط في ذلك كأنطباق الاجفان على العينين اذا فاجأتهما ضربة او آفة أخرى وتقاعس الانسان إلى الوراء اذا عثر الى الامام او مدّ يديه لاستلقاء الارض بهما ليدفع هكذا بضرر اصغر ضرراً اكبر ربما يحصل لو صادف السقوط على الاعضاء المهمة كالراس وغيره. الاّ انها وان كانت بديهية فللارادة عليها سلطانٌ كبير فتتصرف فيها ولكن بحسب ما يتراءى لها موافقاً اي لا تقدر الارادة ان تفعل الاّ للغاية التي تفترضها لها محبة الذات ولو مهما اختلفت القوى العقلية وفسدت احكام الارادة. وان وافقت محبة الذات الارادة احياناً فيما يعدمهما الوجود كقتل الذات فلا يكون ذلك الاّ لغاية ذاتية ايضاً اما بقصد التخلص من مصيبة ثقل حملها على الحياة أو طمعاً في تحصيل حياة أخرى جديدة ترجوها. وهذه الصفة واجبة ضرورية اذ انه يتوقف عليها جميع الفوائد المادية اللازمة لحياة الفرد الحسية ويتولد عنها جميع الصفات الادبية الرفيعة ايضاً التي تتوقف عليها حياة الفرد المعنوية واذا أدّت احياناً الى ما يخالف ذلك فلتصرف الاميال والارادة غير المرتبة فيها. وبحسب ذلك تكون الصفات المتولدة منها اما جيدة واما ردية.

***

واعلم ان الجيّد والرديء لا يوجدان مجردين في الوجود الكلي بل هما هكذا نسبيان بالنظر الى ظروف الزمان والمكان بحيث ان ما لا يوافق هذا يوافق ذلك وبالعكس فلا يتأتى لنا والحالة هذه ان ننفي عن شيء صفة الموافقة والملاءمة نفياً مطلقاً اذ انها لم تتجرد عنه الاّ بالنظر الى حالة من الحالات او موجود من الموجودات مع موافقته حالات اخرى وموجودات اخرى كما انه لا يصح ان نلزمه صفة الموافقة اذ انها لا تصح له في كل الظروف والاحوال.

ولما كانت محبة الذات من ضمن الصفات الغريزية والاحساسات الطبيعية التي تتأثر بالمؤثرات وتتغير بالمغيرات كانت لا تثبت على حال ولئن كانت غايتها ابداً ذاتية الاّ انها لا تسلك دائماً الطريقة المؤدية الى هذه الغاية لا نقيادها لاحكام الارادة وما تظنه موصلاً الى شيء يؤدي بها احياناً كثيرة الى آخر لجهلها بالوسائط. وهذا هو السبب في قول بعضهم ان الانسان يفعل مندفعاً من غير علم منه الى غاية غير الغاية التي يقصدها

بقوة تتصرف فيه مقيمين الواسطة مقام السبب وهو منقوض. لان هذه القوة سواءٌ كانت على قول بعضهم منفصلة عنه او على قول غيرهم متصلة به إما ان تكون غير ارادته أو تكون هي نفس ارادته. فإن كان الاوَّل حصل العبث اذ لا يكون للارادة البينة احكامها والظاهرة اعمالها فائدةٌ في الجسم الذي تظهر فيه او تكون وظيفتها ان توهمه السير الى غاية الغاية المفروضة له وبعبارة أخرى ان تخدعه وكلاهما غير سديد. وان كان الثاني كان لا حاجة الى اقامة قوة اخرى بجنب الارادة طالما هي الارادة نفسها. فاذا صدقت الحواس في نقلها التأثيرات الى العقل وصدق في احكامه واعتدلَت الارادة في شهواتها تولد عن هذه الصفة الاولية الغريزية كثير من الصفات الفرعية الرفيعة كالكرم والشرف والشهامة والمروءة والصدق والعدل وحب الالفة والتعاون وغير ذلك من الصفات الحسنة التي تسبب بها راحة الانسان وسعادته منفرداً ومجتمعاً وبخلاف ذلك اذا انخدعت الحواس في نقلها وكذب العقل في حكمه وضلت الارادة في شهواتها فيتولد عنها الدناءة والكبرياء والجبن والكذب والظلم ورياء المحكوم واستبداد الحاكم والانفراد وغير ذلك من الصفات السافلة التي ترجع على الفرد بالويل وعلى الاجتماع الانساني بالخراب.

***

انظر الى الكبرياء والشرف فهما صفتان متولدتان عن محبة الذات اولاهما ذميمة متولدة عن اتحاد محبة الذات بالجهل والثانية حميدة متولدة عن اتحاد محبة الذات بالعلم. فالكبرياء تحمل صاحبها على احترام نفسه باحتقار غيره والشرف يحمله على احترام نفسه باحترام غيره فالغاية واحدة في كلا الامرين وهي احترام الذات الاّ ان طريقة الحصول على ذلك مختلفة. وهذا الاختلاف ناتج عن اختلاف العلم بالاسباب والوسائط كما تقدم فلو علم صاحب الكبرياء ان السبيل الذي يسلكه في احترام نفسه وتعظيمها هو السبيل المحقِّر لها لعدل عنه الى ما هو احسن منه لان محبة الذات لا تستطيع ان تصير عالمة على ان تسلك السبيل الذي يؤدي بها الى ما لا يسرها كما ان صاحب الاستبداد لو علم ان استبداده لا يأتي عليه بما تتمناه محبة ذاته لما صبر عليه دقيقة واحدة كما ان صاحب الرياء ايضاً لو علم انه يوجد له سبيل آخر غير ريائه لاستحصال رضى سيده المستبد آمناً على نفسه من غدره لعدل عنه الى الصداقة وخلوص النية واستعمال الحرية في تأدية خدمته. لذلك كان سلطان الرياء قوياً جداً حيثما قوي الاستبداد والقوم الذين يستولي عليهم الرياء هم قوم لا يصدقون ولا يصدِّقون. فالرياء والمؤالسة والتدليس وما شاكل هي سلاح من يرغب في ان يكون مقرباً من الاستبداد متمتعاً بما يمكن تحصيله من خيرات الظلم. ومن لم يتدرَّع بهذه الصفات بل لبث مصرًّا على الصدق وخلوص النية واستعمال الحرية ليس له ان يطمع بالتقرب من المستبدين بل عليه ان يبتعد عنهم ما امكن قبل ان يبعدوه من بينهم لان صفاته هذه لا تحسن في عينيهم ولا ترجع عليه الاّ بالوبال.

***

والانسان الذي لم تهذبه التجارب ولم توسع دائرة عقله العلوم الصحيحة فلا يرى الّا ما كان قريب الغاية تقتصر محبة الذات فيه عليه ولا تتجاوزه لانه يحسب ان سعادته قائمة باسباب لا تتعداه ولا يمكن ان تتأتى له مع سعادة سواه بل بخلاف ذلك قد يظن ان سعادة غيره تعود عليه بالشقاء فيسعى في تحصيل سعادته بمضادة سعادة غيره. وهذا ناتج من جهله الاسباب والوسائط التي تمكنه من الحصول على هذه السعادة المطلوبة منه فاذا زاد اختباره وكثرت معارفه واتسعت دائرة احكامه رأى ان في الانضمام والتعاون واشتراك المصالح مزايا اخرى تفيده ولا توجد له منفرداً فينتقل من محبة الذات الفردية الى المحبة العائلية فصاعداً من النوع والجنس اذ يرى والحالة هذه في سعادة عائلته بل وطنه بل نوعه ما يعود عليه باعظم سعادة لا تتأتى له من دون ذلك. فالامر متوقف اذاً على العلم بالاسباب والوسائط لان الانسان كيفما فعل انما يفعل دائماً بقصد الوصول الى غاية واحدة وهي سعادته فاذا تصور انه يستطيع الحصول على سعادته منفرداً دعته محبة ذاته الى اتباع السبيل الذي يرسمه له علمه واذا علم ان سعادته لا تحصل له منفراً بل يحتاج فيها الى التعاون مال اليه كما يظهر من المقابلة بين تصرفات الانسان في حالتي الخشونة والتمدن.

* [المقتطف، جزء ٩ و١٠، السنة السادسة، شباط - آذار (١٨٨٢)، ص ٢٣٠ - ٣٣٢ وص ٥٢٦ - ٥٢٨].

د. شميّل يتذكّر....

لقاء برلين مع زملاء عثمانيين: ١٨٩١

«في شتاء العام ١٨٩١، حينما أعلن روبرت كوخ وسط التهليل والتطبيل عن اكتشافه لعلاج السلّ الرئوي (علاج كوخ) قادني فضولي الطبّي والعلمي إلى برلين. فكان سروري عظيماً إذ اجتمعت في احدى الأمسيات في «مقهى السلام» Café de la Paix إلى ستة أو سبعة من الزملاء الأتراك القادمين من اسطمبول (الاستانة) موفدين إلى عاصمة المانيا في بعثة علميّة بقصد الإطّلاع ومتابعة أعمال المؤتمر الطبّي. كانوا من المتعلّمين والمثقفين وتميّزوا بالود الجمّ».

لكن شبلي شميّل لم يتوان لحظة واحد في الإعراب عن سخطه على النظام الحميدي وكرهه لحكومة السلطان عبد الحميد خان. فخرج أحد الأطباء الأتراك الموفدين إلى المؤتمر مع شميّل ودعاه لتناول طعام العشاء سويّة.

وانفجر شميّل ضاحكاً في معرض ردّه على اقتراح زميله التركي بأن يبقى في اوروبا ويؤسس صحيفة ينفق عليها السلطان عبد الحميد وتبث الدعاية لنظامه.

وبعد ان رفض شميّل اقتراح الزميل التركي، تركه هذا الأخير. وذهب كلّ منهما في سبيله لتناول طعام العشاء بمفرده.

حجر الفلاسفة: في أعماق البوسفور

ويعلّق الدكتور شبلي شميّل عام ١٩١٣ على تلك الحادثة في رسالته المنشورة بالفرنسيّة (١٩١٣) تحت عنوان «مساوىء السيطرة التركية ومسؤولية أوروبا» (رسالة العرب والأتراك) بقوله:

«وفيما يتعلّق بي، لا استطيع القول ما إذا كنت قد تصرّفت على نحو حسن أو اسأت التصرّف في رفضي لذلك الإقتراح... وامتناعي عن أخذ تذكرة سفر على ظهر السفينة «تشالنجر» Challenger [نسبة إلى سفينة الأسطول البريطاني التي جابت البحار المحيطات لدراسة الحياة البحرية واشكالها في أعماق المحيطات، منذ ١٨٨٣] للقيام برحلة اكتشاف لجراثيم الحياة الأصليّة والأولية «مونيرة» monère أو Protobathibius ارنست هكل في قاع البوسفور!».

ويتابع شميّل تهكّمه قائلاً:

«ولكن من المؤكد، ويا له من اكتشاف ساحر وجذّاب، كنت سأضع يدي على حجر الفلاسفة (يحوّل المعادن إلى ذهب!) الذي يعكف السيميائيون والكيميائيون عندنا على البحث عنه، إنما عبثاً ودون طائل».

رحلة الفضول العلمي الى برلين
للاطلاع على علاج كوخ ١٨٩٠ - ١٨٩١

أنشأ الشيخ يوسف الخازن مجلة **الخزانة** في ١ تموز (يوليو) ١٩٠٠، في القاهرة، ونشر في عددها الأول «مقالة مسهبة في ترجمة صاحب الدولة رياض باشا مأخوذ أكثرها عن الكتاب الأوروبيين». وتتابع مجلة **المقتطف** [ج ٢٥ (١٩٠٠) ص ١٧٧] تقريظها لمجلة الخزانة على النحو الآتي:

«وقد نوّه الكاتب بفضل الوزير على المقتطف وهو فضلٌ نعترف له به أبد الدهر. وأشار أيضاً إلى انقلاب بعض الجرائد السياسية عليه لكنه لم يفصّل ولم ينصف لأن رياض باشا اتبع سياسة ثم تركها واتّبع ضدّها، كما فعل بيكنسفيلد (دزرائيلي) وغلادستون وغيرهما. فالجريدة التي تبعته في سياسته الأولى غير مضطرّة ان تتبعه في سياسته الثانية بل تُلام إذا غيّرت سياستها اكراماً له. وهي ترى ان سياسته الثانية مضرّة بالبلاد. وهذا شأن المقطم في مدح السياسة التي جرى عليها في وزارته الثالثة. أما شخصه فقد كان ولا يزال مكرّماً معظماً عندنا. وهذا نجاهر به كلّما لاحت لنا فرصة ونعترف بفضله على المقتطف والمقطم أيضاً».

وفي حديثه عن مجلة **الشفاء** التي أنشأها الدكتور شبلي شميّل في القاهرة عام ١٨٨٦، يشير طرازي في **تاريخ الصحافة العربية** (ج ٣، ص ٧٩) إلى رعاية رياض باشا للشفاء وصاحبها ونقلاً عن مجلة **الخزانة** (العدد الأول، تموز ١٩٠٠، ص ٢٦) بالفقرة التالية:

«وما حُرمت هذه المجلة من مساعدة رياض باشا وعنايته. فإن صاحبها (الدكتور شميّل) قبل سفره إلى أوروبا (الرحلة الثالثة) لدراسة آراء كوخ في السلّ دخل على هذا الوزير مودعاً. فلما سأله عن موعد سفره قال له: «قابل حمدي باشا قبل السفر. لأمر يطلعك عليه». فذهب الدكتور شميّل إلى حمدي باشا الذي سلّم إليه صرّة وقال: إن الوزير يهدي إليك هذا القليل لتنفقه في سبيل مباحثك الجليلة».

ومما تجدر الاشارة إليه في هذا الاطار بالذات ان الدكتور شميّل أهدى رسالته في الهواء الأصفر والوقاية منه (١٨٩٠) إلى صاحب الدولة رياض باشا، وزير مصر المعظّم. كما عقد في مذكراته المنشورة في الصفحات التالية فصلاً عن علاقته ومعرفته برياض باشا.

الدكتور شبلي شميّل

الرحلة الثالثة إلى أوروبا

مراسلات الشفاء

(لصاحب الجريدة)

فيَنّا في ١٧ دسمبر سنة ١٨٩٠

علاج كوخ ورحلة شميّل

لا يخفى على حضرات القراء الكرام ان البروفسور كوخ العالم البكتريولوجي والطبيب الصحيّ الالماني الشهير قال في مؤتمر برلين الذي انعقد في الرابع من شهر اغسطوس الماضي والذي اجتمع فيه اكثر من ستة آلاف طبيب من سائر اقطار المسكونة قولاً انتعشت به الآمال ووقفت عنده الافكار. ـ قال ان امله باكتشاف دواء ضد السلّ وسائر العلل التدرُّنية عظيم وانه اكتشف مادةً تمكن بها من وقاية الحيوان المعروف بخنزير الهند من هذا الداء إذا لقحّ بها قبل التلقيح به ومن شفائه منه اذا كان مصاباً به. ولم يزد الاستاذ على هذا القول شيئاً. ولكنّ اعتقاد العلماء بفضله العظيم وعمله الواسع واقتداره على البحث الدقيق جعلهم في دهشة ينتظرون نتيجة بحثه في البشر غير مصدقين لما يعلمونه من صعوبة هذا الداء في اشكاله العديدة وصوره المختلفة او مكذبين لما يعتقدونه في الرجل من رفعة المكانة وعلوّ الشمان في العلم والفضل كما عوّدهم من يوم اكتشف باشلس السلّ سنة ١٨٨٢ وباشلّس الهواء الاصفر في سنة ١٨٨٣ في الوباء الذي فشا في مصر وكان اكتشافه لهذا الاخير في الاسكندرية اولاً. ـ وبقي العلماءُ والاطباءُ من ذلك الحين يهمسون في هذا الامر همساً ويرمزون اليه رمزاً لا يبدون حكماً معه خوفاً من ان يرموا بالتهافت قبل التدقيق ولا عليه لئلا يرموا بالمكابرة قبل التحقيق ولكنَّ وقوف الافكار عند هذا الامر دون ترجيح جعلها في حالة استعدادٍ للاندفاع مع اوّل تيّار سابق او بالاحرى كانت الافكار في هذا المركز مع بعض ترجيح تصديقيّ ولم يمضِ على هذه الحال ثلاثة أشهر غير كاملة حتى فاجأنا البرق بنبإ اضطربت له أعصاب المسكونة الا وهو ان كوخ اكتشف دواء السلّ في البشر ثم ما اخذت الانباءُ تتوالى واذاعت ان اكتشافه لا يقتصر على شفاءِ السلّ فقط بل يتناول شفاءَ الدفثيريا والتتنوس والجذام بل شفاء سائر الامراض المكروبية فاندهش الناس لعظم هذا النباءِ وقامت قيامتهم كأنهم اخذتهم حمى ونسيت الجرائد السياسية دعوتها والتهت عن سياستها وتركت كبريفي وكرسبي وشأنهما في مواربتها السياسية وارتاح رجال السياسة القابضون على زمام الامور من انتقادها وتنديدها وتعنيفها واستاء المترشحون لهذه المناصب الطامعون بها من اجتماعاتهم وانصبت بكل قوتها على اذاعة الاخبار عن كوخ ولمفاهُ

* مجلّة الشفاء، الجزء ١٢، السنة الرابعة، اول يناير (كانون الثاني)، ١٨٩١، ص ٤٢٥ - ٤٣٢، ٤٥٧ - ٤٦٤. والجزء الأول، السنة الخامسة، اول شباط (فبراير) ١٨٩١، ص ١ - ١٨

وانست به مجد بسمارك ابان صولته واحتاط به مكاتبوها يتوقع هذا منه نظرةً يذكرها او كلمةً تسقط من فمه ينشرها والسابق منهم الجواد حتى استاءَت الجرائد العلمية والطبيَّة من تعديها وقامت تندد بها بعضها لاستيائها من مزاحمتها والبعض الاخر وهو العدد القليل لخوفها من مبالغتها لعلمها ان المبالغة تجلب ردّ فعل يقصر عن الاعتدال وقد تصرف الناس عن منفعة حقيقية وقد تصرفهم عنها الى اجلٍ بعيد كما ان زيادة الاطراءِ توقع في المذمة. وعظم امل المرضى فقصد قوم منهم برلين ولم يهابوا بردها والذين تربصوا حذر البرد جعلوا يكتبون ويطلبون الدواءَ مستسهلين كل صعب باذلين الدرهم بسخاءٍ ومحركين العواطف بكلام يفتت الاكباد ويلين له الجماد حتى اصبحت اللمفا وجهة كل فكر ومحط امل كل مريض وتوقع الناس كل نفع منها كانها اكسير الحياة عند الاقدمين او الحجر الفلسفي عند قدماء الكيماويين او بروتو بلاسما الفلاسفة الطبيعيين او هي «مونير» هكل عند بخنر وغلاة الماديين واندفع في هذا التيار جمهور غير قليل من العلماءِ والاطباءِ واما المعتدلون فتربصوا ينتظرون النتجية. ومنهم من لم يقفوا عند هذا الحد بل اخذوا يجرّبونها بحذر وبعضهم قصدوا برلين ليعاينوا بانفسهم كيفية العمل ونتيجته لعلهم يستفيدون امراً ذا شان لعلمهم ان الخبر ليس كالعيان. ولم تقف الحكومات هذه المرة عن الاندفاع مع هذا التيار الجارف خلافاً لعادتها بل سمَّت معتمدين وصحبتهم بكتب رسمية يتقدمون بها الى كوخ كما تفعل في مخاطباتها الدولية وقد سمَّت حكومتنا المصرية الدكتور شيس معتمداً من قبلها وقد بعثت القاطنة اليونانية في الاسكندرية طبيباً من قبل مستشفاها وسافر طبيب آخر من الاطباءِ اليونانيين القاطنين في الاسكندرية على نفقته. وقد اذنت الحكومة المصرية الخديوية الى الدكتور محمود افندي طاهر حكيمباشي اسبتالية بني سويف بالسفر ايضاً لهذه الغاية وسيكون هنا عن قريب.

من برنديزي إلى ڤيينا

ولما كنت من الذين رغبوا عند انتشار خبر اكتشاف كوخ للسفر ايضاً صممت النية على ذلك يوم الاحد في اول هذا الشهر وفي الثامن منه تركت القاهرة وفي يوم الثلاثاءِ صباحاً الواقع في ٩ منه ركبت الباخرة المدعوة «اوترب» من شركة اللويد النمساوي فابحرت بنا الساعة التاسعة صباحاً وكان عدد الركاب فيها ٣١ راكباً اكثرهم من الانكليز والاميركان العائدين من سياحتهم في الاقطار السورية والمصرية. ولما خرجنا من الاسكندرية اشتد علينا النوء جدًّا حتى لم يبقَ بيننا سليم لشدة ما ألم بنا من الدوار ولازمنا غرفنا مدة ٧٢ ساعة حتى اقبلنا على فرضة برندزي وهي فرضة مهمة بالنظر الى حركة البريد وانتقال المسافرين ولكنها مدينة حقيرة من مدن ايطاليا بالنظر الى اتساعها والى ابنيتها. فخرجنا من غرفنا وكان الدوار بنا قد خف جدًّا اولاً لسكون البحر نوعاً وثانياً لاعتيادنا حركة المركب على نوع ما بعد سفر ثلاثة ايام. وهنا اقول ان من الاراءِ الكثيرة المختلفة فيما يتعلق بسبب الدوار رأياً اظنه الصواب فاني اذكر ان بعضهم نسب دوار البحر منذ عهد قريب الى عدم اعتياد الجهاز العضلي حركات المركب وتاثيره بسبب ذلك في جهاز الدورة المحيطية وعدم انتظار توزيع الدم بالسواءِ وتجمعه في الجهات المحيطية السفلى واحداث اينيميا دماغية ومن ثم الدوار ويظهر لي ان هذا التعليل هو الاصحُّ ولذلك

كانت جميع الادوية والعقاقير الموصوفة ضد هذه العلة المزعجة لا تجدي ادنى نفع وكان الدواءُ الوحيد الاستلقاءَ في السرير والتقلب فيه على عذاب الدوار مدة الايام الاولى من السفر حتى يكون الجهاز العضلي قد تعوَّد حركات المركب وتمكن من التغلب عليها او التقلب معها ولذلك كان اكثر الذين يعرض لهم الدوار اذا طال سفرهم اياماً يشفون منه ولذلك ايضاً كان لا يعرض للنوتية المتعودين الاسفار ولو مهما اشتد النؤُ واضطربت حركات المركب الا في ما ندر جدًّا.

ومن الذين تعرفت بهم في المركب عند شفائنا من الدوار طبيب يوناني له في مصر نحو عشرين يوماً فقط وهو مسافر ايضاً الى برلين على نفقته الخاصة لنفس الغاية التي انا مسافر لها واسمه الدكتور روشياس.

وقمنا من برندزي عند ظهر يوم الجمعة بعد ان رسونا في مينائها نحو ساعتين قاصدين تريسته فاقبلنا عليها ثاني يوم السبت الساعة الخامسة ونصف بعد الظهر بعد سفر ثلاثين ساعة امطرتنا السماءُ فيها رَداً وثلجاً واشتد النوءُ علينا ولكن من دون ان يعذبنا الدوار كالعادة بل في الساعات الاخيرة كنا اصحا للغاية وهذا مما يؤيد المذهب المتقدم ذكره في ما خصَّ الدوار. ولما اقبلنا على مينا تريسته فرضة بلاد النمسا لم يستطع المركب ان يدخلها وكان الوقت ليلاً لوجود ريح شمالية شديدة جداً فرسونا خارج المينا وكنا وطنَّا النفس على القيام في المركب تلك الليلة لولا ورود فابور صغير من فابورات الشركة علينا فنزلنا به ووصلنا الى المدينة الساعة ٧ ونصف بعد الظهر ولم اشأ ان ابيت تلك الليلة في تريسته خلافاً لرفيقي المذكور اليوناني الذي بقي فيها لمقابلة بعض الناس هناك فودعته على امل الاجتماع به في برلين وسرت مع رفيق الماني تعرفت به بالفابور وكان لي عوناً كبيراً في الطريق وسافرنا من تريسته بالسكة الحديدية الساعة الثانية مساءً قاصدين ڤينا عاصمة النمسا فوصلناها ثاني يوم الاحد الساعة العاشرة صباحاً على الحساب الافرنكي والطريق بين تريسته وڤينا جميلة جداً خصوصاً في الصيف وقد اخترنا ان نسافر ليلاً ونعدم مشاهدة قسم عظيم من جمال هذه الطريق لكي نتمكن من مشاهدة الجبال المعروفة عندهم «بالسمر ينك» عند الفجر فان السكة الحديدية تسير في هذا المكان صعداً ملتفة على شكل لولب وكانت الاودية والجبال مغطاة كلها بالثلج مما جعل منظرها عندي جميلاً جداً في الشتاءِ ايضاً.

ويوم الاحد لم اتمكن من مقابلة احد في ڤينا.

ويوم الاثنين قابلت المسيو اوطو فوكس احد محرري «جريدة الشعب النمساوي» السياسية وكان معي له كتاب توصية من احد صحبه في مصر فرحب بي كثيراً واعانني في امورٍ كثيرة ورافقني بنفسه الى المستشفيات وعرفني باطباء كثيرين وببعض ارباب الصحف الطبية. والموسيو فوكس المذكور قطن بمصر مدة طويلة قبل دخوله في ادارة تحرير الجريدة المذكورة ولذلك اتخذ له اسماً كاذباً عربياً ينشر تحته المقالات التي يكتبها كما هي العادة كثيراً في اوربا بين الكتاب ومن الغريب انه اتخذ اسم «**ثعلب**» ولعله اراد به المطابقة بين الاسم العربي والاسم الافرنجي.

وڤينًا مدينة جميلة جداً مناسبة للغاية متسعة الشوارع كثيرة الابنية العظيمة متقنة البناءِ

وكانت مدرستها الطبية في السابق متقدمة على سائر مدارس اوربا حتى فازت عليها بالشهرة مدرسة المانيا في السنين الاخيرة ومدرسة الطب كائنة في بناء متسع جميل للغاية محتو على مدارس كثيرة اخرى تعلم فيها سائر العلوم العالية وقد زرت المدرسة المذكورة وهي في بنائها اجمل جداً واعظم من مدرسة باريس الطبيَّة والسبب ان مدرسة باريس الطبية بناءٌ قائمٌ بنفسه بخلاف مدرسة ڤينا كما تقدم.

ومن المستشفيات التي زرتها مستشفى ڤينا العمومي وهو مستشفى عظيم جداً ممتد على مساحة متسعة في وسط المدينة يسع نحو الف وخمسمائة مريض ويشتغل فيه اشهر الاطباءِ والجراحين والعلماءِ الهستولوجيين والبكتريولوجيين وغيرهم. وغرف المرضى متقنة جداً غير ان الاماكن التي تعمل فيها العمليات الجراحية امام التلامذة ضيقة لا تزال كما كانت من عهد بعيد وقد صادق على هذه الشكوى الجراح الشهير البرت وقد تعرفت به وهو يلقي درساً كلينيكيّاً في المستشفى المذكور على مريضٍ مصاب بفتقٍ يريد ان يجرّب فيه طريقة جديدة لشفاءِ الفتق ايطاليانية اسمها طريقة «بنشيني» من اسم مبتدعها - ولما فرغ من شرح العملية رايته عوضاً من ان يتقدم الى المريض ويجري العمل بنفسه قد تنحى الى جانب واحاط بالمريض نحو ثمانية من الجراحين بين مبنج ومساعد وكلهم شبان ما خطهم الشيب وتقدم واحد منهم واخذ يجري العمل بنفسه. وقد ادرك الجراح المذكور وهو رجل في حدود الخمسين يتكلم اللغة الفرنساوية جيداً تسآؤلي في نفسي لماذا لا يجري العمل هو نفسه ولا سيما ان الطريقة جديدة ولم يسبق له ولا لمساعديه عملها من قبل فبادرني على الفور قبل ان اساله بقوله ان في بلادنا نظاماً غير موجود في البلاد الاخرى وهو انه توجد جميعة تسمى جميعة الجراحين من مقتضاها ان الجراحين بعد ان يتمُّوا دروسهم القانونية ويخرجوا من المدرسة والمستشفيات يحق لهم ان ينتظم منهم حول كل جراح من اساتذة الجراحة من عشرة الى خمسة عشر جراحاً من الشبان وان يجروا العمليات الجراحية امام الطلبة وتحت مناظرة الجراح الاستاذ وهذا الاخير ملزوم بان يسلم لهم بحسب ما يعهده من مهارتهم سامحاً لهم بالعمليات الصغرى أولاً ثم بالعمليات الكبرى» وبالحقيقة ان هذا النظام حميد جداً ويسهل وجود جراحين ماهرين كثيرين في البلاد ويتيسر لاصحاب الاستعداد ممن لم يستطيعوا الانتظام القانوني في الخدمة في المستشفيات التقدم في ما هم مستعدون له بالتمرُّن على العمل. وقد سالت الاستاذ البرت المذكور عن رايه او خبرته في دواءِ كوخ فقال انه لم يجرّبه وللحكم به يلزم الانتظار ايضاً زماناً طويلاً. ثم قابلت في المستشفى المعروف بالبوليكلينيك البروفسور هبرا طبيب الامراض الجلدية والزهرية وهو ابن البروفسور هبرا الشهير في امراض الجلد وسالته عما يعلمه من علاج كوخ فاجابني انه جرَّبه حتى الآن في خمسة مرضى مصابين باللوبس ولكنه لا يستطيع حتى الان ان يبدي حكماً فيه وقد اراني مريضين احدهما رجل به لوبس ضخامي غير متقرّح في ظهر اليدين والاصابع ممتد في اليد اليمنى اكثر من اليسرى فحقنه اولاً بثلاثة مليغرامات فعرض لهُ رد فعل شديد بلغت الحمى معه ٤٠° وطفح سكرْ لاتين على الجزع والاطراف وانحطاط في القوى شديد وظهرت بثور متقرحة على جلد المريض دامت اياماً ثم شفيت. وبعد اسبوع حقنه بخمسة مليغرامات فحصل له مثل ما حصل في المرة الاولى

ولكن الحمى ارتفعت الى ٤١° ولما رايته كان قد حقنه قبل ذلك بيومين بخمسة مليغرامات ايضاً ولكن رد الفعل هذه المرة كان قليلاً جداً قال واما من جهة اللوبس نفسه فلم أرَ فيه تغيراً يذكر ولعل ملمس الخد انعم وانما هذه النتيجة يمكن الحصول عليها ايضاً بالوسائط الاخرى المعروفة. والمريض الثاني امرأة بها لوبس في الانف والاخد الايمن وكانت تتاثر جداً من الحقن وحتى الان لا يرى تغيراً في علتها. ثم اردف كلامه بانه لا بد من الانتظار ايضاً زماناً طويلاً وانه ينبغي الحذر في استعمال هذا الدواءِ فقد عرض عنه عوارض محزنة. ومثل ذلك حكم البروفسور بلروث الجراح الشهير وهو اليوم في حدود الستين وقد رايته يعمل عملية فتح البطن بورم رحمي عظيم. فانه التزم في المدة الاخيرة ان يتوقف عن الاستمرار على حقن اللمفا الكوخيه لعوارض شديدة خاف منها على المرضى ولكنه قال ايضاً قولاً معقولاً جدّاً - ان كلواني لما اكتشف الكهربائية الكلوانية من كان يظن ان الاختراعات بها ستبلغ مبلغها من الاتقان اليوم فدواء كوخ وان لم يعط اليوم كل ما كان ينتظر منه الا انه خطوة عظيمة جدّاً في سبيل النجاح. والظاهر ان هذا القول هو اليوم عام ليس في ڤينا وحدها بل في عموم اوربا حتى اطباءُ فرنسا انفسهم ككوزيل وبيان ولا يخفى ان الاول من مشاهير الاطباءِ وعلماء البكتريولوجيا الموثوق بقولهم. وبيان هو من مشاهير جراحي فرنسا وقد نقل اليكم البرق منذ مدة خبر نجاحه في اللوبس قال «لا يسعنا في الحاضر ان نبدي حكماً في ما خص العلاج ولكن نقول انه لا يجوز تعليق الامل به كما انه لا يجوز الاعراض عنه والوفيات التي حصلت به لا تحط من قيمته كما ان التحسن الذي ذكر عنه لا يثبت له هذه القيمة الى ان قال - ولماذا لا يحصل رد الفعل دائماً فهذا يطلب الجواب عليه بحثاً طويلاً دقيقاً في جميع الحوادث والمشاهدات». ولا يخفى انهم في اول الامر قالوا ان الدواءَ ان لم يفد شفاءِ السل فائدة عظيمة الا انه علامة تشخيصية عظيمة جدّاً برد الفعل الذي يحدثه في المريض وعدمه في الصحيح والظاهر من التجارب اليوم ان هذه العلامة ايضاً غير صادقة وان كانت غالبة في المرضى ومنذ مدة تقدم بضعة تلامذة من طلبة في ڤينا من الاصحاءِ الذين لا شبهة في سلامتهم من كل علة لتجربة الدواءِ في انفسهم فعرض لبعضهم رد فعل شديد والحاصل ان الأفكار اليوم معتدلة جداً في خصائص علاج كوخ وسنوافي القراءَ متى استقر بنا المقام في برلين عما يكون من ذلك عن عيان واختيار وكل آت قريب لأني سأترك ڤينا اليوم قاصداً برلين رأساً.

ومن الاطباء الذين قابلتهم هنا الدكتور «سغم وينبرجر» المعروف للمصريين فانه قطن مدة طويلة في القاهرة وبقي هناك حتى بعد سنة الهواءِ الاصفر. وقد تعرفت به في كلينيك الدكتور هبرا فانه لما بلغه اني آتٍ من مصر تقدم اليَّ وعرَّفني بنفسه ورافقني في اماكن مختلفة وعرَّفني بكثير من اخوانه وزرته ايضاً في بيته وتعرفت بامراته وكلاهما في نعمة وسعة. وقد تعرفت بواسطته في المستشفى العمومي بالدكتور الهستولوجي الكبتريولوجي البروفسور «كوندرات» ولما كان البروفسور المشار اليه لا يحسن اللغة الفرنسوية فقد عرَّفني بمساعدة الدكتور «تلتوف» الذي يحسن جيداً هذه اللغة فاطلعني على معمله واراني مستنبتات كثيرة من باشلس السل والدفتيريا وحمى التيفوئيد وغيرها ومما قاله في ما خص الحقنة التي يعول عليها كوخ انها مستعملة منذ زمان طويل قبله وانه هو يستعملها منذ اربع سنين ويفضلها على حقن براواس

لانه يمكن تطهيرها من الجراثيم الفاسدة التي لا تطهر الا بالحرارة العالية مما لا يتيسر في محقنة براواس واما كلامه عن علاج كوخ فلا يخرج عن عموم ما يقال في ڤينا وزاد على ذلك بانه يقال بان فيرشو نفسه في المانيا قد تكلم ضد الدواء.

ومن انباء برلين التي علمتها هنا ان البروفسور «جرهرد» تكلم في الثالث عشر من هذا الشهر مساءً في مستشفى الحسنة على نتائج التلقيح بلمفا كوخ وقال ان رد الفعل غير ثابت في كل الحوادث وذكر حوادث احدثت الجرعة الصغرى منها زماناً طويلاً بعد العلاج التهاباً حنجرياً شديداً بحيث اضطر فيها الى عملية فتح القصبة وان التلقيح كثيراً ما احدث في الرئتين التهاباً حاداً. قال واما الحالة العمومية فتتاثر منه جداً وتتعب دائماً والتنفس يصير متواتراً وكثيراً ما يشبه تنفس الذين في اخر درجة من السل وذكر ٢٤ مريضاً عولجوا به فتحسن منهم احد عشر وساءت حالة ستة وسبعة لم يتغيروا عن حالهم وقد اوصى بوجوب الحذر الكلي في هذا الدواء وقال انه لا يجوز ان يعالج به الا العلل الخفيفة وان علل الحنجرة تستفيد به اكثر من علل الرئتين. وان دوام الحمى بعد التلقيح دليل اقوى. واما فائدته في التشخيص على رايه فعظيمة الى ان قال ولا يمكن التكلم عن الشفاءِ التام الا بعد عدة سنين واما في الحاضر فتحسن حالة المرض إذا امكن نتيجة عظيمة. وقد ذكر ثلاث حوادث عقب الموت فيها الحقن.

وقال برغمن انه جرب الدواءِ في ٢٠٠ حادثة (ولا يخفى ان برغمن من مساعدي كوخ) وانه يقتضي سنة كاملة لوضع قواعد متعلقة بقوة الدواء وعدد الحقن وفي كل الاحوال ينبغي الحذر.

هذا واختم قولي بانه من الملاحظات الاقليمية التي يجوز تدوينها ان ابناء البلاد الحارة يحتملون برد الاقاليم الباردة في السنة الاولى اكثر من ابناء البلاد الباردة نفسها وبالعكس فان درجة البرد منذ وجودي في ڤينا لم ترتفع عن ست او خمس درجات تحت الصفر ولما علمت ذلك استغربت جداً لاني لم اشكُ حتى الان من البرد كثيراً وقد سمعت مثل ذلك من الاورباويين الذين اتوا مصر فانهم يحتملون الحر في السنة الاولى جيداً فكأن البدن يكون متشبعاً في اول الامر من درجة حرارة اقليم بلاده بحيث يستطيع ان يصبر جيداً على ضدها.

ومن الانباء التي تهم سكان الشرق خاصة ان احدى جرائد ڤينا الشهيرة نشرت اليوم ان الدكتور «اونها» من همبورغ شفى امرأة من داءِ الجذام بواسطة الاكثيول ـ قالت الجريدة المذكورة والدكتور «اونها» من الاطباءِ الموثوق بهم نظراً لاكتشافاته الطبية المختلفة التي رفعها الى جمعية برلين الطبية ـ قلنا ننشر الخبر على علاته لاننا اليوم في طور الاكتشافات والاختراعات في الطب.

وبالنظر الى الجذام قال لي البروفسور هبرا ان علاج كوخ إذا صح في شفاءِ اللوبس شفاءً تاماً لا نكاس بعده فربما صح ايضاً في شفاءِ الجذام والظاهر ان هذا الدواء لم يجرب بعد في هذا الداء لندرته في اوربا كما لا يخفى.

ومن ارباب الصحف الطبية الذين زرتهم في ڤينا الدكتور «ادلر» صاحب الصحيفة الطبية الاسبوعية الفينية ورئيس محرريها وهي من اشهر الصحف الطبية هنا ولم يخرج كلامه في ما تعلق بعلاج كوخ عما تقدم. وهنا اقول ان اهل ڤينا عموماً هم قوم على جانب عظيم من رقة الطبع ولين الجانب ومحبة الغريب ودعاء وبسطاء في معايشهم صادقون في معاشراتهم إذا طلبت منهم خدمة أدُّوها بكل غيرة وصدق كما تاكد لي ذلك من جميع من تيسر لي مقابلتهم في هذه المدة القصيرة سواءً كان من كبار الاطباءِ او صغارهم او عامة الناس او خاصتهم.

ولهُ من برلين في ٢٠ دسمبر

تركت ڤينّا يوم الاربعاء الواقع في السابع عشر من الشهر الجاري الساعة التاسعة مساءً ووصلت الى برلين ثاني يوم الخميس عند الظهر بعد سفر نحو ست عشرة ساعة في السكة الحديدية وريثما وصلت الى النزل حانت مني التفاتة فرأيت اثنين عرفت من زيهما انهما تركيان أو عجميان فبادرتهما بالكلام وإذا هما جناب الدكتور صالح افندي ازميري ابن الموصلي حكيم الدائرة البلدية الثاني وطبيب نظارة الرجي في الاستانة وجناب الدكتور ادوار ماسيس وهذا الاخير ارمني وكلاهما من الاستانة وقد حضرا الى برلين على نفقاتهما الخاصة للغاية التي لاجلها يؤُمُّ الاطباء اليوم برلين. وقد فهمت منهما ان الاطباء الذين حضروا من الاستانة يزيد عددهم على خمسة عشر طبيباً وان الباب العالي انفذ الى كوخ اربعة معتمدين من مشاهير الاطباءِ وهم سعادة الدكتور خراسنجي افندي استاذ الكلينيك في المدرسة الطبية العسكرية وسعادة الدكتور فيظي باشا استاذ الامراض الباطنة في المدرسة المذكورة واستاذ الكلينيك الباطني في المدرسة الطبية الملكية وعزتلو المير الاي الدكتور نعيم بك افندي استاذ الجراحة في المدرستين المذكورتين والرابع الدكتور فون دورينغ الالماني وهو بصفة ترجمان اللجنة نظراً لمعرفته اللغة الالمانية. وقد قابلت اعضاء اللجنة المذكورة وجميعهم على جانب عظيم من الانس والرقة فضلاً عن التضلُّع في العلم كما تشهد به مقاماتهم الطبيَّة العالية. وقد بقي لهم في برلين نحو شهر وبلغني انهم اتموا مأموريتهم ولكنهم منتظرون الارادة الشاهانية للعود الى الاوطان. ـ ثم قابلت الدكتور خلقي بك معاون استاذ الفزيولجيا في المدرسة الطبية العسكرية وهو من الشبان النبهاء الذين درسوا الطب في الاستانة وقد انفذته الدولة معتمداً من قبلها في مؤتمر الامراض الزهرية الذي انعقد في العام الماضي في مدينة باريس ثم عزتلو القائمقام عزَّت بك طبيب السراي السلطاني وهذان الاخيران قد حضرا الى برلين بارادة شاهانية ولكن بصفة غير رسمية.

مستشفى الحَسَنة في برلين Charité

وفي صباح التاسع عشر من الشهر توجهت بصحبة الدكتور الفاضل صالح افندي الى مستشفى الحسنة وهو اكبر مستشفى في برلين فوصلنا الى قسم الجرَّاح الشهير برتلين وكان احد مساعديه المدعو الدكتور ويستفال يعود المرضى في احد الاقسام فرحب بنا جرياً على العادة اليوم

في جميع مستشفيات برلين فانك ترى الاطباءَ هنا يترحبون بالاطباءِ الغرباء كثيراً بحيث انك تدخل قاعات المرضى وفي كل مكان في المستشفيات عامّاً كان أو خاصاً وتفحص هذا المريض أو ذاك من دون ان يعترضك معترض الا اذا جئته مستفسراً فانه ينبئكَ بكل ما يعلم عن طيبة نفس وما ذلك الا لان الالمان يريدون اليوم ان يحوّلوا تيار الاطباءِ عن المدن الاخرى كفيِنّا وباريس الى بلادهم إذ لا يجهلون الشرف الذي يلحق بهم من ذلك والكسب الذي ينالهم منه أيضاً. وقد أرانا الدكتور المذكور كثيراً من العلل الدرنية الجراحية خاصة التي تعالج بعلاج كوخ في هذا القسم وأجرى أمامنا عدة حقن باللمفا واني أذكر هنا بعضاً من هذه الحوادث على طريق البيان.

اولاً ـ امرأة سنها ٢٥ سنة بها لوبس ضخامي شامل الانف والخدين والذقن لها في المستشفى عشرة اسابيع تحت المعالجة بعلاج كوخ دون واسطة اخرى فحقها امامنا بتسعة سنتغرامات وهذه الحقنة كانت السابعة عشرة. وقد كانت في اول الامر تتاثر جداً ويحصل لها رد فعل شديد من مقادير قليلة جداً واما اليوم فهذا المقدار لم يعد يوثر فيها وقد شاهدتها بعد عشرين ساعة من الحقن ولم يعرض لها رد فعل. اما اللوبس فمن كلام الدكتور «ويستفال» نفسه ومن مشاهدتنا له يظهر انه يتحسن كثيراً وسائر الى الشفاءِ.

ثانياً ـ فتاة سنها نحو عشرين سنة بها تدرُّن مفصلي في الركبة ولها عشرة اسابيع تحت المعالجة وقد حقنها امامنا بثلاثة سنتيغرامات وهي متحسنة كثيراً الا انهم عملوا لها عملية الجب ايضاً وهذا شرط في العلل الجراحية من وجوب ازالة الانسجة المتدرنة مع استعمال علاج كوخ.

ثالثاً ـ فتاة سنها نحو ٢٥ سنة بها كوكساجيا ولها تحت المعالجة اربعة اسابيع وقد حقنها امامنا الحقنة التاسعة سنتغرامين ونصف من اللمفا وحالتها بين بين.

رابعاً ـ فتاة عمرها ١٢ سنة بها روماتزم مفصلي تحت حاد في مفصل الرجل اليسرى ومنكب اليد اليمنى ولها مريضة منذ ٣٠ نوفمبر وقد حقنها امامنا الحقنة الرابعة بسنتغرام ونصف واول ما ابتدأ بها بمليغرامين فقط والفرق فيها ظهر بها قليل.

خامساً ـ فتاة عمرها نحو ٢٢ سنة بها ندبة خنازيرية لها تحت المعالجة نحو شهرين حقنا امامنا الحقنة الثامنة عشرة باربعة سنتغرامات فقط نظراً لشدة رد الفعل بها فقد بلغت الحمى بها في المرة السابقة ٤٠° عن نفس المقدار واعلم ان هذه الفتاة كان يعرض لها في اول الامر رد فعل موضعي اي ورم في المحل المريض ومع علاج كوخ استعملوا الجراحة ايضاً لازالة العقدة الخنازيرية وبقوا يستعملون لها الحقن حتى لم يعد يعرض لها رد فعل لا عام ولا موضعي فتركوها مدة ثم خشوا النكاس فعادوا الى الحقن فعرض لها في الاول رد فعل موضعي شديد ثم اليوم حالتها متحسنة ولم يعرض عن الحقن طفح اريسماوي كالذي ذكرته في رسالتي الاولى من ڤينا الا في صاحبات اللوبس وفي صاحبة الندبة التدرينة المار ذكرها.

سادساً ـ امرأة في حدود الثلاثين سقطت وحصل لها من جرَّاء ذلك ورم في الركبة اليمنى

فحقنها اولاً بنصف سنتغرام من اللمفا وذلك اولاً لأن العلل الدرنية المفصلية كثيراً ما تتنبه بعد سقطة او صدمة وثانياً لانهم راوا مثل ذلك في رجل بعد السقطة باربعة اشهر وظهر ان العلة به درنية وثالثاً لاعتقادهم بان علاج كوخ علامة تشخيصية ايضاً فحيث يحدث رد فعل فالعلة على الاغلب درنية. والامرأة المذكورة حصل لها الرد الفعل المذكور كثيراً مما رجح عندهم طبيعة العلة الدرنية.

سابعاً ـ فتاة في العشرين بها سل مزعوم في اوله إذ لا يوجد بها من علامات السل السابقة او المرافقة لا نفث خاص ولا حمى ولا عرق ولا نفث دم وانما يوجد بها في قمة الرئة اليمنى بعض خراخر دون وقد حقنها امامنا الحقنة السادسة من اول دسمبر بنصف سنتغرام. والدكتور المذكور يظن انها احسن.

ثامناً ـ امرأة بها لوبس في الوجه والذراعين ولها تحت المعالجة منذ ٢٧ نوفمبر وقد حقنها امامنا الحقنة الخامسة بثمانية سنتغرامات ومن مدة قل بها رد الفعل وحالتها متحسنة جيداً وابتدأ اللوبس يتقشر منذ ابتدي فيه بالحقن.

تاسعاً ـ امرأة بها لوبس متقرح في الانف ولها تحت العلاج نحو شهرين وقد حقنها امامنا الحقنة السابعة عشرة بعشرة سنتغرامات (وجملة المقدار المحقون منذ البداية هو ستة دسيغرامات) وقد حصل لها رد فعل شديد في اول الامر ثم فارقها رد الفعل منذ الحقنة الثامنة وحالتها اليوم متحسنة وقروح كثيرة شفيت.

عاشراً ـ رجل عمره ٢٣ سنة به لوبس منذ ١٥ سنة ممتد الى الفم واللسان والحلق والبلعوم والحنجرة مع تقرح شديد وله تحت المعالجة منذ السابع من هذا الشهر. وقد حقنه امامنا الحقنة الرابعة بمليغرام واحد فقط نظراً لشدة رد الفعل به. ويظهر للطبيب المعالج ان الجلد اليوم اكثر ملاسة واقل ورماً.

حادي عشر ـ طفل عمره سبع سنين به لوبس في الانف وله تحت المعالجة نحو شهرين والآن يعدُّ انه شفي تماماً وشاهدنا مثل ذلك حوادث اخرى كثيرة من هذا النوع نكتفي بما ذكر عما لم يذكر.

وقد سألت الدكتور ويستفال المذكور عن رأيه في لمفا كوخ وفائدتها وعن المعتقد بها في مستشفيات برلين عموماً فقال لي ان علاج كوخ له تاثير وتأثير مفيدٌ في اللوبس وجميع العلل الجراحية الدرنية كعلل العظام والعلل المفصلية وفي هذه الاخيرة يلزم ان يشترك مع العلاج الجراحي واما في التدرن الرئوي الواضح جيداً فالظاهر ان ليس له تأثير بل ربما عرض عنهُ عوارض غير حميدة قال وربما كان لهُ تأثير حسن في بداية السلّ ولا يخفى ان تشخيص السلّ في بدايته حتماً وجزماً امرٌ يكاد ان يكون من أصعب الأمور في الطب. ثم سألته عن رأيه بعلاج كوخ في الجذام وهل جربوه فيه فقال لي عندنا الآن رجلٌ مجذم يعالج بهذا العلاج منذ نحو عشرين يوماً وهو الوحيد في مستشفيات برلين والظاهر ان به بعض فرق ولكن إذا نفع العلاج فيه فلا بدّ من الصبر والانتظار زماناً طويلاً نظراً لاتساع مساحة هذه العلة في الجسم. فسألته ان يرشدني الى

مشاهدة هذه الحادثة ففعل وتوجهت وشاهدت الرجل المذكور وفي نيتي ان اراقبه باول اقامتي حلول اقامتي هنا ثم انبئكم عنه.

ثم زرت الجراح برتلين وكان في مكان العمليات الجراحية يشرح حالة رجل اصيب برصاصة نفذت من الجدار المقدم لصماخ اذنيه ويستعد لمحاولة نزعها ان امكن. وهو رجل فوق السبعين مسترسل شعر اللحية والشاربين اللذين يغطيان فمه بالكلية وهو يمزح كثيراً ويحب الكلام ولم يسكت ثانية في بحر العملية خلافاً لاكثر الجراحين. وقد توسم فينا اننا غرباء فبادرنا بالكلام قبل ان نخاطبه كاننا معارف منذ زمان طويل. غير انه لم يتمكن من نزع الرصاصة بعد محاولة نزعها مدة اكثر من ساعة وبعد نشره النتو اللقمي للفك السفلي قال يظهر ان الرصاصة بعيدة في قاعدة الجمجمة فضمدوه وتركوه وهنا خطر لي خاطر عن مركز الطبيب والجراح فكم هو سهل في المستشفيات حيث المسؤولية قليلة وكم هو صعب خارج المستشفيات في الممارسة الخصوصية حيث الحسنات كثيراً ما تعد سيئات وحيث الفضل كثيراً ما يهزئه الجهل.

البرد هنا شديد جداً وقد كان يوم وصولي وفي اليوم الثاني منه بين عشر درجات واثنتي عشرة درجة تحت الصفر واما اليوم فهو الطف بنحو اربع درجات من امس.

* * *

وله من برلين في ٢٤ دسمبر

لمفا كوخ

اختلفت الاراء في علاج كوخ للعلل التدرنية وكثر الشاكون في منفعته خصوصاً في السل الرئوي والذي لا ريب فيه ان هذه اللمفا لها فعل خاص لا ينكر في الانسجة المتدرنة هو على نوع ما فعل انتخابي بحيث نها تختار هذا النسيج وتحدث فيه تأثيرها الخاص المنبه والمهيج احياناً كثيرة بحيث قد يبلغ التهيج في النسيج المتدرن درجة شديدة من الورم في اول الامر كما في العقد الخنازيرية والعلل الدرنية الحنجرية حتى لقد يضطر في بعض الاحيان اذا كانت العلة الموضعية شديدة في الحنجرة الى عملية فتح القصبة وكذلك العلل الدرنية الرئوية حتى لقد تبلغ ايذيما الرئتين احياناً درجة شديدة توقع الحياة في خطر ولذلك كان هذا العلاج لا يوافق في السل الرئوي المتقدم وهذا الفعل الخاص الانتخابي على الانسجة المتدرنة هو ما يسمى عندهم برد الفعل الموضعي وشدته انما هي بحسب شدة العلة الموضعية واتساعها وهذا ما يجعل هذا الاكتشاف في الطب ذا قيمة عظيمة وهو وان لم يف الان بكل ما ينتظر منه الا انه كما قال بلروث جراح فينا الشهير خطوة عظيمة في سبيل علم العلاج. وهذا الفعل الموضعي اهم بكثير من رد الفعل العام واصدق منه إذ انه لا يحصل الا في العضو المريض بخلاف الثاني فانه كثيراً ما يحصل للسليمين ايضاً. وقد قابلنا البروفسور «جرهرد» في مستشفى الحسنة وهو من الذين يجربون هذا الدواء كثيراً في اصحاب السل الرئوي وسالناه عن رايه فقال انه في الوقت الحاضر لا يستطاع القطع في هذا الدواء بل يلزم الاستمرار على تجريبه مدة طويلة الا اقل من سنتين وقد

شاهدنا كثيرين في عيادة البروفسور المذكور من المسلولين على درجات مختلفة وجميعهم من دون استثناء يجربون هذا الدواء فيهم والظاهر انه نافع في من كان داؤهُ منهم في اوله.

وقد شاهدنا كثيراً ايضاً من المسلولين المعالجين بهذا العلاج في قسم البروفسور ليدن في المستشفى المذكور وكان مساعده الدكتور «رانفارس» يجري العيادة فقال لنا انه لمعرفة خصائص هذا الدواء والاحوال التي يجوز فيها وكيفية تأثيره وتعيين مقاديره الخ ينبغي درسه ايضاً زماناً طويلاً قال واما انا فقد تغير اعتقادي في ردّ الفعل فهو ليس امراً نافعاً لازالة الداء كما هو الشائع بل هو علامة على الداء فقط ولذلك ينبغي الاستمرار على استعمال الدواء حتى يزول رد الفعل وحينئذٍ لا ينبغي الانقطاع عنه بل يلزم الاستمرار عليه وزيادة مقاديره بالتدريج الى حد الاحتمال لتمكين المناعة به. ورأينا كثيراً من المرضى الذين تعودوا الدواء وصاروا يحتملون منه اكثر من عشرة سنتغرامات تكرر لهم يوميا او يوماً بعد يوم من دون رد فعل.

اما مستشفيات برلين عموماً فلا ريب انها بالغة حد الاتقان وقد سبقت في ذلك عموم مستشفيات اوربا ولا سيما اماكن العمليات والقاء الدروس الكلينيكية فانها بالحقيقة غاية في الاتقان والنظام ومنها أماكن فائقة إلى حد الزخرفة ككلينيك الدكتور برغمن مثلاً وسأفرد للكلام على مستشفيات برلين رسالة خصوصية في فرصة أخرى.

قابلت جناب الفاضل الدكتور زنبا كوس الذي حضر الى هنا منذ خمسة عشر يوماً من قبل المستشفى الالماني بالاسكندرية وقد سافر امس راجعاً الى الديار المصرية. وقد عاد ايضاً الى الاستانة جناب الدكتور الفاضل صالح افندي موصلي وقابلت ايضاً هنا جناب الدكتور بابايان وهو من الاطباء القاطنين بالاستانة.

ومن الاطباء الذين قابلتهم هنا الدكتور الشهير بيريخ مكتشف الكلورال الكثير الفائدة والاستعمال في الطب وهو رجل في حدود الخمسين وهو صاحب جريدة طبية شهيرة ايضاً ومدير المعمل الفرماكولوجي واهديته من قبل عزتلو الدكتور غرانت بك قطعة موميا فسر بها جداً وافادني فوائد كثيرة وجرى بيني وبينه كلام في ما خص علاج كوخ لا ارى الفرصة الان مناسبة لايراده. وفي الغد رد لي الزيارة ودعاني كي ازوره في معلمه الفرماكولوجي واهداني نسخة من جريدته.

اما سلوك اهل برلين عموماً مع الغريب فلا يفضله سلوك في الرقة والانس وخصوصاً الطبقة المهذبة منهم فانها تحب الغريب وتحفل به كثيراً.

نحن الآن في فرصة عيد هو اكبر الاعياد عند الالمانيين الا وهو عيد الميلاد فانهم هنا يحتفلون به اكثر جداً مما يحتفل الانكليز به وبالنظر الى ذلك ترى عموم الاعمال الان في عطلة تدوم الى اول الشهر الآتي.

* * *

مـراسلات الشفاء

برلين في ١٠ يناير سنة ١٨٩١ ـ لصاحب الجريدة

عـلاج كـوخ Koch

تليت في جمعية اطباء مستشفى الحسنة في برلين التي اجتمعت في الرابع من شهر دسمبر الماضي عدة تقارير مهمة عما يتعلق بعلاج كوخ. فقدم الدكتور لانجر هانس حنجرة فتى توفي بسل رئوي وكان السل به بدرجة متقدمة جداً فلم يشأ الدكتور المشار اليه في اول الامر ان يستعمل له الحقن بلمفا كوخ لكنه قبل اخيراً ان يجرّبها فيه نظراً لالحاح المريض نفسه ولأنّ حالته لم تكن ترجى غير انه لم يستطع احتمالها فابطلت بعد الحقنة الثالثة ثم بعد عشرة ايام توفي. ـ وكان بهذه الحنجرة ثلاثة قروح صغيرة احدها تحت الحبل الصوتي الايسر وحافاته وارمة ومحتقنة والاثنان الاخران على الحبلين الصوتيين وهما في حالة التئام وهاتان القرحتان الاخيرتان تكونتا في مدة استعمال الحقن.

وقد رفع الدكتور هنوخ تقريراً عن استعمال علاج كوخ في الاطفال. وتجاربه لا يتجاوز تاريخها خمسة عشر يوماً واجريت جميعها في مستشفى الاطفال. وعددها ثلاث عشرة حادثة اثنتا عشرة منها علل درنية مختلفة وحادثة واحدة خوريا وهذه الاخيرة لم يعرض فيها رد فعل. اما العلل الدرنية الاثنتا عشرة فعشرٌ منها سلٌ رئوي وواحدة لوبس مع تسوُّس الفقرات وتسُّوس القسم الحجري مع التهاب بريتوني مزمن وواحدة تدرن سحائي. اما سن الاطفال فكان بين سنتين واحدى عشرة سنة. وقد ابتدأ الحقن فيهم بعشر مليغرام من سائل كوخ فلم يعرض لهم رد فعل فزيد المقدار الى عشري المليغرام ثم ثلاثة اعشاره وعند ذلك ابتدأ رد الفعل وشدته لم يكن بينها وبين السن ادنى علاقة.

والاطفال العشرة المسلولون عرض لهم جميعهم رد الفعل العام والموضعي بعد حقنهم بثلاثة اعشار المليغرام واربعة اعشاره وخمسة اعشاره وثمانية اعشاره.

واما الطفل الحادي عشر الذي سنه اربع سنين ونصف سنة والمصاب بتسوس القسم الحجري الايمن وبالتهاب بريتوني مزمن فاجريت له الحقن بعد كشط العظم وبزل الاستسقاء باربعة مليغرامات وخمسة مليغرامات فعرض له مع رد الفعل العام رد فعل موضعي واضح ظهر باحمرار الجرح العظمي وبعود الاستسقاء البطني. ـ وهذا الاستسقاء زال بعد ايام قليلة وهبط حجم البطن عما كان عليه بعد البزل.

اما التدرن السحائي فكان صاحبه طفلاً سنه سنتان ونصف سنة وفي درجة السبات الاخيرة فحقن اربع حقن فقط باربعة مليغرامات وخمسة مليغرامات وسبعة مليغرامات وكل من هذه الحقن احدث رد فعلٍ معتدل لم تتجاوز درجة الحرارة بهِ ٣٨،٢° و٣٨،٣° وفحص فيرشو للجثة بعد الوفاة اكد التشخيص ان العلة تدرن سحائي. وقد وجد فيرشو احتقاناً في

اغشية الدماغ وفي مادة الدماغ السنجابية لم يرهُ قبلاً في امثال هذه العلة التي يكون الدماغ واغشيته فيها بحالة اليميا غالباً بسبب الضغط الذي ينالهما من امتلاء البطينات بالمسائل المنصب. قال هنوخ وهذه الحادثة يتبين منها وجوب الامتناع عن استعمال علاج كوخ في هذه العلة ولو في اولها لانه مضرٌ فيها في كل الاحوال بسبب ما يحدثه من احتقان الدماغ وزيادة الضغط داخل الجمجمة.

ثم قام «ايولد» وذكر خلاصة النتائج المتحصلة من علاج كوخ حتى اليوم قال اما من جهة اختلاف شدة الحمى العارضة عن رد الفعل في الاشخاص المختلفين فلا علاقة لها بحالة الرئة فيما يرى بل تتوقف على احوال شخصية لا تزال مجهولة واما من جهة تاثير الدواء في السل الرئوي فكل ما حصل عنه حتى الان تحسن النفث والاعراض التي يحس بها المريض ولا نعلم حادثة دلَّت فيها الاعراض الطبيعية على تقهقر المرض في الرئتين بل بالضد من ذلك كثيراً ما دلت الاعراض الطبيعية في الرئتين على بور صمم حتى اعراض كهفية ظهرت تحت مفعول الحقن ولم تكن من قبل. ومن رأي «ايولد» المذكوران حقن كوخ ينبغي الاقتصار فيها على حوادث السل الرئوي الخفيفة والحديثة العهد فقط واما في الحوادث المتقدمة والمصحوبة بحمى دق وفي تدرن الدماغ وفي المصابين بحؤول نشائي في الكلية فينبغي الامتناع عنها واخيراً قدم «ليتن» مريضاً مصاباً بتدرن انفي وفمي انتقل اليه بالعدوى من اخته المسلولة بواسطة منديلها وبهذا المريض قروح على اللثة محاطة بدرن دخني لا شبهة فيه. والحقن تحدث فيه رد فعل موضعي ظاهر بانتفاخ الاجزاء المريضة واحمرارها وبظهور ادران دخنية جديدة على حافات القروح وبتهرى. الانسجة المتدرنة وانفصالها. و «ليتن» خلافاً لا يولد يرى ان الانسجة المتدرنة كلما كانت اكثر كان رد الفعل اشدّ. ـ وذكر مريضين تحسنت حالتهما جداً بالمعالجة بعلاج كوخ في مدة خمسة عشر يوماً احدهما مصاب بسل رئوي وحنجري وكان صوته منقطعاً في اول الامر وقد صار يسمع والآخر مصاب بالتهاب كلوي تقيحي دَرَني وكان مقدار الراسب في بولهِ كثيراً جداً من قبل وقد قل جداً بعد الحقن وصفة الراسب قد تغيرت كذلك ولم يعد يرى فيه سوى مخاطٍ وقليل جداً من الباشلس الذي كان كثيراً جداً قبل العلاج.

مدلولات طريقة كـوخ ومحظوراتها

أُلخص ما يأتي عن مقالةٍ للدكتور سناتور استاذ الامراض الباطنة بمدرسة برلين الطبية وهو استاذ فوق العادة ومحل عيادته في مستشفى الحسنة. ـ قال ان طريقة كوخ تستعمل في جميع الحوادث التي يرجى فيها انفاصل الانسجة الدرنية المتهرئة بفعل الدواء انفصالاً سهلاً وعليه فهي جائزة في اللوبس وفي علل الفم والانف الدرنية وفي تدرن الحنجرة والامعاء. ولما كان انفصال الانسجة المتدرنة في الرئتين صعباً لم يكن علاج السل الرئوي بهذه الطريقة جائزاً الاَّ إذا كانت العلة في اولها. فان التجاويف المغلقة جميعها غير موافقة لهذا العلاج.

وطريقة كوخ لا تجوز في الحوادث التي يكون معها التهاب الكلية وخصوصاً اذا كانت مع

استسقاء بطني او انصباب بلوراوي غزير وفي الاحوال الشديدة الضعف وفي حؤول الكلية النشائي. ولا تجوز مطلقاً في التدرن داخل الجمجمة اعني في تدرن الدماغ واغشيته وخصوصاً في الاحوال التي تكون مفاصل الجمجمة فيها متعظمة تمام التعظم لانها تزيد الاحتقان والورم وتحدث ما عدا ذلك امتصاص السمّ التدرني.

وينبغي ان يعلم ان مدة رد الفعل العام وشدته وسرعة ظهوره ليس بينها وبين شدة العلة الدرنية واتساعها ادنى نسبة وان رد الفعل هذا يصاحبه غالباً فناء البدن الظاهر بنقصان وزن المريض في مدة اسبوعين الى ثلاثة اسابيع.

علاج اللوبس بطريقة كوخ

قال تيبيرج في جمعية الامراض الجلدية والزهرية بباريز ما نصهُ: لقد بالغوا جداً بالنتائج الحاصلة في اللوبس عن علاج كوخ فان اطباء برلين وخصوصاً برغمن وكوهلر لم يتكلما الا عن حصول التحسن عنه فقط لا عن حصول الشفاء به. والالتئام الذي حصل في حوادث اللوبس المتقرح والمتعاصي لا يعد شفاء وهذا مما لا يشك فيه احد وكيف يجوز الجذم بحصول الشفاء في اللوبس في مدة شهرين.

ولا تنكر سرعة التئام القروح اللوبسية القديمة والمتسعة بطريقة كوخ فان هذه الطريقة انما تفعل ذلك بما تحدثه من الالتهاب الشديد الحاصل عند رد الفعل الموضعي الذي يسهل انفصال الانسجة المتدرنة عن طريق القروح الموجودة او الحاصلة. واما الادران الفائرة فلا يستطاع فصلها خصوصاً متى تعود البدن هذه الحقن ولم تعد هذه الادران تتأثر بها وحينئذٍ لا يعود للدواء ادنى تاثير قال ان احد المرضى اتصل الى ان يحتمل من الحقن ثماني سنتيغرامات من دون ادنى رد فعل ومن دون ان يحصل في الادران اللوبسية ادنى تغير.

وبعض الحوادث من اللوبس المصحوب بارتشاح غيلي وايذيماوي يحصل بها تحسن عظيم بعد الحقن والجلد يقرب من الجلد الطبيعي. وهذه النتائج الحسنة في بعض الحوادث لا تنكر الا انها والشواهد على ذلك كثيرة لم تنته حتى الان بشفاء تام ولا يجوز ان يذهل بها عن وجوب الحذر الكلي في استعمال هذا العلاج نظراً للعوارض الردية التي قد يجلبها.

واما قيمة هذا العلاج الشخصية فعظيمة جداً في العلل الجلدية ما خلا بعض الحوادث النادرة كما في بعض حوادث الجذام والاكزيما والقرمزية.

وقال البروفسور كورنيل.

ان لمفا كوخ تحدث احتقاناً في المكان المتدرن يتبعه نضح مقدار عظيم من الكريات البيض كما يعلم من فحص قطع الجلد المتدرن بالمكرسكوب وهذه الكريات تفرز عن سطح الجلد بكثرة على صورة سائل يتجمع ويتكون قشوراً وهذا السائل وهذه القشور تحتوي عدداً عظيماً من باشلس التدرن. وافراز هذا الباشلس نافع للمريض.

ثم تكلم عن تأثير هذه اللمفا في اللوبس قال:

(١) ان اكثر المرضى المصابين بالتدرن الجلدي يتحسنون تحسناً ظاهراً.

(٢) لا يجوز استعمال العلاج في اصحاب اللوبس الذين بهم علل اخرى درنية في الرئتين او في الاحشاء الاخرى. قال واما نتيجة هذا العلاج في علل العظام والمفاصل الدرنية فمختلفة تارة جيدة وتارة ردية.

واما في درن الحنجرة اذا لم يكن مشتركاً مع درن الرئتين فالعلاج قد ينفع على شرط ان يستعمله طبيب خاص بهذه الامراض مستعد للتداخل الجراحي عند اللزوم سواء كان بكشط الاجزاء المتهرئة من الحنجرة او نزعها.

واما السل الرئوي الذي تعلقت الآمال بنفع هذا العلاج فيه فبالضد يظهر انه المرض الذي ينبغي الحذر فيه منه جداً. فهو لا ينفع في السل المتقدم والمصحوب بحمى وكهوف. ولا يمنع نفث الدم وربما سهّل حصوله بما يحدثه من احتقان الرئتين. وربما سهّل حصول الارتشاحات البلوراية اذا كانت البليورا مجلس ناميات درنية. وهو مضر في ذات الرئة الدرنية الحادة وفي المصابين بالتدرن من عهد قريب فان الاحتقان الرئوي والورم اللذان يعقبان كل حقنة حول الاجزاء المريضة هما بالأولى مخطران لا نافعان.

واما السل الرئوي القديم والمحدود والذي توقف كما ترى كثيراً في اناس هم بالظاهر اصحاء وقد مرّت عليهم عدّة سنين لا يشعرون بشيء فاستعمال حقن كوخ فيهم خطرٌ جداً إذ قد ينبه فيهم علة كامنة منذ زمان طويل. وعليه فقد عدل البروفسور كورنيل بالمرة عن معالجة السل الرئوي بلمفا كوخ إلاّ في بعض أحوال مستثناة وحينئذٍ يجوز استعمالها ولكن بمقادير قليلة جداً وقد اقتدى به سائر اطباء باريز

تشريح الانسجة الدرنية المرضيّ

القى الدكتور واستون شين مقالة في تشريح الانسجة الدرنية من عهدٍ قريب ونظراً لاهميتها بالنسبة الى كيفية تأثير علاج كوخ بهذه الانسجة رأيت ان الخصها هنا.

بحث الدكتور المشار اليه خاصة في تدرن المفاصل وهو يقسم الانسجة المتدرنة الى شكلين. الدرن الحقيقي والارتشاح الدرني. اما الدرن الحقيقي فمؤلف من خلايا ابيثلية ويحتوي غالباً لا دائماً على خلية او عدة خلايا كبيرة. وهذه الخلايا الكبيرة كثيراً ما تكون ذات امتدادات عريضة تنتهي بالخلايا الابيثلية او تتخلل بينها وتتصل الى جوار الدرنة مؤلفة هكذا نوعاً من الشبكة. وحول الخلايا الابيثلية توجد منطقة خلايا صغيرة او منطقة من النسيج الليفي المؤلف نوعاً من الحاجز بين الدرنة والانسجة المجاورة.

واما في الارتشاح الدرني فتوجد خلايا ابيثلية وخلايا كبيرة لا بمجاميع محدودة بل على

شكل خطوط عريضة كثيراً او قليلاً متفرقة بين الحبيبات او النسيج الليفي الحديث وفي بعض الاحيان تكون الخلايا الابيثيلية مبدّدة هنا وهناك بدلاً من ان تؤلف مجاميع .

ونسيج الحبيبات المنتشرة فيه الخلايا الابيثيلية والكبيرة يكون غالباً اجزاء الكيس المصلي التي يعرض فيها الحؤول الجبني وفي الاجزاء التي هي على وشك حصول خراجة مزمنة فيها وهذا الشكل من النسيج المتدرن يدل غالباً على علة ذات سير سريع والارتشاح الدرني ذو الشكل الليفي يشاهد غالباً في التسوس الجاف .

والعنصر الخاص بالدرن هو الخلية الابيثيلية . ففي هذه الخلية او حولها يوجد اكثر الباشلس الدرني . والخلية الكبيرة التي تحتوي ايضاً كثيراً من الباشلس يظهر انها ليست الاّ خلايا ابيثيلية متغيرة . فربما كانت الدرنة في كثير من الحوادث تبتدىء في احد الاوعية او الشعيريات الدمومية وان الخلايا الابيثيلية ليست سوى الاندوثاليوم المتغير .

وشفاء علة دونية لا يتم دائماً بالحؤول الدهني والكلسي في الدرنة بل في بعض الحوادث تضمر الخلايا الابيثيلية وتزول .

والباشلس الدرني قليل غالباً في تدرن المفاصل وهو غير ضروري للتشخيص بل يكفي لذلك مشاهدة الخلايا الكبيرة والابيثيلية .

* * *

وله من برلين ايضاً في ١١ منهُ

افتتح رسالتي هذه بتهنئة حضرات القراء الكرام بدخول هذا العام الجديد راجياً ان يكون عليهم عاماً سعيداً وان يكون للعلم عموماً ولعلم الطب خصوصاً عاماً مفيداً واعتذر لحضراتهم عن عدم صدور العدد الاخير من السنة الفائتة مقروناً بفهرسة السنة على ما جرينا في السنين الماضية واعداً اياهم بان اقدم ذلك لحضراتهم مع احد اجزاء هذه السنة متى رجعت الى مصر ويكون ذلك عن قريب .

ولا ريب ان حضراتهم يرغبون في الوقوف على الصحيح مما يتعلق بعلاج الدكتور كوخ والتجارب الكثيرة التي اجريت به ولئن كنت في رسالتي الماضية قد أبنت اهم ما يتعلق بهذه المسألة الا انه يحسن ايضاً الرجوع الى هذا الموضوع ولا سيما انه الموضوع الشاغل الافكار هذه الايام . فآراء الاطباء في برلين بعد اختبارهم الواسع في آلاف من المرضى بالسل واللوبس والعلل الجراحية الاخرى الدرنية الكثيرة قد استقرت في اكتشاف كوخ على انه اكتشاف مهم من حيث تأثيره في الانسجة المرضية تأثيراً خاصاً يفيد في التشخيص كثيراً في غالب الاحيان واما فائدته العلاجية فمختلف فيها والجمهور على انه نافع في اللوبس والعلل الجلدية الدرنية وربما افاد ايضاً في الجذام الاّ ان التجارب التي اجريت في هذا الداء في برلين قليلة جداً تكاد تكون قاصرة على مريض واحد فقط وعهدها قريب لا يتجاوز سبعة او ثمانية اسابيع والنتيجة غير

واضحة وقد بلغ مقدار اللمفا المحقونة لذلك المريض نحو دسيغرامين وهو مقدار عظيم جداً بالنسبة الى المقادير المستعملة عموماً ومع ذلك فلم يعرض له رد الفعل المعهود على ان التجارب الاخرى التي أُجريت في همبورغ واسبانيا تدل على حصول رد الفعل والفائدة معاً وبكل الاحوال لا يمكن الحكم بفائدة هذا الدواء في الداء المذكور الا بعد التجارب الطويلة الكثيرة في مرضى كثيرين واظن ان ذلك ايسر في بلاد مصر منه في سواها نظراً لكثرة المجذومين هناك . واعلم ان الباعث على استعمال هذا الدواء القاصر تأثيره على العلل الدرنية في داء الجذام انما هو المشابهة الكائنة بين باشلس الجذام وباشلس التدرن . اما الفرق بينهما فهو ان الاول اسهل تلوُّناً في المستحضرات الميكروسكوبية الميكروبولوجية من الثاني .

واما في العلل الدرنية الجراحية ففائدته اقل منها في اللوبس واكثر منها في التدرن الرئوي وفي هذا الاخير قلت ثقة الاطباء جداً بفائدته وكثر حذرهم منه مع استمرارهم في مستشفيات برلين على التجارب به على ان قبول المسلولين في المستشفيات قد قل عن ذي قبل إذ لا يخفى انه بعد انتشار خبر اكتشاف دواء السل اقبل المرضى من كل صوب للتداوي به وكثر دخول الفقراء المستشفيات حتى غصت بهم . والداخل الى مستشفيات برلين يظن من كثرة ما يرى فيها من المسلولين والمصابين باللوبس ان هذين الدائين كثيران جداً في تلك البلاد مع العلل الاخرى الجراحية الدرنية التي اتسع نطاقها ايضاً والسبب هو كما تقدم وفود اصحاب هذه العلل بكثرة وثوقاً بما شاع عن هذا الاكتشاف ولسهولة قبولهم في المستشفيات فضلاً عن ان الاغنياء منهم نزلوا في المستشفيات وفي بيوت التمريض الاخرى التي هي عديدة في مدينة برلين . واما اليوم فقد ضعفت هذه الثقة ورجع كثيرٌ من المرضى الى اوطانهم وقل قبول الفقراء منهم في المستشفيات وقد أراني جناب الدكتور نودرين مساعد البروفسور جوهر في مستشفى الحسنة وكان معي جناب الدكتور البارع محمد افندي طاهر طبيب مستشفى بني سويف ـ امرأة مصابة بلوبس خفيف عرض لها بعد الحقن باللمفا التهاب رئوي اي ذات رئة حقيقة وارتفعت بها الحرارة كثيراً وكان ذلك يتكرر معها كلما حُقنت واستدلَّ من ذلك على امرين اولاً على تشرب بدنها بالعلة الدرنية من جهة وعلى وجوب الحذر الكلي في استعمال الحقن من جهة اخرى . وقد رأيت كذلك في عيادة البروفسور ليدن في المستشفى عينه فتاة كان بها في اول الامر من نحو شهرين ارتشاح درني خفيف جداً في قمة الرئة اليسرى لم ترافقه اعراض طبيعية ظاهرة ولا حمى فعالجوها بالحقن وبعد الحقنة الثالثة عرض لها رد الفعل ومن ذلك الحين الى اليوم تتردد عليها الحمى كل يوم وقد ساءت حالها ودلت الاعراض الطبيعية على تكون كهوف في رئتيها مع الاستمرار على الحقن واخر حقنة كان مقدارها ثمانية ميلغرامات حقنت بها امامنا منذ نحو اسبوع واسم الفتاة كسبار .

واما الجراحون بعد تعويلهم مدة طويلة على استعمال هذه الحقن في العلل الجراحية الدرنية عادوا عن الانتظار الى الجراحة وهذا ما شاهدناه في عيادة الجراح الشهير بردلبن والجراح الشهير برغمن فانهما عادا الى استعمال الجراحة من جبٍ وبترٍ واستئصال كما كانا يفعلان من قبل .

والظاهر ان هذه الحقن لا تخلو من بعض عوارض درنية وهذا ما يستفاد من مقالة للدكتور فيرشو الهستولوجي المرضي الشهير فانه في خطبة القاها مؤخراً في جمعية الطب في برلين قال بعد فحص اثنتي عشرة جثة من جثث اللذين توفوا بعد العلاج بدواء كوخ ان الحقن باللمفا تحدث دائماً احتقاناً شديداً مع ميل الى تهييج الالتهاب يجعل حياة المريض في خطر. ومن رأيهِ ان الحقن تزيد مقدار الباشلس وتبددهُ في اجزاء البدن السليمة وتحدث فيهِ على نوع ما علة جديدة وذكر مريضاً مصاباً بتدرن حُقن ست مرات ولم يكن به بالتشخيص الطبيعي سوى آفات درنية محصورة في قمة الرئة اليمنى وعند الفتح الرمي الذي تم بعد اربعة اسابيع وجد به في قاعدة الرئة نفسها علل درنية في منتهى الشدة ومن رأيه ان هذه الآفات الاخيرة نتيجة الحقن باللمفا وقد اثَّر هذا الكلام في الاطباء خصوصاً واهل برلين عموماً تأثيراً عمومياً وبسببه انقسم الناس هناك الى حزبين فانصار كوخ حملوا هذا الكلام على غير وجهه العلمي واتباع فيرشو كثر شكُّهم وقلَّت ثقتهم في العلاج الجديد.

والدكتور كوخ يشتغل في احد مستشفيات برلين المدعو مستشفى موابيت حيث يراقب نتيجة الحقن بكل دقة في عيادة الدكتور غوتمن طبيب الامراض الباطنة والجراح زوتنبرغ والدخول الى هذا المستشفى ليس سهلاً كما هو في سائر المستشفيات والظاهر ان كوخ قد ملَّ من مقابلة الناس وسئم زياراتهم وسؤالاتهم فاحتجب عنهم فإذا طلبوا مقابلته لا يقابلهم وإذا كتبوا له لا يجاوبهم وان ارادوا الدخول الى المكان الذي يشتغل به لا يصرّح لهم الاّ نادراً. وقد بلغني انهم فتحوا خمسة كهوف درنية صدرية في عيادة الجرّاح زوتنبرغ لخمسة مرضى مع الاستمرار على استعمال الحقن فيهم وان حالتهم جداً فرغبت في مشاهدتهم فقصدت ذات يوم مستشفى موابيت وكنت قد تعرفت سابقاً باحد الاطباء الذي يشتغل في المعمل البكتريولوجي فدخلت المعمل فلم اجد الرجل غير اني وجدت آخر فتقدمت اليهِ وبعد ان افهمته مرادي وعدني بان يقدمني الى من يعنيه ذلك وبعد برهة قدمني الى الدكتور غوتمن مدير المستشفى فوعدني هذا بان يريني ذلك في الغد في قسم الجراحة في حين وجود كوخ في العيادة وفي الغد انجز وعده وقد رأيت من المرضى الخمسة ثلاثة كانوا يواسون جروحهم فاحدهم كانت العملية في قمة رئته اليمنى تحت الترقوة وكان منظر الانسجة بعد العملية حسناً جداً والاثنان الاخران كانت العملية بهما في قسم تحت الترقوة الايسر وجميعهم قد تحسنت حالتهم العمومية بعد العملية كثيراً واصحاب اللمفا ينسبون هذا التحسن في الانسجة خصوصاً الى نتيجة الحقن على اني اقول ان التقيحات الرئوية الدرنية اذا امكن التوصل اليها بالجراحة فذلك يكون احسن علاج. الاّ ان دون هذه العمليات في المتدرنين صعوبات اولها تعيين مجلس الكهف وهذا لا يسهل دائماً فقد فتحوا مؤخراً مريضاً اتفقت الآراء عموماً على تعيين الكهف في مكان معلوم فأخطأ التشخيص ولم يعثروا بالبؤرة وثانيها وجوب كون هذا الكهف واحداً في مجلس معين وليس متعدداً في مجالس مختلفة ففي مثل هذه الحالة لا يجدي الفتح لعدم انحصار العلة في مكان واحد.

وفي المعمل البكتريولوجي للمستشفى المذكور تعرَّفت ايضاً بالدكتور اهرليخ البكتريولوجي الشهير وصاحب الطريقة الدقيقة المعروفة باسمه للبحث عن باشلس التدرن.

وهو مدير المعمل المذكور وكوخ لا يعتمد على سواء في تشخيص التدرن بالبحث البكتريولوجي وهذا المعمل قد أعد في المستشفى المذكور وعين اهرليخ مديراً له بناءً على اشارة كوخ لدرس تأثير العلاج في المرضى درساً دقيقاً وفيه يفحصون كل يوم نفث كل مريض لمقابلة ما هو عليه بما كان عليه سابقاً وقد رأيتهم يأتون اليه بقوارير النفث على عربات صغيرة تجرها الناس وهذا يدلك على ان التجارب الجارية في هذا المستشفى هي ادق التجارب في ما خص تأثير العلاج في المسلولين.

ومن المستشفيات التي زرتها والتي هي غاية في الاتقان والترتيب مستشفى امراض النساء وهو حديث العهد ورئيس اطبائه هو الطبيب الشهير اولسهوزن والحضور فيه ليس مباحاً لكل انسان كما هو الامر في مستشفى الحسنة الذي هو اكبر مستشفى في برلين بل يلزم الاستئذان خصوصيا من الدكتور اولسهوزن نفسه. وقد تقدمت الى الدكتور المذكور ومعي الدكتور محمود افندي طاهر وسألته إذا كان يسمح لنا بحضور العمليات فأجاب بالايجاب واخبرنا ان ندوّن اسمينا عند البواب ففعلنا فدفع الينا البواب ورقة وطلب منا عن كل واحد مركا واحد اي عبارة عن خمسة غروش صاغ من عملة مصر وهذا المرك ينفق اجرة بوسطة على ما يكتبه الينا من الاشعار بكل عملية يراد عملها. والورقة مطبوعة بالالمانية وهذا تعريبها:

القانون المفروض على الاطباء الذين يرغبون حضور عمليات فتح البطن في مستشفى النساء.

(١) يفرض عليهم ان لا يلمسوا قبل العملية بيوم ثياباً مشبوهة.

(٢) ان لا يحضروا الى العمليات الا لابسين ثياباً نظيفة لم يعودوا بها مرضى آخرين.

(٣) ان لا يلمسوا في قاعة العمليات الآلات ولا الاسفنج ولا شيئاً مما يتعلق بالعملية.

(٤) ان يحضروا دائماً في الوقت المعين وبعد الشروع في العملية يقفل الباب ولا يفتح لاحد.

ومن هذه الورقة يفهم السبب الذي لاجله لا يبيحون حضور العمليات لاي كان كما يفعلون في سائر المستشفيات ومن هذه الشروط يستنتج ان الغاية الاحتياط لعدم نقل جرثومة مرضية الى المجروحة مما يعرض حياتها للخطر. وتجرى العمليات المذكورة باكراً جداً من الساعة السابعة الى الساعة الثامنة صباحاً على النور الكهربائي ومن العمليات التي شاهدتها هناك عملية لهبوط الرحم وثلاث عمليات لارتخاء غشاء المهبل وعملية لاستخراج ورم كبير في عنق الرحم عن طريق المهبل وعملية فتح البطن لاستئصال ورم (ربما كان من طبيعة سرطانية) من المبيض واما الاعتناء بالنظافة في هذا المستشفى فلا يفوقه شيء ولا يعادله الا ما هو الحال في مستشفى فردريكس هين القائم في غلة بهذا الاسم خارج المدينة وهو ابدع مستشفى في مدينة برلين بل في جميع عواصم اوروبا بغير استثناء وهو مستشفى حديث. والسبب في ان مستشفيات المانيا اتقن من سائر مستشفيات اوروبا لان هو جانباً عظيماً منها حديث العهد بني على قواعد العلم الاخيرة

ولذلك ما يقال عن هذه المستشفيات لا يصح على سائر مستشفيات برلين القديمة كمستشفى الحسنة الذي يسع ١٨٠٠ سرير فانه كسائر مستشفيات باريس وفينا.

وقد قابلت هنا الدكتور شيث بك مبعوث الحكومة المصرية لدى كوخ وقد بلغني منهُ انهُ في اواخر هذا الشهر سيسافر كوخ الى المشرق ويمرُّ بمصر ويكون شيث بك بمعيته وذلك لمودة قديمة بينهما من يوم كان كوخ في الاسكندرية عام ١٨٨٣ عند تفشي وباء الهواء الاصفر في مصر واشغاله في مستشفى الحكومة للبحث عن مكروب الكوليرا فالظاهر ان شيث بك ساعدهُ وسهَّل عليه الحصول على جثث الموتى وهو قد حفظ له هذا الجميل.

وكذلك قابلت جناب الدكتور محمود افندي طاهر طبيب مستشفى بني سويف وقد حضر الى هنا كما ذكرنا في العدد السابق منذ نحو عشرين يوماً وهو شابٌ ذكيٌّ مجتهدٌ لا يفتر عن البحث عن محل الاستفادة وقد تعلق على درس اللغة الالمانية بجدٍ عظيم وإذا قسنا الآتي على الماضي نحكم انهُ لا يمرُّ عليهِ زمن طويل حتى يحسن فهمها والتكلم بها بحيث تجزل لهُ الفائدة من حضوره خطب الاساتذة وقراءة الجرائد المكتوبة بهذه اللغة. وقد اتخذ مدرساً يدرسهُ اللغة المذكورة احد الدكاترة الالمانيين المتعلقين على اللغات الشرقية وهو رجلٌ عالم يحسن اللغة العربية وقد اوصله اليه جناب الفاضل البارع الشيخ حسن توفيق مبعوث الحكومة المصرية لدى الدولة الالمانية لتعلم اللغة الالمانية واتقان فن التاريخ ومنتخب الدولة الالمانية لتعليم اللغة العربية في مدرسة برلين الشرقية. وهو في برلين منذ ثلاث سنين وقد قابلته وإذا به من الشبان الاذكياء جداً والعلماء المتضلعين باللغة العربية وقد الف كتاباً في علم البداغوجيا نقله عن احدث الطرق المعول عليها في بلاد المانيا واهداه الى نظارة المعارف المصرية الجليلة وقد نمي الينا ان النظارة المذكورة ساعية الى طبعه لاستحسانها موضوعه وحسن اسلوبه. وهذا يحملنا على شكر الحكومة الخديوية السنية لاعتنائها بشأن المعارف والعلوم وانتباهها الى ابناء وطنها وتخيرها نخبة شبانها وهذا يجرئنا على الالتماس منها بعد حسن التخير ان توسع لمن كان صادق الخدمة حسن الاجتهاد نظير حضرة الشيخ اليه اسباب المعيشة لتسهيل الغاية عليه وتحبيبها له لحسن الانتفاع به.

اكثر الاطباء الاجانب رحلوا من برلين ولم يعد فيها منهم الا النزر القليل وقد شاهدت في هذه المدة اطباء من اسبانيا وايطاليا وبولونيا وروسيا وتركيا وبعض الفرنساويين وجميع الذين تعرفت بهم منهم سافروا ولم يبق احد. وقد سافرت اللجنة الطبية الرسمية المبعوثة من قبل حكومة جلالة مولانا السلطان لدرس طريقة كوخ ولحق بها سائر اطباء تركيا عائدين الى اوطانهم.

اما سر تركيب دواء كوخ فلا يزال مكتوماً وقد قال وزير المالية ان الحكومة لا تريد ان تستأثر بالدواء حبّاً بالانسانية. والظاهر انها عدلت عن اعطاء كوخ مبلغ المليون مرك كما شاع اولاً ويقال ان كوخ سيذيع تركيب دوائهِ عن قريب.

وقد قال الناس على اختلاف طبقاتهم في البلاد الغربية كما في برلين نفسها ان كوخ لم يحسن العمل بحفظه تركيب دوائه وكيفية استحضاره سرّاً وفضلوا تصرف بستور على تصرفه فان تصرف الاول كان احرى بأخلاق العلماء وابعد عن غايات المضاربين يوم اكتشف علاج الكَلَب. وردّ انصار كوخ على هذا القول بقولهم ان عدم تصريح كوخ بتركيب دوائه لم يكن الاّ حبا بالانسانية لئلا يقدم الناس على تركيبه ولا يحسنوا صنعه فيضروا به وقد ورد عليهم بان اذاعة بستور سر علاجه لم تمنعه من ان ينفرد به على نوع ما. فان المعقور إذا اراد ان يتداوى بهذا الدواء اول ما يقصد بستور ولا يقصد سواه ومع ذلك فحتى الان لا يوجد في عواصم اوروبا الا اماكن قليلة جداً لمعالجة الكَلَب بهذا العلاج. فكوخ لو اذاع تركيب دوائه لما منع ذلك اقبال الناس على الدواء الصادر من معمله وتفضيله على سواه مهما كان الامر. وقال قوم ان كوخ لم يفعل كذلك الا مضغوطاً من حكومته فانها ارادت ان تستبد بالدواء وتحصر تركيبه ومبيعه بها وحدها ولذلك تبرعت بان تكافئه بمبلغ وافر من النقود قبل اكتشافه وتخصيصها به. وقد كثر انتقاد المنتقدين على هذا التصرف وقابلوه بتصرف حكومة فرنسا على عهد لويس الرابع عشر الذي دفع لليسوعيين الملايين واشترى منهم سرَّهم في دواء الكينين واذاعه للجميع حبا بالانسانية فالمقابلة بين هذين التصرفين تغني عن كل شرح. على ان حكومة المانيا عدلت عن هذا الاستئثار كما تقدم ولعل انتقاد العموم اثر فيها او انها اوجست من علاج كوخ محظورات اخرى لا توازي ارباحها فيها ما تجلبه عليها تعهداتها من الخسائر.

المسروقات المصرية والبابليّة في متحف برلين

ومن المشاهد التي زرتها في برلين متحفها (الانتخانة او الموزيوم) وقد تفرَّجت خصوصاً على المسروقات المصرية والبابلية. وقد زرت كذلك المدرسة الشرقية وتعرَّفت هناك بجناب الفاضل الدكتور موريس وكيل المدرسة الشرقية وامين مكتبتها وهو رجلٌ متضلعٌ باللغة العربية وغيرها من اللغات الغربية والشرقية وقد ساح في الاقطار السورية مدة ثلاث سنين وجلب كثيراً من تحفها واهداها الى المتحف وقد اراني مسروقاته هذه التي يحق لمثله ان يفتخر بها حبّاً بالعلم ولمثلنا ان يخجل لاهمالنا لهُ وقلة اعتنائنا به. هذا واني ساترك برلين في هذا المساء قاصداً باريس حيث أقيم اياماً ثم اقفل راجعاً الى مصر.

* * *

في باريس للمرة الثالثة

ولهُ من باريس في ٢٠ منهُ

تركت برلين كما قلت لكم في رسالتي السابقة يوم الاثنين الواقع في ١٢ الجاري الساعة الثامنة والدقيقة ٣٥ مساء ووصلت باريس ثاني يوم الساعة الخامسة ونصف بعد الظهر بعد سفر نحو احدى وعشرين ساعة بالسكة الحديدية وسأقيم فيها أياماً قليلة والمرجّح ان أكون في مصر في آخر هذا الشهر.

وباريس ولست اوّل قائل فيها ام المدائن جامعة بين العظم والرونق والفائدة. مزايا اجتمعت فيها وليست لسواها من العواصم الاخرى كفينا وبرلين ولندرا فان هذه وان فاقتها احياناً في شيء قصّرت عن ان توازيها في سائر الاشياء بشهادة الاخرين ولذلك لم تكن زيارتي لها للمرة الثالثة باقل منها فائدة في المرتين السابقتين.

باريس سيّدة المدائن كلها   قولٌ يدين لهُ العدوُّ ويخضعُ
ما زرتَها زادت لعينك رونقاً   كالمسك ما كرَّرتَه يتضوَّعُ

ولذلك ستبقى باريس زماناً طويلاً مقصد السائح والمحترف والطلب. وعدد الطلبة الاجانب فيها في كل فنٍ ومطلب بين رومانيين ويونانيين ومصريين وسوريين وغيرهم من سائر الامم كثير جداً وفيها من الطلبة اليونانيين وحدهم في الطب والشريعة وغيرهما من الفنون ما يزيد على خمسمائة طالب وهذا يريك اجتهاد هذه الامة القائمة في هذه الايام للمّ شعثها وينبئك بما يعدُّه لها المستقبل من التقدم. وفيها من الطلبة المصريين نحو ١٢ فقط ولم يسعدني الحظ بمقابلة جناب الاديب الفريد افندي عيد احد طلبة الطب وهو الآن في سنته الرابعة. وبلغني ان فيها من الطلبة السوريين اربعة فقط ولم اقابل احداً منهم.

ولا اقول ان باريس غاية في الاتقان والنظام والتعليم كلاّ فانه ينقصها اصلاح عظيم ايضاً ولكنها قابلة هذا الاصلاح من دون ان يحول دونه مشقات عظيمة لاننا إذا نظرنا اليها نظراً خالياً من كل غرض نقول ان المدينة تكاد تكون كما كانت عليه منذ عشرين او ثلاثين سنة خصوصاً في مستشفياتها وتعليمها بين ان الامم الاخرى قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه في ذلك العهد مثال ذلك المانيا وعاصمتها برلين فان هذه المدينة الاخيرة قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه سابقاً حتى صارت مدينة جديدة ولا يخفى ان التغير الى احسن اذا سار في سبيل عمَّ سائر السبل ضرورة. ومستشفيات باريس محتاجة الى اصلاح عظيم الاّ ان هذه المستشفيات كثيرة جداً لا يخفى وقديمة كذلك بخلاف اكثر مستشفيات برلين فانها حديثة. فضلاً عن كون المستشفيات العمومية فيها اقل ايضاً والقديم منها لا يفضل مستشفيات باريس. على انه يوجد في باريس بعض المستشفيات المبنية على قواعد الاتقان الطبي الحديث كالمستشفى المعروف «باوتل ديو» اي بيت الله فإن هذا المستشفى وان كان قديماً إلاّ انه من سنين قليلة غُيِّر وجُدِّد بناؤه. ومستشفى «سان

جوزف» ومستشفى تنون خصوصاً هذا الاخير فانه يعادل احسن مستشفيات برلين. على ان ذلك لا يقي هذه الامة الغنية الحاوية في دمها رقة الشرقي وذكائه وثبات الغربي من الملام ولا يدفع هذا الملام عن حكومتها وخصوصاً بلديتها. والنفقات التي يقتضيها هذا الاصلاح عموماً في زيادة الانوار وتعميمها وانشاء سكة حديدية تحت المدينة وفوقها كما في لوندره وبرلين واصلاح كثير من شوارعها ومستشفياتها وتعليمها الخ وان كانت كثيرة الاّ انها لا تلبث طويلاً حتى تعوّضها من نفس هذا الاصلاح. فباريس لا يلزمها الاّ نهضة صغيرة فتصبح البهج مما هي جداً مما لا يتيسر لسواها من المدن الا بمشقات عظيمة فلو قل اشتغال هذه الامة بانشقاقاتها الداخلية عما هو عليه وصرفت القوة المادية والعقلة المتوفرة لها من ذلك في سبل الاصلاح لهان عليها الاخر جداً ولنالت عاصمتها مركزاً اجتماعياً ادبياً وعلمياً يقصر عنه سواها.

قيه وعزٌّ يقلقل الاجبالا   شرفاً ينطح السماك برو

اما طريقة كوخ فبعد ان جربها الاطباء هنا بخلو غرض سياسي او وطني اقتصروا فيها على ما قاله كورنيل من القول الفصل كما ذكرته لكم اقتصروا عنها حتى انك لا تسمع لها ذكراً في مستشفياتهم. والظاهر ان من ميل الاطباء هنا الى استخدام اللمفا الطبيعية اي الدم المأخوذ من الحيوانات حقناً في الدورة لمعالجة العلل العفنية والضعفية آخذ مأخذاً ربما كان له شأن عظيم في المستقبل فقد سمعت البروفسور فرنويل يقول على سرير مريض به تقيح في الصدر. وانيميا شديدة من جراء ذلك ان احسن علاج لذلك حقنه بالدم ليس في الاوردة كما كانوا يفعلون منذ زمان طويل إذ لا يخفى ما يعترض هذه الطريقة من الصعوبة به حقنه بغرامات قليلة في النسيج الخلوي تحت الجلد تكرر من وقت الى آخر. قال وهذه الطريقة التي أوصى بها رشيه وهريكور من سنة ١٨٨٨ نافعة جداً وسهلة على كل طبيب ويشترط فيها ان يكون الدم دم حيوان لا يقبل بعض الجراثيم بسهولة وكان المعروف ان الكلب انسب الحيوانات لذلك إذ لا يخفى ان هذا الحيوان مشهورٌ بعدم قبوله للداء المعروف بالسل الاّ انه فيما يظهر من بحث الباحثين انه يوجد حيوان آخر يفضله بكثير وهو الماعز فان دمه فيما يظهر انقى دم عموم الحيوانات المعروفة واقله قبولاً للامراض ولكنه قال مع ذلك ينبغي عليكم في مثل هذه العلاجات وسواها من الطرق الجديدة ان تعرضوا المسألة بكل صراحة على المريض من دون ان تلبسوا عملكم لباساً خفياً وتحيطوه بسرٍّ مكتوم ولو ان تجاربكم ليس فيها ادنى خطر فكيف اذا كانت خطرة وهي اشارة لا تخلو من معنى في الايام الحاضرة. والظاهر ان دم هذا الحيوان الذي كان مرتاحاً من شر الانسان في الماضي سيصير مباحاً ويراق بكثرة عن قريب فقد انبأت اخبار «ننت» ان طبيبين من اطباء هذه المدينة وهما «بيك» و«برتين» قد جربا حقن دم الماعز في المسلولين ويقولان ان النتيجة الى الان حسنة جداً الا انها تجارب لا تزال حديثة العهد ولا يبنى عليها حتى الان حكمٌ. وسينبئنا المستقبل بما سيكون من امرها على انها معقولة.

وقد حضرت درساً للبروفسور «ديولافوا» في الهواء الاصفر ولما كان هذا الوباء قد تهددنا هذا العام ورأيت ان اوافيكم بخلاصة ما قاله البروفسور من هذا القبيل قال بعد ان بسط

الكلام على اصل هذا الداء وكيفية انتشاره واعراضه انه الى الآن ليس لنا علاج شافٍ فيه وانما لنا علاج واقٍ منه اكيد وهو ليس بالكرنتينا فان الكرنتينا ليس منها فائدة لان جراثيم هذا الداء قد تعيش زمناً طويلاً وتتخلل في اماكن لا يصل اليها التطهير البسيط واحسن وسيلة لاهلاكها الحرارة المرتفعة وقد اخترعت لذلك آلات مختلفة وافران متنوعة وافضلها فرن البخار المضغوط اولاً لانه يضمن قتل هذه الجراثيم وثانياً لانهُ لا يضرّ بالانسجة كما دلت عليه التجارب بخلاف الحرارة الجافة فانها تقتل المكروب ولكنها تخسر الانسجة ايضاً وقد وعدني جناب الاديب الفريد افندي عيد ان يلخص كلام البروفسور المشار اليه في الكوليرا ويبعث به الى الشفاء لينشر فيه.

ومن الذين تعرّفت بهم هنا الدكتور ستروس البكتريولوجي الشهير وذلك في معمله في مدرسة الطب وستروس المذكور احد اعضاء اللجنة الفرنساوية التي قصدت مصر عام ١٨٨٣ للبحث في الكوليرا وقد شاهدت في معمله الدكتور غماليا صاحب اكتشاف العلاج الواقي من الكوليرا كما ذكرنا ذلك في الشفاء من عهد غير قريب وقد اراني البروفسور ستروس مستنبتات خالصة من باشلس التدرن استنبتها حديثاً ولا يخفى ان استنبات هذا الباشلس صناعياً صعبٌ جداً لغاية اليوم إذ لا يمكن فصله واستنباته على الجلاتين او الاجار كغير من المكروبات والاخرى لضعف قوّتهِ الحيوية بالنسبة الى المكروبات الاخرى التي تقوى عليه وتهلكهُ ولا يستنبت حتى الآن الاّ بطريقة كوخ في مصل الدم بعد عملية طويلة وصعبة للغاية.

ومن الذين شاهدتهم في المعمل المذكور الدكتور سانشستولدو المكسيكي وهو من المساعدين المتخرجين في المعمل المذكور ولذكر اسمه اهمية لانه استنبت اخيراً مكروب التتنوس ولا يخفى ان هذا الداء معدودٌ اليوم من الامراض العفنية كما ذكرنا ذلك في اعداد الشفاء الماضية.

وقد حضرت درساً للبروفسور فورنيه طبيب الامراض الزهرية والجلدية في مستشفى سان لويس تكلم فيه عن التهاب الفم الزئبقي أقتضب منه ملاحظة واحدة نظراً لاهميتها السببية والتشخيصية قال: ان التهاب الفم الزئبقي يختلف بحسب ما يكون استعمال الزئبق عن طريق الفم ام عن طريق الجلد ففي الحالة الثانية تحصل العلة الالتهابية في الفم فجأة من دون دليل سابق ينذر بها وتهجم بكل شدّتها وبالضد من ذلك في الحالة الاولى فانها تحصل بالتدريج ويستدل عليها قبل استدادها ثم تكلم عن سبب هذا الالتهاب وذكر فيه رأيين اذكرهما هنا لما فيهما من الفائدة لاعمال الفكر والتأمل قال ذهب قومٌ الى ان سبب هذا الالتهاب في الفم تهييج الزئبق المفرز بالغدد اللعابية وخصوصاً الغدة النكفية للفم واللثة والظاهر ان هذا القول مردودٌ فيما يرى نظراً لكون العلة لو كان هذا سببها لكان ينبغي ان تبتدىء اولاً في مؤخر اللثة حيث ينصب اكثر اللعاب والحال انها تظهر في جميع الفم على حدٍ سوى والثاني ان وجود الزئبق في مفرزات اللعاب يجعل قابلية في هذا اللعاب لنمو مكروب فيه يحدث الالتهاب المعلوم في الفم واستدلّ على ذلك بنفع غراغر السليماني في التهاب الفم الزئبقي وهو نظرٌ ربما كان صحيحاً الاّ انه غريب ويبين ما صار للمكروبات من السطوة على العقول في هذه الايام حتى صاروا يرونها في الاحلام.

* * *

ذاكرتي

بقلم الدكتور شبلي شميل

صفحة من مذكراته لم تنشر*

يقول البعض إني قوي الذاكرة ويصفني غيرهم بأني ضعيفها وكلاهما مصيب. فما سبب ذلك؟ الناس يخطئون إذ يتوهمون أن الذاكرة واحدة وينبغي أن تكون هكذا لكل الأشياء على حد سواء. فالذاكرة أنواع كثيرة وترد إلى أصول تتفرع إلى فروع كثيرة أيضاً. فالأصول هي ذاكرة المكان وذاكرة الزمان وذاكرة الصور والأشكال وذاكرة الذوات. وتحت هذه تدخل ذاكرتي وليس لي من الذاكرتين الأوليين سوى نصيب ضعيف جداً. فلا أذكر التاريخ مطلقاً مهما كانت حوادثه معي ومهما حاولت أن أثبته في ذكري بالتكرار عند حدوثه. والمكان مهما ترددت عليه لا يثبت في ذاكرتي إلاّ إذا قرن بمصاحبات كثيرة. وذاكرتي للمكان ضعفها الحقيقي من التشتّت في أفكاري المصاحب لي دائماً. فإذا زرت المكان مراراً مصحوباً بدليل فقلما أذكره ولكن إذا عانيت مشقة أو اعتنيت وحدي به مرة أو أكثر ثبت في ذاكرتي ولكن إلى أجل قصير. أما صور الأشخاص فإني أكاد أذكرها دائماً ولا أنساها ولكني كثيراً ما أنسى حقيقة الذات التي هي لها فإني أعرف في الحال والصورة التي أكون قد نظرتها ولو مرة في حياتي ولكني لا أذكر صورة من هي. وإذا ذكرت الذات فكثيراً ما أنسى الاسم وهذا يعرض لي حتى مع الأشخاص الذين أراهم على الدوام ولا سيما إذا انقطعوا عني مدة ولو غير طويلة. أما الحوادث فيكاد ذكري لها يكون عجباً فلا أنساها مطلقاً ولا سيما تلك التي كان لها فيَّ أثر خاص في استحسان أو استهجان سواء شاهدتها بعيني أو قرأتها أو سمعت بها حتى أني لأذكر أموراً عرضت لي أو أمامي وأنا أصغر من ابن ثلاث سنين. وذاكرتي للمعاني هي في غاية القوة وأما ذاكرة الكلام فهذه تكاد تكون معدومة بالمرة فمهما كررت الحادثة أمامي فلا أستطيع أن أعيدها مروية بكلامها الأصلي ولذلك لم يكن حديثي على طلاوة في الأمور العادية التي تحسن فيها الرواية. وأما في المسائل الجدية التي يلزم فيها أعمال الفكر والاستنباط في الحديث فلي اسلوب يصغى إليه ويؤثر تأثيراً جاذباً للنظر لأني بمعانيَّ الجديدة غالباً استوقف ذهن السامع واستدعي استغرابه إن لم أكسب اعجابه. على أن قوتي هذه ليست في الحديث قدر ما هي في الكتابة. أما

ذكري لأعمالي وأقوالي وكتاباتي ـ حتى أني استطيع في بعض الأحيان أن أعيد مقالاً لي أو بعضه بعباراته المكتوب بها ولو بعد زمن طويل ـ فسببه الحقيقي هو أني في أكثر الأحيان لم أكتب إلَّا مندفعاً بدافع من نفسي لمؤثر عظيم فيها وقلما كتبت عن ضرورة كما يفعل أصحاب المصلحة من كتاب الصحف وسواها. وبل كان لي عادة خفَّت جداً في هذه الأيام الأخيرة وهي أني كنت حين أكتب أردد عباراتي على مسمعي حين كتابتي وبعدها ولذلك لم أكن ألتزم في الكتابة قواعد اللغة المألوفة من تقديم وتأخير بل اتبع فيها التوقيع كناظم الشعر أو الموقع الموسيقي فلذلك كانت هذه العبارات تطبع في ذاكرتي إلى أجل بعيد وأحياناً تبقى معي دائماً وهذا هو السبب الحقيقي الذي جعل بعضهم يعتقد فيَّ قوة الذاكرة وهي بالحقيقة أميل فيَّ عموماً إلى الضعف. وخلاصة كل ذلك أن ذاكرتي إنما هي ذاكرة تعقل.

***

الطيف على تخريج العلوم الحديثة

أكثر الشعراء ونوعوا ما شاءت ضروب البيان والبديع في وصف الطيف فظنناهم ما غادروا من متردم كقول عنترة ولكن الشميل رحمه الله قد استوحى العلم التحقيقي والبحث الفلسفي فأوحيا إليه فكراً جديداً شبيهاً بالمبتكر جاء مزجاً بديعاً من الحقيقة والخيال في وصف الخيال:

ثقلت عليه مطارف الغبراء ... فأتى يزمِّل في رداء سماء
يا طيفه في الحلم أنت حقيقة ... جزت الأثير وجئت في الظلماء
وهل الجسوم سوى النفوس سواكتاً ... وثوائراً ملأت فسيح فضاء
لا تكثروا من عاذل شكوى فهل ... جازت عليكم حيلة الشعراء
إن القلوب إذا تقاسمت الهوى ... ماذا يضرّ تكاثر الرقباء
وإذا النفوس صبت فليس يضيرها ... بون العهود وشاسع الأرجاء
وهل النفوس عتيقها وجديدها ... إلَّا سواء في هوى ومضاء
وهي القديمة في بقاء دائم ... وهي الحديثة في دوام بقاء
يا طيفه دم لي على رغم النوى ... هذا القليل لديك فيه كفائي

شبلي شميل

---

* مجلة الهلال، السنة ٢٦، اكتوبر ١٩١٧ (يوليو ١٩١٨)، ص ٤٩ ـ ٥٠.

طرائف ولطائف

من مذكرات الدكتور شميل

للمرحوم الدكتور شبلي شميل مذكرات ضمنها حوادث ونوادر ممتعة شيقة يتعلق معظمها بأركان النهضة الحديثة وكبار الأدباء المتأخرين ممن كانت له صلة بهم. وقد تفضل الاستاد جبرائيل بولاد شميل فأذن للهلال بنشر الصفحات الآتية من هذه المذكرات قبل طبعها. وإنها لمنة نشكرها له آملين أن لا يتأخر صدور هذا الأثر النفيس الذي يتشوق كثير من المتأدبين إلى مطالعته.

[المحرر]

. . . ومن المقالات التي لي ونشرت في جريدة «مصر الفتاة» مقالة انتقدت فيها قانون المطبوعات وهو القانون المعمول به اليوم والذي وُضعت مواده حوالي سنة [صُدِّر القانون في ٢٦/١١/١٨٨١] ولكن لم يعمل به في ذلك الحين. ومضمونها أن الآلات التي يخترعها الانسان ليست إلَّا أعضاء متممة لأعضائه الطبيعية فلا يجوز أن يسن لها قانون غير القانون المسنون لنفس هذه الأعضاء وهو القانون العام فإذا كنا نستطيع أن نسعى برجلينا إلى الشر ونعمله بيدينا فهل تقيِّد رجلانا ويدانا قبل العمل بالقيود وإذا كانت لا تقيد ولكننا نعاقب إذا أتينا بها منكراً فالذي يطلق على الأعضاء الطبيعية يجب أن يشمل حينئذٍ الأعضاء الاضافية، والطباعة من هذه الأعضاء فيجب أن تترك لها الحرية كما تترك لليدين والرجلين حتى إذا جنت أخذت بجناياتها نظيرها.

وكأنه بلغني أن واضع بنود هذا القانون رجل فرنسوي طريد الحرية في بلاده أو طريد أكثر منها يدعى بورلي فكتبت له حينئذٍ كتاباً باللغة الفرنسوية أوجه نظره إلى مقالتي هذه المنشورة في مصر الفتاة وقد أرسلت له نسخة منها ثم ختمت كتابي بقولي:

«إني لأعجب كيف أن رجلاً نظيرك طريد الحرية يقبل أن يضع بنود مثل هذا القانون. ولكن يظهر أن لسماء مصر تأثيراً خاصاً على العقول.» ولم أزد على ذلك.

والظاهر أن صاحبنا وهو في إبان نفوذه في قلم قضايا الحكومة في ذلك الحين (يوم مسألة «مقاطن جبل الزيت» وظهور العملة المزيفة التي أثرى بها أناس تحنى لهم الرؤوس اليوم وترفع لهم القبعات) لم يألف عندنا مثل ذلك فكبر عليه أن يخاطب بمثل هذه اللهجة من رجل مجهول وهو في هذا المقام من النفوذ فهاج وماج وتوعد وأخذ

يسأل من أكون أنا كما بلغني بعد حين من الموظفين في مصلحته وبعضهم وهو ن. . . ع. . . لا يزال حياً يسعى حتى اليوم. والظاهر أنه حاسب نفسه بعد ذلك فعرف أن الحق أغلب وأن صاحب هذا القول لا يخشى تهويلاً فصمت وانفض هذا الاشكال ولكن من دون رد على خطابي كما كان يفعل أكابر القوم في بلاده وكأنه جرى في ذلك مجرى أكابرنا في بلادنا لأن كل شيء يعدي والقبيح عدواه أسرع من عدوى الحسن.

***

فإني أذكر يوم كنت في فرنسا ثم خطر لي أن أعود على حين فجأة ولم انبىء أهلي حتى يعلموا إلى أين يخاطبونني فكتبت إلى وزير البوسطة أعلمه بأني راجع إلى القطر المصري وأعطيته عنواني ورجوته إذا ورد لي مراسلات أن ترسل إلى عنواني في الاسكندرية فما وصلت الاسكندرية حتى ورد لي كتاب من الوزير المذكور يقول فيه: «سنعمل بحسب تعليماتك».

وهنا في مصر زرت مرة عارضة الوكالة البريطانية وقيدت اسمي بين الزائرين وكان ذلك على أثر عودة اللورد كرومر من إجازته. قلت عارضة لأني كنت متوجهاً إلى النزهة ومعي الدكتور نمر فلما اقتربنا من الوكالة البريطانية قال لي الدكتور: اسمح لي أن أمر وأقيد اسمي تسليماً على اللورد. ولما وصلنا إلى الباب قلت له ادخل أنت وأنا أنتظرك في العَرَبة ولكنّه ألحَّ عليَّ أن أدخل معه من قبيل المجاراة. فما مضى أربع وعشرون ساعة حتى كانت بطاقة اللورد في بيتي. بل اني كتبت له مرة كتاباً في طلب العفو بعض مذنبي الصحافة من الطاعنين على ملكة الانكليز بمناسبة طلبي مثل ذلك من الخديوي فاعتذر ولكنه رد على كتابي.

ثم عرض لي بعد ذلك بزمان أن كتبت كتاباً فخماً بموضوع من أهم الموضوعات التي يذكرها لي التاريخ بالفخر (أقول ذلك ولا أخشى انتقاداً) استدعاء له وبعثت به على كرهٍ مني بإيعاز بعضهم إلى رجل من أعظم رجالنا متصف كما يقولون بسعة المدارك وانه إلى آخر ما يصفه به المحدثون والمطبلون المزمرون على صفحات الجرائد فكان جوابه كجواب موسى كما في رسالة المعاطس** لما قرعت بابه في السماء حين صرخت «يا موسى يا زعيم الأنبياء فكنت كمن يخاطب ركوضاً صماء».

** وهي رسالة كتبها شميّل ونشرها في كراس مستقلّ (٢٤ صفحة) عند نهاية القرن الماضي (حوالي سنة ١٨٩٨)، واعتبرها صدى لرسالة الغفران لأبي العلاء المعري. ووضع عليها اسماً مستعاراً هو: «ابن جلا» أما إشارة شميّل في مطلع الفقرة، فالمرجّح انها إلى رسالته المرفوعة للسلطان عبدالحميد (١٨٩٦) بعنوان «شكوى وآمال».

وهذا يدلك على البون الشاسع بين الغربي والشرقي في أخلاقهما والأخلاق في نجاح الأمم قبل العلم. والشرقي اكتسب هذه الأخلاق الساقطة اكتساباً لا أنها عريقة فيه من يوم كان في عزه وأوج مدنيته. اكتسبها من المظالم والمخاوف بعد سقوطه من ذرى مجده ووقوعه في حكم دول الجهل والاستبداد فاضطر المحكوم إلى الكذب والرياء هرباً من ظلم القوي ولأن الحاكم بالصَلَف والكبرياء لقلة اعتداده بالمحكوم الضعيف حتى صار ذلك سجية في الطبع.

وكم عانيت في أول نشأتي من الدهشة والألم من هذه الأخلاق. فيضرب لك الرجل الضخم العريض ميعاداً أو يعدك وعداً ويقسم لك الايمان المغلظة وليس ما يحرجه إلى الحلف فيجيء الميعاد وهو كأنه لا يعلم من ذلك شيئاً. والضد من ذلك الانكليزي على نوع خاص فإذا وعد لا بد أن يفي فإن كان باتمام عمل فإما أن يقضيه في الحال إن كان مستطاعاً وإما أن يقول لك دعني أفتكر إلى أجل يضربه لك فإذا جاء الأجل وأنت تظنه على هوى طباعنا قد صرفك بهذا القول كثيراً ما تراه قاضياً لك غرضك على ما تحب وما كان طلبه المهلة إلاّ للنظر حقيقة في الممكن وعدمه. وإذا ضرب ميعاداً فأيقن أنه يوافيك في الميعاد. وقد عرض لي مع الدكتور ستدويت أن ضرب لي ميعاداً لمقابلتي في ساعة كذا لا لطبابة ثم لما تركني تذكر أنه مضطر في هذه الساعة أن يكون في الوكالة البريطانية وكان لا يعرف بيتي وإنما يعرف الجهة التي أقطن فيها فركب عربة وأخذ يجول ويسأل حتى اهتدى إليه وترك لي خبراً بذلك.

والأغرب أنك لا تكلم أحداً منا بأمر مهما كان إلاّ ويجيبك على الفور «حاضر. على رأسي» فيضرس [فيغرّر] بك مدة من الزمان وهو لا ينوي أن يسعى إلى أمرك حتى ولا على رجليه. وقد عرض لي أول ما أتيت إلى القاهرة أن قصدت مصلحة سكة الحديد لمقابلة مديرها الوطني في ذلك الحين وبيدي بطاقة زيارة من نوبار باشا للوصول إليه فاستقبلني المدير على الفور بالطبع وقبل أن أصرح بغرضي أخذ يقول لي «حاضر. حاضر.» وأنا كنت ممتلئاً من هذه اللفظة فعوضاً عن أن أسر تكدرت وقلت له «يا سعادة الباشا أرجو أن تستوعب كلامي أولاً وتفهم غرضي ثم تجاوبني عليه وإني لأسر حينئذٍ من رفضك لي أكثر جداً من قولك حاضر قبل أن تفهم ما أريد وربما كان الذي أريده ممتنعاً قضاؤه عليك. لأن هذه اللفظة اسمعها كثيراً على الفارغ حتى صار تأثيرها عندي شراً من الرفض» وكان ذلك أفعل في قضاء غرضي من بطاقة نوبار باشا نفسها.

وما ذلك منا نحن الشرقيين إلاّ لأن الشجاعة الأدبية تنقصنا بسبب ما توالى علينا من الضواغط كما تقدم فنخادع بعضنا بعضاً بطلاقة اللسان كما نخادع حكامنا بإظهار رضانا عنهم ونحن من ظلمهم على أحَرّ من الجمر.

***

وأغرب من ذلك كله ما وقع في أول ممارستي صناعة الطب وكان ذلك في مدينة طنطا فكان احتكاكي بالفلاحين حينئذٍ كثيراً فكان كلما أتاني مريض أفحصه واكتب له الدواء ثم أطلب منه قيمة العيادة فيجيبني على الفور «أنا لسًّا شفت حاجة. قاولني». وكان لفظة قاولني تفعل بي حينئذٍ فعلاً سيئاً جداً لأني كنت أعتبرها مهينة للطب والطبيب معاً ولا سيما أن المريض كان يعني بها أن أقاوله لا على المتاعب بل على الشفاء. والظاهر أن الذنب في ذلك على الأطباء أنفسهم وكانوا في ذلك الحين وقبله كلهم من أطباء الحكومة وكم لهم من المواقع المأثورة مع الفلاحين خصوصاً في ذلك العهد. وما زالت هذه اللفظة تتكرر على مسامعي كلما عرض لي أن أعالج مريضاً من هذه الفئة وأنا أدفعها تارة بالبيان وتارة بالغضب حتى فرغ صبري. فاتفق لي ذات يوم وأنا في الصيدلية أن جاءني مريض يستشيرني. فبعد أن بحثته كتبت له الدواء وأردت الانصراف فطلبت منه ريالاً واحداً على العيادة فأجابني على الفور بنفس الكلام الذي تعودت أن أسمعه «أنا لسا شفت حاجة. قاولني». فانتقضت ثم قلت في نفسي عاقبته، وجاوبته على الفور بقولي «قاولتك بعشرة جنيهات تدفع نصفها سلفاً». فقال «هذا كثير». قلت «كم إذن». قال «ستة جنيهات فقط». قلت «قبلت ونصفها مقدم». فنقدني ثلاثة جنيهات ووصفة الدواء بيده لم تتغير حتى تقول إن المريض يأمل بمثل هذه الشروط أن يعتني به الطبيب أكثر. وهذا «وجه الضيف» كما يقولون فإني لم أره بعد ذلك ولا شك أنه شفي لأن مرضه كان بسيطاً كما تقدم فلم يرجع لئلا يضطر في زعمه إلى أن يدفع لي تتمة المقاولة التي لم أكن انتظرها مطلقاً وهو لا شك ظن بذلك أنه غلبني بعدم عودته ودفعه الباقي. فتأمل كيف أنه أبى أن يدفع ريالاً ودفع عن رضى وطيبة نفس ثلاثة جنيهات ولم يتغير شيء في علاجه.

وما خلا ذلك فالشرقي عموماً مضياف كريم يصرف عليك في بيته ما تحب ولا سيما في البلاد الداخلية حيث العيشة الفطرية غالبة بخلاف الغربي فإنه يحاسب ضيوفه على العدد ويطردك من الباب إذا كنت غير مدعو وذلك من مقتضيات المدنية والرفاهية التابعة لها حتى لا يكون هناك فوضى تأباها العيشة المنظمة.

الشرقي خجول كثيراً لا يقوى على رفض ما لا يرغب وهو فخور يضنك نفسه أحياناً كثيرة في ما فيه مظهر بين الجمهور أو تقرب من أمير. وكرمه من هذا القبيل ليس كرماً حقيقياً لأنه كثيراً ما يكتتب في مشروع فخري بالكثير لعلمه أنه سينشر على صفحات الجرائد أو يتحدث به في مجالس القوم ثم عند الدفع يحاول ويماطل وكثيراً ما يهدم باليد الواحدة ما بناه باليد الثانية عن فخار كاذب. فكرمه غير مرتب وهو فيه غير كبير غالباً بالمعنى الحقيقي. وقلما يمد يده بسخاء للمشروعات النافعة أو الخيرية لأن سخاءه محدود فلا يسمح له أن يجود باللازم لاتمام عمل من الأعمال للاستئثار بالفخر

وحده كما يرغب ولأن اشتراكه مع سواه في ذلك يزيل منه الغاية التي يقصدها من هذا الظهور ولذلك هو قليل التضامن في كل الأمور الاقتصادية والخيرية وكل ما يلزم له التعاون والتعاضد. وإذا كان الجود لا يذاع فلا تنظر على الغالب أن ترى من الشرقي كرماً مأثوراً. على أن هذه الأخلاق أخذت تتغير كثيراً في المصري اليوم بالتربية الحديثة وأخذ التضامن يقوى فيه ولكن أقواه حتى الساعة في المشروعات القائمة على العواطف كما دلت عليه أعماله في مواقف كثيرة وأما في المشروعات الاقتصادية وسواها من مقومات الاجتماع فلا يزال هذا التضامن فيه ضعيفاً. وأما في شعوب المملكة العثمانية فهو في الغالب معدوم في كل شيء أو هو حتى الساعة أثر من عين. بخلاف الغربي فإن كرمه الفخري قليل وجوده النافع كثير.

شبلي شميل

بحثته [فحصته]

* **الهلال**، ج ١، السنة ٣٢، ١٩٢٣ - ١٩٢٤، ص ٢٤ - ٣٠.

** «رسالة المعاطس»، لابن جلا (وهي صدى رسالة الغفران للمعرّي).

الرحلة الثانية الى اوروبا
لزيارة معرض باريس: ١٨٨٩

معارض باريس

[المقتطف، ج ١٣ (١٨٨٩)، ص ٦٤٧].

في السادس من الشهر الماضي (مايو) فتح المسيو كارنو رئيس الجمهورية الفرنسوية معرض باريس كما أبنّا تفصيل ذلك في المقطم. وهذا المعرض هو الرابع من معارض باريس العمومية وحدث فيها قبل هذه المعارض العمومية معارض خصوصية أولها سنة ١٧٩٨ وكان فيه كثير من المصنوعات والصور والأدوات الحربية والآنية الصينية وسنة ١٨٠١ أقام نابوليون بونابرت معرضاً ثانياً وعزم أن يعيده مرة كل سنة فأعيد في سنين مختلفة إلى سنة ١٨٤٩ وكان معرض سنة ١٨٤٩ عاماً لكل مملكة فرنسا وبلغ عدد العارضين فيه ٤٥٣٨ ثم عزمت الحكومة الفرنسوية ان تنشىء معرضاً عاماً تفتح أبوابه لجميع الممالك والشعوب فأنشأت معرض سنة ١٨٥٥ وهو المعرض الأول العام وبلغ عدد العارضين فيه ٢١٧٧٩ وسنة ١٨٦٧ انشأت معرضاً آخر عاماً فتحت أبوابه في غرة ابريل (نيسان) ودام إلى السادس والعشرين من اكتوبر (تشرين الأول) وكان ثمن ورقة الدخول فرنكاً واحداً فبلغ المال المجموع من ذلك نحو عشرة ملايين فرنك وزار هذا المعرض السلطان عبدالعزيز وقيصر روسيا وامبراطور النمسا وملك بروسيا وخديوي مصر وملك آسوج وملك بلجيكا وملك اليونان.

وسنة ١٨٧٩ فتحت المعرض العام الأخير وكان عدد الداخلين إليه أكثر من ستة عشر مليوناً والمال المجموع منهم ثلاثة عشر مليون فرنك. ودخل هذا المعرض في يوم واحد وهو الخامس عشر من اوغسطس (آب) ١١١٩٥٥ نفساً. وكان عدد العارضين فيه ٥٣٠٠٥ وبلغ عدد النياشين والشهادات التي أعطيت فيه ٢٩٥٠٠.

الرحلة الثانية الى باريس: ١٨٨٩

الدكتور شميّل

بارحنا جناب صديقنا الفاضل الدكتور شبلي شميل قاصداً معرض باريس ومجامع العلماء والاطباء ليروّح النفس من عناء الاشغال ويطلع على اختبار غيره من رجال العلم واننا لعلى ثقة انه حينما حضر في المجامع العلمية يكون خير مثال لعلماء المشرق الذين اتقنوا العلوم الحديثة وقرنوا العلم بالعمل.

زيارة باريس في الذكرى المئويّة الأولى للثورة الفرنسيّة ١٧٨٩/١٨٨٩

تزامنت رحلة الدكتور شميّل الثانية إلى أوروبا لزيارة معرض باريس والاطلاع على أحدث مكتشفات العلم والعلاج الطّبي مع الذكرى المئوية الأولى للثورة الفرنسيّة. ولا يمكن للباحث والدارس في كتابات شبلي شميّل ومؤلّفاته من إغفال التقدير البارز لدور الثورة الفرنسيّة والتأثير الذي مارسته افكارها على المفكرين الاصلاحيين والنهضويين في المشرق العربي. وهو تأثير يتجلّى على خير وجه في كتابات الدكتور شبلي شميّل وآرائه السياسيّة والإصلاحيّة. مثلما انه يستحقّ دراسة مفصّلة ومسهبة وموثّقة من شأنها الكشف عن الدور الريادي والفعّال لأفكار الثورة الفرنسيّة في الشرق - على غرار ما فعله رئيف خوري في دراسته القيّمة.

---

* المقتطف، جزء ١٠، ١ تموز (يوليو) ١٨٨٩، المجلد ١٣، ص ٧٨٢

أرباح فرنسا من معرضها عام ١٨٨٩

وخسائر مصر بسبب الحوادث العرابية سنة ١٨٨٢*

قدروا أن فرنسا ربحت من الأجانب وعموم الذين زاروا معرضها عام ١٨٨٩ مبلغ ١٧٥٠ مليون فرنك. قال موسيو «نيمارك» مقرر ذلك وهذا ليس بشيء يذكر قبل الفائدة الأدبية التي اكتسبتها البلاد والشهرة والشرف العظيمين اللذين نالتهما بقيامها بمثل هذا العمل العظيم ونجاحها. انتهى

وقدّر بعض الثقات خسائر مصر بسبب الحوادث العرابية بنحو عشرين مليون جنيه نقول وهذا ليس بشيء يذكر قبل الخسارة الأدبية التي خسرتها البلاد من فقد الثقة الادارية وتمزيق الجامعة وفتح الباب لتداخل الأجانب في شؤونها. وفي هذا المقام نروي ما سمعناه بأذننا يوم تلك الحوادث المشؤومة من القول الذي يعد آية في الحكمة. وكنا وقتئذٍ واقفين على محطة طنطا ننظر ولكن بعين الكئيب إلى تلك الجموع المتقاطرة للمهاجرة وبينهم المعدم والمريض والرضيع والطالق على قطارات يملأونها وهو وقوف لضيق المكان وكان واقفاً بجانبنا سعادة اسماعيل باشا صفوت (اسماعيل بك وقتئذٍ) فسمعنا من ورائنا صوتاً يقول بعبارته ولهجته (الفلاح إذا تمدن جاب الداهية لبلاده) يريد بذلك عرابي وأتباعه فنظرنا وإذا بالقائل أحد صبيان الطائفة المعروفة (بالبويجيّة) لا يتجاوز سنه الرابعة عشرة. فنظر إليّ اسماعيل باشا ونظرت إليه وتبسمنا تبسم المألوم وتذكرنا المثل الحكمة كثيراً ما تكون على أفواه الصبيان والأطفال. نقول والحكيم من استفاد من أغلاطه فقد كفى ما بنا من التفريق بين الجنسيات والملل والمذاهب تحت لواء واحد وقد آن لنا أن نفهم أن هذه المسائل لا يشتغل بها كبار العقول وانها لا تزيدنا إلّا ضعفاً والطامعين فينا إلّا تداخلاً وان شئنا أن لا يهرب أبناؤنا من تحت لوائنا فلنعدل في أعمالنا. ولنحترم أولاً أنفسنا ليحترمنا سوانا فما أحوجنا إلى التعاون للم شعثنا والاشتغال بعظائم الأمور التي تقوى بها الأمم وتسود الممالك والأعراض عن مثل هذه الصغائر التي تنحط بها. أكثر الله بيننا من كبار النفوس الصادقين الذين لا يتحولون في السراء والضراء وأبعد عنا صغار النفوس الكاذبين المنافقين المتلونين الذين لا ذمام لهم يميلون مع الهوى كيفما مال ينكرون في الغد الاله الذي كانوا يصلون له في الأمس وفتّح الله أعيننا لنعرفهم من بيننا فقد يكونون من أكثر المقربين إلينا.

---

* مجلة الشفاء، ج ٤، السنة ٤، أول مايو (أيار) ١٨٩٠، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

«تبّاً لدهر رجاله صبيانٌ كبار»

١٨٨٨

[الشفاء. جزء ٣، السنة ٣ (١٥ نيسان، ١٨٨٨) ص ١٠١]

وكلما تأملنا ذلك وقابلناهُ بما نعلمهُ من فتور همتنا نحن الذين نقرأ اللغة العربية حتى لقد يذرى على الصحيفة غبار القبور وهي بين أيدينا ملفوفة لا نفتحها أو مفتوحة لا نقرأها أو مقروءةً لا تحرك منا ساكناً ولا تستجلي لنا فكراً ولا تستدعي منا ملاحظة كأنها كفنٌ وكأننا موتى (نقول كلما نرى ذلك كلهُ) نستعظم هم أهل أوربا ولا نستغرب تقدُّمهم ونيأس من اصطلاح حالنا ولا نستغرب تأخرنا. والذي يزيد يأسنا يأساً وقنوطنا قنوطاً ما نراهُ فينا من مفاخرتنا لهم احياناً بتذكر مجد آبائنا وحقارة آبائهم كأنّ مجدنا النليد يحط بقدر مجدهم الطارف وانّا لعمر الحق لنفضّل احتقار القائل فيهم «بئس الجدودُ ولكن نعم من ولدوا» على افتخار القائل فينا «نعم الجدودُ ولكن بئس من ولدوا» فإن الإرتقاء شرف للإنسان والتقهقر حطّةٌ لهُ فنعمَ العاصي إذا أمَّ وبئس العظامي إذا رمّ. فكأننا موتى إلّا عن الأعمال التي يدفعنا إليها التحاسد والتباغض فلا يحركنا محرك المنفعة ولا نفهم لها معنى ولا نعرف فها قيمة حتى تصيب من انفسنا مكان ألم ولا نفهم الفضل ولا نعرف الاعتراف بهِ ولا نعرف إلّا باعث الانتقام فكأنّا لا نحس إلّا بما يوجع ولا نستثني من ذلك امراءَنا ورجال معارفنا فقل لهؤلاء انّا احتقرناكم وسيحتقركم التاريخ معنا وهو اصعب قاضٍ فتباً لدهر رجالهُ صبيان كبار:

وإنما نحنُ في جيلٍ سواسيةٍ شرٌّ على الحرّ من سقمٍ على البدنِ
حولي بكل مكانٍ منهمُ خلقٌ تخطي إذا جئت في استفهامها بمنِ

والرجل الحرُّ من لا يخدع بتمليقهِ وان سرّ التمليق فقد كفى التمليق ما ضر بل من يقول الحق وان ثقل الحق على الكواهل ولا يثقل الحق إلّا على كواهل اهل الباطل واغضاب هولاء احب إلينا من كل الفضائل بل اغضابهم خدمة في سبيل الأمة والوطن مطلوبة من كل حرّ الشمائل:

سبقتهمُ إلى التنبيه طرًّا بعزمٍ ثابتٍ حرٍّ قويٍّ
وكم حرّضتهم تحريض عيسى ولكن لَيس لي سيفي النبي

«نحن الذين نقرأ اللغة العربيّة»

[الشفاء. جزء ٣. سنة ٣ (ابريل ١٨٨٨) ص ١٢٢ - ١٢٣]

فلو كان ما بي من حبيبٍ مقنعٍ عذرتُ ولكن من حبيبٍ معمَّم
رمي واتقى رميي ومن دون ما اتقى هوىً كاسر كفي وقوسي واسهمي

الظاهر انَّا اخطأنا لأنا قلنا ان أهل الشرق موتى من حيث العلم وان رجالهُ صبيان لا يحِسُّون إلاَّ بما يوجع بكلام يرسخ في الذهن ولا يذهب ادراج الرياح. والدليل انَّا اخطأنا هذا الإنذارُ المشدد الذي ورد إلينا من عنديات قلم المطبوعات ونظارة الداخلية. ونحن نثبتهُ هنا مع الشكر لأنا ان كنا مخطئين في ما قلنا فهو حجة علينا يطلب منا ان نعترف بها ولا يليق بنا ان نهرب منها. وان كنا مصيبين فلا تقل انهُ حجة لنا بل قل إني لأعذرهم. ونعم العمل عملٌ يحمدهُ التاريخ.

على ان كلامنا الموجه إلينا «نحن الذين نقرأ اللغة العربية» كبارنا وصغارنا امرائنا وصعاليكنا علمائنا وجهلائنا ينطبق على مصر كما ينطبق على الشام. وعلى الشام كما ينطبق على العراق. وعلى العراق كما ينطبق على بلاد المغرب الخ. فهو عام على جميع الأقطار العربية. فقول نظارة الداخلية «عرضتم باللوم على قوم مخصوصين بل صرحتم بالمطعن على بعضٍ الأمراء ورجال المعارف» لا يستفاد من نص عبارتنا وإلاَّ فمن هو هذا البعض المعيَّن فليطلبنا للمحاكة. ومصر اليوم تحكمها الشريعة لا الاستبداد. وإلاَّ فان كنا قد تكلمنا في العموميات فهذا من حقوقنا بل من حقوق كل كاتب. ولا ريب ان في الأمر سوءَ فهم. وإلاَّ لما بادرتنا النظارة المذكورة بمثل هذا الإنذار المثبط للهم جزاءَ اشتغالنا بالعلم سنين عديدة غير مأجورين عن شغف في النفس ومقاصد عامة نبيلة لا عن تكلف في الأمر واغراض خصوصية دنيئة. وإلاَّ لسلكنا سبلاً أُخرى اقرب الى الجدوى. إلاَّ ان الناس مذاهب النفوس مراتب. ولا نقول ذلك من باب المفاخرة. بل ان كنا قمنا على ما بنا من الضعف والانفراد بعبء عمل من الأعمال المفيدة فكل عضو من اعضاء الهيئة الاجتماعية مطلوب منهُ ان يقوم بعمل اعمَّ من ان يختص بنفسهِ وإلاَّ عدَّ فيها عضواً ساقطاً. ولا فضل لمن يقوم ببعض ما يجب عليهِ نحو ابناء جنسهِ ولكنهُ يعدم كل فضل إذا تخلَّف عنهُ فإن كنا قلنا ان الشرق (ولم نستثن) في خمول علميّ وادبي فما نظن احداً يكذّبنا. وان كنا استعملنا القسوة ولم نستعمل اللين فما قصدُنا والداءُ دفين إلاَّ ان يكون وقع ندانا اشد من اذهاننا والدواءُ ينبغي ان يكون على مقدار الداء. وإلاَّ فإننا لم نقل شيئاً لا يقولهُ سوانا من كتَّاب الجرائد ذات الشأن الذين هم بين ظهرانينا كل يوم بل كثيراً ما يقولون اشدَّ منهُ بل لم نقل شيئاً لم يقلهُ الأستاذ الشهير الدكتور فرخو الألماني في خطابهِ في الجمعية الطبية المصرية. ولكن «عين الرضى عن كل عيب كليلة».

وان كنا قد ندّدنا بمساوينا فلعلمنا الأكيد ان الأمم الراقية في التمدن هي التي تشتغل بمعايبها لإصلاحها لا التي تشتغل بإخفائها وتزيين محاسن لها غير موجودة فإن ذلك تزيين سيء العقبى. وما قصدنا بذلك كلهِ إلاَّ الحث على المعالي والترفع عن الدنايا لعلَّه يصير لنا ذاتية نعرَف بها فلا نكون على بدن الهيئة الإجتماعية كالحلم على بدن الإنسان لا نحسن نسج ثوب ولا صنع ابرة. وهو مقصد نبيل مطبوع على كل ما خطهُ قلمنا من يوم كتبنا فلا نتحوّل عنهُ ولا نخاف اللوم في سبيلهِ.

لويس الرابع عشر ولويس السادس عشر
٢٢ يوليو (تموز) ١٨٨٨
الكبير بوزرائه والصغير بوزرائه

وأما كتابكم إلى نظارة الداخلية في انتصاركم للشفاء فهذا لا علم لنا بهِ إلاَّ من الصورة التي ارسلتموها لنا فجواباً عليهِ نقول انهُ لم يكن عندنا ادنى ريب في حبكم للإصلاح وانتصاركم للمشروعات المفيدة إلاَّ انني ارجوكم ان تسمحوا لي بأن اقول لكم بأن لويس الرابع عشر لم يكن كبيراً إلاَّ بوزرائِه ولويس السادس عشر لم يكن صغيراً بوزرائه.

تعليق شميّل على زيارة امبراطور المانيا
إلى تركيا وبلاد الشام: ١٨٩٨

«ولا تستغرب، أيها القارىء، إذا قلت لك ان في كل تركيا ومصر لا يوجد مستشفى واحد للأطفال فالحكومة تعتذر من عدم وجود المال (إلا إذا شاءت) وغالب اغنياء الأمة ليس فيهم من يفهم قوة هذه الأعمال لجهلهم وقلة عقلهم مع ان الذي انفقتهُ حكومة تركيا ومصر على سياحة امبراطور غني كان في امكانه ان يسوح على نفقتهِ وما تنفقهُ الأمة من وقت إلى آخر على الاحتفالات الصبيانية البليدة كان وحده يكفي لإنشاء مستشفيات تأوي فيها اطفال البلدتين معاً».
(من مقالة «رجال الغد»)

انظر في المقتطف. ج ٢٢ (ديسمبر ١٨٩٨) ص ٨٨١ - ٨٨٧]
«ضيفا السلطنة: امبراطور المانيا وزوجته».

تاريخ الجبرتي وترجمتهُ الفرنسوية

[المقتطف. ج ١٣ (ديسمبر، ١٨٨٨) ص ٢١٦]

نحن في زمان تترجم بهِ كتب الافرنج إلى لغة العرب ولشيوع ذلك صارت ترجمة كتب العرب إلى لغات الافرنج في هذه الأيام امراً يستغرب ذكرهُ لشدة ندورهِ كترجمة تاريخ الجبرتي إلى الفرنسويَّة بقلم ابناء الامصار الشرقية فإن كثيرين لم يصدقوا بها حتى رأوها مرأى العين في مكتبة المقتطف وغيرها من المكاتب. ولا يخفى ان تاريخ الجبرتي هو التاريخ الوحيد الذي يعوَّل عليهِ لمعرفة اخبار مصر في القرن الثاني عشر للهجرة (والثامن عشر للميلاد) في أواخر ايام المماليك وزمان الحملة الفرنسوية وأوائل أيام المغفور لهُ محمد علي باشا. ولما كان اكثر المؤرّخين من الافرنج يجهلون اللغة العربية والذين يعانون درسها منهم لا يحسنون فهمها ولم يفهم من يترجم لهم هذا التاريخ كما ترجموا تواريخ الأزمان السالفة كانت مؤلفاتهم قاصرة من هذا القبيل لا تفي بحاجة من يطلب الوقوف على أحوال مصر في الزمان الذي نحن بصددهِ وهذا ما حدا جماعة من الكتَّاب السابقين علماً واجتهاداً وإقداماً وهم عزتلو افندم شفيق بك منصور وعزتلو عزيز بك كحيل وعزتلو جبرائيل بك كحيل ورفعتلو اسكندر افندي عمون إلى ترجمة هذا الكتاب المستطاب ترجمة دقيقة صحيحة مطابقة للأصل قدر الاستطاعة وتعهدت لهم الحكومة السنيَّة بطبع الكتاب على نفقتها. وقد أُهدينا المجلد الأول الذي صدر منهُ مطبوعاً في مطبعة بولاق البهيَّة فالفيناهُ غاية في الايضاح والصراحة مفتتحاً بفصل في سيرة المؤلف. حاوياً لما جرى في مصر من بداءة القرن الحادي عشر للهجرة إلى سنة ١١٤٢ وهي سنة توفي السلطان محمود مختوماً بملحق في ذكر الذين ماتوا في ذلك الحين من العلماء والأعيان. مطبوعاً طبعاً متقناً محكماً. هذا ولما كان كثيرون من ابناء المشرق يحسنون اللغة الفرنسوية اكثر من لغتهم العربية فلا ريب ان هذه الترجمة تقع عندهم احسن موقع. وعليه فهي تنفع ابناء المشرق وتشهر فضل علماء الوطن بين أهل المغرب وان الذين نغترف الآن من بحر علمهم ليحق لهم ان لا تضنَّ عليهم بما اعدنا.

ترجمة الجَبَرتي والتقتير على الخدمات العامّة

اوردنا هذا التقريظ لترجمة تاريخ الجَبَرتي إلى الفرنسيّة لكي نربط بين هذا الحَدَث الثقافي الهامّ وبين تعليق الدكتور شبلي شميّل في مذكراته ـ أو قُل في «حوادث وخواطر» على إغداق الأموال العامّة في مشاريع لا يستفيد منها المواطن العادي الذي يحتاج إلى تلقّي العلم والتمتّع بالصحّة السليمة والعافية. بينها كانت مصلحة الصحّة في مصر آنذاك تسارع إلى قطع اشتراكها في مجلّة الشفاء الطبّية والعلميّة التي اصدرها شبلي شميّل منذ العام ١٨٨٦ في القاهرة.

* * *

الشميّل واديب اسحق

من مذكرات الدكتور شبلي الشميّل

. . . وأما أديب فأول عدد أصدره من جريدة مصر أصدره في القاهرة. وقد أعددت له مقالة موضوعها «العبادة الفتيشية» لمذاكرة جرت في هذا الموضوع، وجعلت لها توطئة من عندياتي تعبت فيها جداً حتى جاءت على ما أحب (وهي التي كانت غرضي من كل تلك المقالة) ودفعتها إلى أديب لينشرها في أول عدد يصدر من جريدته فلم يبد عليها أقل ملاحظة وكان يقيم هو في المكان الذي كنت فيه. وقد تأخر صدور العدد الأول أكثر من اسبوعين وكلما سألته عن ميعاد صدوره كان يجيب بأن أسباباً طرأت أخرت صدوره ولكنه لم يذكر لي شيئاً يختص بمقالتي. ثم قبل صدور العدد بأيام قليلة عزمت على ترك القاهرة والعود إلى الاسكندرية. وبعد وصولي إليها بأيام وصلني العدد المنتظر من الجريدة وبالطبع أول ما بحثت عنه مقالتي وهي كانت أول مقالة نشرتها في جريدة مصر.

ولقد دهشت جداً لما رأيتها منشورة ولكنها مبتورة والتوطئة التي كانت موضع اعجابي لأنها كانت لي، وكل فتاة بأبيها معجبة، محذوفة بلا شفقة ولم ينشر من المقالة إلّا الحوادث المعروفة في الكتب والتي هي شواهد على حقيقة هذه العبادة في الأمم والقبائل المختلفة. فأخذتني سورة الغضب من صاحبي ولا سيما من تكتمه هذا وهو معي كل يوم فكتبت له كتاباً بأحرف من نار أظهرت له فيه مزيد استيائي من سلوكه هذا المسلك معي وحسبت ذلك آخر العهد بيننا لتباينا في الأخلاق.

أما أديب فكان إذا جرح يعرف كيف يؤاسي، فما عتم أن وردني جوابه فكان لغضبي كالزيت الطافي فوق أمواج البحر الهائج فاسترضاني بذكائه أكثر مما أغضبني بحيلته وكان جوابه شعراً في أكثر من عشرين بيتاً من النظم الرقيق الخفيف لا أروي منها سوى الأبيات الثلاثة الأولى والكتاب فقد مني. قال:

العذر ثم العذر يا سيدي
من حادث ما أن جرى عمدا
قد ألزموني حذف ديباجة
كان لجيد صحيفتي عقدا
قالوا تمس الدين في بلد
كل له فيه غدا عبدا

وهذا كان شأنه معي كلما طرأ طارىء أثارني ضده. وأديب كان كاتباً مصوراً فإذا وصف شيئاً أراكه كأنه مرسوم أمامك.

أما سليم سركيس، فقد أورد هذه الحادثة على طريقته الخاصة في مجلّته، (مجلّة سركيس، السنة ٣ الجزء الثامن والتاسع، ١٩٠٧، ص ٢٨٠) على النحو التالي:

«كتب الدكتور شميّل ذات يوم إلى المرحوم أديب اسحق في أمر فأجابه الأديب: «قرأتك بصعوبة وفهمتك بسهولة. أما الأول فلتعريج خطّك السرطاني، وأما الثاني فلظهور حدّتك على رؤوس أحرفك.

وحذف الأديب مقدّمة مقالة أرسلها إليه الدكتور شميّل وأرسل يعتذر إليه بما يأتي بعضه:

العـذر ثـم العـذر يـا سـيدي	مـن حـادث مـا ان جـرى عمـدا
قـد ألـزمـوني حـذف ديبـاجـة	كـانـت لجيـد صحيفـتي عـقـدا
قـالـوا تمسّ الـديـن في بـلـدة	كـلٌّ لـه فـيـهـا غـدا عـبـدا

مجلّة البيان تستأنف الصدور اسبوعيّة

[الهلال. ج ٢٥، عدد شباط (فبراير) ١٩١٧، ص ٤٤٠]

عادت هذه المجلة إلى الظهور اسبوعية بعد ان كانت شهرية لمنشئها الشيخ عبد الرحمن البرقوقي وفيها مباحث جامعة بين العلم والاجتماع والأدب. ومن محتويات اعدادها التي بين ايدينا مذكرات للدكتور شبلي شميّل. اشتراكها في السنة ٦٠ قرشاً.

* انظر: مجلة المستقبل، السنة ٦، العدد ٢٦٦، ٢٧ آذار / مارس ١٩٨٢، ص ٥٣ وقد نشرت المقالة في مجلة البيان الشهرية التي أصدرها في القاهرة عبد الرحمن البرقوقي ومحمد السباعي بتاريخ ٢٤ آب، ١٩١١. ونقلتها عن البيان جريدة المستقبل التي كانت تصدر في باريس إبان الحرب العالمية الأولى. (العدد ٥٦، الجمعة في ٢٣ مارس ـ آذار ـ سنة ١٩١٧).

ويتذكّر الخديوي اسماعيل

اسماعيل ورياض

من مذكرات المرحوم الدكتور شبلي شميل

تفضل الاستاذ جبرائيل بولاد شميل فأذن بنشر الصفحات التالية من مذكرات المرحوم الدكتور شبلي شميل التي تتضمن حوادث ونوادر ممتعة. وقد وعد بإتحافنا بصفحات أخرى للأعداد القادمة فاستحق شكرنا وشكر قرائنا.
[المحرر]*

الخديوي اسماعيل في طنطا

. . . وانقسم تجار طنطا حينئذٍ للترحيب باسماعيل قسمين: الافرنج والسوريين. وأعد كل منها وفداً يمثله وعلى رأس كل وفد واحد يتقدمه للكلام عنه. وقد وقع اختيار السوريين عليَّ. ومع اني لا أحب التصدر في مثل هذه الحفلات ـ وحتى الساعة لا أحب، إذ ليس من ميلي قرع الطبول واحراق البخور أمام كل فائز ـ لم أجد بداً من القبول. وقد وقعت المناظرة بين الوفدين. . . وكنت حديث العهد في القطر المصري. وأول فكر قام بي عند مجيئي إلى مصر الفرق الجسيم بين حكومة مصر وحكومة الاستانة التي بسببها هجرت ربوع سوريا مقسماً أن لا أعود إليها أو تصطلح. فانا وإن كنت أعلم بوجود مظالم في حكومة مصر فإني لم أعمَ عن الاصلاحات الكثيرة التي أحدثها اسماعيل نفسه في البلاد. فإذا كانت المالية قد ساءت فإن الاصلاحات الكثيرة التي رغب فيها تدلّ دلالة واضحة على حسن إرادته وصلاح غايته. ولم يكن حوله أعوان مخلصون أو بالحري نظام الاحكام في تلك الأيام لم يكن يسمح بتبين مثل هؤلاء الأعوان لو وُجدوا وبالضد من ذلك كان حوله جوقة نهمة وأكثرهم من الأوروبيين ومن ذوي المقامات منهم لم يكن يشبعهم شيء يلتهمونه. . . والمهم أن شخص اسماعيل لم يكن فيه للسامع به ما ينفر الناس إذ كان كبيراً في كل شيء حتى في أغلاطه والناس يحبون الكبير. . .

فوالحالة هذه لم أجد صعوبة في التوفيق بين طلب اخواني ومبادئي. والخطاب الصغير الذي فهت به أمام اسماعيل شاهد على ذلك. وقد نشر في جريدة مصر يومئذٍ. فقد حققت به أمنية مواطنيّ وكنت متكلمهم السابق من بين الوفود. ولم أخرج فيه عن مبدأي في تقرير الواقع والاشارة إلى الخطأ ولو أني حاولت التماس العذر فيه ولكن من

* مجلة الهلال، ج ٣٣، ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥، ص ١٣٧ ـ ١٤٢. ورياض باشا هو وزير مصر الأكبر مصطفى رياض باشا (١٨٣٤ ـ ١٩١١/٦/١٧).

أوجه الصواب وجعلت الكلام حينئذٍ كلام رجال يخاطبون رجالاً. والظاهر أن اسماعيل سُرَّ من هذا الخطاب الذي لم تألف مسامعه نظيره كما بلغني من عبدالقادر باشا أحد وزراء مصر في حكومة توفيق وكان من بطانته يومئذٍ.

فبعد أن أشرت إلى عمله الأخير في قلب وزارة المراقبة وإلى تهوره في اصلاحه قلت ـ والخطاب نشر في جريدة مصر في تلك الأيام وهذا ما بقي منه في الذاكرة ـ «. . . وإني أجيب أولئك الذين تستوقفهم السيئات فلا يرون الحسنات بما أجاب به كاتب تاريخ لويس الرابع عشر (ڤولتير) اللورد هارڤي (وزير انكلترا) بقوله: ـ

«إنك لم تصنع كل ما كنت تستطيعه لأنك انسان وإنما صنعت أكثر من الآخرين لأنك رجل عظيم».

* * *

وهذا كان أول وآخر عهدي بمقابلة اسماعيل. ولو طال به البقاء في البلاد بعد ذلك لربما لم يكن غير ذلك أيضاً لأن طبعي يأبى التقرب من كل كبير إذا كان في هذا التقرب أقل ضغط على حريتي كما هو الحال مع أكثر الحكام ولا سيما في الشرق. فلا يسعني أن أجلس مختاراً مجلس الخانع الصاغر مما يفتخر به عبّاد السلطة ويحسبونه من آيات التأدب البالغة. وهو بالحقيقة امتهان للنفس وخداع للغير. والتأدب الصحيح هو اعطاء جليسك حقه من الاعتبار مع رجولة تحفظ كرامتك واستقلالك فلا تجعل كلامك تأميناً على كل ما يقال ولا تجعل نفسك كالظل تتبع به حركات جليسك العظيم في كل شيء فتبتسم إذا ابتسم وتقوم إذا قام ولا تنصرف إلاّ إذا شاء صرفك. ولذلك لم اسع كل أيام حياتي في التقرب من أي رجل عليه مسحة من العظمة من رجالنا الشرقيين المتمسكين بهذه الآداب الكاذبة التي كلها رياء ونفاق وخداع والتي لو شئت الانقياد إليها لما استطعت ولا البث على غير علم مني أن أخلّ بها ويرجح اني لا أرضي الذين لا يرضون إلاّ بها.

د. شميّل ومصطفى رياض باشا

ولم أتقرب أو بالحري لم أصاحب إلاّ رجلاً واحداً هو في مقدمة رجال مصر في سمو أخلاقه وصلابة مبادئه وذكائه السليم أعني به رياض باشا وزير مصر الأكبر وكان ذلك في ظروف خاصة لولاها لم يكن هذا التقرب.

كان رياض من محبي العلم والأدب ولقد نصرهما في مواقف كثيرة في الحكومة وخارجها. ومع انه لم يكافأ دائماً كما يستحق، لأسباب طارئة سياسية أو لسوء تفاهم كثيراً ما يتطرّف بتداخل آخرين، لم ينفك يعتبر أصحابهما حتى آخر إيامه اعتباراً يوجب له الفخر، وقد عرفني أولاً من قراءة كتاباتي في الجرائد والمجلات.

وكان لي صديق في طنطا اسمه اسماعيل صفوت وكان كما يقال في لغة القوم من محاسيب رياض المخلصين فكان يتردد عليه كثيراً وكان كلما رجع من زيارته يكلمني عن رياض ويقول لي يجب أن تزوره وأنا أتردد حتى قال لي مرة: إن رياضاً سألني عنك كثيراً ويرغب أن تزوره وهو مقيم في أطيانه في محلة روح على مقربة من طنطا. فزرته لأول مرة في المكان المذكور وسررت جداً من زيارته ووجدت فيها ارتياحاً كثيراً ودعاني مرة كطبيب.

وزارني مرة في طنطا الدكتور (فارس) نمر فزرناه معاً في المكان المذكور. وحتى تعلم طبعي وتعرف الارتياح الذي كنت أجده في مجلس رياض أدع الكلام للدكتور نمر نفسه ينتقدني مازحاً ولكنه يقرر حقيقة لولاه لما انتبهت إليها. قال: أتريد أن تعرف كيف يوجه الشميّل الخطاب إلى رياض؟ هو يقول له أولاً دولتك ثم سعادتك ثم حضرتك ثم يقف ويتقدم نحوه ويشير بيده إليه ويقول له أنت متدرجاً في ذلك بحسب تدرجه في الحديث وتحمسه فيه. وربما كان في هذا القول بعض الغلو من صديقي وإنما هو أقرب إلى الحقيقة.

وما كان ذلك مني استخفافاً بمجلس الرجل فإني حتى الساعة لم أعرف رجلاً أجللته وأحببته كما أجللت وأحببت رياضاً وهو كان يسر مني جداً بهذه الحرية. وكأننا كنا على اتفاق في الرأي. وقلما رأيته يخالف لي رأياً إلاّ في المسائل الاعتقادية وهذه كنت أتجنبها أمامه على قدر الطاقة حتى لا أقلقه في ضميره. لأني كنت ألحظ عليه شيئاً من القلق كلما مسها الحديث بشيء وأنا لست مبشراً ضد الايمان.

وریاض كان ممتازاً في الأمور الادارية والمالية أكثر من امتيازه في السياسة ولا غرو فإن أخلاقه القويمة وصلابته في مبادئه وترفعه في معاملاته وصدقه واخلاصه ـ كل ذلك كان يبعده عن مراكز الرجال السياسيين. والسياسة كما تُفهم حتى اليوم ليست إلّا تقاليب الحرباء في مقالب الدهاء ولا يستفاد من ذلك انها يجب أن تكون كذلك بل لأن أخلاق الناس كما هم تستدعيها وستصبح مبتذلة محقرة في مستقبل الأيام وتقوم مقامها سياسة الصراحة.

وكانت قوة التحصيل في العلم والأدب شديدة فيه وهو بالحقيقة صنع نفسه لأن كل ما حصله من ذلك إنما حصله بالاجتهاد خارجاً عن المدارس. وكان يحب المطالعة كثيراً ويتفهم ما يقرأه جيداً ولو أنه بعيد جداً عن اختصاصه. وأذكر أني يوم كنت أحرر الشفاء ـ نقلت إليها مبحثاً طبياً علمياً فيزيولوجياً عن مراكز الدماغ وتأثير عللها في النطق والكتابة من أدق المباحث في هذا الموضوع وأغربها ونشرته تحت اسم «افازيا» وكان رياض في الوزارة حينئذ. فبعد صدور الشفاء زرته في احدى السهرات وكان مجلسه حافلاً بالزائرين فأول ما وجد فرصة للكلام معي نظر إليّ مستغرباً وقال لي: ـ أصحيح؟ أصحيح كل هذا؟ يريد ما في هذه المقالة من الحوادث المستغربة. وقد استعظمت منه ذلك لسببين: تفرغه للمطالعة مع كثرة مشاغله، وتفهمه دقائق مثل هذه المسائل العويصة التي تصعب أحياناً على الاختصاصيين أنفسهم.

وریاض كان من أعظم رجال مصر كافة وأشدهم غيرة وطنية وأعقلهم وأنزههم وأصدقهم وأجراهم على قول الحق أو ما يعتقده كذلك. عاش كل عمره مكرماً محترماً حتى من خصومه. عاش كبيراً ومات كبيراً وبقيت علاقتي معه في السراء والضراء على حال واحدة من الصداقة والاجلال والمحبة والاخلاص حتى توفي.

شبلي شميل

* مجلة الهلال، ج ٣٣، ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥، ص ١٣٧ ـ ١٤٢.

المعارف ووزارة دولتلو رياض باشا

إن تقدم كل بلاد متوقف على تقدم عارفها. وتقدم معارفها متوقف كما لا يخفى على أهلية الذين يستلمون زمامها ويديرونها وهذه الأهلية من وجهين متلازمين لا ينفك أحدهما عن الآخر وهما كفاءة علمية تؤهل الشخص لأن يعرف دقائق مصلحته فيدخلها من أبوابها وكفاءة عملية تعده بما فيه من النشاط والاقدام فلا يتقاعد عن أن يأتيها بأسبابها فإذا نقص شرط من هذين الشرطين من الشخص الواحد لم يؤمل نجاح. فإن كان ناقص العلم ولو كان مقداماً ناهض الهمة فإنه لا يستطيع أن يحسن العمل لأنه يكون كمن يريد ولكنه لا يعرف ماذا يريد وان كان ناقص الهمة ولو كان عالماً فلا ينفع أيضاً لأنه يكون كمن يعرف ماذا يريد ولكنه لا يريد وإن لم يجتمع فيه مع ذلك كله الصدق في الخدمة والاخلاص في المنفعة فهناك تكون الطامة الكبرى. وما قيل هنا أعم من أن يختص بالمعارف بل يتناول كل عمل لذلك قيل في المثل: «الأعمال بالعُمّال». ولقد وقع انتخاب الحضرة الخديوية الفخيمة على دولتلو رياض باشا ليكون وزيرها الأكبر وعضدها القوي في تدبير شؤون البلاد موقع الصواب إذ هو بالحقيقة رجل مصر الذي اجتمعت على ولائه القلوب.

فلم يخلُ من نصرٍ لـهُ من لـهُ يـدٌ ... ولم يخلُ من شكرٍ لـهُ من لـهُ فمُ

وما اجتمعت إلّا لفضل عظيم وهو أكبر منشط للمعارف والعلوم عهدناه في الشرق ولا يخفى أن أمثال هؤلاء في شرقنا أندر من الكبريت الأحمر. وهذا ما دعانا إلى التعرض لذكره في هذه الصحيفة الطبية لأنا صرنا نأمل به اصطلاح حال المعارف في البلاد عموماً والعلوم الطبية خصوصاً إذ يعهد بإدارتها إلى أُناس تكون بهم الأهلية من كل الوجوه فلا يضعون كما قال الدكتور غرانت بك في رسالته السابقة: «الرجل المستدير في الثقب المربع» لمحسوبية أو لجنسيّة ولا ينبذون الرجل الكفوء لأجل ذلك أيضاً. ولا ريب عندنا في ذلك لأن الناس على دين ملوكهم. ولقد أصاب دولته بانتخابه لنظارة المعارف سعادة المفضال علي باشا مبارك فإن سعادة الباشا المشار إليه من علماء مصر ورجالها المعدودين ولا ريب عندنا في أنه يجد له أيضاً مساعداً اهلاً لأن يتولى هذه المهمة يكون ابن بجدتها. ودولة وزيرنا الخطير ممن يعرفون خطر الأعمال حق المعرفة ويقدّرون الرجال حق قدرهم.

* مجلة الشفاء، ج ٥، السنة الثالثة، ١٥ حزيران (يونيو) ١٨٨٨، ص ١٩٠.

الاحتفال بمترجم الالياذة

منتصف حزيران (يونيو) ١٩٠٤

[المقتطف. ج ٢٩ (يونيو ١٩٠٤) ص ٦١٠ - ٦١٨]

شهدت القاهرة في منتصف الشهر الماضي مشهداً لم ترَ مثلهُ من قبلُ وهو احتفال نحو مئة نفس من نخبة علمائها وأدبائها بمترجم الألياذة بوليمة فاخرة اولموها لهُ في فندق شبرد. فزُيّن مدخل الفندق بالمصابيح الكهربائية المختلفة الألوان وزينت حديقتهُ واشجارها بالشموس والقناديل الكهربائية ومدَّت الموائد في ساحتها وجلس حولها المحتفلون من داعين ومدعوين فتناولوا شهي الطعام ووضع امام كلٍ منهم بطاقة رسم على وجهها الهرمان وأبو الهول شعار مصر وجبل لبنان وارزهُ شعار الشام وشمس المعارف فوقهما يفيض شعاعها عليهما وتحتهما هذه الأبيات:

حييتَ يا وطناً تصبو القلوب إلى	ارجـائـهِ وبـهِ الأرواح تغتبطُ
شمس المعارف في علياهُ جامعةٌ	اطـرافهُ وهي فيـما بينها وسطُ
ففي ذرى الأرز حبل من اشعتها	يلقى وحبل على الأهرام ينبسطُ

* * *

ووقف بعدهُ حضرة فريد بك بيازوغلي فقرأ تلغرافاً من حضرة الدكتور ابوستوليدس مترجم الألياذة من اليونانية القديمة إلى اليونانية الحديثة يثني فيهِ على حضرة مترجمها إلى العربية ويعتذر إلى اللجنة عن عدم حضوره من الأسكندرية. وتلاهُ حضرة داود بك عمون فقرأ كتاباً من حضرة الدكتور شبلي شميل يعتذر فيهِ عن الحضور بانحراف صحتهِ ويهنئُ المحتفلين باجتماعهم لأسمى غاية اجتماعية وهي الاعتراف بالفضل الصحيح وهناً موضوع الاحتفال بخروجهِ في ترجمة الألياذة غانماً. وقرأ بعده حضرة محمد افندي مسعود من محرري المؤيد كتاباً من سعادة الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد يثني فيهِ على موضوع الاحتفال بسبب خدمتهِ «للغة العربية بل العلوم والآداب» وعلى المحتفلين «لوضعهم الشيءَ في محلهِ» ويعتذر عن عدم حضوره بغيابهِ في الإسكندرية.

ثم وقف حضرة السيد رشيد رضا منشىءِ مجلة المنار وخطب خطبة بليغة شرح فيها الأسباب التي منعت العرب من ترجمة الألياذة في زمانهم وابان موافقة ترجمتها إلى العربية في هذا الزمان. وتلاه حضرة اخنوخ افندي فانوس المحامي بخطبة انيقة ابان فيها فضل القوى الأدبية حتى تخلص إلى مدح مترجم الألياذة على قضائهِ زهرة العمر في اتحاف ابناءِ اللغة العربية بأبلغ شعر عند الأمة اليونانية غير طامع من وراءِ ذلك بمال ولا نوال.

الشيخ ناصيف اليازجي

شيء عن الشيخ ناصيف اليازجي

وابنه الشيخ ابراهيم

«من كتاب حوادث وخواطر للدكتور شميل»*

... وعلى ذكر الشيخ ناصيف اليازجي وابنه الشيخ ابراهيم لا بد لي أن أذكر شيئاً من معلوماتي الخاصة عما يتعلق بهما.

أما الشيخ ناصيف فهو ابن النهضة اللغوية العربية في الأقطار السورية وفي عصره لم يكن يعرف اللغة الفصحى ولا سيما من النصارى في لبنان إلاّ أفراد يعدون على الأصابع. ولم تكن هناك مدارس غير بعض مدارس خاصة لتعليم القراءة البسيطة. وكان العامة يجهلون حتى هذه القراءة فكان الواحد يضطر أحياناً إذا بدا له أن يكتب كتاباً أو إذا ورد له كتاب أن يفتش على من يقرأه أو يكتبه له «بالفتيلة والسراج» كما يقولون. ولم تكن مدارس الأميركان السورية التي لها الفضل الأكبر على سوريا والأقطار العربية عامة في اللغة والعلوم قد تأسست بعد أوانها كانت في أول نشأتها.

وأول ما درس الشيخ ناصيف العربية كما سمعت منه هو نفسه درسها في الكتاب المعروف بالأجرومية على راهب لم يكن يعرف منها أكثر من ذلك. ثم أخذ يطالع وحده حتى بلغ مبلغه العجيب وألف منها كتبه الشهيرة**.

وهو من المحافظين على لغة القوم وعاداتهم كما كانوا في عصورهم الأولى فكان لا يحلو له إلاّ أن يتغنى بما تغنوا به وأن يحذو حذوهم في كل شيء. وهو معذور إذا كان لم يخرج عنهم والناس في تلك الأيام على جهل تام بعلوم الأوائل والأواخر معاً.

وكان يلبس الجبة والقفطان ويتعمم بالعمامة ولقد سمعته مرة يقول «لو فقد الشاش لاعتممت بالقطوعة» وهي في لغة عامة سوريا قطعة من الحصير القديم. وكان

---

* مجلة فتاة الشرق، السنة ٧، ١٥ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٢، ص ٥٤ ـ ٥٩.

** الراهب المقصود هو القسّ متّى الشبابي (من بلدة بيت شباب).

على أخلاق عالية ويكره الهجو جداً حتى أنه يروى أن له بيتين في رجل كان يوصف بالبخل يدعى الأمير علي الشهابي من كفرشيما والشيخ ناصيف من كفرشيما أيضاً. وهما أقرب إلى المباسطة منهما إلى الهجو الحقيقي وهما هذان:

قد قال قومٌ ان خبزك مالحٌ   والبعض أبدى بالحلاوة حكمهُ
كذب الجميع بحكمهم في طعمهِ   من ذاقهُ يوماً ليعرف طعمهُ

وقيل إنه جاءه يوماً أناس وهو في أوج شهرته وقد كان الشيخ يوسف الأسير والشيخ ابراهيم الأحدب من علماء بيروت المسلمين نظما قصيدة هجو فيه يسألونه عما إذا كان لا يريد أن يرد عليهما فكان جوابه على الفور.

ان ممدوح أربعين كريماً   لا يبالي بأحدبٍ وأسيرِ

والحق يقال إن مدّاحه كثيرون وهم من مشاهير الشعراء في تلك الأيام في مصر والعراق.

ولما كنت تلميذاً في المدرسة البطريركية كان الشيخ ناصيف يدرّس في النحو في كتابه «جوف الفرا» فكنت أحضر دروسه. وكانت المدرسة قد تساهلت معه فسمحت له بالتدخين في وقت الدرس اضطراراً له واحتراماً لسنه وعاداته لأنه كان مولعاً بالتدخين جداً. فكنا نتسابق إلى لف السيجارة له لأنه لم يكن يحسن لفها وأما في بيته فكان يدخن «بالشبُق» أي الغليون أي الحجر في لغة مصر. وكان تسابقنا إلى لف السيجارة على أمل أن نشعلها ونسحب منها نفساً مستطاباً قبل تقديمها له.

ورأيته مرة وأنا تلميذ زائراً عندنا في كفرشيما وكان الشيخ في خروجه من بيروت يحمل غليونه معه. وكان لي أخ أكبر مني اسمه بشاره تربى في بلاد الانكليز. وكان يلف سيجارة من كيس حرير شغل الصنارة. فأشار أبي إلى أخي أن يملأ غليون الشيخ. وكان غليون الشيخ عبارة عن غليون مركب. فنظر أخي إلى الغليون الكبير والكيس الصغير الذي بيده وابتسم وقام حالاً وأتى بمقطف ملآن تبغاً وقدمه للشيخ كأنه أراد بذلك أن يقول إن مثل هذا الغليون يلزم له مثل هذا المقطف.

وروى لي أخي ملحم أن الشيخ ناصيف كان قد كلفه أن يساعده في مراجعة «مسودات» مقامات مجمع البحرين وهو يطبعها في مطبعة الاميركان في بيروت. وكان من الأمثال السائرة على ألسنة العامة قولهم «جرح الأسى لا ينتسى» فكأن الشيخ ضمّن أحد أبيات مقاماته هذا المعنى قال:

ينسى من المحسن طوراً قد رسا   وليس ينسى ذرةً من الأسى

ولا يخفى أن الأسى معناها الحزن وهو يريد الاساءة. فلما أطلع أخي على البيت قال له ما هذا يا شيخي وتلا له البيت ففطن الشيخ حالاً وقال على الفور: غلّطوني. غلطوني. ثم صلحه في الحال بقوله:

وليس ينسى ذرّة ممن أسا

ويخال لي أن المعنى هنا لا يستقيم بالتسامح الكثير فهو يريد أنه لا ينسى ذرة من اساءة المسيء ومنطوق البيت يرجع هذه الذرة إلى المسيء نفسه وهو ليس المقصود.

مهلاً مهلاً أراني حشرت نفسي بين علماء التفسير والتخريج وأدخلتها من دون أن أدري في مبحث طالما سميته باللاهوت الأدبي وعندي لكل شيء لاهوت فأقول اللاهوت الاجتماعي واللاهوت السياسي واللاهوت عموماً كلما رأيتني أو رأيت سواي يجول في مباحث لا ضابط لها غير التخرُّص والاجتهاد في التخريج والاسترسال في الكلام على غير جدوى كأكثر مباحثي في هذه المذكرات وان حاولت أحياناً كثيرة أن استخرج منها يسرة ترمي إلى معان طبيعية وأغراض اجتماعية أعم من أن تقتصر على السرد والتقرير البسيطين. وعذري أنها البضاعة الباقية لديَّ أتسلى بتقليبها في هذه السوق الكاسدة.

وأذكر أني لما كنت في المدرسة الكلية أدرس الطب شرعت في تنميق خطاب في الكهربائية نشر في مجلة الجنان في ذلك الحين. فوردت عليَّ لفظة Trombes الفرنساوية فأغلقت عليَّ لفظتها العربية الفصحى وأغلقت على كثيرين سواي من المتبحرين في اللغة في تلك الأيام لأن اللغة التي تظهر لك اليوم سهلة في بعض مصطلحاتها أوفر اسلوباً بسبب كثرة انتشار الكتابة والتعليم لم تكن كذلك وقتئذٍ فكان الواحد لكي يكتب سطراً أو يجد تعبيراً أو اصطلاحاً يأتم كالمعضل أي الامرأة الطالق. وكنت أفهم معنى اللفظة الحقيقي وقد رأيت ذلك كثيراً رأي العين والعامة تعبّر عنه في بلاد الشام «بالتنين» ترجمة اللفظة اليونانية «سيلون» بالحرف وهو عبارة عن انتصاب عمود من الماء يمتص ماء البحر وكل ما يجده أمامه من أسماك وسواها كالزوبعة التي تقتلع الأشجار في البر وتحتمل ما تمر به في سبيلها وترميه من الأعالي. وقد أعجبتني لفظة التنين هذه وضمنتها مرة احدى مقالاتي حيث قلت في كلام استعاري: «وانتصب مخروطاً كالتنين الحرَّان ولكن رأسه في الماء ورجله في السماء» إشارة إلى أنه يظهر كالمخروط ذي الشَكل الهرمي ولكن مقلوباً رأسه الدقيق في البحر وقاعدته الواسعة في الأعالي.

ولكني في ذلك كنت أريد لفظة عربية خالصة فسألت المعلم بطرس البستاني فلم يفدني فقصدت الشيخ ناصيف وهو لم يكن يعرف لغة أجنبية. فأخذت أصف له

الشيء فسألني حتى عن اسمه بالفرنسوية عساه يجد في اللفظ شيئاً يهديه للمناسبة التي قد تقع كثيراً بين اللغات إما نقلاً وإما اتفاقاً. ثم أخذ يفرك جبينه بيده وقال: إعـ... إعـ... إعصار فتش عليها في القاموس وهي اللفظة المعروفة اليوم من أقل كاتب وقد استعملتها اضطراراً وإن كان معنى اللفظة الفرنساوية أخص منها. ومن منا اليوم لا يعرف السطر القائل:

إن كت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً

إبراهيم اليازجي يؤرّخ
وفاة إبراهيم الشميّل سنة ١٨٨٠

أبكى عيون بني الشميل فاضل — ناحت لمصرعه المكارم إذ مضى
شهم قضى بتقى الإله حياته — حتى مضى عنا كما شاء القضا
قال نال أجر الصابرين على البلا — إذ لم يزل لرضى الإله مفوضا
ومسطر التاريخ نادى قائلاً — بمقام إبراهيم قد نزل الرضى

الـشبّـوق (ج شبـوقـات)

لفظة تركية الأصل تعني القضيب والانبوب والغُصن. تطلق مجازاً على قصبة الغليون الطويلة، وبالتالي على الغليون المستطيل بكامله. «وشبوق» الشيخ ناصيف اليازجي، كما تحدّث عنه شبلي شميّل في «حوادثه وخواطره»، هو بمثابة غليونه المستطيل.

(*) رسائل اليازجي وأشعاره غير المنشورة المطبعة اليوسفيّة (يوسف توما البستاني) بباب الخَلق بمصر.

(*) العِقد - ديوان الشيخ إبراهيم اليازجي. قَدَّم له مارون عبّود (دار مارون عبود، ١٩٨٣، ص ١٦٤) طبعة جديدة.

الشيخ إبراهيم اليـازجي

شيء عن الشيخ ابراهيم اليازجي

«من كتاب حوادث وخواطر للدكتور شميّل»

كان الشيخ ابراهيم كأبيه في ما خص المحافظة على اللغة وهو إمام المنشئين العصريين الواسعين. وأول ما ظهرت مقدرته الكتابية في مناقشة احتدمت بينه وبين الشيخ أحمد فارس [الشدياق] على أثر وفاة أبيه وانتقاد أحمد فارس له في معرض التأبين وكان موضوع الانتقاد على ما أذكر لفظة «فطحل» كأنها وردت في مقامات الشيخ ساكنة الثاني وقد يكون ذلك غلط مطبعي وهو من المباحث اللاهوتية الأدبية. فانتصر الشيخ ابراهيم لأبيه فحمل عليه الشيخ أحمد فارس وقابله بكلام جارحٍ على أسلوب الناس في المناقشة في ذلك العهد فقام الشيخ ابراهيم وردَّ عليه رداً طويلاً بليغاً ظهر فيه أنه كاتب مقتدر وضمنه بيتين دلاّ على أدبه الجَمّ ونفسه الكبيرة.

ليس الوقيعة من شأني فإن عرَضت — أعرضتُ عنها بوجهٍ بالحياء ندي
اني أضنُّ بعرضي أن يلمّ بهِ — غيري فهل أتولى خرقهُ بيدي

وكان شاعراً مجيداً إلاّ أنه ترك الشعر لأنه رآه كما كان حتى عهده صناعة التبذل في المدح والاستجداء. ولطالما قلت له لما كان في مصر أن ينظم ديواناً على نسق شعراء الافرنج والطبيعة واسعة والآثار كثيرة والعبر التاريخية شهيرة. ولكنه لم يكن به ميل إلى ذلك ولو كان به لما استطاع وسوق الأدب غير نافقة وأسباب المعيشة غير متسعة له.

وكان مغرماً بتحرير الصحف الأدبية العلمية لأنها كانت تفسح له مجال المطالعة في العلوم التي يميل إليها فحرّر الطبيب للدكتور بوست في بيروت مع الدكتورين بشارة زلزل وخليل سعادة وهما من الكتاب المجيدين. ثم انتقل إلى مصر وأصدر فيها مجلته البيان مع الدكتور زلزل المذكور ثم انفرد بعد ذلك في تحرير مجلة الضياء. ولقد كان على كبر في النفس وضيق في الحيلة أورثاه ضيقاً في العيش مما يعدُّ عاراً مخلداً على أمته وعلى قومه. وتوفي في مصر سنة ١٩٠٦.

---

* فتاة الشرق، السنة ٧، نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٢، ص ٨٦ - ٩٣.

وفضل الشيخ ابراهيم في علوم اللغة وآدابها لا ينكر وإنما فضله الأكبر في نظري هو في صنع حروف الطباعة فقد عمل لذلك عدة أجناس أكثرها شيوعاً جنس ٢٤ وجنس ١٦ عملهما في بيروت وجنس عشرين عمله في مصر أو بالحري صبَّ حروفه في مصر. ومعظم الحروف الخارجة من معمل سركيس في بيروت والمسماة باسمه والمنتشرة كثيراً في المطابع العربية في الأقطار السورية والمصرية والأمركانية هي من صنعه.

ولما كنت قد آليت على نفسي في مذكراتي هذه أن أقول الحق كما هو أو كما يبدو لي أنه حق فلا يسعني أن أنهي الكلام عنه قبل أن أشير ولو إشارة إلى سوء مسلك الحكومة المصرية يوم خطر لها أن تصلح المطبعة الأميرية. فألفت لجنة من قاضٍ ومحامٍ وكاتب، أريد بذلك أنها ألفتها من كل من ليس له شأن اختصاصي في الأمر أو شأنه فيه لا يذكر ولا يعتد به أي عملت كما يقال في المثل الانكليزي «وضعت الرجل المربَّع في الثقب المدوّر» ألفت هذه اللجنة وأنفذتها إلى أوروبا لدرس المسألة في مطابعها. والرجل الاختصاصي الذي بين يديها والذي يعد من كبار الاختصاصيين ليس في الأقطار العربية فقط بل في بلاد أوروبا نفسها لم تفكر مطلقاً في أن تستفيد من صناعته وخبرته وعلمه. وما هو السبب يا ترى؟ ولا يصح أن يكون الرجل مجهولاً لديها وهو في صناعة الطباعة أشهر من نارٍ على علم حتى أن المطبعة التي كان يطبع مجلته وكتبه فيها والتي تطبع بنفس الحروف الموجودة في سائر المطابع وهي مطبعة المعارف لصاحبها نجيب متري استفادت من تدقيقه في أبسط الأشياء ما جعلها اليوم أحسن مطابع القطر نظافة واتقاناً. وأنا لا أشك بأن الأمر لو كان على عهد حكومة اسماعيل لما كان فاته أن يجعل لحكومته هذا الفضل المأثور أو بالحري لما كان فاتها هذا الواجب عليها حبّاً بالمصلحة لا كرماً منها بحق الرجل. أم عذرها أنه كان شديد الوطأة لا يصادي ولا يماري ولا يتزلف ولو كان كذلك لما كان من النوابغ. وهل تكفي مثل هذه الأعراض لاطفاء الجوهر والابتعاد عن الانتفاع به. والحق يقال إن مسلك الشيخ ابراهيم هذا لم يكن شديد الوطأة إلاّ على نفسه.

قلت إن الشيخ ابراهيم كان من المحافظين في أمور اللغة فلا يحب أن يكثر فيها الدخيل من الألفاظ الأجنبية. وكان يعاني مشقات كثيرة لوضع ألفاظ جديدة للمعاني الغربية. وكان يوفق إلى ذلك غالباً. غير أن مسلكه هذا كمسلك كل المحافظين قبله وبعده حتى اليوم لا يعد بالحقيقة حرصاً على اللغة بل هو تضييق لدائرتها. وهو في العلم اليوم يعد تشريداً لكثرة المستنبطات الجديدة ووجوب وضع اسماء لها ولصعوبة إدراك مدلولاتها حينئذٍ في اللغات المختلفة. والمقتبسون لا يعدون من أصحاب البدع. فقد جرى على ذلك أسلافهم في الطب والعلم حتى العلوم الأدبية نفسها. فكتاب ابن

سينا حافل بأسماء الأمراض والعقاقير والنباتات اليونانية حتى علم المنطق نفسه أبقوا له اسمه اليوناني «ايساغوجي». واليوم يعد ذلك جناية كبرى على العلم تؤخر سيره لوقوع الاختلاط الشديد فيه.

بل هو كان من المحافظين على اسلوب الانشاء فإذا لم يفتتح مقاله كأكثر الكتاب حتى اليوم بالحمدلة والبسملة فلا بد من أن ينتهي منه إلى عبارات التوكل والاستغاثة كقوله: «والله أعلم. والله الشافي». فقد كلفني مرة أن أكتب له مقالة في الطاعون ينشرها في بيانه أو ضيائه لا أذكر. ففعلت. فجاءني بعد أيام وبيده المسودة لمراجعتها معي. فلما انتهى من قراءة الموضوع الأساسي رأيته يقرأ كلاماً ليس لي شغل نحو ثلاثة أو أربعة أسطر ليقول فيه في الختام «والله الشافي». فاستغربت ذلك جداً منه. فقلت له ما معنى هذا؟ فقال إن وقوفك كما وقفت يجعل الكلام واقفاً. وكأني لم يكن يبدو لي هذا الوقوف. فقلت في نفسي يا للعجب من سلطان الإلفة. جرى الكتّاب في الماضي على اصطلاح شربه الذوق وألفه السمع فصار الخروج عنه خروجاً عنه الفصاحة. فكأن الفصاحة قائمة بقرع الألفاظ في الاذن والتدرج فيها باعداد الذهن. فأجبته بقولي: أرجو أن تحذف كل ذلك وأنا المسؤول وحدي. ثم قلت له: كانوا في الماضي يوقفون قطار سكة الحديد بالتدرج وأما اليوم فقد وفّقوا إلى توقيفه فجأة. وأنتم أحرار في أن تحافظوا على الخطة التدريجية القديمة. وأما أنا فمذهبي أن أقف في كتاباتي كما تقف قطارات السكك الحديدية الجديدة اليوم.

ولقد جرى الشيخ ابراهيم في أول نهضته وذيوع صيته على عادة تمكنت منه حتى صار يطلقها على الجميع. وهي أنه إذا قصدته في اصلاح صفحة كتبتها في موضوع أدبي أو بيت شعر نظمته لا يتجشم كثيراً مشقة هذا الاصلاح بل يكتب لك الشيء أو ينظمه ولو أنه بمعنى غير معناك ويهبك إياه ملكاً تنشره تحت اسمك إذا شئت. وهو كان معذوراً في الغالب لأن الشيء الذي كان يعرض عليه حينئذٍ كان أكثره مما لا يقبل الاصلاح ولا سيما أنه من طبعه قلما كان يعجبه شيء لم تكن له فيه كل اليد. فيوم كنت أدرس اللغة وكانت بضاعتي منها قاصرة على العلم ببعض قواعد النحو وشيء من أوزان الشعر نظمت بيتين أو ثلاثة في موضوع لا أذكره الآن مطلقاً وقد يكون تقريظاً لديوان شعر. فقصدت الشيخ ابراهيم أعرضها عليه وأنا فرح أمنّي نفسي بأن اسمي سيذكر مطبوعاً في الكتب بين الأدباء. والظاهر أن الشيخ ابراهيم رأى حسب عادته وحسب شعري أيضاً أن يتولى نظمها عني من جديد. وبعد أن كدَّ قريحته وأنا أراقبه ظاناً بأنه يغير كلمة أو يصلح تركيباً دفع إليَّ الورقة فإذا هي شعر جديد لا من وزني ولا من معناي ولا من كلامي. فدهشت وصغرت نفسي وقلت له: ولكن هذا ليس لي. قال لا بأس أنشرهما تحت اسمك. ولما رآني أتردد مستغرباً قال لي إن كثيرين

يفعلون ذلك وأخذ يذكر لي أسماء البعض ممن نشروا شعراً كأنه من منظومهم وهو بالحقيقة من نظمه. فوقفت حينئذٍ موقفاً صعباً جداً لأني كنت أحب أن أظهر ولكني ما كنت أحب أن أظهر بثياب عارية ولو لم يعرف بها سواي. وكأني استمهلته غير رافض رفضاً باتاً لئلاّ يناله من هذا الرفض بعض غضاضة ظننت أنها تتأتى له منه. ولا أعلم ما اذا كان حبي للظهور قد غلبني بعد ذلك والأرجح إني عدلت ولم أنشر شيئاً أقول ذلك غير جازم لأن ذاكرتي هنا تخونني. على أني أرجح أن الأبيات كانت تقريظاً لديوان شقيقته وردة فإن كان بين تقاريظ هذا الديوان شيء منشور تحت اسمي فيكون ناظمه الشيخ ابراهيم نفسه.

وكأني ذكرت كل ما بيني وبين الشيخ ابراهيم فلم يبق إلاّ أن أذكر ما له عليَّ والمرء يسر بنفسه ولو غروراً. ولا أذكر لأبيه مناسبة غرَّر بي الشيخ وأنا لا أزال في سوريا أدرس الطب أو قرب انتهائي من دراسته فإنه مدحني ببيتين لا أذكر منهما سوى البيت الثاني وهو:

وما كمال الفتى بالشيب في شعرٍ   لكن كمال الفتى بالشيب في الخلقِ

كأني اليوم على ضد ذلك فقد أسحمت السماء أي صبت ماءها بل من توسعي في قول الشاعر:

ولو أنها الأولى لكان الأسحمُ

أي صار الخُلق كالفحم بعد أن صار الشعر كالقطن. ولقد حاولت خداع نفسي بعد خداع سواي كما يفعل كثيرون بالخضاب على أثر فراقي للشباب. فلما انكشفت «الطمة» قمت أزيل عن نفسي الغمة بشعرٍ أين هو من شعر ذي الرمة. والشعر وإن كان مقرعة الشيطان في يد الكسلان. فهو عزاء النفوس في أيام البؤس وملعب الخبال لرتق الحال. إن لم يكن لغة صغار النفوس صغار الأحلام للتمرغ في تراب الذل وتقبيل مواطىء الأقدام. وما كان لغة آلهة البشر يخاطبون به آلهة السماء إلاّ يوم كانت بنات الناس تستغوي أبناء الله وكان أبناء الناس يستنزلون حور الجنان كما في توراة اليهود وميثولوجية اليونان. فقلت بلغة الناس اليوم وحذلقة أهل العصر هذا الشعر:

قالوا خضبت بياض الشيب عن بطر   فقلت كلا ونفسي عنه أردعها
لكنها خدعتني مذ رأيت بها   صبا فقمت بحكم المثل أخدعها

جمال الدين الأفغاني

جمال الدين الافغاني

في نظر

«الدكتور شبلي شميّل»

يشتغل الدكتور شميل في هذه الأثناء بوضع كتاب كبير عنوانه «حوادث وخواطر» أو هو مجموعة مذكراته كما يدل عليه الاسم. وقد اقتطعنا منه الفصل التالي في السيد جمال الدين الافغاني الشهير. قال عفا الله عنه:*

... أما جمال الدين فكان من نوابغ عصره عالماً واسع الاطلاع في علوم الأقدمين وفلسفتهم ذا ذكاء مفرط وأدب رائع مع شجاعة في القول لا تصدر إلاّ عن نفوس مستقلة كريمة وكان ذا حديث طلي شهي لا يمل منه سامعه مع فصاحة عربية في التزام القواعد واختيار الألفاظ ولكنها ممزوجة ببعض لكنة أعجمية تنم عن أصله الغريب وإنما وقعها على الأذن كان محبوباً. ونظره كان جذاباً وله عينان مائلتان إلى السواد غائرتان قليلاً تتقدان ذكاء. وهو لم يكن يعرف لغة من لغات الافرنج الحافلة بالأفكار الجديدة والعلوم الحديثة ولكنه كان ذا مقدرة عجيبة في التحصيل حتى أنه ليستفيد منك الشيء الجديد ويصبُّه في قالب العلوم المختمر فيه ويوهمك أنه معروف له منذ زمان طويل. وجمال الدين لم يكتب في ما أعلم شيئاً وإنما كان يلقي على آخرين مقالات ضافية تنشر في جريدة مصر تحت أسمائهم. ولولا الشيخ محمد عبده يده الكاتبة لما كان لصوته صدى ولبقيت تعاليمه في صدور أكثر الذين تلقوها عنه وماتت معهم إذ كانت كل تعاليمه حديثاً يلقيه بحسب مقتضى الحال. فهو فيلسوف من الفلاسفة المشائين أو بالحري الرواقيين ورواقه كان رواق القهوة التي بجنب قهوة البورصة القديمة المتقدم ذكرها. ولعل تلاميذه لا ينسون في مستقبل الأيام أن يحيوا ذكره بينهم في ذلك المكان. وقبل جريدة مصر كانت شهرة جمال الدين مقتصرة على الأخصاء وأعماله محصورة في دائرة مريديه وأما جريدة مصر فكانت سبباً كبيراً لإذاعة صيته ونشره في الآفاق.

***

---

* مجلة الزهور، ج ١٠، السنة ٣، ١٩١٣، ص ٤١١ ـ ٤١٧.

ولما عرّفت أديب[1] بجمال الدين كانت معرفتي بهذا الأخير حديثة العهد. فقد كنت أسمع به وأنا في الاسكندرية فلما أتيت إلى مصر وددت أن أتعرّف به. وكان يتردد كثيراً على بيت حنا عيد قنصل دولة البلجيك. فلما أبديت رغبتي هذه لعيد المذكور ضرب لي موعداً للاجتماع به عنده في إحدى السهرات. ولما تعارفنا أخذنا ننتقل من حديث إلى حديث إلى أن أبتدرته بالسؤال الآتي (ولم يكن سبق لي كتابة أو تصريح في هذا الموضوع بعد). قلت: ما قول سيدي الشيخ (لفظة الاستاذ لم تكن قد جرت بعد على الألسنة كما هي اليوم) في المعبود الأول الذي اتخذه الانسان من بين أشياء هذا الوجود؟ وكأني لحظت أنه أخذ بهذا السؤال على غرّة كأنه لم يخطر له ببال من قبل. فتقلقل قليلاً كأنه يريد أن يتمكن في مجلسه ولم يطل به ذلك حتى دخل في مقدمة مستفيضة أغنته عن التزام الصمت طويلاً وأعانته على تصوير الحكم بما فسحت له من الوقت ومثله لم يكن يلزم له أكثر من ذلك لما له من سرعة الخاطر وحدّة الذهن. ولا أذكر شيئاً من هذه المقدمة وإنما أذكر أنه انتهى بها إلى القول: «إن المعبود الأول للانسان الأول كان يقتضي أن يكون في ثنايا الغيوم المتلبدة أو هي نفسها».

أما أنا فلم أكن من رأيه وكأني نظرت إلى الانسان نظراً أعرق في الحيوانية. فاعتبرت الانسان الأول لاصقاً بأرضه يتخبط في ما أمامه متخوفاً من كل شيء إذ كان يجهل كل شيء فاتخذ معبوده الأول من أشيائها ولم يرتفع بصره إلى ما فوق إلاّ بعد ذلك بكثير. واعتبرت حينئذٍ العبادة الفتيشية أول عبادات الانسان وجعلتها في الغابات الكثيفة ذات الشأن في الميثولوجية القديمة وفي الأشجار الكبيرة المنفردة القائمة في العراء يُستظل بها من الرمضاء كما تدل عليه بقايا ذلك فيه حتى اليوم. وهذا الحكم لم يقم بي اعتباطاً من دون تفكير سابق بل قام في نفسي على أثر زيارتي لمدينة بعلبك في سنة ١٨٧٠ حين رجوعي من انطاكية وكنت قد أرسلت إليها في بعثة من قبل المدرسة الكلية حين كنت أدرس الطب لاغاثة منكوبيها في الزلزال الذي نكبت به تلك المدينة في تلك السنة. وكان رفيقي في هذا السفر ذهاباً وإياباً ادورد فانديك المعروف عند المصريين ابن الشهير كرنيليوس فانديك صاحب الفضل الأكبر على سوريا وسائر الأقطار العربية في نهضتها العلمية الحديثة.

فلما وصلنا بعلبك بعد سفر أربعة عشر يوماً في مروج خصيبة يتعالى فيها الحشيش الطبيعي إلى قامة الانسان ولكن يد حكامها الطغاة أقحلتها وتركتها قفراء من السكان لم نشأ أن نقيم في المدينة وفضّلنا أن نبيت ليلتنا في قلعة بعلبك نفسها وكان القمر بدراً والسماء صافية فبين الآثار الكثيرة المتهدمة توجد أعمدة من الغرانيت ذات

(١) يعني به أديب بك اسحٰق الكاتب الشهير.

علو شاهق لا تزال قائمة صفاً واحداً في ساحة منبسطة. فلما وقفت أمامها في ضوء القمر الصافي وفي وسط ذلك السكون الرهيب والشباب غض والعواطف شديدة التأثر شعرت في نفسي بتهيب من منظرها الفخم لا يزال أثره بي حتى اليوم كدت أجثو منه على ركبتيّ من شدة الخشوع. فكأن هذا الشعور بي كان لي موضوعاً للتفكير بعد ذلك في أمر العبادات وان منشأها في الانسان إما تهيب عن اعجاب أو خوف عن ضعف. وأحرِ بالانسان الأول اللاصق بأرضه أن يكون معبوده الأول منها على نحو ما تقدم.

قلت إن جمال الدين كان من الفلاسفة الرواقيين أي أنه كان ينشر تعاليمه في طي المحادثات الاعتيادية ولكنها كانت محادثات خلاّبة في لذة المعنى وحسن الانسجام ولم يتهيأ له أن وقف خطيباً في قوم إلاّ مرة واحدة أظهر فيها أنه خطيب مفوّه أيضاً وكان ذلك بمسعى أديب اسحٰق وفي تياترو زيزينيا على محضر من جمهور غفير من علية القوم من رجال ونساء من السوريين والمصريين. فألقى خطبة اجتماعية سياسية أبدع فيها معنى ومبنىً وجراة وبقي يرتجل الكلام نحو ساعتين من دون أن يبدو عليه أدنى تعب أو يتلعثم حتى خلب العقول وأقام الناس وأقعدهم كأنه رابطهم بسلاسل كلامه يلعب بهم كما يشاء. وقد أعجبني منه قوله فيها وهو يتكلم عن استبداد الملوك واستماتة الشعوب قال: «كأن الناس ليسوا شيئاً والملك هو كل شيء إن قام قاموا وإن قعد قعدوا!»

ولما بلغني أن جمال الدين بعد أن نفي من مصر ببضع سنين كتب رسالة باللغة الافغانية في نفي مذهب الماديين ترجمها الشيخ محمد عبده إلى العربية دُهشت لعلمي بأن الرجل لم يكن من المتدينين. على أن جمال الدين كسائر الفلاسفة الأقدمين لم يكن يستطيع بمبادئه النظرية وفلسفته المجردة أن يجزم جزم الطبيعيين في استنادهم إلى العلوم الحديثة اليوم فلم يكن يستطيع إلاّ أن يكون من الشكوكيين أمثال المعرّي وأمثال فولتير الذين ينكرون الأنبياء ولكنهم يقفون مترددين في أمر الخلق هل هو حادث أو قديم فيكونون تارة من الالهيين وطوراً من اللاأدريين لعدم تمكنهم من ضابط علمي محسوس يضبط أحكامهم ويقوي حجتهم في ترددهم اللهم إلاّ أن يكونوا من الحصافيين النفعيين الذين يكونون في اعتقادهم على هوى جليسهم تارة أقرب إلى المعطلين وطوراً أقرب إلى المؤمنين أي أنهم يكونون كما وصفهم الامام الغزالي حين قال: إن الآراء ثلاثة أقسام: «رأي يشاركه فيه الجمهور فيما هم عليه. ورأي يكون بحسب ما يخاطب به كل سائل ومسترشد. ورأي يكون بين الانسان ونفسه لا يطلع إلاّ من هو شريكه في اعتقاده» أ. هـ. ويصعب عليّ جداً بعد اختباري الرجل بنفسي من جهة ثم سماعي عنه بعد ذلك أن أبدي فيه حكماً جازماً ولكني أرجح جداً انه لم يكن من المؤمنين.

الدكتور شميّل

شبلي شميّل وجمال الدين الافغاني

كتب الشيخ محمد رشيد رضا في «تاريخ الاستاذ الامام» (ج ١، ص ١٠١) ما يلي:

«والدكتور شبلي شميّل يحدّثنا عمّا شاهده بعينيه وسمعه بأذنيه، فيقول: إنه شهد خطبة له (أي الافغاني) في الاسكندرية، وكان قريب العهد بمصر، فوقف ساعتين يتكلّم بلسان عربي فصيح، وإلقاء حسن الكلام مفيد، حتى أدهش الناس».

ولقد أفضى الدكتور شميّل بهذه العبارة إلى صديقه رشيد رضا الذي قام بتسجيلها ونقلها عنه.

انظر: **الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده**، ج ١، ص ٢٣٥.

ليس من المُستغرَب ان نقف على نظرة الدكتور شميّل إلى جمال الدين «الأفغاني» ورأيه في الرجل الذي يعتبره بعض الباحثين بمثابة اللّغز المُحيِّر. ومن الواضح ان شميّل يصرّ على نسبة الرجل إلى صحبة الفلاسفة اللاّأدريين: «سبحان الله».

* * *

ويتذكّر جواب الأفغاني:
«سبحان الله»

فإذا قلنا له إن الطب ممكن الاصلاح دائماً: «(وهو في مقالاته قد شابه بين الطب والقضاء) فهو إذاً من آثار التوحش الذي لا وجوب له في هذا العهد، الخ.» ففيه من التكلف والاضطراب ما لا يخفى ويجرّنا إلى مبحث يصرفنا الاشتغال فيه عما نتوخاه في بحثنا من المعاني فأنا لم أقل إن القضاء لا وجوب له وهو للاجتماع كالطب للأبدان. وهل يجوز ان يستنتج ذلك من طعني في العقاب؟ أم هل العقاب هو القضاء نفسه؟ أم ليست نسبة العقاب إلى القضاء كنسبة الدواء إلى الطب؟ فإذا حكمنا بفساد الطرق العلاجية (والطب قديم وقد تغيرت هذه الطرق فيه جداً) بدليل تعديلها أو تبديلها، فهل يلزم من ذلك ان نستنتج ان الطب لا وجوب له. وهنا يعذرني حضرة الشيخ إذا أظهرت منتهى استغرابي، ورحم الله الشيخ جمال الدين الافغاني فإنه كان كلما عرضت له مشكلة من هذا الطراز لا يجد جواباً عليها أحسن من قوله: «سبحان الله»*.

(*) مجموعة شميل، ج ٢، «القضاء على القضاء»، (١٨٩٨)، ص ١٣١.

الدكتور شميّل في خاطرات الافغاني

نَشَر محمد باشا المخزومي (١٨٦٨ - ١٩٣٠) كتابه «خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني» والتي خطرت للافغاني بين ١٨٩٢ و ١٨٩٧، في طبعته الأولى عام ١٩١٢ (١٣٢٩ هـ)، وفي مصر بالذات. وأغلب الظنّ ان الدكتور شبلي شميّل قد اطلع على رأي الافغاني في مذهب النشوء والارتقاء وكانت تربطه صداقة وعلاقة ودّية وفكريّة مع المخزومي، على ما يبدو. ولذا آثرنا إيراد الخاطرة التي تتضمن رأي الافغاني في الشميّل وفي مذهب النشوء والارتقاء، على سبيل المقارنة واستكمال المعلومات. (انظر: الطبعة الثانية من كتاب المخزومي، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٦٥، ص ١١٤ - ١١٨).

رأيه في مذهب النشوء والارتقاء وان العرب سبقوا وقالوا في هذا المذهب

سئل جمال الدين ع نالبيت المشهور لأبي العلاء المعرّي:

والذي حارت البرية فيه   حيوان مستحدث من جماد

هل يقصد المعري في هذا البيت من الشعر ارتقاء الحيوان من الجماد؟ ويوافق مذهب دروان في النشوء والارتقاء؟ ذلك المذهب الحديث، الذي أوجده دروان وأقام علماء الارض وأقعدهم؟ أم قصد المعرّي معنى آخر، وتماس اتفاقاً أو عرضاً، مع أهل مذهب النشوء والارتقاء.

قال: لا أغالي ولا أبالغ إذا قلت: ليس على سطح الارض شيء جديد بالجوهر والأصول.

تُبتكر في الكون محدثات، وتحدث أمور، وتقرر علوم، يؤخذ ويعمل بها أجيالاً، ثم تطرأ عوامل مختلفة، تندثر بها تلك المحدثات، وتجهل تلك العلوم إذ يحجبها الخفاء، وتحفظ أحياناً بعض رفات آثارها «طبقات الارض»، وكذلك ما يحدث من عظائم الامور، قد تذهب مع جيلها وربما يبقي شيء من أثرها في خرائب أهلها، وهكذا القول فيما يزهر، وما يتمحص ويتقرر من العلوم عند أجيال مضت، قد تموت مع أربابها او تمحى بمحو ما أودعت فيه من الكتب والاسفار.

فالسعيد من الخلف من يعثر على أثر من آثار السلف فينتبه بكليته اليه، ويعمل على بعثه من موته، إما بإخراجه من الخرائب، وإما بنقب طبقات الارض، وإما بمناجاة أرواح قائلية وفاعليه . .

وهكذا يعيد الانسان الكرة على قديم مبتكرات الأسلاف من المحدثات، والأمور العظيمة، والعلوم والفنون الغريبة عندنا اليوم، وذلك بسوق غريب وعوامل عجيبة، تعمل في عقل الانسان في سائر الازمان.

بينما الانسان اليوم سائر في البحث والتجربة يقصد أمراً، فاذا هو ـ عرضاً ـ يعثر على نتائج لم تكن بحسبانه، فينشط لها عقله، ويصرف اليها همته، ولا يزال يكد ويجرب ويجد، حتى يتيسر له وضع أساس الاكتشاف، أو الاختراع او تقرير قواعد كلية، لعلم، أو فن.

أما مقصد أبي العلاء فظاهر واضح، ليس فيه خفاء، فهو يقصد النشوء والارتقاء، أخذاً بما قاله علماء العرب قبله بهذا المذهب وقد مرّ ذكره ولا بأس من إعادته: إذ قال أبو بكر بن بشرون في رسالته لابي السمح عرضاً في بحث الكيمياء: «ان التراب يستحيل نباتاً، والنبات يستحيل حيواناً. وان أرفع المواليد هو الانسان «الحيوان» وهو آخر الاستحالات الثلاثة وأرفعها. وان أرفع مواليد التراب «ومنه المعادن» النبات ـ وهي أدنى طبقات الحيوان ـ سلسلة تنتهي عند الانسان. . . الخ.

فاذا كان بناء مذهب النشوء والارتقاء على هذا الاساس، فالسابق فيه علماء العرب وليس «درون» مع الاعتراف بفضل الرجل وثباته، وصبره على تتبعاته، وخدمته «للتاريخ الطبيعي» من أكثر وجوهه، وإن خالفته وخالفت أنصاه فس مسألة «نسمة الحياة» التي أوجدها الخالق سبحانه وتعالى، لاعلى سبيل الارتقاء من السعدان فالانسان، أو من الزوابع المائية. أو أن البرغوث سيكون بعد ألوف أو ملايين من السنين فيلا عظيماً، لأننا نرى اليوم في البرغوث ما يشبه خرطوم الفيل، وغير ذلك من المباحث التي دونتها في رسالة «نفي مذهب الدهريين» رداً على داروين وأشياعه وأرى إغراقاً في نسبة الابداع، والابتكار للنشوء والارتقاء، والانتخاب الطبيعي له.

ولو قال بذلك مثل «بخبر» و «هكسلي» و «سبنسر» وغيرهم من علماء الغرب ممن جاز ترك مناقشتهم فلا يسعني أن أمر على ذكر حكيم شرقي انخراط مع من ذكرت من العلماء ممن أيدوا مذهب «درون» وأخذوا بناصره، وهجموا على مألوف الشرقيين بقواعد ذلك المذهب، فمن حيث الجهر بمعتقد يتعقده الانسان أنه اعتقاد صحيح ولو خالف الجمهور، فالدكتور شميل له في نشر مذهب «درون» وتحمله أعباء المكفرين له ـ عن غير علم وتحقيق ـ يعد للشميل فضل، ولكن لا أرى الدكتور شبيل قد تخلص مع جرأته الأدبية، وبعض رسوخه في الفلسفة من وصمة التقليد الأعمى لعلماء الغرب. وبمعنى أوضح، أنه أراد أن ينتصر لدرون، وأن ينشر مذهبه رغم أهل الأديان، وفي ذات الوقت عارض أستاذه، وصاحب المذهب المنتصر له.

إذ لا يخفى أن القصد من مذهب الماديين الوصول إلى أن الانسان تدرج من الحيوان، وأعظم دليل لهم ما يرى في السعدان والقرود وأعلى أنواعه «الأورانغ أوطان» من الذكاء والحركات وتركيب الاعضاء.

ثم إنهم نظروا في أجنة ذوات الفقر ومنها «الانسان» فرأوه يمر نموه بدرجات الحيوانات التي دونه حتى الاحفورية أو السابقة لها. . . الخ.

ولكي يتوصلوا إلى جحود خلق الانسان بتقويمه الحسن هذا رأيناهم يركضون وراء الأحافير، ويغوصون في طبقات الأرض وإمامهم في مذهب النشوء والارتقاء هو «درون» بلا شك، وهذا الحكيم لما وصل إلى النقطة الجوهرية وهي «موجود نسمة الحياة» فلم يسعه إلاّ أن قال «إن الخالق هو الذي نفخ نسمة الحياة في الأحياء» وهذا قوله بالنص الواحد: ـ«اني أرى أن الأحياء التي عاشت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أولية نفخ الخالق فيها نسمة الحياة!!».

إن قول «درون» هذا ينفي ظهور الحياة على سبيل طبيعي، ولكنه لم يرق لعلماء الطبيعة الماديين، وأنكروا على «درون» هذا القول واتهموه بالخوف من أهل دينه، وقالوا إن قوله هذا يجعل المذهب ناقصاً بل ينقضه من أساسه، لأن الغاية كما ذكرنا من مذهب الطبيعيين «إنكار الخالق» وإسناد الأعمال إلى الطبيعة.

هذا مقام الحيرة لمريدي مذهب «درون» فإما أن يكون إمام مذهبهم «درون» قال قوله السابق عن علم وتحقيق، وفيه كما قالوا نقض لأساس المذهب، وإما أن يكون الخوف الذي اتهموه به من أهل الأديان حمله على الجهر بهدم أساس مذهب الطبيعيين.

وبالنتيجة يريد الدكتور شميل، والأستاذ «برن» وغيرهما أن يوافقوا «درون» إذا أصر على إنكار «الخالق» ويخالفوه إذا أقرّ بوجوده.

وبالاختصار إن كل ما جاء في مذهب الطبيعيين من حصر الاحياء بأنواع قليلة، وتفرع الكثير منها وعنها، كل هذا لا يضر التسليم به، كما أنه يفيدهم أن الحياة وظهور الاحياء نتيجة طبيعية لقوى طبيعية، نعم إذا أمكنهم إثبات التولد الذاتي، كان لاقوالهم معنى ولمذهبهم مستنداً.

هذا الذي رأيت ما يؤاخذ به الحكيم شبلي الشميل وقد خالف إمامه وأستاذه «دروين» وفيما عدا ذلك فإني أقدر شميل قدره في دقة بحثه وتحقيقه، وجرأته على بث ما يعتقده من الحكمة، وعدم تهيبه من سخط المجموع لما يجهله من حقائق العلم.

أما جمال الدين فكان يعلم ما بيني وبين الدكتور شميل من الولاء وقد ظهرت عليّ علائم المسرة لتقديره الرجل، ولكن ساء ذلك أحد إخواننا المصريين فقال: يا أستاذ إنني وجدت في الدكتور شميل «غروراً»، فأجابه السيد: إن الذي رأيته في الشميل لم يكن «غروراً». ولكنه «عزة النفس»، والذل وصحيح العلم ضدان لا يجتمعان.

وقليل العلم السفسطائي المدالس، فيجمع عليه الطيالسة الخضر، ويخرّون له إلى الاذقان ويعتبرونه بمظهر العالمي لا العلمي، ويبجلونه لبذل طعامه، وعظيم داره.

والدجالون كثيرون في كل قطر ومصر، وفي كل آن وزمان.

قيل للسيد: إذا لم يكن لعلماء العرب في مذهب النشوء والارتقاء غير تلك الشذارات والعبارات الوجيزة، فهي لا تفي بالمقصود بل يصح الاستشهاد بها على أن القوم فهموا من هذا المطلب كليات فقط، ولم يعيروها اهتماماً استحق منهم أن يفردوا لها بحثاً أو كتاباً خاصاً يتكفل باستيعاب ما يلزم ذلك المذهب من الأدلة واستجماع البراهين!

فقال: هاتوا مكتبة بغداد، والأندلس، والقيروان، وما ترجم في عصر الخلفاء العباسيين، وما حقق علماء العرب من المباحث، وما ألفوه من الكتب الفلسفية والطبيعية والكيمياء. وبعد ذلك طالبوني وألزموني الحجة بعدم استيفاء أولئك العلماء مواضيع ما نرى من المباحث في العلوم والفنون الوافدة إلينا عن طريق الغرب اليوم.

ودعوا العصر الجليدي يستحوذ على قارة أوروبا مرة أخرى، ويدور الدور الفلكي بمفعوله وتأثيره، ويجعل الحياة في ذلك الاقليم متعذراً كما كان أولاً، وانظروا إذ ذاك الى نهضة الشرق - خصوصاً متى تغيّر شكل الحكم في أهله - فترون الشرق قد عاد مشرقاً بالعلماء، زاهراً بحقائق العلوم، مثبتاً مقرراً لكل ما هو نافع ويصلح أن يبقى أثراً. (وتلك الايام نداولها بين الناس).

اما الانتخاب الطبيعي، فهو في جيل البداوة، وفي حضارة الاسلام، أمر معروف ومعمول به، سواء أكان في انتخاب الزوجات من النساء، وتحري النجيبات من الأمهات، فيخطبون بناتهن، وفي ذلك أقوال مأثورة، كالقول «خذ بنك خالاً» - أي زوجة يكون لها من الصفات الطيبة وحسن الخَلق والخُلق والمزايا، ما لإخوانها - حتى إذا جاء الولد يكون فيه من الوراثة عن طريق أمه ما يشبه أخواله من موجبات الفخر، وكذلك عن طريق الاب، فيشبه الأعمام فيفتخر او يمتدح، فيقال: فلان معم ومخول.

أو في تحسين نسل الخيل.

وأما حرص العرب على الانتخاب الطبيعي في تحسين الحيوان، فأمر مشهور، إذ البدوي الى اليوم يطوف البراري والامصار ليجد الى فرسه جواداً من جياد الخيل، ويحرصون على حفظ أنساب الخيل، حرصهم أو أكثر من حرصهم على أنساب البشر. قال «وبالاختصار علم قليل مفيد في الصدور يُعمل به، خير من علوم كثيرة في الكتب مسطورة ولكن لا يُعمل بها.

فتاة الشرق

«بقلم حضرة العالم الفاضل الدكتور شبلي شميّل»

لا أريد بها المجلة المعروفة لإظهار فوائدها لمجتمعنا ولبيان فضل صاحبتها اللبيبة في تحبيرها. فإن الأولى يكفيها فضلاً أن ذوي الألباب منا يقدرونها قدرها. والثانية يكفيها نبلاً انها:

بنت ذاك الوطن

لا ذلك الوطن الكبير لأني أعتبر أن وطن الانسان أكبر وهو العالم وسيأتي زمن يذمّ فيه التعصب للأوطان كما يذمّ اليوم الترفض في الأديان. ولكن الانسان خلق ضعيفاً فلئن أكن قد تجرّدت من ذلك التعصب الكبير لكني لم أستطع مع ذلك أن أتجرد من التعصب لذلك الوطن الصغير وهو مسقط رأس كل انسان•. فسلام عليك أيها الوطن الأصغر حنين مشتاق طال عليه البعد وجنى عليه الكد ولا صبوة له بعد طول العهد إلّا أنه تضمّ إليك رفاته إذا خانه العود إليك حياً. وسلام عليك أيتها الدوحة التي أصلها منه وفرعها عالٍ يمد أغصانه في الأقطار ويخلد لها حسن الذكر بجميل الآثار.

بل أريد بها تلك الفتاة التي هي لنا تارة أم وتارة زوج وتارة بنت فهي المنشأ والصراط وإليها المرجع وهي مرآة الاجتماع وتاريخها تاريخه. فهو المؤد بها قبل النبي كأن ليس له تاريخ حتى ولا آثار تقرأ كالوحي في الحجار. وهو الذي بها ناصب آلهة الأولمبوس العدوان على عهد اليونان. والذي بها خرّ بنيانه الشامخ على عهد الرومان. فإذا أردت أن تعرف تاريخ شعب فاقرأ تاريخ فتاته: جاهلة خاملة. عالمة فاضلة. مشطة متهورة تعرف تاريخه.

كيف لا والمرأة شأنها في الاجتماع فوق شأن الرجل فهي النصف فيه بحكم الطبع وتزيد بما لها عليه من سلطان التربية الأولى التي أثرها ثابت حتى انه ليرافق

• مجلة فتاة الشرق السنة ٢ جزء ٨، ١٥ مايو (أيار) ١٩٠٨، ص ٢٩٠ - ٢٩٣.
ومما تجدر الإشارة إليه أن صاحبة مجلة فتاة الشرق، لبيبة هاشم، أو «بنت ذاك الوطن»، كما يسمّيها متحدّرة من بلدة كفرشيما، مسقط رأس آل شميّل واليازجي وسواهم.

الانسان من المهد إلى اللحد. فهي التي تعد الرجال للعمران كما نعد نحن الحجارة للبنيان. وأيُّ بناءٍ يقوى على طوارىء الحدثان إن لم تكن حجارته كحجارة بعلبك وتدمر والاهرام.

وأي شعب تكثر فيه النوابغ إن لم تكن نساؤه من فضليات النساء. وهذا الأثر ظاهر في الأفراد والجماهير حتى انك لتراه في الرجل الواحد في أطوار حياته المختلفة كما حصل لداهية القرنين نابليون الكبير من تأثير امرأتيه الاثنتين. بل أي شعب تقوم فيه النوابغ ونساؤه خاملات جاهلات مدفونات في الحياة. وإن قام فيه أشباه نوابغ بالاستعداد خانتهم التربية الاجتماعية المستمدة أصولها من التربية البيتية فكانوا بالقياس إلى نوابغ الشعوب الراقية كدعاميص الضفادع إلى الحيتان أو كالأنجم القميئة إلى باسقات الأشجار أو كالأقزام إلى الجبابرة.

ولقد صدق الفرنسيس في مثلهم حيث قالوا في كل حادث ذي بال «فتش عن المرأة» ولكنهم أخطأوا في أنهم قيدوه بالمصائب التي تنتاب الرجال. ولو أطلقوه على حالتي الخير والشر لعدلوا وكانوا من المصيبين. ولكن كيف يكون ذلك والانسان نسيج متوارثات لا يزال أثرها يعمل فيه ويظهر في أقواله وأفعاله مهما أمعن في البعد وحلق في الارتقاء. وهو في ذلك لم يخرج عن مغازيه في اسطورة الخليقة حيث قالوا إن حواء كانت الباغية الطاغية ولولاها لكان آدم كالملاك ولبقي بعيداً عن معرفة الخير والشر خالياً من كل علم يمرح في حقول الجهل ويعمل في ذلك الفردوس الأرضي كأنه أجير في دار أمير. وهم وإن رموها هكذا في أنها كانت سبباً لشر عظيم زعزع نظام الكائنات فقد أثبتوا لها عليه حق التفوق في العلم وكفاها ذلك فخراً لولا أن الرجل هو الباغي حقيقة لتفوقه عليها بقوة العضل فكان هو الحاكم الحقيقي في أمرها ولكن القاضي على نفسه أوْلها بها. وما أصدق ما قاله فيها أديبنا:

إنما المرأة مرآة لنا ... كلُّ ما تلقاه فيها منك لك
فهي شيطان إذا أفسدتها ... وإذا أصلحتها فهي ملك

وفتاة الشرق مظلومة وظالمها الرجل وما يظلمون إلّا أنفسهم. ولذلك كان الشرق في انحطاط مقضيٌّ عليه به ان لم ينهض بفتاته وينشىء لها دور العلم وصروح العرفان لتكون أماً فاضلة وزوجاً محبوبة وبنتاً مطلوبة. وما أقلها دوراً وما أسخف الموجود منها نظاماً. فإن دور العلم القليلة الموجودة بيننا على تفاوت في هذا النقص لا تنشىء إلّا فتيات عارفات بعض المعرفة بالعلوم الكمالية فيخرجن على الغالب بارعات بقراءة القصص لا إلى حد التأليف ضاربات على الآلات لا إلى حد التعيش منها راغبات في دور الملاهي راقصات على كل توقيع صابيات إلى الحلى الثمينة والملابس

الفاخرة باحثات عن بعل ولوكا . . . لصنم (لعن الله السجع) ولكن من ذوي اليسار يصح فيه ما تمناه أبو نواس على عهد بني العباس. ولكنهن يخرجن جاهلات أمور تدبير المنزل جهلاً مطبقاً وعذرهن أنهن حديثات عهد الخروج من المدرسة كأنهن الجواري الآتيات من «الجلبة» حتى انهن ليأنفن من الاهتمام بأمور منزلية يزعمن انها دون مقامهن.

والذنب في ذلك ليس عليهن بل على تلك المدارس التي أتتنا من الخارج بقشور التمدن دون لبابه فجعلت همها تقوية الخيال فيهن وزعمت انها تربي فيهن النفوس وأهملت كل ما تعلق بأمورهن المعاشية التي يتوقف عليها عمار البيت وعمار الذرية.

فما أجدرنا أن ينشىء المنشؤون منا مدارس تعلم فيها الفتيات العلوم اللازمة ويكون فيها فرع قانوني لعلم تدبير المنزل وتكون كل فتاة مهما علا مقامها ملزمة بحضور هذا الدرس حتى تبرع فيه علماً وعملاً من الرفء إلى الطبخ. وكأني بسيدات اللابسات من الحرير جلابيا:

الناعمات القاتلات المحييا ... ت المبديات من الدلال غرائبا

ينتقدن قولي باسمات هازئات ويقلن كيف يليق بالمتعلمات أن يكن طباخات وخياطات ومراضع و«دادات» فليعلمن بأنهن إن لم يكن من المحسّنات لهذه المحسنات فلا يصلحن ان يكن زوجات وأمهات ومدبرات ومهذبات لرجال المستقبل ولا يصلحن لإدارة أي عمل يتعلق بذلك. وأية مملكة أهم من مملكة البيت وأي تدبير أهم من تدبير المنزل. فالبيت مملكة صغيرة وعلى حسن تدبيره يتوقف نجاح الاجتماع كله.

* * *

وسوف تنشر دار الحمراء في وقت لاحق وفي كتاب مستقلّ أشهر المناظرات التي خاضها الدكتور شبلي شميّل منذ العام ١٨٧٨ حول التولّد الذاتي والجاذبيّة بالإضافة إلى المناظرة التي بدأت في منتدى الكليّة السورية الإنجيليّة في مطلع العام ١٨٨١ بين يعقوب صروف وابراهيم الكفروني، وتردّدت اصداؤها على صفحات التقدّم (اديب اسحق: «حقوق المرأة»، شباط ١٨٨١) ومن ثم انتقلت إلى صفحات مجلّة المقتطف في اعقاب مقالتَي شميّل: «المرأة والرجل وهل يتساويان؟» و«هل للمرأة نفس». وحين انبرى فريق من السيّدات للدفاع عن وجهة نظرهنّ النسائية، بادرت المقتطف إلى تحديد عنوان المناظرة على الشكل الآتي:
«دفاع النساء عن النساء».

شبلي شميّل وقضيّة المرأة في الشرق

مرارة في حَلق الدَّاخل بين البَصَلة وقشرتها

كانت صفحات مجلّة **فتاة الشرق** لصاحبتها لبيبة هاشم ميداناً لمناظرة حول الرجل الشرقي ونظرته إلى المرأة الشرقيّة والعكس بالعكس، ابتداء من الجزء الثالث (السنة الرابعة: ديسمبر ١٩٠٩). وبدأت المناظرة بمقالة عنوانها «اقتراح على الاوانس» من قلم «الكاتب الأديب صاحب الامضاء: ن. م.» [نجيب ماضي]. وجاء الردّ الأول على الاقتراح بتوقيع «هيفاء» التي أنحت باللائمة على الرجل الشرقي وحمّلته مسؤولية تأخّر المرأة الشرقيّة وهضم حقوقها والتمييز في معاملتها.

وفي الردّ الخامس (مارس ١٩١٠) من ردود المناظرة عادت الآنسة هيفاء إلى الاستنجاد بالدكتور شميّل «نابغة الشرق وفيلسوفه» لكي يحتكم إليه المتناظرون. وختمت ردّها بالعبارة التالية التي حملت الدكتور شميّل على الردّ بمقالة عنوانها «على مَن الذنب؟».

> «ولا ريب في ان حضرة مناظري يرضى بحكم صادر عن رجل مثله **ومشهور أيضاً بقسوته على النساء**، كما اني انا أرضى ايضاً بحكمه لما أعهده بحضرته من الدراية والفضل».
>
> **هيفاء**

لذا نجد الدكتور شميّل يخاطب «حضرة هيفاء افندي» ويستعيد ذكريات المناظرة القديمة حول المرأة والرجل (ثمانينات القرن الماضي) حيث حاول «الدخول بين البصلة وقشرتها» وسعى لنصرة المرأة «بردّها إلى مقامها الحقيقي في المجتمع». لكن الاختبار الذي مرّ به آنذاك «لا تزال... مرارته في حلقي».

ولا ريب في ان الدكتور شميّل ثارت ثائرته وحفيظته للتهمة المنسوبة إليه: اشتهاره بالقسوة على النساء. وقد عادت الآنسة ميّ في حوارها الشعري مع الدكتور شميّل إلى تناول مسألة القسوة هذه والتلويح بها على طريقتها الظريفة واسلوبها الصريح منذ تعرّفها إلى شبلي شميّل. الذي أفزعها فأجفلت منه وأهدته قصيدتها «Reconciliation» بالفرنسيّة التي أدّت إلى المصالحة والتفاهم والوفاق. مما حمل الدكتور شبلي شميّل على مخاطبتها في قصيدة بعث بها إليها كالآتي:

«مروّضتي مروّضة الأُسُودِ»!

[فتاة الشرق، جزء ٢، سنة ٤ (ديسمبر ١٩٠٩) ص ٤٣ - ٤٧]

على من الذنب؟

ألا ترى حضرة هيفاء أفندي - سامحها الله عداد خطاياي - انها ظلمتني وقد أقامتني اليوم حكماً بين الرجل والمرأة - في أيهما أحق بالتذنيب في مسألة حكم التكافؤ فيها غالب والحيف فيها على واحد حيف على الاثنين - وحضرتها تعلم حق العلم أن الداخل بينهما كالداخل بين «البصلة وقشرتها»... أقول ذلك عن اختبار لا تزال... مرارته في حلقي. فقد راق لي مرة - ويشهد الله انها كانت مشومة - أن أنصر المرأة بردّها إلى مقامها الحقيقي في المجتمع - وما هو بالمقام الذي يستهان به - نصراً مبيناً بالأدلة العلمية والبيّنات التشريحية والبيانات الفزيولوجية والمرامي الاجتماعية متوخياً من كل ذلك بيان الحقيقة التي ترفع مقامها غير مدّخر جهداً في هذا السبيل على ما في الطاقة: أنسل من ضعفها قوة تذلل الرجال بدمعة لو جرت لصادت كل أسد رئبال وأقامت الأبطال على الأبطال. واستخلص من عصبها النحيف دقة حساسة ورقة شعور تزيدانها ادراكاً للأمور وحنوًا تدفع به عن أطفالها كاللبوة وحسن نظر في العواقب يكسبها صبراً في الملمات تعنو له الشدائد. وما تطوعت في هذا السبيل وبذلت كل هذا الجد إلّا لأبين للملأ أن مقامها في المجتمع ليس دون مقام الرجل. ولولا التقى لعكست الآية وقلت إنها رأس الرجل لأخفض من كبريائه وأرفع من غضاضتها ولنفيت عنها الذنب الذي نسب إليها ولخصصته هو نفسه «بذنب» أجداده وحده.

فإذا كان الرجل يقدم معدات البناء في المجتمع فهي «البنّاء» الذي يتوقف على بنائه صرح الاجتماع قوياً فقوياً وضعيفاً فضعيفاً. فما هي قعيدة البيت عن كسل ولا بيضته عن ذل بل هي من البيت أساسه المتين ومن البيضة محها الصافي وهي أم مشاهير الرجال لا بالمعنى الطبيعي فقط بل بالمعنى الأدبي أيضاً.

وما كان ذلك مني في ذلك العهد إلّا لفوضى وقعت بين الرجل والمرأة في فهم واجباتهما واعتبار حقوقهما فأخذ كل منهما يتطالّ إلى مقام الآخر - لا المرأة إلى مقام

● **فتاة الشرق**، ج ٤، السنة ٤، ١٩١٠، ص ٢٤٥ - ٢٤٨.

الرجل بل من الرجال اليوم من يتمنون لو أنهم هنَّ ـ وساعدهما الكتّاب بتوسيع الخرق بينهما إما متزلفين لرضىً يكسبونه أو ناقمين لثأر «يفشُّون به خلقهم» ـ لأن نصر الرجل للرجل ليس طبيعياً ـ وصبت الجرائد على نار الجدال زيتاً ليحمى أوارها ويتطاير شرارها ويكثر قرّاؤها ـ لأن هؤلاء لا يحبونها إلاّ حامية دائماً ـ فيروج سوقها ـ وعيش الجرائد على الخراب ـ فأردت أن أوفق بين الأثنين لأرد الحق إلى نصابه لا لأفوز بكلتا الزلفيين. وبينت بالأدلة الدامغة أن المرأة المحامية (الأفوكاتو) ليست أمام منصة القضاء في موقف الدفاع أسطع بياناً وأنصع حجة منها أمام سرير الرضاع. ولا هي في ساحة الوغى أرمى نبالاً منها في صدر المجلس. ولا الرجل الحاضن في عقر البيت أنزه بالاً من الذائد عن حوضه في ميدان الجهاد. ولا المعقوص الشعر المترهل دلالاً أجمل من شائكه جزّاً المجدول العضل من شاق العمل.

ولم يكن غرضي من كل ذلك إلاّ وضعها في المقام الذي فرضته لها الطبيعة نفسها عملاً بسنّة تقسيم الأعمال في سلم الارتقاء وتطبيقها على المنفعة حتى لا يكون هناك مفاخرة تدعو إلى «المناقرة». ـ فماذا كان نصيبي من ذلك؟

كان نصيب الموفّق أي «ثلاثة أرباع العلقة». أليست هيفاء أفندي نفسها التي طلبت حكمي اليوم وأظهرت انها ترضى به تقول إني «مشهور بقسوتي على النساء»؟

نعم كان نصيبي اغضاب الشطرين. قلت الشطرين لأن الطبيعة نفسها جعلتهما اثنين في واحد ـ لعل ذلك يقوي حجة القائلين بالثلاثة في واحد ـ فقام الرجال الحاقدون على المرأة لغرض والغرض مرض وانضم إليهم الحاسدون الذين عدوا إنصافي لها زلفى فحرقتهم الغيرة وأخذوا يشنعون عليَّ ويخطئونني وما منهم من رضي بأن يسلم بأنه قد يكون لي مع الخواطىء سهم صائب حتى سلبوني كل صحة حكمي لعله يزول الغرور فيستحكم النفور إذا شابتني الظواهر ومن لا يستمسك بالمظاهر. وقام النساء يشننَّ الغارة عليَّ غير راضيات من حكمي عملاً بقاعدة من إذا أُطعم الكراع طمع في الذراع فإذا أنصفته لم يرض إلاّ إذا رجحت كفة الميزان إلى جانبه تبعاً لناموس رد الفعل ويشهد الله ـ لا الناس لأنهم مغرضون ـ إنها كانت راجحة ولكن طلب المزيد خلة في الانسان وهي خلة حسنة جداً لكن إذا خلت من العداء وانكار الفضل.

فماذا تريد «هيفاء» مني اليوم بعد أن تقادم العهد وتنوسي الود وقد قيل: «إن الملسوع يخاف من جرّة الحبل»؟ فهل تريد أن تجدد جراحاً أدملتها الأيام ولم تبق لي شباباً يغتفر به لدى البعض وأقوى به على البعض الآخر لأناصبه العدوان؟

فلتعذرني «هيفاء» إذا أحجمت وإن كنت شديد الرغبة في الصدع بأمرها ولتدع

فتاتها إذا شاءت تفعل ما تشاء من غير ضاغط على حريتها إلاّ ما يدفعها بالاستعداد الفطري والمكتسب والغلبة في كل منهما إلى الأنسب عملاً بحكم ناموس التكافؤ فإن لم يكن في ذلك منتهى السعادة ففيه أصغر البلاء. ولعلي لا أعدم من كتابنا الأفاضل في القطرين من غزرت مادتهم على مادتي وقويت حجتهم على حجتي وكثرت خبرتهم على خبرتي فيفتدونني من حسري ويكسبون أجري ويطرقون هذا الباب عني فيوفونه شرحاً ويقتلونه بحثاً وبذلك يغنونها ويغنونني ويكون لهم الفضل فضلين عليها وعليَّ وعلى الاجتماع فضلاً ثالثاً أيضاً وما ذلك عليهم بعسير.

مصر أول ابريل (نيسان) سنة ١٩١٠

الدكتور شبلي شميل

الشيخ خليل اليازجي
والدكتور شبلي شميّل

قال سليم سركيس في الجزء الثاني من السنة الرابعة (١٩٠٨) من مجلّة سركيس، ص ٥٨ ما يلي:

عثرت على كارت ڤيزيت باسم المرحوم الشيخ خليل اليازجي وقد كتب فيها بخطّ يده الفارسي الجميل قوله في الدكتور شبلي شميّل:

تُدعى الشميّل تصغير الشمول على ... وجه التلطّف والتحبيب في الكلمِ
وما الشمول إذا ما رمت نسبتها ... إلاّ ابنة الكرم يا ابن الجود والكَرَمِ
شبل وفي الشبل فوق اللّيث مرتبة ... معنى الفتوة والإقدام في الهمم

وقال الشيخ خليل اليازجي في تقريظ مجلّة الشفاء التي أصدرها الدكتور شميّل منذ ١٨٨٦ في مصر، فأورد الشميّل هذه القصيدة في خاتمة الجزء الخامس من الشفاء (١٥ يونيو ـ حزيران، ١٨٨٨) ص ٢٠٠، على النحو الآتي: ـ

تقريظ للشفاء

ورد لصحيفتنا التقريظ الآتي من نظم جناب الشاعر البليغ الشيخ خليل اليازجي صاحب ديوان نسمات الاوراق المطبوع حديثاً في مطبعة المقتطف ونجل العلامة المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي اللبناني شاعر الشام الشهير فاثبتناهُ هنا مع الشكر وهو:

أنَّ الشفآء مجلَّةٌ طبيَّةٌ ... جَمَعت فاوعت خيرً مدح قد وفى
فالطبُّ اشرف ما بِهِ بَحَث الورى ... إذ كان في الدنيا يخصُّ الأشرفا
ونراهُ مُحدَثَ نَشْأَةٍ مع قِدْمِه ... فالبحث فيهِ خير ما قد أُلِّفا
كمجلَّةٍ غرَّآء عزَّ مقامُها ... جمعت بِهِ ما جلَّ مما استُطرفا
واتت من الماضي على ذكر الذي ... فيهِ فوائدُ كنَّ في طيِّ الخفا
فيها ٱلْتقى بستور مع بقراطَ والـ ... شيخِ الرئيس وغيرهِ ممن قفا
وبها دقائق مُلحَقات الطبِّ قد ... أُوسعنَ بحثاً واكتُنِهنَ تَفلسفا
ومسائلٌ مدَنيَّةٌ وَمطالبٌ ... علميَّةٌ والكلُّ مما استُؤْنفا
وهي البديعة في البلاد استنبطت ... تروي العِطاش بمورد منها صفا
وهي الطبيب يعود إذ لا عائدٌ ... مترفِّقاً بعليلهِ متلطِّفا
لا يعدل الخبرُ العيانَ ومَن يكنْ ... للشيءِ مختبراً وقال فقد كفى
والطبُّ غايتهُ الشفآء لذي الضَّنى ... فيُهُمْ ما يُهدَى اليهِ هو الشَفا

والديوان كلهُ من ابلغ الشعر في هذا العصر. ومما قال فيه من قصيدة في مدح استاذنا الشهير صاحب الفضل الذي لا ينكر على البلاد السورية بل على البلاد العربية قاطبةً الطبيب الاعظم والفيلسوف الاكبر الدكتور كرنيليوس فان ديك الابيات الآتية.

انت الطبيب لاجساد العباد ولـ ... عقول والانفس اللاتي اشتكت سقما
والفيلسوف الذي احصى العلوم وقد ... أسالها منهلاً للمتشكين ظما
وانما العالم المفضال عن ثقةٍ ... من علم الناس لا من وحدهُ عَلما

المرأة والتعليم والحجاب

من الدكتور شميل إلى حفني بك ناصف*

سيدي الاستاذ الفاضل. حفني بك ناصف المحترم

أشكرك على النسخة التي تفضلت عليَّ بها. من مقالات النسائيات لحضرة الفاضلة باحثة البادية. وقد طالعتها معجباً بعلم صاحبتها ودقة نظرها ولا سيا إقدامها في مجتمع لا يزال يعد الخروج فيه عن المألوف مهما كان شأنه بدعة مذمومة. مما دل على أن علمها الواسع لم يبق في رأسها عقيماً كما هو الحال في رؤوس أكثر رجالنا حتى اليوم. ولم أقل نسائنا لئلا أبخسها حقها من الفضل المتقدم بين أترابها. وهنَّ غالباً كما هنَّ. شطر عاطل في جسم اجتماعنا.

فباحثة البادية بين النساء المصريات بل المسلمات بل الشرقيات عموماً لا يقل فضلها في الضرب على مساوىء الأسرة عندنا والحض على وجوب تعليم المرأة لتحرير عقلها وتقويم أخلاقها بالعلم الصحيح عن فضل قاسم أمين في وجوب تحريرها وإن كانت لم تطلب لها هذا التحرير إلى الغاية القصوى مثله لأنها لم تطلب إلغاء الحجاب بالكلية. وهو رأي في نظر البعض وجيه. أولئك الذين يقولون إن الطفرة محال ويخشون الانتقادات العنيفة فيطلبون الاصلاح بالتؤدة واللين خوفاً من تصعيب المطلب الذي يحول دون بلوغه وإن كان نظام الاجتماع لا يستغني أحياناً عن الثورات العنيفة إذا اشتدت المقاومة في الأحوال الراسية لطول العهد كنظام الطبيعة نفسه حذو القذة بالقذة ومهما يكن من ذلك فإن رأيها هذا في نظري لا ينافي رأي الطالبين اليوم السفور المطلق وما هو إلاَّ حذر لفظي لأن رفع الحجاب المعنوي عن العقل لا بد أن يؤدي إلى رفع الحجاب الحسي عن الجسم كما أن طلب رفع الحجاب الحسي دفعة واحدة لا

* انظر: مجلة فتاة الشرق السنة ٥ / ١٥ اكتوبر (تشرين الأول)، ١٩١٠، ص ١٤ ـ ٢٠.

والزهاوي هو الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ ـ ١٩٣٦) الذي نشر مقالة عنوانها «المرأة والدفاع عنها» في صحيفة المؤيد الاسبوعي (العدد ٦١٣٨، ٧ آب ـ أغسطس، ١٩١٠). فأحدثت المقالة ضجّة كبيرة في حينه ولم تهدأ الخواطر في بغداد إلاَّ بعد عزل الزهاوي من وظيفته في مدرسة الحقوق. كما عمد الشيخ سعيد النقشبندي إلى وضع رسالة اسماها «السيف البارق في عنق المارق».

يرضى به حتى المحجوب نفسه إذا لم يرفع حجاب الجهل عن عقله أيضاً وكأنها في ذلك سلكت مسلك دارون نفسه في العلوم الطبيعية إذ حصر الخلق في أصول قليلة تفرغت منها الأنواع الكثيرة بعد ذلك بالنشوء والتحول حذراً من تصعيب المطلب على أصحاب الخلق أنفسهم ولكن ذلك الحذر لم يمنع معتنقي مذهبه المعتقدين صحته من اطلاق ناموس النشوء والتحول على الطبيعة كلها لأنه إذا صح النشوء للبعض لا يفهم لماذا لا يصح للكل فتحرير العقل إلى الغاية القصوى لا يتم بدون تحرير الجسم إلى الغاية القصوى أيضاً فطالب تحرير المرأة لا يسعه أن يطلبه من جهة واحدة وإلّا فكأنه لم يطلبه ولذلك اعتبر نسائيات باحثة البادية ككتاب تحرير المرأة لقاسم أمين في النتيجة المترتبة عليها بالفضل المتقدم بين النساء كمقامه بين الرجال في الاسلام اليوم وفي يقيني أن الاسلام لم تحرك فيه حتى اليوم مسألة اجتماعية أهم من المسألة التي نحن بصددها والفضل في ذلك لمصر وحدها ولأبناء مصر.

* * *

ليس الغريب أن مسألة المرأة في الاجتماع شغلت الناس في كل العصور ولا تزال شغلهم الشاغل حتى اليوم في كل المعمورة فهي من مقومات الاسرة التي هي أساس الاجتماع بل الغريب أنها مع بساطتها لم يسهل الاتفاق فيها وذهب الناس فيها مذاهب وكتبوا فيها ما لو جمع لضاق عنه الحصر كأنها من المسائل اللاهوتية العويصة لأن أكثر الباحثين جعلوها كذلك مع أنها من المسائل الطبيعية البسيطة التي لا يجوز أن يختلف فيها أثنان لولا ذلك ولا نظن أن منشأ هذا الاختلاف خاص بقوم دون آخرين وبصقع دون آخر بل هو عام جميع المعمورة وكائن من أول التاريخ إلى اليوم في أشد المجتمعات البشرية انحطاطاً وفي أكثرها ارتقاء على ضروب متنوعة فلا بد أن يكون لذلك سبب عام هو أصل كل الاختلافات التي رويت في شأن المرأة والتي لا تزال موجودة حتى الآن.

* * *

فالمرأة منذ القديم مظلومة مهضومة الجانب من الرجل لأنه أقوى منها وهي مظلومة في كل الشرائع دون استثناء لأن واضعيها رجال حتى أن بعض هذه الشرائع أنكر عليها النفس أو بالحري حتى جاز لاتباعها في عصر من العصور أن يتباحثوا في ما إذا كان للمرأة نفس وهكذا استبد الرجل القوي الخشين بالمرأة الضعيفة الجاهلة فحرص عليها الفقير حرص المالك على ملكه النافع له أو استخدمها أحياناً كما يستخدم الحيوان ولكنه لم يكن يضن بها كما كان يضن به لأن الحيوان بثمن وهي بلا ثمن غالباً ولم يستمسك كثيراً بالحجاب لأن الفقر كان يطفىء فيه آياته الشهوانية وحرص الغني عليها حرص غيرة فدفنها حية في قبور من القصور وكفنها بأكفان من

الحجاب. حتى إذا برزت من خدرها مشت متثاقلة كالبرميل الموشح. وهي تهتز على محورها وتتعثر بظلها ـ ولم يعدم الشعراء من خيالهم تصوراً للتغني بهذا الشبح ـ وغار عليها من النسيم لئلا ينقل إلى سواه شذاها وحتى من النور لئلا تمتد الأبصار به إلى مرآها فإذا مات وئدت معه حية. كأنها متاع له لا يجوز أن يفصل عنه أو كأنها جزء منه. ولكنه يجوز له أن يفصل عنها واعتبرها بذلك أحط من الحيوان الذي كانوا إذا غالوا في القسوة عليه ربطوه حياً إلى جانب القبر حتى يموت. وهي قبلت بذلك مرغمة بالقوة مستسلمة للجهل حتى حسبت كل ذلك واجباً عليها وحقاً له.

والمرءُ ان ما اعتاد متربة فإن تصنه فهو يمتهن

حتى قتل الترهل قواها الجسدية وقتل الجهل مواهبها العقلية والرجل يحسب أنه بذلك صانها وصان نفسه بها وما صان فيها إلّا جهله إذ المرأة مرآة الرجل جاهلة فجاهل وعالمة فعالم وما صان الجهل آداباً ولا أوصد أبواباً ولا أعزامة. وأمنع حجاب توسيع العقل بالعلم الصحيح وتقويم الأخلاق بالتربية القويمة وأكفل كافل الاختبار بالنفس لصيانة المصلحة فالذي قيادهُ بيده أمنع جداً إذا امتنع ممن قياده بيد سواه.

فالحجاب بقية باقية من ضروب الظلم التي حاقت بالمرأة من أول عهد التاريخ إلى اليوم والحجاب المضروب على المرأة المسلمة إلى الحد المألوف اليوم من غير تخريج أو تأويل لا تقبله العقول الناضجة أياً كانت وهو سبب عيوب الأسرة الشرقية عموماً والمصرية خصوصاً التي قامت باحثة البادية تنبه إليها في نسائياتها طلباً لاصلاحها وأي دليل واضح على أن فساد الأسرة هذا إنما هو من مقام المرأة فيها المنافي للطبع إذ الحرية المتبادلة في نظام الطبيعة حق لا يجوز أن تسلبه حتى ذرات الجماد وإلّا كانت أعمال الطبيعة أدعى إلى الخراب منها إلى العمار وهي في الاجتماع البشري حق واجب بل ضروري أيضاً لأن المرأة فيه شطر من شطري جسمه فإذا سلبت المرأة الحرية عرج الاجتماع ومشى على رجل واحدة وفيها قيد أيضاً إذ تصبح المرأة حينئذٍ عالة عليه عوضاً عن أن تكون عوناً له ولا حاجة بنا إلى إطالة البحث لوضع المقدمات المركبة لاستخراج النتائج البسيطة فإن علم المقابلة البسيط يغنينا اليوم عن كل ذلك ولا أقل من أن نقابل بيننا وبين الأمم الراقية لنقف على الفرق الجسيم بين مجتمع المرأة فيه مدرجة حية في الأكفان مدفونة بين الجدران عقلها محجوب عن أنوار علوم الاختبار كما حجبت حواسّها عن نور الطبيعة وبين مجتمع نرى المرأة فيه على ضد ذلك ونقابل فقط بين أطفال الامرأتين في مجتمعنا ومجتمعهم فاين قذارة أطفالنا من نظافة أطفالهم وسقم أطفالنا من صحة أطفالهم ورعونة أطفالنا من رصانة أطفالهم حتى أن صبيانهم ليفوقون رجالنا في العزائم فيشبون على الجد والعمل ونشب نحن على السخافة والكسل فيستطيلون بأيديهم إلى كل عمل نافع ونستطيل نحن بألسنتنا إلى كل دعوى

فارغة وإذا دمغتنا الحجة أخذنا نفتش على عيوبهم الجزئية لنستر بها عيوبنا الكلية غير ناظرين من خلال ذلك إلى ارتقائهم وانحطاطنا وتقدمهم وتقهقرنا الكليين وما كان هذا الارتقاء لهم يوم كانت المرأة عندهم مسلوبة الحرية محجوبة عن نور العلم فقد كانت مظلومة كذلك عندهم وإن لم تكن محجبة كما هي عندنا فإن ضروب الظلم كثيرة.

وأغرب من كل ذلك ان مثل هذه الدعاوي الفارغة التي نطئمن إليها تجوز على كثيرين ممن هم في مقام القادة أو أن البعض يجيزونها نفاقاً يجعلونه طعاماً على رؤوس صنانير أغراضهم لاصطياد أغرارنا به والأدهى محاولة البعض من هؤلاء واولئك واخراج البحث في الموضوع من وجهته الاجتماعية إلى وجهة دينية بحسب أهوائهم وعلى قدر إفهامهم وما يقصدون بذلك إلّا إزالة التكافؤ من بين الباحثين لينقلوا الكلام من أن يكون بين الناس بعضهم مع بعض إلى ما بينهم وبين الله لعل المعارض يجبن ويكون صمته عوناً على تأييد ما يدعون كما يفعل منتقدو الزهاوي* وقد يظن بعض السياسيين أنهم يأتون ذلك عن حكمة ليدفعوا عنهم شرّ الجهلاء كما فعلت الحكومة العثمانية الدستورية اليوم إذ ظنت أنها تملك قيادة الجهلاء وهم لا يملكهم إلّا إقامة العدل الصحيح ومن ورائه السيف حتى يقره العلم فتزلفت إليهم بأن منعت نشر أفضل كتاب في الإسلام لأعظم مصلح في المسلمين وهو كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين وما أشبه سلوكهم في هذه المسألة بسلوك عرابي إذ قام يتبرك بالحجب ويلبس المسابح ليتقرب إلى العامة وهو يحسب أن النصر له من ورائهم وما كان له من ورائهم إلّا الفشل وهم بعملهم هذا اليوم أبعدوا غاية الدستور عنا أجيالاً غافلين عن أن التنازع حولنا اليوم شديد.

* * *

قد يقول بعض الذين ينظرون إلى الأشياء مجردة أن الاسلام ارتقى وما كان حجاب المرأة عقبة في سبيله وهؤلاء لو نظروا إلى الاجتماع كما ينبغي أن ينظر إليه أي بنظر المقابلة لعلموا أن المرأة كانت في تلك العصور متناسبة في الظلم في كل المعمورة ولم يكن بينها هذا التباين الشديد الذي نراه الآن فالمرأة الغربية لم تكن أفضل من المرأة المسلمة في تربيتها وفي عملها وأما اليوم فيستحيل أن يتم للمسلمين ما تم لهم في الماضي مع سائر الأمم بسبب هذا التباين وإذا طال وجودهم على حالهم هذه ولم يجاروا جيرانهم في كل شيء كان مصيرهم إلى حيث تقضي سنة التنازع بين المتنازعين غير الأكفاء.

على أن النهضة التي قام بها قاسم أمين منذ سنين قليلة وتلته فيها باحثة البادية والتي نراها تتجسم أكثر فأكثر كل يوم كما يدل تكاثر الباحثين في الموضوع وميل الأكثرين منهم إلى شد أزرها ولا سيما في هذه الآونة الأخيرة تبشرنا بأن مساعي المصلحين وإن لم تظهر نتائجها العملية في المسلمين اليوم فسوف لا يمضي زمن قصير حتى تجني منها الأجيال كل الفوائد المطلوبة إذ تكون الرؤوس البالية بما فيها من الافكار المتعفنة قد انقضت - والعادات دين ثانٍ - فتشب الرؤوس الجديدة على المبادىء الجديدة الموافقة لمصلحة الانسان المشتركة في العمران والمتغيرة بحسب روح كل عصر طبقاً لاحتياجات كل زمان عملاً بسنة الارتقاء وغلبة الاصلح والعلم الصحيح أي العلم الاختباري دين أيضاً.

واقبل أيها الاستاذ الفاضل فائق احترامي.

الدكتور شبلي شميل

الدكتور شميّل في بورت سعيد*

كان المرحوم الدكتور شبلي شميل يطرب للنكتة في محلها. وحدث أنه ذهب سنة ١٩١٤ في فصل الصيف إلى بورت سعيد فكتب إليه جماعة في الاخوان رسالة تضمّنت شوقنا إليه وما خلفه لنا من الوحشة.

قال نجيب أفندي المشعلاني:

يا بورسعيد نهنيك على نعم ... أوليتها عندما الدكتور وافاكِ
حويت منه خضّماً مزبداً أبداً ... بالعلم كالبحر مملوءاً بأسماك

ونكتة الشاعر في قوله «مزبداً أبداً» فقد كان رحمه الله دائماً ينقم على كل شيء ولا يرضى عن شيء.

وكتب إليه الشيخ أمين تقي الدين معرّضاً بعقيدة الشميّل الدينية:

أوحشت مصراً وكنت بهجتها ... فشوقها مثل حرّها اتقدا
يا خائف الحر هل لقيت سدى ... بعض الذين سوف تلتقيه غدا

* الهلال، السنة ٢٨، ١٩١٩ - ١٩٢٠، ص ١٠٢.

لزوم استعمال اليدين على حدٍ سوى*

الاصطلاح على استعمال اليد اليمنى وحدها من العادات الغريبة التي جرى الناس عليها حتى اليوم. بل النهي عن استعمال اليد اليسرى كما يفعلون في تربية الأطفال في البيوت والمدارس أغرب من ذلك أيضاً. ونحن لو تأملنا في الأمر جيداً لوجدنا أن تربية الطفل على استعمال احدى اليدين فقط نقص يحرمه من وظيفة عضو من أعضائه. وما زعم بعض الباحثين في فلسفة وظائف الأعضاء أن الميامنة من العلامات الراقية في الانسان واستنتاجهم من ذلك أن الرجل أرقى من المرأة لأنها تياسر في حركاتها أكثر منه إلّا من قبيل التخرُّص الذي ليس عليه أقل دليل تشريحي. وسبب الميامنة غالباً في التربية والعادة كما يدل عليه تعويد اليد اليسرى على العمل عند فقد اليد اليمنى.

فحرمان الانسان من استطاعة استخدام بعض اعضائه بالتربية جناية كبرى عليه تضر به أحياناً كثيرة ضرراً بليغاً. فيجب على الآباء في البيوت والمعلمين في المدارس أن يمرّنوا الأطفال على استعمال اليدين معاً في الأكل والكتابة والخياطة وكل عمل آخر. وهم إذا فعلوا أعادوا إلى الانسان عضواً طبيعياً أفقدوه إياه بسوء تربيتهم هذه. وإمكان ذلك دليل ناصع على أن الاقتصار على استعمال يد واحدة غير طبيعي وكل ما خرج عن الطبيعة فهو تشويه منا غير محمود.

الدكتور شبلي شميل

* المقتطف، ج ٤٢، يناير (كانون الثاني)، ١٩١٣، ص ٨٨.

الجنايات والاجتماع

إن للاجتماع أمراضاً كما للجسم الحي. وهي كأمراض الجسم الحين إما مستوطنة وتسمى جنايات وجرائم؛ وإما وافدة وتسمى قلاقل وثورات. وأسبابها كأسبابها إما متممة واصلة وهي في أحوال الأفراد الخاصة. وإما مُعدة مهيئة وهي في نظامات الاجتماع نفسه كما هو الحال في الجسم الحي. فالجنايات كالأمراض نفسها لا تقع إلّا إذا توفر لها هذان العاملان: أحوال خاصة في الأفراد، واستعداد في جسم الاجتماع.

وسياسة الاجتماع كطبابة الجسم الحي: رادعة توجّه إلى الجاني كما يداوي الطب المريض؛ ومانعة أو واقية تمنع أسباب الجناية لوقاية المجتمع منها قبل وقوعها، كما يمنع الطب المرض بمقاومة أسبابه بعلم حفظ الصحة المعروف بعلم الهيجين.

فساسة الاجتماع يقاومون الجنايات بالشرائع المسنونة، وهي كالطب الشافي للأمراض. ويحاولون منعها بالنظامات الموضوعة وهي كالطب المنعي الواقي من الأمراض. وكما أن طبابة الأجسام الشافية والواقية تتوقف على تعرف طبائع المجتمع وطبائع الجناة ودرس الشرائع والنظامات الموافقة أيضاً. وكما أن الطب البشري لم يقل كلمته الأخيرة في كل ذلك، كذلك الطب الاجتماعي لم يقل كلمته الأخيرة أيضاً.

غير إنّا إذا قابلنا بين الطبين نجد أن الطب البشري تقدم أكثر جداً مما تقدم الطب الاجتماعي. فشفاء الأمراض صار أسهل مما كان في الماضي وصارت طبائعها معروفة أكثر كذلك. وإذا كانت صناعة الطب لم تتقدم كل التقدم المطلوب في شفاء الأمراض حتى الساعة، لكنها تقدمت كثيراً في علم الوقاية منها. فإن علم حفظ الصحة يكاد يكون قد ألمّ بكليات نواميس الأمراض وكيفية تولدها ووسائل ومنعها. وقد تمكن من حصر كثير منها. وفي بعض البلدان تمكن من منعها إصالة لأن الطب البشري سار مع العلم سيراً حثيثاً وجنباً لجنب. وإذا كان لم يتمكن من منعها بتاتاً

* مجلة الزهور، جزء ٥، السنة ٣، يوليو (تموز) ١٩١٢، ص ٢٣٣ - ٢٣٨.
وانظر: آراء الدكتور شبلي شميّل (١٩١٢)، «فصل في الجنايات والاجتماع»، ص ٢٣ - ٢٨.

فليس من نقص في علمه، بل من صعوبات أخرى تعترضه متأتية من نظامات الاجتماع نفسها. فالأمراض الوافدة التي كانت تنقض في الماضي على أوروبا وتفتك بمئات الألوف من سكانها في زمن قصير كوافدات الطاعون والجدري الأسود والهواء الأصفر والحمى التيفوئيدية نفسها حتى خانوق الأطفال المعروف بالدفثيريا قد قلت اليوم جداً وزالت منها في بعض الأماكن طبيعتها الوافدة. فإذا كانت أكثر المدن الكبرى في هذه الجهات بلغت الغاية في النظافة بعد أن كانت مجمعاً للقاذورات وصار السكان فيها أكثر اعتناء من قبل بنظافة مآكلهم ومشاربهم ومساكنهم وملابسهم وأجسادهم، فالفضل في ذلك للطب الذي عرف كيف يستفيد حالاً من العلم. وسوف تخف الأمراض جداً وتقل ويلاتها كلما اصطلحت نظامات الاجتماع ومكّنت الطب من العمل بقواعد علم الصحة كما هي معروفة له اليوم.

بخلاف الطب الاجتماعي فإنه لم يتقدم على نسبة تقدم العلم اليوم فهو لم يتعرف طبائع الاجتماع وطبائع الجناة جيداً. وشرائعه الشافية ونظاماته الواقية لا تزال قاصرة جداً عن المقصود وما ذلك إلاّ لأن نظره في طبيعة الاجتماع لم يتغير كثيراً عما كان في الماضي، ولم يتيسر له حتى اليوم تطبيق نظاماته وشرائعه على النواميس الطبيعية التي اكتشفها له العلم. والحق يقال إن هذا التطبيق محفوف بالمصاعب لأسباب كثيرة ناشئة عن غلبة تعاليمه الدينية والأدبية في شرائعه ونظاماته وتأثيرها في طبائع أفراد المجتمع أنفسهم. فإذا كان الطب قد استفاد كل الفائدة من العلم الطبيعي فلأن موضوعهما واحد فلم يكن يمكن فصل أحدهما عن الآخر بخلاف سياسة الاجتماع فهي حتى الآن لا تزال للأسباب المتقدمة باقية في واد والعلم الطبيعي يسير في وادٍ آخر.

ولا يستفاد من ذلك ان الاجتماع لم يستفد من حركة العلم اليوم في سياساته فإن إنكار ذلك مجازفة. فأمراضه الوافدة قلت جداً فقلت حروبه وانكسرت حدة ثوراته وخفت وطأة قلاقله. ولا شك أن الجرائم والجنايات قد قلت كذلك كما كانت في الماضي البعيد. كل ذلك لسهولة مراسه اليوم أكثر من قبل لاصطلاحه نوعاً بفضل ما انتشر عليه من ظل العلم الحديث.

غير أن القلاقل إذا كانت قد خفت وطأتها فهي لم تقل اليوم بل زادت واستوطنت كذلك كقلاقل العمال. وإذا كانت الجنايات قد قلت عما كانت في القديم فهي لم تقل قلة مطلقة بل ربما زادت كذلك بالنسبة إلى ما كانت عليه في الماضي القريب لزيادة انتشار العلم وزيادة الشعور بالحاجة معه مع بقاء أسبابها. لأن الطب الاجتماعي لم ينظر كثيراً في هذه الأسباب وإذا نظر فلم يهتد كثيراً إلى الوسائل الواقية منها أو أنه لم يحسن تطبيقها عليها. وأسبابها إنما هي في نظامات الاجتماع نفسها التي

لا تزال حتى الآن بعيدة جداً عن توفير التضامن له بتوفير العمل وتوفير المنفعة المتبادلة.

فالشارع لم ينظر في الجنايات إلاّ إلى العقاب فكأن الصعوبات التي تعترضه في نظامات الاجتماع صرفته عن تعرف طبائع العمران للبحث في الوسائل الواقية إلى تعرف طبائع الجناة أنفسهم لتحديد العقوبة. وقد هداه العلم اليوم في ذلك كثيراً وخدعه أكثر لأن الاعتماد في العلم على جهة واحدة مضر جداً. فنظر في الأمر نظرة علمية هي في مصلحة الجاني أكثر منها في مصلحة المجني عليه. إذ نظر إلى الجاني كنظره إلى المريض المستحق غالباً للشفقة والحنان بقطع النظر عن تأثير جنايته في الاجتماع. وهو نظر يوافق عليه العلم إذا كان الغرض منه توفير عضوٍ من أعضاء المجتمع لنفع منه لهذا المجتمع. وإلاّ فالشفقة في الطب كما في الشرائع يجب أن تشمل الأهم وهو الجسم الاجتماعي نفسه. ولو كانت هذه الشفقة في الشرائع اليوم ترمي إلى اصلاح الجاني لحمدنا العمل. والحال ليس كذلك غالباً. لأن وسائل اصلاح الجاني لا يعتنى بها كثيراً في الشرائع حتى اليوم. وكل ما تفعله هذه الشرائع لمصلحة الاجتماع هي أن تحبس الجاني وتكف شره عن المجتمع إلى حين. وكثيراً ما يضيف الجاني إلى عيوبه وهو في السجن عيوباً أخرى يكتسبها من مخالطته لسائر الجناة المحبوسين معه في سجن واحد. فلا يخرج من السجن حتى يعود إلى جنايته بجسارة وتفنن لم يكونا له من قبل.

فتخفيف العقوبة على الجاني لم تفد الاجتماع بل ذكر بعضهم أن القتل كان يزيد كلما قل القصاص بالقتل. وليس في الأمر غرابة والدواء على ما تقدم. حتى ولا القتل نفسه يستطيع بالارهاب أن يقلل القتل عسى أن يستطيع الجاني أن يستغفل نظام الاجتماع وينجو من عقاب مؤجل. ولذلك رأى بعضهم أن يشغّل الجاني في سجنه حتى يدفع ثمن جنايته فيكتسب عملاً نافعاً ويعوّض على المجني عليه ويُرهَب لطول الاقامة حينئذٍ في السجن. وهو أقرب الآراء إلى العدل مهما قام عليه من الاعتراضات. ويلزم حينئذٍ أن لا يقبل عن شغله عوضاً ولو كان ذا مال ويشمل التعويض حوادث القتل التي كثيراً ما يذهب فيها التعويض المدني هدراً فيفقد الانسان عزيزاً له ويفقد معيلاً كذلك.

على أن الجاني نفسه مظلوم، وظالمه نظام الاجتماع نفسه سواء عن جهل لقلة انتشار العلم أو عن حاجة لقلة توفر العمل أو عن مرض لتطرّق ذلك إليه بالوراثة المكسوبة هي نفسها من الاجتماع. والشرائع التي تعاقبه كأنها تعاقب به جهلها في تطبيق نظاماتها على حاجة العمران والتي كثيراً ما يكون الجاني العزوم فيها أنبل جداً

من الذين يحرجونه ويسترون جناياتهم بالخبث؛ فما دامت تعاليم الاجتماع لا تتمشى على قواعد العلم الحديث فتضع العمران في مقامه الطبيعي وتعتبره جسماً حياً كسائر الأحياء وتطلق عليه نواميسها الطبيعية فمن المستحيل أن تهتدي إلى إحكام الروابط بينه. وما دامت نظاماته لا توفّر له النفع المتبادل فيصعب جداً ضبطه ولقد صدق القائل: «إن توفر أسباب الثروة في بلاد لمن أفضل أسباب تقليل الجنايات فيها». فالناس في كل أمورهم دنيا وآخرة إنما هم يقتتلون على رغيف.

الدكتور شبلي شميل

الشميّل في ديوان طانيوس عبده

إلى الدكتور شميّل

وقد خصّ مئة نسخة من كتابه للادباء بشرط إثبات ادبهم لا فقرهم فهو معلوم.

فقري غدا فقرين لو انصفتني ... لوهبتني هبتين من الآئكا
فانا الفقير إلى هداك بظلمتي ... فقر اجتماعي الى آرائكا
وأنا الفقير كما وصفت لأنني ... ممّن مشوا في الصفّ تحت لوائكا
أتراكَ تحرمني لفقر بضاعتي ... أم يشفع الفقران عند سخائكا

إلى الدكتور شميّل في حادثة

هو المريض ولكن ما شكا ابداً ... إلّا اليك فلا تعبث بعلّته
وانت انت فهل ترضى يقال بنا ... المستجير بعمروٍ عند كربته

* ديوان الشاعر طانيوس عبده، ص ٨١ ـ ٨٢، ص ١١٣ أما قصيدة «هرّة الدكتور شميّل»، فأطلبها في الديوان ذاته، ص ١١٤ ـ ١١٥

الاشتراكيّة الصحيحة [1]

س ـ أراك تكثر من ذكر الاشتراكية وتقول إنها من نعم الاجتماع الكبرى، مع أن أكثر الناس ينفرون من سماع ذكرها ويعتبرونها من الشرور المقوّضة للعمران. فما هو السبب؟

ج ـ لنفور الناس من ذلك سببان: الأول أن الاشتراكية في الاجتماع تعليم حديث ولو أن أصولها قديمة فيه. والناس ينفرون عادة من كل جديد. فهم كسائر الحيوان الذي ينفر من كل ما لم يره من قبل حتى يألفه كالخيل والبقر والقطط. ويعبَّر عن هذا الطبع في الحيوان بلفظة «ميزونيسم» من كلمتين يونانيتين معناهما الخوف من الجديد. فنفور الانسان من الاشتراكية من هذا القبيل.

والسبب الثاني هو أن أكثر الناس حتى اليوم لا يفهمون معنى الاشتراكية ويظنون أنها ترمي إلى اقتسام المال بطرق غير مشروعة. وليس من العدل أن يشارك الخامل العامل في ماله.

س ـ ماذا تعلّم الاشتراكية اذن؟

ج ـ الاشتراكية لا تعلّم ذلك مَطلقاً. ومن الحمق أن يفهم الناس بها هذا الفهم ويتهم أصحابها بمثل هذا الخرق في التعليم بل هي تعلم احترام الحق بمكافأة العمل لئلا يصيب أفراد المجتمع حيف يتصل ضرره بالاجتماع كله.

س ـ ما معنى قولك الاشتراكية الصحيحة وهل توجد اشتراكية غير صحيحة؟

ج ـ الاشتراكية واحدة في غايتها وهي اصلاح حال الاجتماع باصلاح حال كل واحد فيه. ولكن الطريق الموصلة إلى ذلك في نظر أصحابها تختلف باختلاف حالهم من العلم. وقد كانت علوم الانسان حتى إلى عهد قريب علوماً موضوعة أكثر منها علوماً مطبوعة. فكانت طرقها أقرب أي النظر فيها إلى العمل بحسب مبادىء تلك العلوم. فالاشتراكية الصحيحة هي الاشتراكية الطبيعية المبنية على مبدأ العلوم الطبيعية منها.

(١) من كتاب حوادث وخواطر للدكتور شبلي شميل. انظر: المقتطف، مجلد ٤٢، يناير (كانون الثاني)، ١٩١٣، ص ٩ ـ ١٦.

س ـ وما هو هذا الفرق.

ج ـ الفرق لا في الغاية كما تقدم بل في الواسطة. فالاشتراكية المبنية على العلوم الطبيعية أهدى سبيلاً وأسهل تطبيقاً لوحدة مبدأ هذه العلوم بخلاف تلك فإنها كثيرة التعثر لتعدد مبادئها وشدة اختلافها.

س ـ ما هو حدُّ الاشتراكية؟

ج ـ هي توفير العمل أولاً وتوفير المنفعة على قدر العمل.

س ـ ماذا تعني بذلك؟

ج ـ أعني أن نظام الاجتماع يجب أن يكون بحيث يصير جميع الناس في الاجتماع عاملين نافعين منتفعين كل واحد على قدر استحقاقه حتى لا يبقى في الاجتماع أناس عاطلون وآخرون مغبونون يشوشون فيه ويفسدون.

س ـ وهل يمكن ذلك؟

ج ـ بل هو طبيعي في نظام الاجتماع فالاجتماع لا يتم بلا تعاون وهذا لا يصح إلّا إذا كان تكافؤ تام بين العمل والجزاء. لذلك قلت إن أصول الاشتراكية قديمة في الاجتماع.

س ـ وهل هذا غير متوفر في النظام القديم؟

ج ـ نظام الاجتماع القديم أساسه سلطة الفرد ومبدأه الأعمال لمصلحة هذا الفرد. فالناس في هذا النظام أرقّاء يشقون ويكدون ويقتتلون لمصلحة الحاكم أو الرئيس ولا ينال الواحد منهم القوت الضروري إلّا بشق النفس وهو غبن فادح وضرر على العمران جسيم.

س ـ ولماذا هو غير متوفر؟

ج ـ لأن الناس في الاجتماع غير متساوين في المواهب الطبيعيّة لا في القوة والبطش ولا في الفهم والمطامع فبطش القوي بالضعيف وسطا صاحب الحيلة على عديمها وتوهم الكبير أن مصلحته لا تتفق مع مصلحة الصغير فسلبه تعبه ولم يدعه يتمتع بجناه.

س ـ كيف صبر الناس على ذلك؟

ج ـ صبروا عليه لضعفهم أولاً ثم تعوّدوه ولشد ما ألفوه رضوا به ولم يعودوا

يرون فيه أقل غضاضة عليهم بل صاروا ينفرون من مساعي الذين يريدون أن يخرجوهم منه إلى اصلح لأنهم لجهلهم لم يعودوا يفهمون الأصلح.

س ـ هل النظام القديم هو نظام الاجتماع اليوم؟

ج ـ هو كذلك في المجاميع المتقهقرة وهو لا يزال في جملته روح الاجتماع في المجاميع الراقية نفسها ولو أنه تعدل كثيراً فالجمهور حتى اليوم لا يستفيد كل الفائدة من تعبه ولا يستفيد الفائدة الكبرى منه حتى الساعة إلّا أفراد قليلون.

س ـ قلت إن نظام الاجتماع القديم يضر بالعمران كثيراً فأبن لي أوجه هذا الضرر.

ج ـ أولاً يجب أن نعرف أن العمران هو استعمار الانسان للعالم أجمع. والأوطان والشعوب فيه كالغرف وأفراد الأسرة في البيت الواحد. فلكي يصلح العمران يلزم أن تستثمر الأرض جميعها وذلك لا يكون إلّا باستخدام كل قوى الانسان ومواهبه. والنظام القديم نظام أثرة يفرق بين الناس ويقتل الهمم ويطفىء المواهب فتصبح الأوطان ضد الأوطان والأمم ضد الأمم. وقد وصف أبقراط تأثير نظام الأثرة في الهمم «إن أهل آسيا أقل نجدة للحرب من أهل أوروبا لأن أولئك يحكمهم ملوك فتعبهم ذاهب نفعه إلى سواهم وأما أهل أوروبا فتحكمهم شرائعهم ومفاخر النصر ومنافعه عائدة إليهم». والمحكوم بهذا النظام لا تكون له همة ولا يقدم على أي عمل كان ما دامت نتيجة عمله ليست له فضلاً عن أن الضغط الشديد يطمس العقل فلا ينصرف للعلم فيعم الجهل. ومطامع الملوك وقلة اعتدادهم بحياة الناس تلقيهم في كل مأزق وتصرفهم عن كل عمل عمراني نافع فتدفعهم إلى الحروب المخربة وتلقيهم في المجاعات المهلكة.

ثم أن شدة التباين بين الناس في مثل هذا النظام تفقدهم الصلة في ما بينهم في كل أمورهم المعاشية فتسوء حال الأفراد وبتزعزع كيان الاجتماع. قصور فخيمة بجانب أكواخ حقيرة. وأحياء نظيفة بجانب أحياء قذرة. وأناس بمطارف من خز بجانب آخرين بأسمال بالية. وأصحاء تكنفهم كل أسباب الراحة بجانب مرضى ينقصهم حتى القوت الضروري. فتنتشر الأمراض والأوبئة وتكثر الجنايات والقلاقل وتخرب الأرض ويمتد ذلك من المجتمع الواحد إلى المجتمعات الأخرى ويسوء العمران. فنظام الاجتماع القديم وكما هو حتى اليوم تبذير في قوى الاجتماع بل صرف هذه القوى فيه من الخير إلى الشر ومن التضافر على العمار إلى الدمار.

س ـ ألم يعرف الانسان ذلك في كل العصور ولِمَ لم يتلافه كما يجب؟

ج ـ قام في كل العصور أناس عرفوا هذا الحيف وقاموا ينبهون إليه ولكن غلبة الراسفين في قيود الجهل كانت تجعل صوتهم ضعيف الصدى فلا يتزحزحون إلاّ متثاقلين. العامة لتمسكهم بالقديم والخاصة لاقتناعهم أن مصلحتهم لا تتوفر لهم إلاّ بمقاومة مصالح الجمهور ولا يدركون أن المصلحة الخاصة تتوفر لهم أكثر إذا كانت المنافع متبادلة ولم يكن في علوم الناس عموماً ما يغرس في عقولهم وطباعهم غير هذا الاعتقاد.

س ـ لماذا المصلحون لم يعلموهم هذا العلم؟

ج ـ حاول المصلحون منذ القديم أن يرشدوا العمران إلى طرق أصلاحه بكل الوسائل المعقولة المستفادة من الاختبار على قدر ما كانت تسمح لهم علومهم وعلومهم كانت نظرية وأكثرها كذلك حتى اليوم ومعارفهم الطبيعية لم تكن ذات رابطة مكينة تربط نظام العالم بعضه ببعض فكانت شرائعهم شرائع وضعية كأكثر علومهم فلم يكن العلم بها ليقيهم الشرود في فهم المصلحة الحقيقية ومع أن أساس شرائعهم التعاون لم يكن يفهم من هذا التعاون توفير العمل وتوفير المنفعة على قدر العمل كما ترى في هذه الدائرة السياسية لأرسطو التي هي أساس هذه الشرائع: قال: «العالم بستان سياجه الدولة. والدولة سلطان تحيا به السنّة. والسنّة سياسة يسوسها الملك. والملك نظام يعضده الجند. والجند أعوان يكفلهم المال. والمال رزق تجمعه الرعية. والرعية «عبيد» يكنفهم العدل. والعدل مألوف وبه قوام العالم». فما دامت الرعية عبيداً فمن المستحيل أن يكنفهم العدل. وكيف يكون العدل مألوفاً وأساسه مثل هذا النظام المؤسس على هذه العلوم التي ليس لها رابط غير أحكام العقل القائمة على أوهام مستفادة من تعرُّف الطبيعة تعرُّفاً ناقصاً جداً والذي جُعل الحكم الأوتوقراطي والثيوقراطي فيه أساس العمران.

س ـ ماذا تعني بالحكم الأوتوقراطي والثيوقراطي؟

ج ـ أريد بها الحكم القائم على سلطة رجال الدين وكلها مرجعها إلى سلطة الفرد.

س ـ تقول إن الاشتراكية تتكفل بأن تنيل الانسان في العمران ما حرمه منه النظام القديم والاشتراكية في ما أعلم قديمة والاشتراكيون اليوم كثيرون فلماذا لم تتم للعمران هذه السعادة؟

ج ـ للجواب على ذلك يجب أن تعلم أولاً أن بعض المجاميع التي يكثر فيها الاشتراكيون قد ارتقت جداً عما كانت في القديم والتي يوجد منها مثال في التأخر في

بعض المجاميع الأخرى اليوم. وثانياً أن العلوم القديمة النظرية التي هي كل علوم المجاميع المتأخرة لا تزال حتى في المجاميع الراقية ذات سلطان عظيم.

نعم أن الاشتراكيين موجودون منذ القديم حتى يجوز أن يطلق هذا الاسم على عموم المصلحين القدماء وهم اليوم كثيرون. ولكن غلبة العلوم النظرية في تعاليمهم تحول دون نجاحهم التام لسببين أولاً لعدم اتفاقهم فيها على الحبل المكين الذي يجب أن يكون الهادي فيها والرابط لها لاختلاف مبادىء العلوم النظرية المتربّين فيها هم والمتربّي عليها عموم الناس ويجب أن تعلم أن التربية العلمية إذا رسخت في الطبائع تصير إزالة أثرها من هذه الطبائع أصعب جداً من إزالة نفس العلم من الافهام فكيف إذا كان العلم الغالب على البشر هو العلم القديم الذي يمكن هذه التربية في طبائعهم كما هي الحال حتى اليوم.

س ـ وما هو هذا الحبل الهادي والرابط معاً؟

ج ـ هو العلوم الصحيحة وأريد بها العلوم الطبيعية بأسرها من الطبيعة الصامتة الجامدة إلى الأحياء عموماً.

س ـ وهل لم تكن هذه العلوم معروفة في القديم أوليست هي معروفة اليوم؟

ج ـ لا أقول إنها كانت مجهولة في الماضي فكانوا يعرفون أن الماء ينحدر إلى أسفل والدخان يصعد إلى فوق والحرارة تبخر الماء والغيم يجلب المطر والكهرباء إذا فركت تجذب قصالات القش والمغناطيس يجذب الحديد والبوصلة تتجه إلى القطب الشمالي بل عرفوا قوة الانحال وجر الاثقال وعرفوا تأثير الفصول في النبات ورأوا الحيوان يتحرك والانسان يفتكر واستخدموا كل ذلك في معايشهم وبنوا عليه علومهم وتوسعوا فيها على قدر احكامهم من معارفهم هذه المحدودة. وما قصّر عنه اختبارهم اكملوه باجتهادهم في هذا المعلوم الناقص وأحر بأن يكون العلم المبني على الناقص ناقصاً في كل شيء. فهم وان كانوا في القديم عرفوا كل هذه المفردات فإنهم لم يعرفوا الرابط بينها وعلى تفكك هذا الرابط أقاموا علمهم في الكليات فكان كله اجتهاداً وتكونت لهم من ذلك تلك الفلسفة التي نسميها نحن اليوم نظرية مجردة مع أنها في الأصل ليست مجردة بل مبنية على علم ناقص مفكك الروابط وهذا سبب مذاهب التعدد عندهم في الخلق.

وحتى التمدن اليوناني الباهر لم يكن علمهم في هذه الكليات ذا ضابط. وأبقراط الطبيب الطبيعي العظيم الذي رد الأمراض إلى نظام الطبيعة واعتبرها طبيعية وقد

كانت تنسب إلى قوات إلهية لم يستطع أن يجعلها كلها من هذا المنشأ الطبيعي بل اعتبر الأمراض العصبية الغريبة كأنواع الصرع والهستيريا من مصدر غير طبيعي وأبقى لها الأسم الذي كانوا يطلقونه عليها وهو المرض الالهي. وبقي علم الناس في هذه المفردات والكليات المبنية عليها حتى عصر النهضة العلمية في أوروبا. وحتى أواسط القرن الماضي لم يكونوا يعرفون نسبة القوى إلى المادة ولا نسبتها بعضها إلى بعض وكانوا يعتبرون الحرارة والنور والكهربائية قوىً منفصلة ويسمونها بالقوى العديمة الثقل ويفصل القوى الطبيعية عن القوى الحيوية وكانوا يعتبرون العناصر أجساماً ثابتة وكثيرون يعتبرونها كذلك حتى اليوم وأما الرابط الكلي الذي يربط هذه الطبيعة الكبرى من جامد وحي فلم يكونوا يعرفونه.

س ـ واليوم ألا يعرفون كل ذلك فلماذا الاجتماع حتى أرقاه لا يزال مضطرباً في سائر أموره؟

ج ـ نعم عرف الناس اليوم كثيراً عن الطبيعة كما تدل مكتشفاتهم ومخترعاتهم الكثيرة وفخر القرن الماضي بل نصفه الثاني لا في التبسط في هذه الجزئيات بل في وقوفه على سر الطبيعة العظيم ومعرفته وحدة النواميس التي تسوسها ووحدة الرابط الذي يربطها بعضها ببعض في تحولاتها المختلفة. ومن أول ما قام العمران إلى اليوم لم تكتشف فيه حقيقة أهم من هذا الاكتشاف وهو بالحقيقة كل سر الطبيعة الذي كان يخفى على الانسان وما يأتي بعد ذلك ليس إلاّ تبسطاً في الجزئيات سيزداد يوماً عن يوم وبسرعة لم يعهد لها في تاريخ العمران مثيل.

وأما قولك لماذا العمران لا يزال مضطرباً مع ذلك فعليه أُجيب ان إدخال العلم الجديد إلى العقل أسهل جداً من إزالة أثر التربية العلمية الراسخة في الأجيال واحلال التربية العلمية الجديدة محلها حتى تصير سليقة في الطبع فهي يلزم لها وقت أطول جداً من وقت احلال العلم الحديث محل العلم القديم في العقل بل يلزم لصيرورة أثر التعليم الجديد بدانة في العقل زمان أطول جداً مما يلزم لدخوله في الفهم. ولذلك كنت قلما ترى بين العلماء الطبيعيين المتبحرين اليوم من الاشتراكيين من يقف عند ذلك موقف المتأمل المستفيد حقيقة فائدة اجتماعية كبرى بسبب ما فيه من أثر تربية الماضي. أما سمعت ذلك العالم الطبيعي كيف يحقّر معرفة العلم للعلاقة بين القوى الطبيعية في النشرة الاسبوعية بقوله: «هذا كل ما يستطيعه العلم يريد معرفة النسبة بين القوى وأما حقيقة هذه القوى فلا يوجد إلاّ الجاهل الذي يدعي أنه يعرفها» وما قال قوله هذا متعامياً عن فوائد هذه العلاقة الكلية والتي اكتشافها أكبر فوز للعلم من أول العالم إلى اليوم إلاّ حرصاً على منصبه وكأنه يقول ضمناً إنه هو يعرف هذه الحقيقة مع تقدم القول منه إن الجاهل هو الذي يدعي معرفتها. على أن العلم لا يدعي أنه

يعرف أكثر من هذه العلاقة ولا يهمه أن يعرف أكثر منها فهي وحدها كافية. وتقدمه كل هذا التقدم البديع في هذا العصر هو من هذه المعرفة. فإذا أضفت إلى ذلك قلة انتشار العلوم الطبيعية اليوم وانحصارها في عدد قليل وغلبة التعاليم النظرية في المدارس وبقاء الجماهير في عقولهم وطبائعهم تحت تأثير التربية القديمة فهمت لماذا لم تنتشر التعاليم الاشتراكية الانتشار الكافي ولم تأت بكل الفائدة المنتظرة منها ـ على أنك إذا ألقيت نظرة ولو صغيرة على تاريخ المقابلة بين العمران في القديم والعمران اليوم وبين المجتمعات المختلفة في العمران الحديث بَانَ لك مبلغ تأثير هذه العلوم بحسب حال كل مجتمع منها. وهذا هو السبب الذي لأجله تراني في كل مباحثي أحث على وجوب نشر العلوم الطبيعية ووضع كتب في التربية والتعليم على مبادئها وإحلالها في المدارس وفي كل وسائل التعليم محل تلك.

س ـ إن وإن كنت قد فهمت أن الاشتراكية ليست اقتسام المال بطرق غير مشروعة ولا التعدي على حق مكسوب بالاستحقاق بل هي رد حق مسلوب وهو حق العمل المغتصب وتوفير أسباب الراحة والصحة وتوفير العمل للجميع ومكافأة هذا العمل على مقدار الجهد المبذول وان كنت أسلم بأن ذلك يرقي الاجتماع ويقلل الجنايات ويدفع المجاعات والحروب المخربة ويخفف وطأة الأمراض ويدفع الأوبئة الفتاكة ويبسط العلم ويرقي الصناعة والزراعة وكنت أسلم كذلك بأن الاشتراكية التي ترمي إلى كل ذلك هي نعمة كبرى من نعم الاجتماع لكن لم أفهم العلاقة التي بينها وبين العلوم الطبيعية حتى يكون لهذه العلوم هذه الأهمية التي تقول عنها.

ج ـ إذا كنت قد وعيت كل ما تقدم لم تذهب عليك هذه الأهمية لأن العلم الصحيح يجعل أحكام القياس العقلي صحيحة والغرايز التي تنغرس في الطبائع ذات أميال صحيحة فإذا عمل الانسان حينئذٍ عن تعقل أو عن هوى تكون أعماله أقرب إلى الصواب ولاسيّما إذا تربت على مبدأ واحد شامل كمبدأ العلوم الطبيعية فإن تذبذبها في هذه الأعمال يقل حينئذٍ جداً بخلاف ما هي عليه حتى الساعة من تأثرها بالعلوم النظرية القائمة في البدء على مبادىء مختلفة متعددة تعدد القوى في الماضي حتى اليوم.

أما العلاقة فواضحة من المشابهة بين الاجتماع والجسم الحي فالاجتماعي الطبيعي إذ ينظر إلى الاجتماع لا يسعه إلاّ أن يعتبره جسماً حياً كسائر الاحياء ولا يختلف عنها إلاّ في الكبر وطول العمر فهو مؤلف مثلها ويلزم أن يكون خاضعاً لنواميس كنواميسها بل هو خاضع لنواميسها لأنه مؤلف منها. فالأحياء مؤلفة من أعضاء ومجاميع اعضاء مختلفة كبيرة وصغيرة حتى تنتهي إلى أدق الدقائق المسماة بالكريات الحية. وكل عضو بل كل كرية حية في هذا الجسم تستغل لسلامة الكل والكل يشتغل لسلامة هذا الجزء فإذا وقع أقل تقصير في تبادل هذه الخدمة والمنفعة

اختل التوازن ووقع الجسم في السقم الذي قد يؤدي به إلى الموت. وبالقياس إلى ذلك يجب أن تكون سياسة الاجتماع على هذه السنّة مع جميع الأعضاء الذين يتألف منهم مجاميع كانوا كالأوطان والأمم والقبائل، الخ أو أفراداً كآحاد الناس الذين تتألف منهم هذه المجاميع والذين هم له بمثابة الكريات الحية للجسم الحي وإلّا وقع في الاضطراب.

فالاشتراكية بقولها إنها توفير العمل أولاً ثم توفير المنفعة على قدر العمل قد أخذت هذا المبدأ على أساس راهن هو نظام الحي نفسه والعلم بنظام الاجتماع على هذه الصورة يجعل القيام بالواجب من قبيل نيل الحق فلا يغفل الكبير حق الصغير ولا يتوانى الصغير عن حق الكبير وإلّا لحق الضرر بالاثنين على حدٍ سوى وساء حال الاجتماع عموماً. بل العلم بذلك من هذا السبيل يسهل القيام بالعمل المفروض منه عن مبادىء قويمة مكينة وهذا ما حملني على القول بأن الاشتراكية لا تنتشر في نظام الاجتماع إلّا إذا انتشرت مبادىء العلوم الطبيعية نفسها وهكذا كما قلت وأقول تصبح الاشتراكية لا مذهباً من المذاهب او تعليماً من التعاليم مقحماً في نظام الاجتماع كما كانت تبدو في تعاليم النظريين بعيدة المنال بل نتيجة لازمة للعلم الطبيعي نفسه ولا يتم ذلك كما ينبغي إلّا إذا انتشر العلم الطبيعي انتشار العلوم النظرية في الماضي وتدربت الطبائع عليه كما تدربت على تلك كما سبق القول.

فإذا لم تفهم ما هي الاشتراكية الصحيحة كما أسميها ولم تفهم كذلك أهمية علاقتها بالعلوم الطبيعية بعد كل هذا البيان فالذنب ليس عليَّ بل الذنب حينئذٍ على تشبُّعك من مبادىء علومك النظرية القديمة التي تدربت عليها حتى اليوم وهذه إن لم أكن قد تمكنت من اقناعك بفساد أساسها الذي أقيمت عليه فحسبي أن أكون قد أقلقتك فيها والشك أول طريق الهدى.

* * *

ملاحظة:

لقد اخترنا هذه المقالة في «الاشتراكية الصحيحة» لأن الدكتور شميّل كان ينوي إدراجها في كتاب «حوادث وخواطر» [المقتطف. ج ٤٢، ١٩١٣]. وهناك مقالات اخرى في الموضوع نفسه ضمّنها شميّل الجزء الثاني من مجموعته. ومن المستحسن ان يضمّها كتابٌ على حدة في المستقبل القريب.

* كتاب حوادث وخواطر المقتطف، مجلد ٤٢، يناير (كانون الثاني)، ١٩١٣، ص ٩ - ١٦.

الجسم الاجتماعي

إلى المقتطف الأغر*

إذا أجزتم لي قلت إن ترجمة social organism «بالاجتماع الآلي» كما فعل مترجم نشوء الاجتماع لا تفيد معنىً مفهوماً لا ترجمة ولا اصطلاحاً. وترجمتكم لها «بالحي الاجتماعي» أو «الفرد الاجتماعي» وإن كانت صحيحة معنى فهي لا تدل على المقصود منها دلالة واضحة وربما صرفت المعنى من الكل إلى جزئه وهو ليس المراد. والمراد هنا جسم الاجتماع لا أعضاؤه على نوع خاص وإن كانت أعضاؤه مثله. ـ ألا ترون أن ترجمتها بالجسم الاجتماعي كما فعلت أنا تؤدي المعنى المقصود بالذات؟

الجسم الاجتماعي في العلوم الاجتماعية يوافق المصطلح عليه في السياسة «بالهيئة الاجتماعية» وهي تعبير حسن جداً وكأني لم أسمع بها إلّا من المقطم أولاً فهل أنا واهم؟

لفظة organism الانكليزية والفرنساوية مجردة في العلوم البيولوجية يعبر عنها بالعربية «بالجسم الحي»، وفي الطب يعبَّر عنها «بالجسم مطلقاً» فإذا قلنا (L'organisme est épuisée) ترجمنا ذلك بقولنا «الجسم منهوك أو مضنى» ويفهم به جسم الانسان أو الحيوان بدون نعته بالحي. فإذا أطلقناها على العلوم الاجتماعية ذكرناها معينة وقلنا بالافرنجية L'organisme sociale وبالعربية «الجسم الاجتماعي أو جسم الاجتماع» ويفهم منها كما يفهم من «الجسم» في الطب أي أن الاجتماع جسم حي أيضاً كما وصفه المقتطف من نحو ثلاثين سنة في تعليقه على بحث لي في الموضوع وصفاً حسناً بقوله عنه: «حيوان هائل» يريد بذلك الاجتماع الطبيعي.

وإني استميح العفو منكم ومن مترجم النشوء على هذه الملاحظة الصغيرة. ولا أختمها بقولي «والله أعلم» ما دمت فيها على يقين.

الدكتور شميّل

[المقتطف] نشكر صديقنا الدكتور الفاضل على ما نبه إليه بهذه السطور. ولو خطرت لنا كلمة الجسم الاجتماعي حينما عقبنا على رد مترجم نشوء الاجتماع لذكرناها كما ذكرنا كلمة الحي الاجتماعي أو الفرد الاجتماعي بل لقدمنا بالذكر

* انظر مجلة المقتطف، باب المراسلة والمناظرة، المجلد ٤٣، يوليو (تموز) ١٩١٣، ص ٧٨ - ٧٩.

عليها. وقد اكتفينا بما خطر لنا لأنه لم يكن غرضنا حينئذٍ ذكر الكلمة التي يجب أن تكون مرادفة لكلمة social organism بل الدلالة على أن كلمة الاجتماع الآلي لا تصلح لذلك.

وبعد فإن أول من وضع هذه الكلمة في ما نعلم هو هربرت سبنسر في مقالة موضوعها The Social Organism نشرها في مجلة وستمنستر في شهر يناير (كانون الثاني) سنة ١٨٦٠ والمقالة طويلة لو ترجمت إلى العربية لملأت أكثر من أربعين صفحة من صفحات المقتطف وقد أعدنا نظرنا عليها الآن فأيدت ما هو راسخ في ذهننا وهو أنه أراد الجسم الاجتماعي أو الحي الاجتماعي أو الفرد الاجتماعي العرب كأمة والفرنسويين كأمة والمصريين كأمة واليابانيين كأمة والأوروبيين كشعب والاسيويين كشعب وهلمَّ جراً وكل فريق من الناس مجتمع له نظام يجمعه حتى أهل البيت الواحد فإنه شبه كل جماعة مثل هذه بجسم حي مركب من أعضاء مختلفة. ولأجل الفرق بين هذا الجسم والجسم التشريحي والجسم البيولوجي نسبه إلى الاجتماع. وإذ قد اتضح المعنى المراد يبقى على المترجم أن يختار كلمة تؤدي هذا المعنى ويصلح استعمالها في كل المواضع التي تقع فيها وتكون مماثلة للكلمة التي تستعمل في علم التشريح وعلم البيولوجيا ولا بد من نسبتها إلى الاجتماع في علم الاجتماع كما تنسب إلى التشريح في علم التشريح وإلى البيولوجيا في علم البيولوجيا ويجب أن تدل على جسم الاجتماع البشري كله وعلى كل عضو من أعضائه أيضاً أي الجماعات التي يتألف منها.

ذهولي

[المقتطف، باب المراسلة والمناظرة، ج ٤٣ (اغسطس ١٩١٣)، ص ١٧٥ - ١٧٦].

إلى المقتطف الأغر

لفظة الهيئة الاجتماعية أقدم من أن تختصَّ بالمقطَّم خلافاً لما ذكرت بدليل ورودها في مقدمتي الأولى لبخنر المطبوعة سنة ١٨٨٤ صفحة ٥٨ من فلسفة النشوء ولا بد اني أخذتها عن سواي ممن لا أذكر دلالة على انها كانت مستفيضة في الشيوع. والذي أوقعني في هذا الخطأ انصراف فكري من الجزء إلى الكل. فقد أعجبني من المقطم يوم صدرت مقدمته استعماله الهيئة الحاكمة والهيئة المحكومة. فبقي أثر الاستحسان في نفسي وذهب عنها الشيء المستحسن. فلما جالت بي الذاكرة تولَّاني شيء من الذهول. فذهب عني المعيَّن الأخص وارتسم أمامي الأعمّ ولم أُطل الروية. فإن كنت قد عرفت اليوم خطأي واعترفت به:

فإني لأخشى أن تطول إقامتي ... وأُمسي لا أستطيع أن أعرف الخَطا

فيطربهم مني الذهول عساي أن ... أجاريهم فيه وان زلَّت الخُطَى

الدكتور شبلي شميل

آثار ملحم شميّل

بينة أنا أجمع آثار أخي ملحم شميل وجدت له من كتاب حوادث وخواطر الكلام الآتي مكتوباً بقلم رصاص ويتخلله كلام مضروب عليه وجمل معارضة بغيرها مما يدل على أنه كتبه ولم يبيضه. وكأنه شروع في بحث بدأه ولم يتمه. وأنا أُثبتُه هنا كما هو. وهو وان كان أقرب إلى كلام النظرين فإن عليه مسحة من علم الطبيعيين فكأنه حلقة الاتصال بين الأولين والآخرين قال:

«قد اختلف الناس في علة تكوين هذه العوالم. فمنهم من جعلها إلهية وهم أصحاب الأديان. وبرهانهم في ذلك ما في ذلك التكوين من النظام المحكم والمقاصد العقلية التي لا يمكن صدورها عن المادة إذ لا نظام ولا عقل لها. ومنهم من جعلها مادية وبرهانهم في ذلك ما في ذلك التكوين من التفاعل الذاتي والعلائق المتلازمة التي لا يمكن صدورها عن غير المادة إذ لا موجب ولا مظهر له من سواها. ولا يخفى ما في هذه البراهين من النظر. وذلك لأن ما ذكروا من الظواهر في إثبات تلك العلة إنما هو من معلولاتها لتوقفه في الوجود عليها. ومعلوم أن العلم بالمعلول لا يقتضي العلم بالعلة لما بينها من التباين وبرهانه ما نحن فيه من الخلاف. على أن الظواهر قد تكون كاذبة لا حقيقة لها في الواقع كالسراب تحسبه ماء وهو ليس من الماء بشيء. فالاستدلال إذاً بتلك الظواهر على ما هي من موجباته مردود بما ذكر. وعليه فادعاءُ القوم الوقوف على تلك العلة بما ذكروا من البراهين مطاولة على الحقائق وهو ظاهر. وربما كان البحث عن تلك العلة من هذه الجهة هو الحامل للعدمي على انكار هذه الموجودات جميعاً لفساد مؤداه فأنكر نفسه وما حولها مدعياً أنه في حلم وهو كلام إلى الهذيان أقرب وذلك لأن وجود الحلم نفسه موقوف على وجودها وما كان وجوده موقوفاً على وجود غيره كان وجوده دليلاً على وجود ذلك الغير».

«وكيفما كان الحال فإن هناك من البراهين ما يقضي للطبيعي بصحة دعواه وأخصها أمران أحدهما الوجود المطلق أي وجود المادة من حيث هي هي لا من حيث مركّباتها. وذلك لأن هذا الوجود يقتضي كون المادة أزلية أبدية: أما أزلية فلاستحالة وجودها من عدم لأن العدم نقيض الوجود والنقيض لا يكون علة لوجود نقيضه بل

لعدمه. وأما أبدية فلانعدام العدم بوجودها ولا شك أن ما كان كذلك لا تأثير فيه لغيره لأن ذلك التأثير تغير في كيفيّته ومقتضى هذا التغير زوال ما هو دام وهو محال. ثانيها الاستقرار أي حصول المادة في مكان ما وذلك لأن هذا الاستقرار يقتضي تنازع كل من أجزائها فكأنه للحصول إذ لا أولوية بينها فينشأ عن ذلك تهيج هو الحرارة وانتقال هو الحركة وهما متلازمان أبداً بحيث لا يمكن أن تكون إحداهما بدون الأخرى ودعوى بعضهم الاستحالة فيهما خطأ لأنهما صفتان لا حقيقتان فيكون عن الأولى جمع المؤتلفات وتفريق المختلفات وعن الثانية انتقال كل إلى ما يجانسه فتكون عن ذلك هذه الكائنات المتنوعة وما كان كذلك كان لا حاجة به إلى غيره لاستغنائه عنه بنفسه».

«وعليه فالتنازع المكاني المذكور هو يكوّن العالم. وقد خفي هذا التنازع على القوم فسموه بالجاذبية والحال أن الجاذبية تقتضي التداخل الكلي بحيث لا يبقى بين المتجاذبين أدنى انفراج بين دقائقهما لإيجابها اتحاد كل ذرة منها بكلية كل ذرة أخرى ولكن الواقع خلافه وبرهانه ما في الكوائن من الانفراجات الكثيرة كالمسام في الأجسام والأفلاك في الكواكب وليس كذلك الحال في التنازع المكاني إذ لا موجب فيه للتداخل بل للانقسام الذي لولاه لم يكن مسام ولا أفلاك مطلقاً وكانت العوالم كلها جسماً واحداً مصمتاً لا تنويع فيه ولا اختلاف. وعليه فالثقل إنما هو عبارة عن قوة التنازع المكاني لا عن قوة الجاذبية وهذا من أدق الأسرار فاحتفظ به (!)»

«وربّما توهم البعض أن الحرارة قد تستحيل إلى الحركة وهو خطأ (!!) وذلك لأنهما صفتان لا حقيقتان ومن المحال استحالة الصفات لأنها عبارة عن أحوال مخصوصة توجد بوجود ما هي له وتعدم بعدمه كما لا يخفى». انتهى

ولا نعلق شيئاً على هذا الكلام وإنما نقول كما قلنا أولاً أنه مزيج من كلام النظريين وشيء من علم الطبيعيين على قدر المتيسر في ذلك الحين وإنما جاءت نتيجته مطابقة لقول الماديين وإن كان صاحبه أقرب إلى الشكوكيين أو اللاإداريين في ما سبق لي العلم عنه من خلال سائر ما وعيته من أقواله وشاهدته من أفعاله وإن بدا لك أنه من اللاإلهيين في جوابه على قولي يوم قلت هذا البيت وأنا كذلك:

ليس يدري مقاصد الله عبدٌ … ان لله في الخليقة سرّا

فقال:

خاضت الناس في الظنون ولكن … صاحب البيت بالذي فيه أدرى

والشعراء في كل وادٍ يهيمون.

الدكتور شبلي شميل

قصيدة الدهريّة

آثار ملحم شميّل*

ومما وجدت له هذه القصيدة وقد سماها «الدهرية». وكأنه نظمها قبل الكلام الذي تقدّم له (المنشور في العدد الماضي من المقتطف) كما يتضح للمتأمل في ذلك قال:

حتّ مَ يا دهرُ تجفوني وتنوي لي … فيك النّوى ولسؤلي سوءَ تنويلِ
وفي مَ تطمع ان كلّفتني شططاً … وأنتَ تعلم ما عزمي وتعويلي
اني لأحسب هذا النور فيك دجىً … وأحسب العيش حمْلاً غير محمولِ
مالي وللعيش في الدنيا التي جعلت … للغير خير وجودي وهي تقسو لي
لله نفسي وللسلطان فيك دمي … والغيد قلبي ولي صبري وتأميلي
والمرءُ بالصبر لا بالصبر علقمهُ … في هذه الدار يرجو نيل مأمولِ
قلْ للذي قام يجري في معارضتي … هلاّ اهتدى بهدىً في الدهر مبذولَ
والسعد في الدهر حظ ان ظفرت بهِ … عفواً وإلاّ فلا تطمع بتحصيلِ
كم من لئيم سمت أوضاعهُ فزها … عزّاً وحر بما يلقاهُ مذلولِ
والحرُّ في الذلّ أولى ما يكون بهِ … موت بهِ يحتمي من حرّ تذليلِ
والدهر بالعسر سيّالٌ فإن برزت … أحكامهُ فهي عقدٌ غير محلولِ
لا يبرز الحكم إلاّ وهو في يدهِ … مسلول سيفٍ بأَمر الله مسلولِ
وهو الذي ظلّ يسقي أهله أبداً … من ورد بلواهُ ما يبلى بتمثيلِ
فمن بغَى الصفو من دنياهُ كان بها … كمن بغَى الجمع بين النطق والفيلِ
اذ كان لا قَدَر يُغْفي ولا حذَرٌ … يكفي ولا سهرٌ مُوفٍ بمسأولِ
والمرءُ اعجب ما في الدهر غفلتهُ … فيهِ وفي العمر ينوي بُعد تأجيلِ
يصفو لهُ العيش بالآمال وهي لهُ … أَضغاث حلمٍ أتى من غير تأْويلِ

* المقتطف، «المراسلة والمناظرة»، ج ٤٤، ابريل (نيسان) ١٩١٤، ص ٣٩٥ - ٣٩٦.
* من كتاب حوادث وخواطر للدكتور شبلي شميل. أنظر المقتطف، ج ٤٤، مايو (أيار) ١٩١٤، ص ٤٦٥ - ٤٦٧.

ومن تـرى يا تُـرَى تُرجى سعـادتـهُ   في كـون حرص بحبِّ الـذات مجبـولِ
والحبّ للذات في هـذا الـوجـود لـهُ   شـرط الـوجـودُ وطبعٌ غـير مفصـولِ
تـنمـو بـهِ وهـو في تعـديله أبـداً   خـيرٌ وإلاّ فشرٌ غـير مـعـدولِ
والخير في الكـون أدنى مـا يكـون لـهُ   من دهـرهِ الشر في اخـلال تعـديـلِ
والشرّ قـد صـوِّرت دنيـاهُ من قـدم   أَهـوالـهُ بـدم من فـرق هـابيـلِ
والنـاس في حبّهم للذّات ما بـرحـوا   في قـصـد لـذّات معـلوم ومجهـولِ
حتى ابتـلى حبّهـم دينـا بـهِ رصـدوا   في جنَّـة الخلد مـا يقضي بـاكليـلِ
والمجـد إذ ذاك في عـرفٍ خلودك في   أوج العـلى بـين تسبيـح وتـرتيـلِ
والبعض في عـرفهـم ان الخلود بـهِ   في روض انسٍ زهـا بالحسن مأهـولِ
وقـد روى البعض أن الأمـر حـاصلهُ   نـجـمٌ تحـلُّ بـهِ مـن غـير تحـويـلِ
وقس عـلى ذاك ممـا لست أذكـرهُ   مـا قد روى الغير من قـالٍ ومن قيـلِ
والـدين في النـاس أنـواعٌ ملخّصهـا   فيـهِ الـورى بـين تحـريم وتحليـلِ
وكـلهـم قـد أتى في وجـه شـرعتـهِ   مـا قـد جلا وجه بـرهـانٍ وتفصيـلِ
حتى أتى بعضهـم وحيٌ فسـاد بـهِ   في معظمِ الخلق من جيـلٍ إلى جيـلِ
وحبَّـذا الـدين في دنيـاك لـو سلمت   مـن ضـرِهِ أو أتى من غـير تشقيـلِ
وأحسن الـدين مـا سنَّ الضمـير لنـا   مـن آيـةِ الحقّ لا مـن آي تـنـزيـلِ
تجـري بـهِ الخـير لا فـرق العبـاد ولا   فـرق البـلاد ولا فـرق الأقـايـيـلِ
وحبـك الناس حبّ النفس جـامعـهُ   فـاعمـل بـهِ كِلفاً من غـير تفضيلِ
هـذا الـذي قـد أراد الله من قـدمٍ   وهـو الـذي صحّ عن عيسى بـانجيـلِ
والعـدل يا صاح في هـذا الـوجود بهِ   أَصـلُ الصـلاح ومبـدا كـل تكميـلِ
فـانهج بـهِ في كمـال النفس منهجـهُ   في قـولك القـول أو في فعل مفعـولِ
والنفس في الجسم لا كـالروح فيـه ولا   كـالماءِ في الـراح أو نـورٍ بقنـديـلِ
والنفس في الناس والحيوان ما بـرحت   تبـدو لنـا بـين محسـوسٍ ومعقـولِ
تحـتلّه وهـي لا تجـري بهـا غـيرٌ   تجـري لـهُ بـين تـركيبٍ وتحليـلِ
فـذاتهـا ذاتهـا لا غـير وهـي بـهِ   في الكـون من غـير تمييـز وتفضيـلِ
تـقـتـادهُ وهـي في إرشـادِه أبـداً   نـورٌ أتى شـامـلاً في زي مشمـولِ
وهي التي دونـهُ بـالـطبـع خـالـدةً   في الخير من طبعهـا من دون تبـديـلِ
فـاعقل بهـا حكمـة في الكـون معتقـداً   صـدقي وإلاّ فخض بحـر التقـاويـلِ
والعقل في النفس ما أهدى إليك هـدى   من وحيهـا الحق لا من وحي جبريـلِ
يـدريك مـا أنت في هـذه الحيـاة ومـا   هـذي الحياة ومـا يحييك في الجيـلِ
فـاحمـد بـهِ الله ربُّ الخـير معتمـداً   في حمـدِهِ خـير تـكـبـير وتهـليـلِ
واغنم بـهِ الحق من دنيـاك معتقـداً   فيـهِ من الأَمـر مـا يـأْتي بمحصـولِ

اذ تجعـل الجنّ والأمـلاك قـاطبـةً   والسحر في الكـون كـالعنقـاءِ والغـولِ
والحق في الكـون أن الحق خـالقـهُ   لا غـير والـغـير كـون في أبـاطيـلِ

انتهى

أقول وغير الحقّ ممّن هو؟! - وكأنَّ العقل هداهُ ثم عاد وصَبَا به بحكمِ المتوارث طبقاً لناموس الردَّة Atavisme وعملاً بناموس الذاتية ولو بقيت النفس معه تائهة. ومثل هذا الكلام هو الذي جعلني أقول هذا القول بمنطقي البسيط رداً على منطق القوم المركَّب:

قُسم النـاسُ بين خلقٍ يجـازي   ثم قـومٍ يـعـدُّ ذاك مجـونـا
بـين خَلْقٍ نـعـدُّ فيـهِ المعـافى   ونـعـدُّ المَأْلـوم والمسكـينـا
هـل دريتم بمـا جنيتم فـمـظ   ـلومـون أنتم . . . وأَنتمُ الظالمـونـا

ولكن كم خلبت علوم الكلام العقول. فانصرف الناس بزخارف القول المركب عن حقيقة المقول البسيط كأنهم بهرهم جمال الطيلسان فوقفوا عنده مبهوتين مستعظمين لابسهُ لا يسألون أجلفٌ تحته أم انسان.

الدكتور شميل

كلمة على كلمة
أو نقد على ما استحسنه ملحم شميل

[المقتطف، باب المراسلة والمناظرة، ج ٤٥ (يوليو ١٩١٤)، ص ٨٥ - ٨٧].

قرأنا في مقتطفكم الصادر مقارن خامس جمادى الأولى من سنة ١٣٣٢ مقالاً يتخاصم أصحاب البرهان جدالاً على أهل الايمان. ومذ وجدته غير خال عن النقضِ والابرام خالج فكري ان ألقي على كلمته كلمة. ولا بد قبل الشروع في النقض من بيان ملخّص ما نص به - وهو انه قد ادعى ان من يقيم البرهان على اثبات مدعاه من معلولاته لا نجاح له في اثبات دعواه. حيث ان البرهان ظاهر مشاهد وهو معلول ما هو بصدد اثباته. والعلم بالمعلول لا ينتج العلم بالعلة لا مكان وجود علة أخرى لا تعلم أنت بها.

ولكن نقول لو كان هذا برهانك في إبطال مذهبِ صحبة البرهان فيلزمك الخضوع بصحة ناموسه كي يكون لك عليهم حجة بالغة وإلاَّ لا طريق لك في الزامهم.

وبعبارة أخرى لو كنت للبرهان من المنكرين فما برهانك في إبطال ما رغبوا فيه البرهانيون. وإن كنت مع ذلك مستعيناً بالبرهان اعجازاً لخصمائك يكشف انك مذعن بصحة البرهان بالفطرة السليمة لا بتجشم الدليل.

ثم قال: (وكيف ما كان الحال فإن هناك من البراهين ما يقضي للطبيعي بصحة دعواه وأخصها أمران أحدهما الوجود المطلق أي وجود المادة من حيث هي هي لا من حيث مركباتها. وذلك لأن هذا الوجود يقتضي كون المادة أزلية أبدية. اما أزلية فلإستحالة وجودها من عدم لأن العدم نقيض الوجود والنقيض لا يكون علة لوجود نقيضه بل لعدمه. وإما أبدية فلاتعدام العدم بوجودها) هذا ما نص به بعين لفظه. وفيه ان وجود المادة بقول مطلق بذاتها وبساطتها لا من حيث تكونها في مركباتها أول الكلام. وهو ابن البحث. ودون اثباته خرط القتاد. كيف يثبته الادعاء الساذج عن البرهان. ولو فرضنا ثبوته ببركة الدليل لا نحتاج في اثبات الأزلية والابدية له بإقامة البرهان والدليل بل قياسهما معهما بعدما كان ذاك الوجود الوسيع البسيط بمكان من الامكان. ثم لا يخفى على المنصف المتأمل ان بعد فرض قيام الدليل الحاكم بمثل هذا الوجود الذي في عرف الطبيعيين موسوم بوجود المادة يبقى النزاع بين الطائفتين نزاعاً لفظياً حيث ان الطبيعي يعبر عن ذاك الوجود البسيط من جميع الجهات بالمادة. والالهي يعبر عنه تارة بالصانع وأخرى بالخالق وطوراً بالرازق مشيراً بها إلى ذاك الوجود المنبسط البسيط حيث انه بعيد عن ساحته المقدسة وهو أصغر من أن يصل إلى كنه ذاته فيشير إليه بتوسيط تلك الصفات الغاليات. ثم قال: (ولا شك ان ما كان كذلك ـ أي وجود مطلق دائم أزلي لا تأثير فيه لغيره لأن ذلك التأثير تغيير في كيفيته ومقتضى هذا التغيّر زوال ما هو دائم وهو محال) انتهى. أقول ومن العجب انه جعل التأثير تغييراً في المؤثر والحال أن التأثير أمر واقعي وهو عين التغيير الحاصل في المتغير ولا يمكن أخذه في مقام ذات المؤثر بحيث ينتج ضيقاً في دائرته كما هو شأن القيود وإلّا يلزم استحالة تأثير شيء ذي جهات متعددة في شيء بعدما كان مؤثراً في شيء آخر مع كون هذا التأثير بمصداقه مضاداً لشخص تأثير الأول. فلو كان المؤثر بعد التأثير مقيداً بحيثيته ومضيقاً به فلا يمكن أن يكون بهذا الضيق وبهذا القيد مؤثراً في الآخر مع فرض ان التأثيرين ضدان أو نقيضان فهل يعقل علّية الضد لضده؟ ولأن قلت إن ما هو مضيق لدائرة الذات عنوان المؤثرية نقول إن هذا العنوان أمر منتزع عن مقام أصل التأثير وهذا الأمر الانتزاعي كيف يدس في مقام الذات وهو أمر واقعي. وكيف يرفع الأمر الثابت وهو الأزلية؟ والحاصل انّا لو ساعدنا الدليل على اثبات مثل هذا الوجود المطلق الموصوف بالأزلية والأبدية لا محذور في أن يكون ذاك الوجود مع بساطته مؤثراً في الغير من دون تنافٍ بينه وبين أبديته ولو فرضنا كون التأثير صفة له لأن تأثيره في كل شيء ولو لم يكن عين تأثيره في شيء آخر بل يخال إلى تأثيرات متخالفة ولكن لماذا غفلت عن الجامع بين التأثيرات الذي يستحق اطلاق اسم التأثير عليه بقول مطلق؟ وهو بما هو جامع صفة لذلك الوجود البسيط مع ان كل أوصافه راجع إلى نفس ذاته لا أمر زايد عليه كما برهن في محله ثم قال: (وثانيهما الاستقرار أي حصول المادة في مكان ما) لا يخفى ان هذا الوجه ليس وجهاً مستقلاً بل متفرع على الوجه الأول لأنا لو كنا في أصول وجود المادة من الشاكين فما شأننا بالاضافة إلى استقراره أو عدمه؟ ولو ساعدنا الدليل على اثباته يلزم ان يكون قبل كل شيء فذاك الوجود التام غني عن الاستقرار. فعليه أين التنازع المكاني كي ينتج التفاعل الذاتي والغنى عن المؤثر.

محمد حسن فضل الله زاده
المارندراني

(كربلاء)

ويطرح مسألة قضائيّة

[المقتطف، المناظرة والمراسلة، ج ١٠ (١٨٨٥)، ص ٢٣٠]

المرجو من قضاة المحاكم الاهليَّة خصوصاً والمتبحّرين في القوانين عموماً ان يتكرّموا بتعريف «**المخالفة والجنحة والجناية**» تعريفاً جامعاً مانعاً بحيث لا يبقى التباسٌ في حدود كل منها ولهم مزيد الفضل.

شبلي شميّل

القاهـرة

الجواب الاول للمسألة القضائية الواردة في الجزء الرابع

[المقتطف، ج ١٠ (١٨٨٥) ص ٢٩٢ - ٢٩٣]

حضرة منشئَي المقتطف الفاضلي

لقد شرحتم صدور علماء القانون خصوصاً ومستخدمي المحاكم عموماً بما انتهجتم سبلهُ في هذه المدة الاخيرة من جعل قسم وافر في مقتطفكم الاغر ميداناً للمباحث القانونية واني حبّاً لهذه الخدمة الوطنية اقتحم عباب هذا الميدان وان لم اكن من فرسانه وأجب على المسئلة القضائية المدرجة في الجزء الرابع بقلم حضرة الفاضل الدكتور شبلي شميل، فأقول :

المخـالفـة * ـ هي الفعل المفرد المقصود الذي لا يحصل به ضرر الغير وينكرهُ القانون. وبيان ذلك في الاموال استعمال الشيء المضر علناً ولو بنفس الفاعل او البيع بكيل او ميزان ناقص على رؤوس الاشهاد وما شابههما فانه عمل مقصود ينكره القانون ولا يحصل به ضرر الغير بقصد اثر الضرر. ويدخل في ذلك زحام الطريق والبناء على غير خط التنظيم. وبيانه في الاعراض بما لا يتعدى الى غير طور التقبيح فان زاد الى تعداد النقائص بقصد الضرر مع وجود حدود لتلك النقائص في القانون عدَّ جنحة لدخوله في تعريفها. وبيانه في الاشخاص قبض الخناق والمشاجرة بدون ضرب فان وجود اي ضرر يُعدُّ من قبيل الجنح.

الجـنـحـة * ـ هي العمل المفرد الذي يحصل منه اضرار الغير ولو من دون قصد بشرط انكار القانون لذاك العمل وتدوين حدٍّ له. وبيان ذلك في الاموال السرقة او ما ادَّى مؤدَّاها كالتزوير والنصب والاختلاس فان كل تلك الاعمال مفردة يراد بها ضرر الغير لان عمل السرقة في هذه الحالة لم يسبق بعمل آخر كما في الجناية. واذا اعتبرنا الحد الموضوع للجنحة على رأينا نرى ان كل اعمال الجنح في الاموال يلزم ان تكون بقصد ويلزم ان تكون مفردة. ويؤكد لنا ذلك بحثنا في الاعراض. فان الزنا اذا حصل برضاء المرأة المتزوجة او الخالية من الزوج جبراً، لا يعدُّ الَّا جنحة. كما ان ازالة البكارة برضاء القاصر لا يعتبر الَّا جنحة بخلاف ما اذا كان بغير الرضاء. فانه جناية وفي الاشخاص كل اعمال الضرب والأذى والقتل الواقع خطأً الذي لا يتأتى فيه وجود عَمَلين نتجيتهما واحدة.

الجنـايـة * ـ هي العمل الزائد على الجنحة في الحد (العقاب) لجسامة امرها عنها وذلك لاحتوائها على عملين نتيجتهما واحدة وبيان ذلك ان الجناية في السرقة مثلاً تحتوي على عملين نتيجتهما واحدة. احدهما النقب او تسور الجدار وثانيهما السرقة نفسها. فكأن هذين الامرين جنحة وبضمهما معاً تكون الجناية وعلى اي حال مهما تابعنا البحث في هذه المواضيع وجدنا الجناية لا تتعدى هذا الحد بالنسبة للاموال. ويتأكد لنا صدق هذا التعريف عند اعتبار الجناية بالنسبة الى الاعراض فان القانون ذكر من الجناية في النوع ما دخل فيه الاغتصاب وقضاء الشهوة البهيمية وهذا ايضاً فيه الجناية عمل مركب من عملين كلاهما جنحة. وغير بعيد على العاقل ان يتدرَّج بهذا الحد الى معرفة كنهِ الجناية في الاعراض. ولو تابعنا البحث عن الجناية بالنسبة للاشخاص، لرأينا ان القتل عمداً عمل مركب من عملين مقصودة نتيجتهما احدهما استعمال السلاح والثاني القتل كما انه في القتل خطأ يكون العمل المقصود واحداً وهو استعمال السلاح.

والحاصل ان **الجنـايـة** هي العمل المركب من عملين كلاهما مضرٌّ بالغير ونتيجتهما واحدة ويقصد بكليهما التوصل الى النتيجة مع انكار القانون لهما.

والجنـحـة هي العمل المفرد الذي يحصل به اضرار الغير بدون قصد بشرط انكار القانون لذاك العمل ووضع عقاب له.

والمخـالـفـة هي العمل المفرد المقصود الذي لا يحصل به ضرر وينكرهُ القانون.

القاهـرة **محمد تـوفـيـق**

الجـواب الـثـانـي

[المقتطف، ج ١٠ (١٨٨٥) ص ٢٩٤ - ٢٩٥]

جناب منشئَيّ المقتطف الفاضلين

إذا وجدتم في ما يأتي فائدة فاكرموا باضافته الى الاجوبة الواردة على سؤال حضرة الدكتور شبلي شميّل.

اراد الشارع المدني بيان كون الجزاء على الجرائيم متنوّعاً بحسب كيفية الجرم وكميته فقسم الجرائم الى اقسام شتى جعل لها عقوبات متنوّعة ثم حصرها تسهيلاً في ثلاثة ابواب وهي الجناية والجنحة والمخالفةً (القباحة). فاذا أريد استيفاء الشرح على تعريف ماهيتها احتاج الامر الى اسهاب وتطويل لما تحت ذلك من الانواع ولا سيما ان هذه الاسماء لم تكن من اصطلاح اللغة العربية ولا من الوضع القديم الشرعي بل هي كلمات مترجمة عن اللغات الافرنجية وطريقة تعريفها لديهم ليس من حيثية ماهيتها لكن من حيثية كيفيتها ومقدارها وما يترتب عليهما من طبع اهل المغرب وهو تقرير طبائع الاشياء بحسب الكيفيات والكميات بخلاف طبع اهل المشرق فانهم يميلون الى تقرير خواص الاشياء والحكم باحكام الماهيات والحقائق كما في سؤال الدكتور المذكور فانه يطلب معرفة ماهية هذه الجرائم وحقائقها لا كيفية مجازاتها وكمياتها ليكون

ذلك قياساً يتخذه الحاكم في معرفتها كلما اشتبه الامر عليه. ولهذا كان تعريفها وتحديدها مما يعسر امرهُ. ولكن المتحصل من مجموع اقوال علماء الحقوق المدنية غرباً وشرقاً ان الجناية المدنية هي كل فعل منهي عنه بموجب سنن الهيئة الاجتماعية من شانه مس عصمة تلك الهيئة الاساسية مطلقاً وهدم اركانها سواءٌ كان ذلك ضد الهيئة كلها وضد احكامها وسياستها او ضد الافراد المؤلفة منها تلك الهيئة. كالخيانة السياسية والادارية والثورات المخلة بالامنية العامة والموجبة لاراقة الدماء واكحريق المدن والقرى ونحوها مما فيه هلاك النفس والنفيس وكالقتل والزنا والاغتصاب والتزوير والسرقة ونحوها مما ارتكب عمداً بقصد اياقع الضرر مصحوباً باكثر الاحوال المحظورة عدداً او فظاعةً وفي الغالب تكون تلك الافعال مركبة من اككثر من جريمة واحدة جيء بها للوصول الى المراد الواحد.

فاذا كانت تلك الافعال مجرد ارتكابات محظورة ولم يرافقها عمدٌ بالاضرار وكانت ضد الشرائع الثانونية لا الاساسية دعوها جنحة. والاَّ فان كانت الافعال ضد النظامات الاحتياطية فقط (وهي ما يجعلها الضابطة سياجاً للقوانين وتحسيناً للهيئة) ولم تكن في ذاتها مضرة وكانت ذات ضرر قليل فلا تعدُّ غالباً مجاوزة الاَّ لكونها مخالفة للاوامر المذكورة فانها تدعى مخالفة.

فالجناية ذنب رئيسي ويعاقب فاعلها بالارهاب والتشهير. والجنحة ذنب ثانوي ويؤدَّب فاعلها بالتأديب والتحقير. والمخالفة ذنب ضد الضابطة ويردع فاعلها بمثل التعذير وبالغرامة المالية في الاخيرتين وحدها او معاً قد يكون الفعل الواحد جناية او جنحة او ساقطاً بسبب الاحوال المرافقة له كالقتل مثلاً فالعمد منه جناية والخطأ جنحة والدفاعي عن النفس مهدور وهو كله قتل ومزيل للحياة ولذلك قد ترك تمييز الاحوال والفرق بينها للقاضي كما جاء في بند ٢٥٢ من قانون العقوبات المصري في امكان تنزيل العقوبات الى ان تبلغ درجة المخالفة فقط.

وقد ورد في ذلك تعاريف اخرى ومرجع الكل الى واحد. وهذا باب متسع قابل للتغيرات بحسب الزمان والمكان والانسان والله اعلم.

القاهـرة امين شمـيّـل

الجـنـايـة والجنـحـة والمخـالفـة

[الجـواب الثالـث]

[**المقتطف**، ج ١٠ (١٨٨٦) ص ٣٥٦ - ٣٥٧]

حضرة منشئَيّ المقتطف الفاضلين

لم يكن لسؤال حضرةٍ التحرير (الدكتور شبلي افندي شميّل) فيما يتعلق بتعاريف الجناية والجنحة والمخالفة اقرب مما اجاب به حضرة الفاضل امين افندي شميل من حيث الوجه العلمي النظري كما تدلُّ عليه النصوص القانونية المبسوطة في المطولات وهو ما يمكن ان يصار اليه في هذا الموضوع الاَّ ان الاحرى بالبيان هو الوجه العلمي العملي ولهذه الغاية نقول :

ليس الغرض من التعاريف المذكورة في المواد ٣ و ٤ و ٥ من قانون العقوبات الاهلي تمييز انواع الجرائم بمجرد مشاهدتها من غير توقف على معرفة ما تستوجبه من العقوبات بل لا بد اولاً من معرفة كيفية وكمية العقوبة المترتبة على فعل الجريمة المراد معرفة نوعها ليتأنى الحكم عليها بعد ذلك بانها جناية او جنحة ومخالفة. ومعرفة الانواع الثلاثة ضرورية للعلم باختصاصات الدوائر القضائية فلمحكمة الجنايات اختصاصات ليست لمحكمة الجنح ولا لمحكمة المخالفات فالقانون حصر جميع العقوبات في اربعة عشر امراً وعين منها ثمانية للجنايات واربعة للجنح واثنين للمخالفات فما يستوجب الحكم باحد الثمانية يحال النظر فيه على محكمة مخصوصة وما يستوجب الحكم باحد الاربعة ينظر في محكمة أخرى وما يستحق الحكم باحد الاثنين له محكمة ثالثة ومثل هذا الصنع موجود نظيره في القوانين الاوروباوية وخصوصاً الفرنساوية.

على انا لو بحثنا عن الاسباب الذاتية والعلل الحقيقية التي ينبني عليها تمييز الجرائم يتبين لما امكان حصر الاعمال المعاقب عليها في نوعين فقط بان تجعل المخالفة وحدها قسماً والجناية والجنحة معاً قسماً آخر لان الذاتيات المعتبرة في تحقق الجناية هي بعينها المعتبرة في تحقّق الجنحة اذ يلزم في تحقّق كليهما وقوع الارتكابات بافعل وسوء القصد. ومهما تمحلنا اسباباً لتمايزها فلا يمكن بالتحقيق تعيين الحد الذي تنتهي فيه الجنحة وتبتدىء الجناية ولا يعتبر في تحقق المخالفات سوى وقوع الفعل فقط بصرف النظر عن سوء قصد الفاعل. فالحق ان ذلك مجرد اصطلاح ومحض اتفاق يدلك عليه ان بعض الجنايات عندنا جنح لدى غيرنا.

مصر جبرائيل كحيل

نفوس الشعراء

المرحومة عفيفة كريمة الشيخ سعيد الخوري الشرتوني وقرينة الشابّ الأديب الخواجه نصري موسى المتوفاة في ٦ شباط (فبراير) سنة ١٩٠٦ في مدينة بارا من اعمال البرازيل عن عشرين عاماً.

[المقتطف. ج ٣٣ (مايو ١٩٠٨) ص ٣٨٧ - ٣٩٤]

الشعراءُ وما ادراك ما الشعراءُ فئة من الناس رُزِقوا من بقاء الذكر أوفر نصيب فهذا السموأل قد خلّد ذكرمُه بلاميتهِ الفخرية التي دارت على الالسنة حتى تمثيل بأبياتها الكتّاب والخطباءُ والمحدِّثون. وهؤلاء اصحاب المعلّقات السبع قد حرص الادباءُ على نسخ قصائدهم وحفظها وطبعها وعُنوا بشرحها. وهذا الاعشى والحطيئة والنابعة وجرير والاخطل والفرزدق وأبو تمّام وأبو الطيّب المتنبي وأبو عبادة البحتري ومئات بل الوف غيرهم قد بقي ذكرهم بما نظموا من الشعر فكأنّما هم احياءٌ باقون إلى يوم الحشر والنشور. وزلقد اشتغل الأدباءُ ببيان طبقاتهم ولم ينظروا في ذلك الاَّ إلى حسن السبك ولطف الأسلوب ورقّة المعنى وجمال التخيُّل وهو امرٌ لا بدَّ منهُ لمن يهمهُ ان يعرف طبقات الشعراءِ.

لكنَّ احداً ممن تصدَّى للكلام في اشعارهم لم يلتفت إلى الينابيع التي نبعت منها فخطر لي انا المعترفة بقصر اليدان اوجه النظر الضعيف إلى تلك الينابيع لأعرف طبقات نفوسهم التي عنها صدرت اقوالهم ومنها جاءَت قصائدهم ومقطوعاتهم فرأيتهُ خاطراً جميلاً لُه طلاوة الجديد وحلاوة المبتكر غير اني لم أجد رابيةً ولا قمّة جبل ولا كوّةً فأطلَّ منها على نفوس الشعراءُ ولا غرض لي اطلبهُ فيها سوى الاشراف على نفوسهم فرأيت اكثر تلك النفوس لاصقة بملاذّ الابدان مؤتمرة اوامر الطمع والاهواءِ مشغولةً بما يلذُّ الحواس راكعةً ساجدةً امام ربّات الحسن والجمال او وافقةً بأبواب العظماء والكرماء وقفة السؤال. فثلاثة ارباع الشعر العربيّ في باب الغزل وربعهُ في سائر الأبواب وهو تقدير لا احسبهُ قصيًّا عن الصواب ولو سمت هممهم إلى الملاذّ المعنوية ما لصقت نفوسهم بالملاذّ الحسية ولا انقادت لأوامر الطمع والهوى فهو اذاً في عبودية الدنيا كما سبق الايماءُ حاشا ابا العلاءِ المعرّي ومن حذا حذوهُ قولاً وفعلاً. فلقد رأيت نفسهُ كملك خرّت الدنيا على قدميهِ فأعرض عنها واقبل يتأمل هذا الكون البديع الناطق بانهُ ابن القدرة الفائقة والحكمة العالية فيالها من نفس شريفة ليس لها غير الفضيلة حلة ألا وهي القائلة:

ولو اني حبيت الخلد فرداً لما أحببتُ بالخلد انفرادا
فلا هطلت عليّ ولا بأرضي سحائبُ ليس تنتظم البلادا

فلو صوّرت نفس هذا الشاعر لتجلّت لك الفضيلة. ولو صوّرت نفوس الشعراءِ المقيّدة بحبّ الدنيا المسترقة للشهوات لبدا لك معها الطمع كالحوت فاغراً فاهُ والحسد كالنار تتقّد في قلوبهم ولكنت تنشد حينئذٍ مع القائل في ابي العلاء:

قد كان صاحبُ هذا القبر جوهرةً كريمةً صاغها الرحمان من شرفِ
عزّت فلم تعرفِ الأيام قيمتها فردُّها غيرةً منهُ إلى الصدفِ

فكر أبي العلاءِ

لم يكن أبو العلاءِ من حيث الفكر سوقةً ولا رعيَّةً بل كان ملكاً فهو من اعاظم ملوك الأفكار ومن اكابر قوَّاد العقول واما غيرهُ ممن اطلعت على شعرهم فمعظمهم رعايا افكار من درجوا واصحاب معانٍ متداولة ولو اتفق لأحدهم اسلوب جديد في معنى مطروق ولم يكن قد عثر عليهِ فيها طالع أو سمع بادر إلى دعوى الابتكار كانهُ قد فتح مملكة عظيمة. وربما لو استقري ما تقدَّمة من الأشعار لظهر انهُ مسبوق إليهِ لا حقَّ لهُ فيهِ الَّا ان يُعدّ من باب توارد الخواطر.

على انك لو اخذت الأبواب التي نظم فيها الشعراءُ قاطبةً ونظرت إلى اصول المعاني لاستطعت ان تردّ الدواوين ديواناً فإنهم لا يختلفون إلَّا في صوَر التعابير وابواب الدخول على المعنى فيكون ذلك الديوان عصارة افكارهم وخلاصة ما انبتت قرائحهم. وأما أبو العلاء فقد نظم كثيراً من المعاني المتداولة لكنهُ جاءَ بمنكرات متعدّدة فبحقٍّ القبه بقائد الأفكار فلقد نهج سبلاً لم تنهج من قبل. مررت بخمسة وعشرين ديواناً غير ديوانهِ ولا ضائع لي فيها إلَّا الغرض الذي ذكرت فان كان قد سُبق إلى ذلك فأمرٌ لم اطلع عليهِ.

منزلة أبي العلاءِ ومنزلة الشعراءِ عند القوَّة العاقلة

لو كان لمصوِّر أن يصوّر العقل متصدرّاً في مجلسهِ والشعراءُ يقبلون عليه بقصائدهم التي سجَّوا بها لربَّات الحسن والجمال أو جعلوها حانات لأهل الشراب ومجامع للمغنين لرثى لهم ولبكى لسوءِ مصيرهم واراهم انهم قد تركوا ملاذّ النفس الشريفة الدائمة إلى ملاذ الجسد الدنيئة الزائلة ولكان يهنىءُ أبا العلاءِ ويقرّبهُ ويجلُّ قدرهُ ويكرم وفادتهُ. ذلك اولاً انهُ لم يرضَ لنفسهِ ان ينغمس فيما انغمسوا فيهِ كيف لا وهو الفاعل بما قال:

ومن يطهّرْ بخوف الله مهجتهُ فذاك انسانُ قوم يشبهُ الملكا

وثانياً انهُ استعان ببيانهِ ووقف اشعة ذهنهِ على ارشاد الأفكار ودعاءِ الناس إلى الخير فهو المتبّع وصيتهُ الصريحة في قولهِ:

عليك بفعل الخير لو لم يكن لهُ من الفضل الَّا حسنهُ في المسامعِ

خلافاً لمن قال فيهم:

لقد جاءَ قومٌ يدَّعون فضيلةً وكلهمُ يبغي لمهجتهِ نفعا

ولعلك تقول لي ان بعض الشعراءِ قد نظموا في الحِكَم والنصائح والتوبة والزهد كابن الوردي والمتنبي وابي العتاهية والحريري فلَم لم تنظمهم في سلك أبي العلاءِ ولَم هذا الكلف بهذا الضرير. فقلت أما كلفي بهذا الضرير البصر الصحيح البصيرة فلا لآصرة قرابةٍ أو معرفة أو التماس منفعة فبيني وبينة ما يزيد على ثمانمائة سنة فأنا اعرف اسمهُ واقوالهُ فقط وهو لا يعرف من امري شيئاً ولا سبيل لي فأقول عنهُ كما قال عن نفسهِ في قول المتنبي:

انا الذي نظرا الأعمى إلى أدبي واسمعت كلماتي من بهِ صممُ

واما اني لم انظمهم وامثالهم في سلكهِ فلأن اولئك من السكرى بخمرة الملاط الجسديَّة

ومن اسارى المطامع البشريَّة لكنما قد عرضت لهم صحوات فأبصروا طريق الهدى غير ان نفوسهم المصابة بهوى هاتيك الملاذ أبت عليهم ان تسلك ذلك الطريق فكان تأثير قصائدهم المنظومة في تلك الصحوات مثل تأثير الأغاني في بوق الفونوغراف فمن كان هذا حالهُ فهل يحق لُه ان يجلس إلى جنب مثل أبي العلاءِ الذي تكاد نفسهُ تكون سالمةً مما يشين الفضل أو يقدح في النزاهة كما تدلُّ على ذلك افعالهُ وكلام الذين كتبوا سيرتهُ وعاشروهُ فكم في هذه الأرض من قائل خير وفاعل شرّ ممن هم مصداق قول شاعرنا الصافي النفس:

رويدك قد غررت وانت حرٌّ بصاحب حيلةٍ يعظ النساءَ
يحرّم فيكمُ الصهباءَ صبحاً ويشربها على عمدٍ مساءَ
يقول لكم غدوتُ بلا كساءٍ وفي لذاتها رهن الكساءَ
إذا فعل الفتى ما عنهُ ينهى فمن جهتين لا جهةٍ اساءَ

وشدَّد النكير في ذلك ولاسيما على رجال الدين. وإذا عارضتَ اقوالهُ في المرائين بأقوال السيد المسيح في الكتبة والفريسيين تبيَّنت انهُ قد عقد كثيراً من آيات الإنجيل فمن ذلك قولهُ في اخفاءِ الإحسان:

أسرر جميلك وافعل ما هممتَ بهِ ان المليك على الأسرار مطَّلعُ

هذا واختم مقالتي **أولاً** بأني لم أرَ أبا العلاءِ العلاءِ في قبضة الأسف والغمّ تلتهب في قلبهِ جمرة الحزن لخطب نزل الَّا عندما قُبض والدهُ ووالدتهُ فقد استسلم للجزع واستولى الضعف على نفسهِ ونسي كل ما قالهُ في فائدة الموت وعدم مبالاتهِ بالمصائب وليتني كنت من أهل عصرهِ لكي انشدهُ في يوم أبيهِ قولهُ:

تعبٌ كلها الحياةُ فما أعجبُ الَّا من راغبٍ في ازديادِ

واسمعمُه في يوم امهِ قولهُ:

لا استقيلُ زماني عثرةً ابداً ما شاءَ فليأتِ انَّ الشهد كالصابِ

وثانياً انهُ افرط في ذمّ البشر حتى قال:

هل يغسلُ الناس عن وجه الثرى بشرٌ فما بقوا لم يبارح وجههُ الدنسُ
يبغون منيَ ميناً لستُ احسنهُ فإن صدقتُ عرتهم اوجهٌ عُبسُ

وثالثاً: إني التمس من فحول شعراءِ العصران يهجروا النظم فيما سئمتهُ النفوس ويستعينوا بما رُزقوهُ من القريحة الشعرية على خوض المواضيع التي تبعث النفوس على الأعمال الشريفة ألا وان الشعر الجيد يستميل القلب ويطرب السمع ويرتبط بالذاكرة فهذا أبو العلاءِ لا شكّ انهُ جاءَ بما ينبّه الأفكار وينير الأذهان فشعرهُ روضة أدب وصلاح ومثال لأحوال الدنيا واهلها. فهذه الأفكار الصافية من ينبوع نفسهِ الصافية فهو اذا وقع إلى ايدي الأعاجم ونقل إلى لغاتهم يرفعونهُ على سائر الشعراء ذلك انَّ في بعض اشعارهِ من اشعة العقل ما ليس في دواوينهم ولولا خوف الاطالة لكنت اروي لك من بدائع لبهِ ما يأخذ بمجامع قلبك ويريك بعد المسافة بين قطرةٍ وفطرةٍ ولكن قلبي لا يطاوعني ان القي القلم من يدي قبل ان انسخ لك قول هذا الفاتح الفكريّ:

لعمرك ما غادرتُ مطلع هضبةٍ من الفكر إلَّا وارتقيتُ هضابها

صدى النفوس ورجع الصدى

١٩٠٨

[الهلال ج ١٦ (١٩٠٧ - ١٩٠٨) ص ٥٢١ - ٥٢٣]

هي قصيدة فلسفية للدكتور شميّل بعث بها إلى **الهلال** وقد ضمنها رأيه في اقتراحنا على الشعراء بالهلال الماضي «ان الدين جزء من الوجدان واكبر تعزية لبني الإنسان» وصدَّرها بمقدمة من الشعر والشعراء قال:

كلمات املاها عليَّ اقتراح **الهلال** تكاد تكون غير مقفَّاة ليس لها رنة الرويّ ما ألفته الاسماع العادية من تناسب الوقع. والرويُّ للشعر العربي كالموسيقى للغناء. فإن لم تبلغ في إجادة المبنى حدّ الافادة في المعنى فهي لغير شاعر.

شعر ليس لهُ من صناعة التنظم غير الوزن. عاطل من كل جمال إلاَّ حلي الحقيقة ولكن الحقيقة فيما يقال ليس لها جمال الخيال. فإن فعل في البعض فعل الوباء في الجرذ فالأطباء كالأنبياء إنما أرسلوا رحمة للعالمين.

موضوع ينبو الفهم عنهُ وليس يلزم من ذلك ان يكون سليباً. ولقد قال أحد الحكماء إذا قرأت شيئاً ولم تفهمهُ فأفحص فهمك اولاً واحذر ان يخونك العلم إذا صدقك الفهم.

صوت من بين ملايين ملايين الأصوات هل يجزع منهُ؟ وان لم يضرب على وترها فهل يفقدها لذة نغمها؟ وهل تكدر نقطة صفاء البحر العظيم إذا وقعت فيه؟ وان كدرته فما اعظم حمأته!.

ما احلى الأماني لولا انها خيال شاعر وما امرّ الحقيقة لولا إنها السبيل إلى الرشاد.

خواطر أوحت بها إليَّ تلك النفس الطاهرة صاحبة نفوس الشعراء[1] فقلت اين نفس القائل:

وان مديح الناس حقٌّ وباطلٌ ومدحك حقٌّ ليس فيه كذابُ
إذا نلت منك الودُّ فالما هينٌ وكل الذي فوق التراب ترابُ

---

(١) مقالة بهذا العنوان للمرحومة عفيفة كريمة الشيخ سعيد الخوري الشرتوني نشرت في **المقتطف** شهر مايو من هذه السنة.

من نفس القائل:

اقول للحيانِ وقد صفرت لهم وطابي ويومي ضيّق الحُجْر معورُ
هما خطتا أما أسارٌ ومنةٌ وأما دمٌ والقتل بالحر اجدرُ
واخرى اصادي النفس عنها وانها لمورد حزم ان فعلت ومصدرُ

هذا قاله شاعر البداوة على قمة جبل يلقي عليك بهِ درساً عالياً فب الأخلاق ولم يثنه الأباءُ على مأتى الحصافة والحزم لئلّا تكون الصلابة القاصمة خرقاً في سياسة المنفعة.

وذلك قالهُ شاعر قائماً يسأل على اعتاب المدنية مع انه أمير شعراء المولدين في صناعة النظم وكبر النفس.

أنت تستطيع ان تترجم شعر هوجو وموسه وروستان وتستفيد من ذلك غرضاً اجتماعياً وبحثاً ادبياً اخلاقياً وعبرة تاريخية. ولكنك لا تستطيع ان تترجم شعر المتنبي وأبي تمام والبحتري ولا ان تستخلص منه شيئاً من ذلك غير بعض الحكم والأمثال مشتتة في تلك الأدغال لا رابط ينسقها. ولماذا؟ لأن هوجو اطلَّ في شعره على العالم اجمع فنظر إلى الحقائق وبما لهُ من قوَّة الخيال وحسن السبك ربطها وكساها من شعره حلة مهيبة رهيبة في النفس كما كساها موسة رقة وجمالاً وروستان نظر إلى الوقائع فأكسبها من قوة خياله ومتانة شعره وقعاً في النفوس جعلها ابلغ في العظمة.

فلوعني المتنبي واقرانه بالأمور نظيرهم وقصدوا فيها إلى مرامي اجتماعية عالية أكان خانهم خيالهم؟ اولاً كانوا فاقوا شعراء الافرنج في دقة الوصف وقوة التصوّر وسعة الخيال فعوضاً عن ان يتبسطوا في ذلك الأسلوب الجاهليّ ويضعوا لنا ما إذا رُوي رَوى مطامع النفوس وظمأ العقول. بل عوضاً عن ان ينحو النحو الذي نحاه بعدهم شعراء الإفرنج في وصف الطبيعة الصامتة والناطقة وينزعوا إلى اغراض اجتماعية استغواهم ذلك البذخ الذي عاشوا في وسطه واستهوت الخلاعة نفوسهم فأذلوا لها قارئحهم ونهجوا في شعرهم ذلك المنهج الغريب في المدح والغزل والتصابي والاستجداء حتى غلب هذا الأسلوب على صناعة الشعر العربي وألفتهُ الطباع واستسهلته السلائق لعدم الارتباط فيه بقيد وصار جمالهُ لا يقوم إلاّ بالأغراب في تلك المعاني المبتذلة.

وكيف يترجم ردفٌ يقعد صاحبهُ كأنه كثبان عالج وقلب يحرق بنارهِ الرجلين ويثب من الصدر إلى العين. وقد رأيت قلباً خرج من تحت الأبط في صدمة قطار ولكني لم أرَ قلباً تخطى سنن الطبيعة في خروجه من الجسم.

والشاعر العربي الذي يمكن ان يترجم اكثر شعره من غير ان تفقده الترجمة جمالهُ هو شاعر الحقائق القائل:

ما الخير صومٌ يذوب الصائمون لهُ ولا صلاةٌ ولا صوفٌ على الجسد

وإنمــا هــو تــرك الشرّ مـطَّرحـاً ونفضك الصدر عن غلٍّ ومن حسد
ما دامت الوحش والأنعام خائفةً فرْساً فما صح امر النسك للأسدِ

والقائل:

وقـد زعموا هـذا النفوس بـواقياً تشكـل في أجـسـامهـا وتـهـذبُ
ولو كان يبقى الحسُّ في شخص ميتٍ لآليت ان الموت في الفم اعذبُ

والذين يقولون هذا القول هم الذين يحبون الحياة اكثر من سواهم. والقائل:

كذب الظن لا امام سوى العقـ ـل مشيراً في صبحه والمساءِ
انما هـذه المذاهـب اسبا بٌ لجذب الدنيا إلى الرؤساءِ

ولا شك ان أبا العلاء المعرّي هو فيلسوف الشعراء قاطبة واكثر شعراء العرب علماً وَارجحهم عقلاً وهو الوحيد بينهم الذي ترفعت نفسهُ عن تلك الدنايات ومال عقله عن سفْسَاف القول إلى الحقائق ومحاربة الضلال.

لا اقول ذلك حطاً من سليقة شعرائنا المولدين من متقدمين ومتأخرين فإنهم وايم الحق أعلى الشعراء كعباً في الصناعة واوسعهم خيالاً ولا اقول اسماهم. وانما اقول ذلك طعناً في اسلوبهم العقيم المبتذل فإنهم وقفوا تلك القرائح المجيدة على امور لا تفيد القارىء فائدة ادبية أو اجتماعية أو تاريخية ولو كتبوها نثراً لخجلوا من دَنَا نفوسهم وسخروا من اغراب عقولهم.

ولعلهُ كان للمولدين من شعرائنا يدٌ ليست اقل شؤماً من يد علماء الكلام في تقهقر التمدن العربي كما ان تلك الأشعار الحماسية في عصور الجاهلية واثرها في النفوس كانت مبعثاً لقيام دولة العرب في الإسلام وبزوغ تمدنها وبلوغها فيهِ الشأو الذي بلغته.

ولعلّنا اليوم على فجر نهضة جديدة فإني أرى من بعض شعرائنا نزوعاً إلى وضع الشعر في اسلوب يرمي إلى غاية اجتماعية[1] ولا نعدم قرائح متوقدة من شعرائنا المطبوعين فلعلهم لا يلبثون طويلاً حتى يرونا منهم امثال هوجر وروستان وسواهم فإن النظم طوع بنانهم فما عليهم إلاّ أن يعملوا عقولهم ويجيلوا نظرهم في ما حولهم فلا تضن الطبيعة عليهم بمكنوناتها والإجتماع بأسراره والتاريخ بعبره ولا اقلّ من ان يدخلوا بنفوسهم إلى اعماق نفوسهم..... وهذا جوابي على اقتراح **الهلال**.

---

(١) إشارة إلى ديوان الخليل (خليل مطران).

صدى النفوس ورجع الصدى

فـؤادك مـا بـين المنـيـة والمـنى يسائل ام ما في حجاك من الظما[1]
اذا مـا ترامى العقـل يجلو حقـائقـاً شكا القلب ان الغبن في ذلك الجلا[1]
وما الغبن الاّ ان يرى القلب هائماً وتخفى على العقل الحقائق في الدنى[1]
لقـد قلت ان الدين ضـربـة لازبٍ وجزءٌ من الوجدان في اعمق الحشا[4]
وانّـا اذا لم نـعـبـد الله ربـنـا عبدنا ولو الاَّ[5] اقمناه من صوى[6]
فلولا من النفس السجينة بـارق يمزّق سجف الجسم ما كان ذا الصبا[7]
ولو انت أعملت الروية لا الهوى[8] لادركت ان الدين لا صوت بل صدى[9]
صـدى حبنا البقيـا لهـول حقيقـة[10] وزلفى ذلفنـا للذي يحفظ البقـا[11]
ومـاذا عـزاءُ المـرءِ من بعـد موتـه اذا حبهُ للذات لم يدفع الاذى[12]
وأنّي لـع دفـع القـضـاء محـتـماً فلم يبقَ الا باسم الوهم مرتجى[13]
هـو الحب اكسير الـوجود بـلا مـرا ولـولاه ما كـان الوجـود كـما تـرى
فكـلّ الذي تلقـاهُ في الكـون سـرُّه وهـاديـهِ في افعـالـه كيفـما نحـا
هـو الحي مولـوداً هـو الميت فـانيـاً هو النجم قد أسرى هو الصبح والدجى
هـو الكـل في كـلّ معيـداً ومبـديـاً ومـا نحن الاَّ فيهِ من صـورَ الفنا
ولـيس فـنـاءً مـا نـراه وانمـا هو العوْد لـلاولى هو البعث لـلألى
قضـوا فحيينـا وانقضينـا بعـودنـا اليهم وغير الكـل ليس لـه البقا
وما الحب من ادنى فاعلى الى الرجا فما فوق الا الشوق في كبد السهى[14]
تـرقى بنـا حتى النهى وهـو دونها كما في نيوب الليث او في حشى الصفا[15]
حبنـا[16] الذي فينـا حببنـا رجـاءنـا حببنـا الـذي نـرجـو كحب لمقتنى[17]
وهمنـا بـه في الارض طـوراً وتـارةً صبوْنا الى ملك وطوراً الى السما[18]
عبـدنـا بـه ربـاً مثيبـاً معـاقبـاً ويقضي ولا ردُّ ويقضي كـما يشـا
رجـونـاه رحمـانـاً اردنـاه عـادلاً خشينـاه جبـاراً كملْكٍ اذا عتـا
دعـونـا اليـه النـاس بـالحلم والتقى دعوناهم بـالنار والسيف في القلى[19]
فان كان هـذا الميل هـدي نفوسنـا رُويـدك ان الكـائنـات بـهِ سـوا[20]
فاين مكان النفس فيهـا من القوى واين نبي العـالمـين الى الهـدى[21]
وان كـان كـالـوجـدان غـير مفـارق فلمْ لا نراه في جميعِ بني الورى[22]
ووجـداننـا هـل أنت الفيت انـه يقوم بغير الجسم ان حلّ[23] ما استوى[24]

ألم تـرَ أنـا فيـه تحت طـواريء … تعـددُ[٢٥] فيها أو نعـدَّ له الـرقى[٢٦]
اذا مـا منينـا بـالحقـائـق مُـرة … فهل في التمني خير ما يُبلغ المنى[٢٧]
نقيم بـهِ من حـائـل الـوهم معقـلا … وكم ذا نلاقي ان نشأ دكه عنا[٢٨]
نـرى المرء في رشـدٍ الى أفق دينـهِ … هناك يغيب الرشد والصوب والنهى[٢٩]
ولـوع الـفتى فـيـهِ ولـوعُ بـعـادة … ترسّخت الاجيال فيعا على المـدى[٣٠]
ولكنـا الـعـادات مهـما تـضـاءلت … فناموسها الرجعى وناموسنا الرجـا[٣١]
لئن كـان في الاديـان ردعٌ لجـاهـل … فكم قد جنى جان علينا بها بغى
وان كـان فيها من عـزاءٍ لبائس … ولكنهـا لا تقنـع العقـل والحجى
وان يـك لـلانسـان قسط مؤجـل … فهلا هدى هـادٍ بغير الـذي هدى
اذا كـان مخلوقـاً كـما شـاء ربـه … فـمـاذا جنى غـير الـذي هـدى
وان قـلتَ مخـلوق وحـرٌّ مـهـددُ … فهـذا مقـال لست افهمـهُ انـا[٣٢]

---

(١) أقبلك الذي وقف بك بين الموت ومنى النفوس بالبقاء يتساءل لتحقيق ما به من الرجاء ام عقلك الذي وقف بك هذا الموقف لما به من الظماء لاستجلاء الحقائق بها؟.

(٢) اي ان العقل كلما انجلت له الحقائق قلت اماني القلب فشكا الغبن فكأن كثرة الاماني فيه وانجلاء الحقائق للعقل على طرفي نقيض لا يجتمعان.

(٣) اي ان الغبن الحقيقي هو ان يرى القلب مسترسلا في امانيه والعقل جاهلا للحائق لان ذلك في الدنيا مؤكد.

(٤) الوجدان عند الطبيعيين هو الذات التي يقوم بها شعور الفرد وهو في اجزاء البدن وملازم له. وهو النفس عند سواهم ويقتضي ان يكون مفارقاً مستقلا.

(٥) الالّ الاله.

(٦) جمع صوة وهي علم من حجارة.

(٧) فلولا طموح النفس النزيلة في الجسم الى المرجع الاعلى ومحاولتها تمزيق الحجاب الذي يصدها عنه لما كان بها هذا الحنين اليه.

(٨) يريد بالهوى اميال القلب.

(٩) وبالصوت والصدى والجوهر والعرض.

(١٠) اي لهول حقيقة الموت.

(١١) أي صدى حبنا البقاء ولما كانت حقيقة الموت صادعة رجونا البقاء في صورة اخرى. وتزلفنا للذي ظنناه يقدر ان يهبنا هذا

(١٢) قال اذا كان حبنا لذاتنا لا يدفع عنا اذى الموت بما يخلق فينا من الامل بالبقاء بعده في صورة اخرى ذاتية فماذا يكون عزاء الانسان بعد الموت اذا كان هو منتهى حياتنا. الحقيقة وليس لنا ما يدفع عنا هذا الموت الذي لا مفر منه والانسان لا يفارق هذه الدنيا الا مكرهاً.

(١٣) ولما كان ذلك كذلك لم يبق لنا من الرجاء بالحياة الا ما بسم له من الوهم بانه خالد فاحب الاستمساك بهذا الرجاء ولم يشأ التعمق فيه ليعلم هل هو حقيقي ام هو مغالط نفسه فيه لانه رجاء يحلو له.

(١٤) (١٥) ان حب الذات هو الذي ترقى بنا من ادنى الى اعلى الى الرجا فاقصى درجات الكمال العقل ليس خصيصاً بنا بل هو مبثوث في جميع مواليد الطبيعة الجماد والنبات والحيوان وهو نفس الشوق او الجاذبية العامة التي تحفظ نظام الاجرام المعبر عنها بالسهى ونفس القوة الموجودة في الحيوان الذائد عن نفسه بسلاحه ونفس القوة الموجودة في الجماد الحافظ لذاته بالجاذبية الالتصاقية والانتخابية المعروفة بالالفة ايضاً. يريد بذلك ان كل القوى الموجودة في الانسان موجودة في سائر ما دونه من الكائنات وان الاختلاف بينها اختلاف نسبة فقط وارتقاء في التركيب وانها كلها تفعل لغاية واحدة هي حفظ الذات. اي انها كلها من اصل طبيعي واحد كما في قوله:

لـولا الهـوى وبـديـع الشـوق يهديـه … مـا صح في الكـون معنى من معـانيـه
ولا سـرى النجم في العلياء وانتظمت … لـه المـواقـع تـقـصـيـه وتـدنـيـه
شـوق تكـامـل من ادنى الـوجـود الى … اعـلى فـاعـلى الى اعـلى اعـاليـه
حتى تـنـاهـى وقلب المـرء تـلهـبـه … نـار من الحب بـذكيـهـا وتـذكـيـه

(١٦) حب الثلاثي غير مألوف ولكنه جاء في قول الشاعر: * ووالله لولا تمره ما حببته *.

(١٧) ثم فسر هذا الحب بانه محبة الذات الغريزية فينا التي تجعلنا نحب كل ما فينا ونحب بقاءنا وهي التي جعلتنا نحب رجاءنا لما تولد فينا حباً ببقائنا ونحب الذي رجونا منه تحقيق هذا الرجاء واستمسكنا بذلك استمساكنا بكل شيء حببناه فامتلكناه.

(١٨) اي قمنا بهذا الحب نهيم في طلب رغائبنا فطلبناها اولا في الارض فعبدنا الجماد والنبات والحيوان والانسان نفسه ثم صبونا الى السماء فعبدنا الشموس والكواكب. وكنا كلما انجلت الحقائق لنا اكثر ننتقل فيه من شيء الى آخر حتى طفرنا الى ما وراء الطبيعة.

(١٩) اي عبدنا رباً تصورناه كعتاة ملوكنا واطلقنا عليه كل ما اطلقناه عليهم وتقربنا اليه بالخوف والتمليق كما تقربنا اليهم ودعونا الناس اليه تارة باللين وتارة بالشدة بحسب مركزنا من القوة او الضعف وبحسب مصلحتنا.

(٢١) (٢٢) اي اذا كان هذا الميل الى المعبود حباً ببقائنا دليلنا على صحة هدى نفوسنا افلا ترى انا وسائر الكائنات فيه سواء فاين معبودها واين نبيها اليه وكيف تفرق نفوسها عن قواها الملازمة لها اسوة بما فعلناه في انفسنا نحن؟

(٢٢) اي اذا كان هذا الميل الى المعبود كالوجدان غير مفارق كان يقتضي ان يكون عاماً على الجميع كالوجدان والحال ان كثيرين لا يشعرون به.

(٢٣) الضمير للجسم.

(٢٤) الضمير للوجدان. ثم عطق وقال ان الوجدان نفسه ليس شيئاً مستقلا عن نظام الجسم وتركيبه فلو حل الجسم ما استقام الوجدان ولا بقي له من اثر الا مثل ما في البسائط المحل الجسم اليها على حد قوله:

ان اركـانـنـا تـدوم وتـبـقـى … تـلك اعيـانـنـا تـعـيش سـنـيـنـا

(٢٥) اي يتعدد.

(٢٦) وعزز ما تقدم بقوله ان الطواريء التي تعرض للجسم في الحياة كالامراض والآفات تؤثر في هذا الوجدان فتجعله غير واحد في الجسم الواحد فترى الانسان مثلا في وجدانين متميزين، فاما ان نعلل ذلك حينئذ بان الوجدان حالة من احوال البدن كالصداع والزكام مثلا ونعالجه كما نعالج سائر امراض الجسم والا فنضطر الى استعمال الرقى للزوم القول حينئذٍ بالحلول المتعدد اخراجاً للارواح الشريرة كما يفعل المشعوذون وهذا مناف للعلم كما لا يخفى.

(٢٧) اي اذا كانت الحقائق على غير ما نحب ونهوى فهل تمنينا يقلب الحقائق وينيلنا ما نرغب.

(٢٨) فضلا عن انه لا ينيلنا مرغوبنا هو كثيراً ما يقوم حائلا في سبيل ارتقائنا اما بالانصراف اليه عما به منفعتنا في هذه الدنيا واما بوقوفه عقبة في سبيل كل اصلاح بما يكسبنا به من الجمود فلا ننتقل عنه الا بكل صعوبة وبثورات كثيراً ما نجلب الدمار.

(٢٩) اي ان الانسان يستعمل عقله ولا يأبى البحث حتى يصل الى دينه فيفقد حينئذ كما رشد.

(٣٠) اي ان الانسان يستمسك بالدين كما يستمسك بكل عادة اخرى انتقلت اليه بالوراثة والتي يكون سلطانها اشد وارسخ كلما تكرررت في الاجيال.

(٣١) اي ان العادات مهما ضعفت بالعلم فقلما يستطيع الانسان ان يتخلص منها بسهولة لخضوعه فيها لناموس في الوراثة شديد الوطأة هو ناموس الرجعة (Atavisme)ويراد به انتقال صفات الاجداد طبيعية كانت ام ادبية الى الاحفاد ولو لم تظهر في الابناء كانها تمر فيهم كامنة الى سواهم ولذلك كان من الصعب جداً ان يتخلص الانسان من اثر المتوارث ولو مهما ارتقى الا في الاجيال البعيدة والعصور المتطاولة. وبناء عليه فالرجاء معقل لنا قوي لانه عريق فينا اولا ولانه آخر ملجأ لنا نلوذ اليه دفعاً لما نكره حباً ببقائنا فلا غرو اذا استمسكنا به واندفعنا معه الى غير ما تدلنا عليه الروية.

(٣٢) الابيات كلها مثلما في قولي:

قسم الناس بين خلق يجازي ... ثم قوم يعد ذاك مجونا
بين خلق نعد فيه المعاق ... ونعد المألوم والمسكينا
هل دريتم بما جنيتم فمظلو ... مون انتم وانتم الظالمونا

أزمة الحرب الكبرى ومأساتها

مقدمة

«فيجينيا في الأوليد»

بقلم المرحوم العلامة شبلي الشميل مترجم الرواية المذكورة نظماً*

(الهلال) للعلامة المرحوم الدكتور شبلي شميل آثار لم تنشر بعد منها ترجمة رواية «فيجينيا في الأوليد» نظماً وقد نشرنا مقدمتها في هذا الجزء من الهلال. وسننشر في الجزء التالي مقتطفات منها ومن غيرها من كتاباته.

مأساة شعرية في خمسة فصول. واضعها الأول أوريبيد في القرن الخامس قبل الميلاد. أخذها عنه راسين في القرن السابع عشر بعد الميلاد ونظمها بالفرنساوية متصرفاً فيها بما قرّبها من عصره وأبعدها شيئاً عن العصر الذي وُضعت له. وقد مثلت للمرة الأولى في فرسايل سنة ١٦٧٤.

وقائع الرواية مستخرجة من غزوة طروادة. وحكاية ذلك أن باريس بن بريام ملك الطرواديين خطف زوجة منيلاس أخي اغممنون. فكبرت الإهانة على الاغريق فهبوا على بكرة أبيهم يطلبون الانتقام. فاجتمع رؤساؤهم وعقدوا عليهم لاغممنون وحشدوا جنودهم وأعدوا اسطولاً ضخماً في مياه اوليد (فرضة بحرية من بلاد اليونان القديمة) لغزو طروادة. هذه هي الحكاية الهوميرية كما في الالياذة.

ومن هنا تبتدىء حوادث الرواية على ما في الأصل اليوناني والفرع الفرنساوي فإن الاسطول لم يستطع الانتقال مدة شهرين لسكون الريح. فاستدلوا من ذلك على غيظ الآلهة وأقرّوا على استرضائها. فقام زعيمهم اغممنون ومعه ثلاثة من رؤسائهم وهم منيلاس ونسطور وعولوس إلى سادن هيكل ديانا المدعو كلكاس. فكان جوابه أن ضحِّ فيجينيا. وفيجينيا اسم بنت الملك اغممنون.

فلم يخامر أحداً شك بأن المطلوبة بنت الملك. وانقضّ النبأ عليه كالصاعقة. وجعلت تتنازعه عواطفه نحو بنته من جهة وحبه للسلطة وتمسكه بها من جهة أخرى. وزاده ارتباكاً وقوعه بين أشيل عنترة اليونان وهو خطيب ابنته وهي عبلته. فكان يخشاه. وبين عولوس حكيمهم الأكبر وهذا كان لا يدع فرصة تفوته لتقريع أغممنون وحمله على القيام بما يجب عليه نحو دينه ووطنه كلما أوجس فيه ضعفاً أو تراخياً.

* مجلة الهلال، السنة ٢٥، اكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٦ - يوليو (تموز) ١٩١٧، ص ٥٨٧ - ٥٩٠.

وفي الرواية فتاة أخرى تعرف باسم ريفيل مقيمة مع فيجينيا في بيت أبيها وقد أسرها اشيل يوم غزوته للسبوس وسلمها إلى خطيبته ولم يكن أحد يعلم عن أهلها شيئاً ولكن الدلائل كانت تدل على أنها بنت نعم. ولم تكن هي تعرف عن نفسها سوى أن اسم ريفيل ليس اسمها الحقيقي وان والديها أقصياها يوم ولادتها وعهدا بتربيتها إلى كفيل قتل في واقعة لسبوس المتقدم ذكرها. وكل ما أطلعها عليه هذا الكفيل انها من أسرة شريفة من الطروادين. ثم استزادت على ذلك علماً بأن كلكاس السادن واقف على سر والديها وحقيقة اسمها.

وريفيل هذه من محدثات راسين ليس لها وجود في رواية أوريبيد الأصلية وراسين لم يختلقها اختلاقاً لأنها موجودة في أساطيرهم. وإنما ضمنها لروايته وجعل لها شأناً عظيماً فيها. فإنها وقعت في حب اشيل وغدت تكره فيجينيا بسبب ذلك ولكنها لم تبح بحبها وكتمت غيرتها.

فلما جاءت فيجينيا إلى الأوليد بطلب أبيها لتزويجها من أشيل في الظاهر ولتضحيتها في الحقيقة جاءت ريفيل معها. وكانت نفسها تحدثها أن تذهب إلى كلكاس وتستطلع منه سر مولدها وحقيقة أهلها ولكنها كانت تحجم لأن الوحي في رواية يقول إنها يوم تعرف مولدها تموت. إلا أنها لما فضحت المؤامرة على فيجينيا ورأت أن أشيل لما درى بالخديعة قام يبث فيجينيا ما بقلبه من لواعج الحب وهبّ للدفاع عنها مقتحماً كل ما يعترضه من الأهوال أكلتها نار الغيرة ويئست من الحياة فقامت حينئذٍ إلى كلكاس وتقدمت إليه بعزم ثابت. فلما انكشف أمرها وعرف القوم انها ابنة هيلانة من «تيزيس» قبل زواجها بمنيلاس وهي بعد في بيت أبيها وأن اسمها الحقيقي «فيجينيا» وانها هي التي يطلبها الوحي بالذات ضجوا يطلبون تضحيتها. ولكن قبل أن تمتد يد كلكاس إليها تناولت السكين من على المذبح وطعنت نفسها بيدها وخرّت قتيلة. وما جعل دمها يسيل حتى هبت الريح وأقلعت السفن وهدأ غضب الآلهة وهكذا نجت بنت الملك. وهنا انتهت الرواية.

* * *

وقد أبدع راسين في تمثيل أشخاصها إذ جعلهم أمثلة أحكم تصويرها فجعل اغممنون مثال الحب الوالدي الذي تتنازعه أعراض الدنيا وحب السلطة وزوجته مثال الأمومة الخالصة التي لا يشوبها شيء كأنها اللبوة الذائدة عن أشبالها. وجعل عولوس مثال الرجل المتمسك بعقيدته وما يظنه الواجب المفروض وأشيل مثال الشهامة والبسالة وريفيل مثال الغيرة التي ما بعدها غيرة. وصوّر فيجينيا اقنوم الوداعة والحب الصادق. كل ذلك طبيعي نشهده كل يوم في الحياة الاجتماعية ليس عليه أدنى شيء من التعمل أو الصناعة.

وما عدا ذلك ففي الرواية من المواعظ والحكم والحماسة والمفاخرة لتقبيح القبيح وتنظيم المليح ما يجعل الفكاهة مقرونة بالفائدة. ولا سيما أن كثيراً من هذه الفضائل الاجتماعية أخذ يتداعى في هذا التمدن الوحشي الرافع عقيرته اليوم من تعليم بعض الأمم الضالة التي كان العلم في يدها كالمخالب للوحوش الضارية.

وأما كيف أني عنيت بهذه الرواية وأقمت أنظر ـ على ضد ما ارتئي كمن عيناه في قذالة ـ فسببه في هذه الحرب الجنونية. فقد أسأمتني حتى اسقمتني فوق ما بي من ذلك. فوددت لو اني أنصرف ببقيتي إلى ما يلهيني عن مطالعة حوادثها المروعة وسماع أخبارها الشائنة. فعمدت إلى كتب الأدب وما كانت لتشغلني في الماضي. على أنني تخطيت حديثها إلى قديمها ـ وذلك إما لأني اعتبرت أن لهذا الحديث يداً سوداء في هذه الحرب الشنيعة أو لأنه قرّ كدليل إلى سواء السبيل، سواء فيه المتناهي في التأنق أو المتبذل في التسفل وكلاهما أقرب إلى الوضع منه إلى الطبع حليف الاجتهاد ـ تخطيته إلى روايات الأقدمين لما فيها من الفكاهة المقرونة بالفائدة.

ووقفت اتفاقاً عند روايات راسين ثم عند الرواية التي هي موضوعنا هنا. ولا أدري لماذا في البدء حاولت نظم شيء منها بل أعلم بعد ذلك اني وجدته أشغل لي من كل شيء سواه.

ولم أركب في نظمها مركب العاني المفرغ جهده لئلا يتصل ذلك بالقارىء وان سرّ أحياناً أكثر بما يفهم أقلّ. مراعياً في اللغة سنن التحوّل والغرض المقصود قبل كل شيء. ولم تمر أيام حتى وجدتني قطعت بها شوطاً بعيداً فاعتبرت نفسي ملتزماً بإتمامها ثم هممت بطبعها وها أنا الآن أقدمها للجمهور للمطالعة والتمثيل إذا أعجبت ووجد ارتياح إليها وإلا فقد قضيت بها بعض وطري.

شبلي شميل

مثال من «فيجينيا في اوليد»

مترجمة نظماً بقلم المرحوم الدكتور شبلي شميل*

مجلّة الهلال

هذه مختارات شعرية من الفصل الأول من رواية فيجينيا في اوليد تعريب العلامة المرحوم شبلي شميل نظماً وقد أثبتناها ليرى منها القراء مقدرة الرجل في كل فن تصدى له:

قال أغممنون مجملاً الحادثة التي عليها مدار الرواية كلها بالتقريب:

أتذكر يوم كنا في ألـيد   وقد حشدت جوارينا صفوفا
وكان الريح تطمعنا هبوباً   كأن الوقت كان لنا حليفا
ورحنا نوسع الأعدا وَعْداً   إلى طروادة نزجي الصفوفا
وقمنا نملأ الدنيا هتافاً   كأن النصر كان لنا أليفا
فبينا نحن نمرح في ابتهاج   إذا انقلب الزمان بنا صروفا
بدت أعجوبة في الحال فينا   فصدَّتنا وأبقتنا وقوفا
فنام الريح حتى البحر أضحى   كأن عليه من جمد سجوفا
فبتنا لا الشراع يفيد سيراً   ولا المجذاف يبلغ منه ريفا
فقلت عسى إله الحيّ يضحي   إذا قدَّمت تضحية عطوفا
فقمت وقد صحبت معي منيلا   ونسطوراً وعولوس الأنوفا
إلى كلكاي استفتيهِ أمري   فكان جوابهُ شيئاً مخيفا
إلى طروادة ان كنت تسعى   فلا تنحر لمعبودي قضيفا
يريد ضحيةً أغلى وإلاّ   بلا جدوى تسوق لها الألوفا
تكون نبيلة من آل «هيلا»   تريقُ أمامهُ دمها الشريفا
يريد فيجينيا فاطع وإلاّ   فلستُ بدافعٍ عنك الحتوفا

وقال اركاس مهدداً اغممنون بغضب اشيل ان كان (أي اغممنون) يدفع ابنته وهي مخطوبة اشيل للتضحية:

أظننت أن أشيل سهل مراس   حتى فعلت ولم تخف من باس
وتخذته سبباً لقتل حبيبة   هي عنده تفدى بكل الناس
أم خلته بنهاه أو بغرامه   يرضى بإحكام الأله القاسي

---

* الهلال، ج ٢٥، ١٩١٧، ص ٦٤٠ ـ ٦٤٢.

وقال أشيل متحدياً عولوس الحكيم ومتهكماً من خطبه الحماسية مع ضعفه وقعوده عن العمل:

إذا اشتبك الأبطال في حومة الوغى   عرفنا فتى الأوطان من؟ أنت أم أنا
وحتى ترى مني فعالاً بواهراً   أقم وأطل دعوى الحماية للحمى
وقل وطني وُقيت كل كريهة   وأكثر له ما تستطيع من المنى

وقال أغممنون وقد عزم على العودة إلى بلاده وانقاذ كريمته من التضحية:

اصغوا لقولي أيها الأمراء   والقول حتى ليس فيهِ مراء
أن تسمعوا نصحي فقوموا وارحلوا   برح الخفاء وبانت الأهواء
الريح لا تأتي وآلهة السّما   قد حاز كلَّ رضائها الاعداء
لا تطمعوا أن تقربوا طروادة   هذي الدلائل كلها انباء

وقال عولوس محضضاً اغممنون على العدول عن عزمه هذا وموبخاً له على تفدية كريمته بمصلحة أوطانه وبعزه وسيادته على ملوك بلاده:

اني أراك تَنفُّسُ الصعداء   هل كان وعدك للإلٰه رياء
فكّر فبنتك للحمى موعودة   واحذر لئلا تنثني فتساء
فلقد وعدت ببنتك اليونان والـ   يونان يبغي اليوم منك وفاء
والشعب يأتي كل يوم سائلاً   كلكاس هل حاز الدُّعاء رضاء
فيجيبه من دون شك قائلاً   إن الإلٰه قد استجاب دعاء
مولاي فاحذر ان تسوء نبوءة   كلكاس ليس يكذِّب الأنباء
فإذا شكاك فهل تظن الشعب يبـ   ـقى ساكتاً لا ينقضنّ ولاء
ولأنت تدري ما يكون قضاؤه   أن يبغ بينك والإلٰه قضاء
أولست أنت إلى القتال دعوتنا   وجميعنا لك قد أجاب نداء
وأقمت من بلد إلى بلد تُحضّ   الناس أن لا يمهلوا الأعداء
ولهم لقد أقسمت أنك لا تني   أبداً وان لا تشتكي اعياء
حتى ترد إلى الحمى هيلانةً   قسراً ويؤذي خاطف ايذاء
هيلانة معشوقة اليونان من   فينا يعطر ذكرها الأرجاء
من قد تعشقها الجميع واقسموا   لأخيك إذ حلّت له اعلاء
ان ينصروك وينصروه وينصروا   هيلانة لا يبتغون جزاء
حتى لقد تركوا لأجلك أهلهم   برضى وكم عانوا لذاك شقاء
انظر إلى هذي الملوك تقودهم   من كل من باراك لو هو شاء

هم يبذلون دعاءهم هم يحرمو   ن هناءهم هم يجهدون عناء
هم يرفعون لنا اللواء وأنتم   لدم قليل تنكسون لواء
ويذاع أمركم على أجنادنا   أن لا يطيلوا في المكان بقاء
ألمثل هذا قد حشدتم جندنا   ولمثل هذا قُدْتُم الأمراء

وقال أغممنون في اشتداد كربته وحيرته بموقفه:

ربي انتقم مني وردّ مطالبي   فلقد سددت عليّ كلّ مذاهبي
يا ليتني حرّ فاطلق دمعتي   فتفيد في تخفيف بعض مصائبي
وعن الملوك فلا تسل يا تعسهم   أسرى كلام الناس أسرى الواجب
ومن المصيبة ان اكثرنا عناً   وأقلّنا شكوى رفيع الجانب

شبلي شميل

ترجمة «فيجينيا» إلى العربية

[الهلال، ج ٢٥، ١٩١٧، ص ٦٨٩].

سلاماً واحتراماً. قرأت ما بين سطور هلالكم الأخير تحت ذكر المرحوم الدكتور شبلي شميل ان من جملة آثاره ترجمة رواية افجينيا ابنة الملك اغاممنون حال كون الرواية المذكورة ترجمها منذ نحو خمس وثلاثين سنة إلى العربية المرحوم القس اوغسطينوس عازار الحلبي الماروني ومُثِّلت بمدرسة الموارنة بحلب وقد كانت يومئذٍ تحت ادارة المرحوم القس انطونيوس معوض. وكانت العادة المتبعة بتلك المدرسة كل سنة بأيام المرافع تمثيل رواية يمثلها تلاميذ المدرسة حتى ان أخي المدعو عزيز عزوز المقيم الآن في البرازيل بولاية سان باولو كان فيها ممثلاً دور اغاممنون الملك ولديّ نسخة خطية من الرواية المشار إليها.

لم أقصد بما حررته انتقاداً ولا حطّاًمن قدر المرحوم الشميّل انما أعلم حقيقة قصدت ان اطلع جنابكم عليها والسلام

انطون الياس عزوز

الهلال: نشكر لكم ملحوظاتكم ونحن لا نعرف هل كان المرحوم الدكتور شميل يعلم بتلك الترجمة أم لا. وهو على كل حال لم يقل بأنه أول من ترجم الرواية. ثم انه ليس ثمة ما يمنع ترجمة الرواية الواحدة غير مرة. فروايات شكسبير مثلاً مترجمة إلى الفرنسية مراراً بقلم أشخاص مختلفين.

هرّة الدكتور شميّل

الشميّل في ديوان طانيوس عبده

الهرة البيضاء يا سادتي   هرة مولانا الحكيم الكبير
بيضاء مثل القطن قد فتحت   اكمامه ملساء مثل الحرير
صماء الآ حين تغلي القدور   بكماء الآ حين يأتي الفطير
تربض مثل الليث لكنها   في سائر الحالات ظبيٌ غرير
ما شاقني الا التفاتاتها   حين ترى في الغصن طيراً يطير
وحين تلوي عنه من عجزها   ذابلة العين بقلب كسير
تختالُ عجباً بين اضيافها   كأنها الطفل الوحيد الصغير
ما لذها الضيف ولكنما   قد لذها الاكل الشهي الكثير
حتى إذا اقبل استاذنا   وانتدب الطاهي يعد الفطور
نطت الى احضانهِ واعتلت   من صدرهِ عرشاً كعرش الامير
يضمها شوقاً الى صدرهِ   وطالما عانقها في السرير
يقول يا بنتي ولو مكنت   قالت له بابا بصوت جهير
كم حولت اوراق «داروينه»   الى فراش مستطاب وثير
فغض عنها الطرف مستضحكاً   واستمتعت منه بجفن قرير
ونحن لو طفنا باوراقه   لما تلقانا بغير الزئير
وخير ما قد قيل في وصفها   حكمة سركيس الاديب الشهير
إذ قال صفها انما حسنها   اصدق من حسن ذوات الخدور

* * *

والله لو خيرني خالقي   حين يعيد الخلق يوم النشور
لاخترت ان يخلقني هرة   اصحبه كالظل وقت الهجير
اصحب استاذي الى داره   في ذلك اليوم الرهيب الاخير
مؤمنة دون ضمير لها   فانما الايمان فوق الضمير
عسى اقيه وهو في كفره   بحسن ايماني عذاب السعير

عصا حافظ وجَزمَة الشميّل

[مجلة الزهور، ج ٤ (١٩١٣) ص ١٦٦ - ١٦٧].

حافظ ابراهيم وخليل مطران يشتغلان الآن معاً بترجمة كتاب «علم الاقتصاد» للكاتب الفرنسوي «ليروى - بوليو»؛ فتراهما يروحان ويجيئان بين المكتبة والمطبعة، ويبحثان وينقّبان عن لفظة عربية تؤدي معنى الاصطلاحات الافرنجية. وليس ذلك دائماً بالأمر السهل؛ وسأعود إلى زيادة التفصيل عن هذه المسألة في جزء آت. ولم أذكر اليوم كتاب «علم الاقتصاد» إلاّ عرَضاً فقط، لأنه جمعني في ٦ ابريل الماضي بأحد نصفي المعرّب حافظ بك ابراهيم، فلمحتُ في يده عصا عليها شرة نُقش فيها تاريخ إهدائها إليه، فإذا هو «٦ ابريل ١٩٠٧». اتفاق غريب! وأغرب منه ان تلك العصا قد رافقت «حافظاً» ستة أعوام كاملة، سلمت فيها من البيع والرهن والسرقة:

عجباً له حفظ العنانَ بأنملٍ   ما حفظُها الأشياءَ من عاداتها

ولعلّي أدركتُ السر في بقائها، فهو يهشُّ بها على غنمه وله بها مآرب أخرى: فيها يضرب القوافي فتتفجّر له سحراً حلالاً، كما كان موسى يضرب بعصاه الصخر فيتفجّر له ماء زلالاً. أو لعل «عصا حافظ» لها منزلة من نفسه كمنزلة «جزمة» الدكتور شميّل، وقد أودعها كل ضروب الفلسفة.

وحكاية هذه «الجزمة» انني زرتُ يوماً الدكتور الحكيم برفقة رهط من الأدباء، فوجدناه في غرفة عيادته جالساً إلى مكتبه، وهو في ملابِس البيت؛ فحادثنا وحادثناه مدة؛ ثم اشتدّ الجدال على مسألة من المسائل، فقال الحكيم هازلاً: «دعوني أشد جزمتي، فأكون أقوى حجة، وأكثر استعداداً للمناقشة» قال: ونهض إلى مخدعه، وعاد على تمام الأهبة بعد أن «شدّ جزمته»، فقلت له: «قد أدركتُ سرَّك يا حكيم، وعرفتُ مواطن الضعف فيك، فإن منزلة هذه «الجزمة» منك منزلة شعرَ شمشون منه» فضحك الشميّل ضحكته المعتادة، فزدتُ جرأة وقلت: «متى اشتدّ تقريعك لنا في «جلسات سبلندد بار» سنعمد إلى جزمتك، وننزعها من رجليك، فندعك أعزل بلا سلاح...»

أما وقد عرف القراء سر حافظ والشميل، فلينزعوا من الأول عصاه، وليسلخوا من الثاني جزمته، إذا أرادوا ان يستريحوا من فلسفة هذا وشعر ذاك. على انني أخشى، وقد بحتُ بالسر، ان يتحول القراء إلى جزمجية وحطّابين، حتى يتمتعوا طويلاً بذلك الشعر الرّيق، والنثر الشيّق.

«حاصد»

كلمة شكر واجبة

في صيف عام ١٩٠٩ قصدت ربوع الشآم، وطني الاول ومسقط رأسي، بعد ان رحلت عنها منذ نحو اربعين سنة، لم ازرها في خلالها الا مرتين اياماً معدودة، اخرهما منذ سبع وعشرين سنة قضيتها في القطر المصري، وطني الثاني ومبسط افكاري. فلم يشأ اهل سورية ان تنفرد مصر وحدها بالفضل عليّ فاغتنموا فرصة وجودي بينهم فغمروني باحسانهم، وطوّقوني بجميلهم مما لا انساه لهم على مدى الاعوام.

التحوّل في الشعر

الدكتور شبلي شميل

ليسَ لي في الشعر مطلبْ   إنما لي فيهِ مذهبْ
تارةً أرغب في النظم   وطوراً عنهُ أرغبْ
لستُ بالشاعر لكن   علَّ حكمي فيهِ اصوبْ

—

هو للنفس حياةٌ   ولكن النفس مسربْ

—

وهو إما رقَّ اشجى   وإذا ما أُشتدَّ ألهبْ
ولهُ الزهرة توحي   وبهِ المرّيخ يغضبْ[1]
فإذا الطفل المفدّى   ينصل السهم ويضربْ[2]
وإذا ڤولكان في   نيرانهِ يطفو ويرسُبْ[3]

—

وهو للشكوى من الظلم   إذا ظلمٌ تغلّبْ
إن يُصِبْ منّا قعيداً   هبَّ كالجسم المكهرَبْ
يصعق الظلاّمَ حتى   ليس للظلاّم مهربْ

—

يصفُ البؤس ويصمي   مَن لداءِ البؤس سبّبْ
فإذا العاتي بهِ كالشـ   ـمع في نارٍ واذْوَبْ
إذ يرى رجع الرّدَى   مثل الصّدَى فيهِ واجوبْ
يَصفَ الحبَّ ويرقى   ذروة الحبّ «المرتّبْ»

* المقتطف، مجلّد ٤١، اغسطس (آب) ١٩١٢، ص ١٦٠ - ١٦٥.

(١) الزهرة إلهة الجمال والمريخ إله الحرب يمثلان هنا الرقة والشدة في البيت السابق (٢) أي كوبيدون إله الحبّ ويمثلونهُ طفلاً مدلها حاملاً قوساً ويتلهى برمي السهام فتصيب من تصيب. ولفظة يضرب كما في قول امرىء القيس:

وما ذرفت عيناك إلاّ لتضر بي   بسهميك في اعشار قلب مقتلِ

(٣) إله الجحيم والنار والحديد ويسمى الحدّاد أيضاً إشارة إلى انهماكه بتجهيز آلات الحرب بالصهر والصب وقد تكون للمعنى المجازيّ من الغيرة.

يَجْرُدُ الجوهر إما جاز للتجريد مذهبْ[1]
يعبُدُ المعنى لذاتٍ لا صفاتٍ في مشبَّبْ
فإذا الكون جمالٌ يتقصَّاهُ ويعْجبْ[2]
في نواح الورق يلـ ـقاهُ وفي الصخر المصلَّبْ[3]
ويراهُ في هيولا ـهُ كطيب في مطيَّبْ

—

وهو قد يسمو فيخطو بين جوزاءَ ومنكِب
من حفيف الشهْب قد يسترق السمع ويطرَب
يتجلّ في سماءٍ تخلُبُ العقلَ فيُخْلبْ
ـ تتصبَّاهُ فيرغب وتعاصيهِ فيرهب ـ
ان تحجّبها غيومٌ كهموم النفس تنشَب
مثقلاتٌ مثلها يجهـ ـدها الحملُ فتشغب[4]
لاح فيها البرق كالآ مال في قلب الموصَّب
فهمَتْ بالقطر مدرا رأ كدمع يتسكَّب
وانجلت عن صفوها ـ فابتسم الروض وأخصب

—

وإذا الشمس وما في الشمس من معنى محجَّب
تتجلّ فوق مرجٍ اخضر الوشي مذهَّب
مثل بحرٍ ذاخر والموج فيهِ يتقلَّب
تستقي الأزهار منها ماءَ حسن ليس ينضُب[5]
وعليها بروَاءٍ وبرَيّا تتسحَّب
حبذا زهر الربى من كلّ صافٍ ومخضَّب
مثل فجر مستطيرٍ أو كأُفق قد تلهَّب

---

(١) بالتوسع خلافاً للماديين فيراه بمعناه الحافظ لنظام الكائنات وان لم يره بالحقيقة مجرداً عنها.
(٢) فيبدو له حينئذٍ في تنسيق نظام الكون جمالٌ يتقصاه في كل شيء ويعجب به.
(٣) ويرى الحب شاملاً لجميع مواليد الطبيعة إذ يعلم أن الذي يسمى حباً في الانسان والحيوان هو الذي يجعل النبات يعطف بعضه على بعض وهو الذي يجعل أجزاء الحجر تتماسك كذلك فيجعله لمنفعته ويقدسه بمعناه.
(٤) تذوب.
(٥) بالمعنى الطبيعي أي تأخذ ألوانها من نور الشمس بتحليله إلى ألوانه المركب هو منها.

يتهادى في نسيم كتهادي الطفل يلعب
والنَّدَى من فوقهِ حيـ ـرانُ كالدمع تصعَّب[1]
قلِقٌ مَّما يعاني قلَقَ القلب المعذَّب

—

حبَّذَا قطر النَّدى من فوق زهر يتصبَّب
كحباب نوُرهُ من كأْسِهِ[2] اطلع كوكب
او كموشورٍ[3] شعاعُ ـ الشمس فيهِ يتشذَّب
او كقوس السحْب ترمي كبد الجوّ فيُخضَب[4]
تندف النور وتذرو قطنه نسلاً مكوكب[5]
ـ يا لقوس قد نراها قاب قوسين واقرب ـ
ـ كسرابٍ وِرْدُهُ ـ أبعد من عنقاءِ مغرب ـ
او كعقدٍ في نظام ـ النور كالجزع المثقَّب[6]
يخدع العين بعينٍ وهي مثل البرق خلَّب
درّة في تاجه[7] ذاً هبةً والتاج يذهب
دولة الازهار ما عا شت فصبحٌ ثم مغرب

—

حاديَ العيس كما في عهد قيس والمهلَّب
تتغنى بسليمى وعـ ـلى الأطلال تنحب
تتباهى بعظامٍ ليـ ـس فيها اليوم مسحب

---

(١) كدمع الكبير إذا قهر.
(٢) إذا رجع فيه إلى الحباب فهو كأس الشراب والنور حينئذٍ بالضم أو إلى الزهر فهو كأسهُ كما في اصطلاح النباتيين والنور حينئذٍ بالفتح.
(٣) البلورة المثلثة السطوح التي تكسر أشعة الشمس وتحلل النور إلى ألوانه السبعة وهو عندهم الحل الطيفي.
(٤) إشارة إلى قوس قزح.
(٥) إشارة إلى تألق قوس قزح أيضاً مع صرف معنى القوس إلى قوس النداف.
(٦) تألق النور بتكسره في البلورات يوهم أنها منظمة في سمط من النور كأنها مثقبة أو فيها عيون أشبه بالجزع.
(٧) أي تاج الزهر بالمعنى النباتي.

تتلهى بعلوم تـ شدُ العقل فيَشجَب[1]
ما ركبتَ القاطرات الجائبات الأرض تنهب؟
ما رأيت السابحات الجاعلات الريح مركب؟
ما قصدت العامرات الممرعات الجدب تُخصِب؟
ما علوَتْ الراسيات الراميات الجهلَ تحصُب[2]؟
مدنيات الزهر ترقُب سابرات الغور تنقُب
تتغنى بعمارٍ يفـ تنُ اللبَّ ويسلُب
وتراهُ في ديارٍ تتحدَّاها وتدأَب
تضرب الوهم بسيف الحقّ إن الحق اغلب

—

يا لوهم كم لهُ في النفـ س أعراقٌ تشعَّب!
كلما قلّمت منهُ مِخلباً أنشب مخلب
وبماءِ الجهل يُسقى وبنار الخُلف يُشقَب[3]

—

أَين هذا العلم ينضو سيفهُ العضبَ المشطَّب
يخذل الجهل ويخزي أَهلهُ من كل مشرب

—

بئس علمٌ نصبوهُ في حمانا خير منصِب
وهو لو تدري لديهِ يُحْمَدُ الجهل المخرِّب
ليس كلُّ العلم علماً إنمّا العلم المجرَّب[4]

—

وهو قلَّ في قديمٍ كالرقاع الثوبَ ترأَب
ومصاب الناس حتى اليوم من هذا التذبذب[5]

—

(١) يهلك.

(٢) إشارة إلى العلوم العالية الراسخة كالرواسي.

(٣) يذكى.

(٤) العلم الاختباري ويسمى علم التجربة أيضاً.

(٥) أي أن نظام الاجتماع بالنظر إلى حداثة هذا العلم هو به اليوم كالثوب البالي المرقع وهذا التنافر بين القديم والجديد هو سبب الاضطراب الذي نشاهده في الاجتماع حتى اليوم.

عاذلي عذرُك بادٍ فيك من ماضٍ تسرَّب
إن تخطّئني فهذا أو تُسيءْ فهمي فأَعجب
فيك حسبي «لو» و«لكن» ريثما قوليَ يلزَب

—

شاعر الزُّلفى أَضعتـ الشعر في زيدٍ وزينب
تقف العمر كأَنَّ الشعر مدحٌ وتشبُّب

—

وجبينٌ في ترابٍ وفؤادٌ في تلهُّب
ومقالٌ حسنهُ ما كان فيهِ القول اغرب
بئسما الشعر غدا اعذبُه ما كان اكذب

—

ما ترى الجهل وما نلـ قى من الجهل المركَّب؟
ما ترى الظلم وفيـ نا دول الظلم تقلّب؟
ما ترى في ما ترى كم صاحب البؤْس يعذَّب؟
ما ترى في ما حوا ليك من الحسن المحبَّب؟

—

دولة دالت فقم في دولة الشعر المهذَّب[1]

[المقتطف]* أبى الدكتور شميل إلاَّ أن يكون السابق إلى نشر مذهب التحوُّل في الشعر العربي كما نشر مذهب التحول في علم الأحياء. ويراد بهذا المذهب صرف

(١) موضوع الشعر أوسع جداً من أن يغلب فيه الاستجداء والاستهواء ويجد فيه الشاعر المطبوع مجالاً أوسع لخياله وأرقى لغرضه ولا سيما إذا قرن بالعلم. فما قولك بالمتنبي مثلاً وهو الشاعر القدير لو أن الصناعة التي بذلها في مدح كافور وهجوه. بذلها في المواضيع المشار إليها أما كان ترك للخلف شعراً أجمل وأعلى وأخلد على الأيام. على أن في كبار شعرائنا المطبوعين اليوم نزعة إلى الخروج عن ذلك الاسلوب العقيم مع رقة ونزاهة وتفنن تبشر بدخول الشعر في طور جديد جامع بين الجزالة والخلابة و«بين» سمو الغرض الاجتماعي والعلمي مما سيذكر لهم بالحمد. ولعل بعض كتابنا النوابغ يضع لنا مقالة يبين فيها تاريخ هذه النهضة ويذكر أصحاب الفضل فيها وشيئاً من بليغ شعرهم الوصفي الطبيعي والاجتماعي تكون جامعة بين اللذة والفائدة.

* انظر: المقتطف، مجلد ٤١، اغسطس (آب) ١٩١٢، ص ١٦٠ - ١٦٥.

الشعر عن الأساليب المتبعة من الغزل والنسيب والاغراق في المدح والرثاء والبكاء على المنازل والأطلال مما مارسه الشعراء منذ ألف وثلثمئة عام إلى الآن وقلما حادوا عنه إلى وصف الطبيعة وما فيها وتجريد المعاني من المكتشفات العلمية والمخترعات العصرية التي غيرت وجه الأرض وأحوال سكانها. ولم يكتفِ بالحث والترغيب بل قرن القول بالفعل متبعاً وصية اليازجي الأكبر الذي قال:

إن قلت ويحك فافعل أيها الرجلُ   لا يصدق القول حتى يشهد العملُ

فأتحفنا بهذه القصيدة العصماء إرشاداً إلى ما يريد ومثالاً لما يقصد كما يتضح لمن يتلوها.

ولقد كان العرب وهم على البداوة ينظمون الشعر في وصف ما يرونه في بلادهم من نبات وحيوان ومنازل وغدران وسحب وعواصف وهضاب ومشارب وفي بث عواطفهم والاعراب عن مقاصدهم والأخبار بما يقع لهم فكان شعرهم ترجمان جنانهم وهم في حالة التهيج من صفاء أو كدر وهذا هو الشعر. لكن مجال معانيه كان محدوداً ضيقاً حسب معارف عصرهم وأحوال مصرهم فلما تحضروا واتسع نطاق المعارف باتساع الأمصار عرض للشعر أن صار حرفة للكسب فأصبح كبضائع التجار يُصنع منه ما راجت سوقه وكثر الراغبون فيه. وقد بقي من الشعراء في كل عصر بقية صالحة تجرد من أفعال الطبيعة سحر البيان وتنظم من روائع الأخلاق عقود الجمان. ولولا انسدال ليل الجهل على أبناء العربية بزوال دول العرب وبُعد لغة الكلام عن لغة الكتب لرأيت عامتنا تطرب الآن كما تطرب خاصتنا بشعر المتنبي وأبي تمام ولو رغب كلهم عما فيهما من الغزل والنسيب والمدح والهجاء لكثرة ما تكررت معانيهما على الاسماع. فإذا أردنا التحوُّل الذي أشار به الدكتور شميل فلا يكون له الوقع المطلوب في نفوس الفريق الأكبر من أبناء العربية إلاّ إذا انتشر العلم بينهم حتى صار الجميع يفهمون ما ينظمه الشعراء وخلا الشعر من كل ما يحتاج إلى تفسير وتوضيح. وهنا العقبة الكؤود والمحك الذي يبين به جوهر القرائح. والشاعر من إذا تغنى في الحجاز أطرب أهل مصر والشام والعراق. ولا خير في شعر ينظمه صاحبه فلا تجد من يحفظه ولا من يتلوه لإنغلاق معانيه أو لكثرة الغريب فيه. لكن قد يهمل الشعر لا لعيب فيه بل لأن ناظمه أخفاه أو لم يتوخَّ نشره واشهاره فحبذا لو قام من كتابنا المجيدين من نوَّه بأشعار المحدثين الذين ساروا في خطة التحول وأبدعوا في ما نظموه من الشعر العصري.

هذا وعسى أن يجد اقتراح الدكتور شميل ما هو جدير به من القبول لدى شعراء العربية أجمع فيُحوَّل الشعر كله عن أساليبه القديمة إلى اسلوب جديد صالح لأحوال العصر ووافٍ بالغرض المقصود من الشعر.

اللّه

تجمع لديّ معلومات كثيرة أحتفظ بها الى ان يجيء الوقت المناسب لذكرها. ولهذا اشتهرت مقالات «الشيء بالشيء يذكر». وقد رأيت بمناسبة وفاة المرحوم اسماعيل صبري باشا أن اذكر ما اجتمع لدي من أقوال ادباء العصر [اسماعيل صبري باشا، الدكتور شبلي شميل، حافظ ابراهيم، أمين الريحاني، جبران خليل جبران] في الله تعالى* :

سنة ١٩١٣ أذعتُ قصيدة اسماعيل صبري باشا الآتية بعنوان :

الى الله

يا ربّ أين ترى تُقام جهنمٌ   للظالمين غداً وللأشرار
لم يُبق عفوك في السماوات العلى   والارض شبراً خالياً للنار
يا رب أهِّلني لفضلك واكفني   شَطَطَ العقول وفتنة الافكار
ومُر الوجودَ يشفُّ عنكَ لكي أرى   غضبَ اللطيف ورحمة الجبار
يا عالم الاسرار حسبي مِحنةً   عامي بأنك عالمُ الاسرار
أخلقْ برحمتك التي تسَع الورى   ألاّ تضيق بأعظم الاوزار

فلما أطلع الدكتور شبلي شميل على هذه الابيات أرسل اليّ الابيات الآتية رداً على صبري باشا تحت عنوان:

إلى القائل الى الله

يا خائفاً غضب اللطيف وعفُوه   لم يُبق شبراً خالياً للنار
مما تخاف وما يصد عن المنى   افما وثقت برحمة الجبار
هل مثل رحمته التي تسع الورى   مما يضيق باعظم الاوزار!!
يا مؤمنين ثقوا فتلك براءة الـ   غفار تحميكم من القهار
ما دام هذا زعمكم في دينكم   ما رادع الاديان للاشرار
أفما رأيتم كيف باسم الله قد   نزل الفساد بأهل هذي الدار
وكم استغبتم ربكم في سرّكم   ياناعتيه بعالم الاسرار
أصنعتموه كذا لنيل رغائب   منا بداراً وهو ليس بدار
وخلقتموهُ لنا لتنتجعوا به   ضيق العقول وغفلة الافكار

* كما نشرها سليم سركيس في مجلته، العدد ٦، السنة ١٢، يونيو (حزيران) ١٩٢٣، ص ٣٥١ - ٣٥٣

لوصح قولكم الجزاء مجّل　　باتت خراباً جنة الابرار
فكأن هذا الدين شركة طا　　معين كسائر الشركات للاتجار
قد ابصروا العمل المثفن[1] مشفياً　　فاستمطروا الاوهام غيث نضار
واستكثروا الحمقى ليرجح وزنهم　　وعيارهم عدداً بغير عيار
في الارض لو تدري الجزاء معجل　　وبه تصان بصون حق الجار
ما ليس يصلحه القضا من بينكم　　بالعلم لا يرجى بخوف الباري

وآراء الشميل الدينية معروفة. فحدث انه نشر في «الجريدة» مقالة عنوانها «الساعة في الماضي» وهي منشورة في الجزء الثاني من مجموعته. قال فيها:

«فان فولكان ابن جوبتير من بوتون ولد شنيعاً جداً. فلما أبصرته أمه راعها مافي صورته الحافظية الجاحظية . . . من القبح» تعريضاً بحافظ بك ابراهيم من باب المداعبة. فلما اطلع حافظ على هذه المداعبة كتب اليه:

أيهذا الفيلسوف الكافر،

لا عجب اذا أنكرت خلقتي بعد انكارك الخالق.

قرأت (الجريدة) فأرمضى قولك. وأمضى تشبيهك. ولكن رفه عني انك وضعتني في مصاف الآلهة. وهل الذي دهاني منك دهاني بحكم تلك المجاورة. فانكرتني كما انكرتهم؟ - فبالله لو انهم قطعوا رأسي ورأسك ووجهوا بهما الى معرض من معارض الجمال في ايطاليا - لفاز رأسي بالجائزة دون رأسك - ذلك الرأس الذي سلّ من كل شعرة فيه لساناً يصيح بالكفر والالحاد. وقام في كل ذرة من ذراته كافر ينادى أن لا بعث ولا معاد. - أقول ذلك ورأسي مطأطأ امام رأسك الكبير الذي بات يناطح خالقه، ولا يبالي صواعقه وقلبي ينازعني الا أن يهديك السلام. ويدي تطالبني الا ان أخط داعي الاحترام والسلام!!

تلميذك - في غير الدين
وخرّيجك - الا في اليقين
حافظ ابراهيم

(1) اثفن العمل بده - اغلظها

سنة ١٩٠١ كتب امين الريحاني مقالة في جريدتي (المشير) اثناء صدورها في نيويورك قال فيها:

«فاذا كانت الديانات الثلاث كلها موحى بها فيا هو فضل احداها على الاخرى، كلها جاءت من وراء الغيوم وكلها تشير الى اله واحد خالق السماوات والارض. أما الفرق الذي أراه - مع ضيق نظري - بين الآلهة الثلاثة المختلفة فهو هذا: ان اله المسلمين برأس واحد لا شريك له واله النصارى بثلاثة رؤوس نظير شركة احتكارية. واله اليهود بقلوب عديدة واخلاق متناقضة. وبلغة عربية بسيطة أقول ان كل هذه الالهة لا تعجبني. فالهي هو اله البوذى الذي يستحم في نهر الكنج كما انه اله المسيحي الذي يستحم بدماء البرابرة. هو اله الاسيكمو الساكن في ألاسكا كما أنه اله الجاحد العالم المقيم في باريس. الهي هو الاله الذي لا يرى ولا يتجسد ولا يغضب ولا ينتقم ولا يتحزب ولا يحابى. الهي لا يعطي وصاياه لشخص معين بل يطبعها في قلب كل انسان. الهي لا يبعث بابنه من السماء الى الارض. الهي لا يبرر الزانية ولا يهتم بالختانة ولا يأمر بقتل الاطفال والشيوخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف (يشوع ٦: ٢١ - ٢٤). الهي لا يعبأ بالذبائح ولا يشجع ابناءه على الحروب. إلهي اله محبة وسلام. إلهي لا يحرق أولاده في نار ابدية. إلهي حليم رحيم لا يشفق اليوم ويغضب غداً. إله الشفقة ابداً ورب الرحمة دائماً.

وكتب جبران خليل جبران تحت عنوان «الله» ما يأتي:

في قديم الازمنة لما ارتعشت شفتاي بالنطق لاول مرة صعدت الى الجبل المقدس وناجيت الله قائلاً:

«انا عبدك يا ربي ومشيئتك الخفية سراطي وسأبقى مطيعاً لك الى ابد الآبدين».

فلم يجبني الله بل مرّ كعاصفة هوجاء واختفى عن ناظري وبعد الف سنة صعدتُ ثانيةً الى الجبل المقدس وكلمت الله قائلاً:

«انا صنع يديك يا خالقي. من تراب الارض جبلتني وبنسمة من روحك القدسية احييتني فأنا لك بكليتي».

فلم يجبني الله بل مرّ مجتازاً كحفيف أجنحة كثيرة وتوارى عن الابصار.

وبعد ألف سنة صعدت ثالثةً الى الجبل المقدس وكلمت الله قائلاً:

«أنا ابنك يا أبت بالحب والحنان والدتني، وبالحب والعبادة سأرث ملكوتك».

فلم يجبني الله بل توارى كالضباب الذي يغشى التلال البعيدة.

وبعد الف سنة صعدت رابعة الى الجبل المقدس وكلمت الله قائلاً:

«الهي، ومقصدي، وكمالي. أنا أمسك وأنت غدي، أنا عروق لك في التراب وأنت أزاهر لي في السماء، ونحن ننمو سوية أمام وجه الشمس».

فعطف إذ ذاك الله نحوي وهمس في اذني كلمات عذبة علوية. وكبحر يضم جدولاً جارياً اليه هكذا ضمني الله اليه.

ولما انحدرت الى الاودية والسهول وجدت الله هنالك ايضاً.

«كشكول طبيب»

طرأ على الكاتب الدكتور شميل من سنتين (١٩٠٧) ما اعجزه في يديه ورجليه مدة من الزمان الجاه الى حمل العصا ولبس القفاز فقال*:

مضى الزمن الذي قد كنت فيه ... اقول كأنني في الناس عنتر
اخاف الشر من آلات شر ... فلم احمل عصاً كي لا اغرّر
وما قيدت كره القيد كفي ... بقفاز الفتى الحلو المغندر
فصرت اذا مشيت وقد رأتني ... كلاب الحي مثل الاسد تزأر
تخاف يداي من خطرات ريح ... ورجلي ان مشت بالظل تعثّر
فقفازي حفاظ يدي ولولا ... عصاي اخاف ان الظهر يكسر
وما انا حنظل بعصاي يخشى ... ولا انا في حفاظ يديّ سكر

* نقلاً عن مقالة «كشكول طبيب» في المجموعة الثانية (١٩١٠)، ص ٨٩.

بين الدكتور شميّل والآنسة ميّ*

نشر صفحة مطويّة

زار المرحوم الدكتور شبلي شميّل منذ سنوات الكاتبة النابغة الآنسة ميّ في منزل والديها لاول مرّة فجرت بينهما محاورة جميلة فريدة في نوعها. فقد دخل الفيلسوف خدر الآنسة فما نفرت من جلال حكمته ولا فزعت من هيبة طلعته ولكنها قرأت في كتاباته عداءه للجنس اللطيف فابى عليها وفاؤها لنفسها وبنات جنسها ان تبتسم لخصم لا يعرف الابتسام. ولكنه اخذ يخفف من روعها فقال: «منذ زمن طويل أتشوق للتعرف بك» فاجابته وهي واجفة: «هذا التشوق متبادل بلا شك غير اني اخاف منك». قال: «اتخافين مني، لماذا؟». قالت: «لاسباب متعددة اهمها انك تكره السيدات وانك عالم مادّي وانا شاعرة روحية الميول». فأحس الحكيم هول التهمة الملقاة عليه وانبرى لاثبات احترامه للجنس اللطيف. ففرحت إذ رأت الرجل العظيم من حزبها لا من اعاديها ووجدته شاعراً بقدر ما كان عالماً. وفي الغد أرسل اليها قصيدة بليغة فاجابت بقصيدة كستها من اللغة الفرنسية اجمل حلّة. واننا ننشر هنا تلك المحاورة مبقين ما نظمته الآنسة مي باللغة الفرنسية بتوقيع ايزيس كوبيا كما هو حرصاً على ذكرى ذلك العصر الذي لم تكن تجيد فيه الا الفرنسية. وفيه دليل جديد على مقدرة هذه الآنسة وعبقريتها.

* مجلة الهلال، السنة ٣٠، ١٩٢١ - ١٩٢٢، ص ٨١٥ - ٨١٧

رعبُ ميّ وطمأنتي لها

ايا من رابها منّي مقالي   فجاءَت وهي تنفر كالغزال
تقول «أخاف منك على خيال   أرى في آيه كل الجمال»
كأنَّ حقائقي ليست جمالاً   وانَّ خيالها منها لخالِ
إذا قلنا الرياض اليس نعني   الشباب الغضّ في ابهى المجالي
أما هذه الثريا في سماها   عناقيدٌ تشعُّ على الدوالي
وما معنى العيون إذا تجلَّت   وقلنا انها الشُّهب الصوالي
وما هذه الثنايا إن تبدَّت   وقلنا دونها الدررُ الغوالي
ومن أنباك عن اني عدوٌّ   لجنسٍ كان مرآة الرجال
واني ليس لي فيه خيالٌ   وَثوبٌ في الاداني والاعالي
كأني ليس لي قلبٌ خفوقٌ   محطّ الوحي أو هدف النبالِ
أما أوحيتِ لي «هذا» و «هذا»   وما أنا شاعرٌ والجسم بالي
إذا ما قمت اطري الحبَّ يوماً   ألا تدرين أنك في خيالي
خيالات مخيّلها ذواتٌ   كوائن عندنا في كل حالِ
فعلمك بالحقائق غير مزرٍ   عسى يوقي الخيال من الضلال
دعيها مهبطاً للوحي كيلا   نكون به كما في ذا المقالِ
«نصيبك في حياتك من حبيب   نصيبك في منامك من خيالِ»

شميّل

الى الساحرة ايزيس

تقولين اني أسير الثرى   وانتِ تحومين حول السهى
وانك في ذا المحيط ترين   النفوس واني أريك الصدى[1]
فراعك مني نشيد تصاب   فأنشدتِ فينا اختلاف الهوى
تظنين اني فُتنتُ ببادٍ   وليس افتتاني بهذي النُهى
كأني نظرتُ بعينك فيكِ   وأنتِ نظرتِ بعيني أنا[2]

---

(١) الصدى ـ الجسد بعد الموت وهنا يردا به المادة (الصدى)
(٢) اي اني نظرت اليك بعين روحانيتك وانت نظرت اليَّ بعين ماديتي.

RECONCILIATION

Qu'Elle[1] *ait d'abord germé dans les grottes liquides*
Oú la Muse a placé son Neptune puissant,
Ou, qu'en feux endormis au fond de corps solides,
Elle ait franchi les airs, sur les vagues rapides
Pour enrichir la terre et de sève et de sang;

Que ce qui vous est doux me paraisse tragique,
Que vous citiez Darwin; moi, Shelley et Daphnis;
Que vous placiez le Beau dans un monde pratique
Et que mon rève à moi, câlin et nostalgique,
Saigne en dérobant leur secret aux myosotis;

Que vous toisiez le Tout et que moi je délire,
Que mon souris soit triste et le vôtre si fin,
Que je pleure en touchant les cordes de ma lyre,
Et que le bistouri puisse encore vous séduire;
Qu'étant tellement vous, me fassiez peur, enfin.

Au fond de tout cela qu'y a-t-il, ô Science,
Sinon la douloureuse et belle Humanité?
Divisés par l'orgueil, l'interêt, la souffrance,
Ne sommes-nous pas tous frères par l'espérance,
Ne sommes - nous pas tous chercheurs du Verité.

Isis Copia

---

(1) La Vie.

A Monsieur le Dr. Schemeil

Echange, dites-vous, échange de nos yeux?
Doctuer, vous oubliez que cela ne peut être;
La fleur que sent la brise effeuilleur tout son être
Peut-elle donc rentrer dans le sol soucieux?

Votre œil qui connaît tant de misères humaines
Ignore du chagrin le trouble caresseur:
Rien n'affecte ses eaux quelque fois si lointaines.
... Un rien baigne mon œil d'ivresse ou du langueur

Et si vous savez pu vous pencher sur mon âme
Pour y dechiffrer mon rève angoissant et pur
Si vous avez sondé ces profondeurs en flammes,
C'est qu'en votre œil demeure une larme d'azur

Isis

من مَيّ زيادة إلى المستشرق الفرنسي جان لوسيرف Lecerf (حزيران ١٩٣١)

«لطالما عقدت النيّة على رسم . . . صورة جانبيّة له (بورتريه). ولديّ الكثير من الملاحظات المدوّنة حول هذا الموضوع. فالدكتور [شميّل] كان من أعزّ أصدقائي خلال السنوات الثلاث الأخيرة من حياته، ومن بين الأوائل الذين شجّعوني على المضيّ في محاولاتي الأدبية الأولى، والدخول إلى ميدان الكتابة».

"J'ai toujours eu l'intention, de tracer ... un portrait de lui. J'ai même plusieurs notes à ce sujet, le Docteur [Shumayyil] ayant été mon grand ami durant les trois dernières années de sa vie et l'un des tout premiers à encourager mes débuts".

«مرّوضتي»

مـرّوِضـتي مـروضـة الأسـودِ ... ومـدحـي ذا لمـدحـك من بـعـيـدِ
عـهـدت الشبـل أطلق من عقـابٍ ... إذا هـو فيـكِ في صَـفَـدِ الحـديـدِ
إذا أفـلـتُ مـن وثـبـات ظـبـيٍ ... فكيف أصـانُ من لـفتـاتِ جيـدِ
وإن لم يـدنـني تـغـريـد غِـردٍ ... فـهـلا أنـثـني لأنـين عـودِ
ولـلآهـاتِ تـطلع مـن سـحـيـقٍ ... وتـوقـد نـارهـا فـوق الخـدودِ
إلى ثـغـرٍ تـرصّـعَ بـابـتـسـامٍ ... إلى لـثـغـات شـدوكِ ان تُجـيـدي
فيـا نـوحَ الحمـام على هـديـلٍ ... بكيـنـا معْـه كـل صـد شرِيـدِ
فـما أهـنـاك من صـوتٍ رخـيـمٍ ... ومـا أصـفـاهُ مـن خِـلٍ ودودِ
ظـنـنـتُ الـقـلبَ بـركـانـاً تـقضى ... عـلـيـه الـعـهـد من زمـنٍ مـديـدِ
هـو الـبـركـانُ والـنـيـرانُ فـيـه ... هـواجِـعُ إن تَـثُرْ يـا أرضُ ميـدي
إذا أنـا صِـنْـتُـه مـن كـفُ عـادٍ ... فـكـيـفَ أقـيـهِ مـن ألحـاظِ غـيـدِ
لحـاظٌ دونها الـراديـوم سِـرّاً ... تـشـقُّ قـلـوبـنـا قـبـل الجـلـودِ
وتـربـطـهـا بها مـن غـير سـلـكٍ ... وتـنـطـقـهـا على رغـم الجـمـودِ
إذا نـبـضـت حـيـاةٌ في فـؤادٍ ... سـرت كـالـبـرق في القـاصي البعيـدِ
إذا صَبَت الـنـفـوسُ إلى الـتـنـاجي ... فـهـل دونَ الـتـنـاجي من حـدودِ؟
ومـا الأكـوانُ إلا حـامـلاتٌ ... حـيـاةً في لـظىً أو في خـمـودِ
هـجـوعٌ في الحـيـاة ولـيس مـوت ... خـلـودٌ ذا، وذا سرُّ الـوجـودِ

صديقتي: احفظي هذه واعدمي الصورة الأولى ولا تنشري شيئاً لأني مع علمي أن فيها أشياء (مش بطالة) لكن ينقصها: بردخة، ولأسباب ثانية أيضاً•.

أنا لا أذهب إليكِ حتى تكتبي لي وتعديني أنك تنشدين هذه الأبيات أمامي على العود. وسلام عليك أزكى من ريح الخزامى ونشر القطر.

صديقك

[الدكتور شميّل]

• ـ انظر: ميّ زيادة واعلام عصرها: رسائل مخطوطة لم تنشر، ١٩١٢ ـ ١٩٤٠، جمع وتقديم وتحقيق سلمى الحفار الكزبري، (مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨٢، ص ٢٣).

الدكتور شبلي شميل ـ الشاعر

وما هو الشعر؟

هو عاطفة ذائبة، أو فكرة متوقدة، أو خاطرة عميقة سُكِبت في قالب موزون الكلام والنغمة[1]. والشعر الغزلي موسيقى تناجي القلب وتلمس الفكر، سابحة بالروح على أمواج الفنون. وما لانثر إلّا شعرٌ أفلت من أقيسة الوزن الضيقة. غير أنه لا يكون مرضياً الّا إذا خضع لنواميس الإنشاء بما فيها من توازن الجمل، وموسيقى الألفاظ، وسرد الأفكار بسلاسة وسذاجة. فالنثر اذاً شعر حرٌّ ويتسنى لكل كاتب أن يكون شاعراً في نثره. هذا اذا كان من تلك النفوس العطشى المرتفعة بأميالها عن الشواغل العادية، باحثة عن مَثَل أعلى يسير أمامها في سبل الحياة المحفوفة بالأنوار والظلمات. ولكل إنسان، مهما كان عادي الميول، ساعات قليلة أو كثيرة يكون فيها شاعراً. فإذا كان من أهل القلم أفضى إلى الورق بهمْس سرائره، وكشف للغرباء عن خفايا قلبه. والاّ كان لنفسهِ منشداً و«مطيباً» معاً.

●

منذ أن تقدمت العلوم الطبيعية علا صوتُ جماعة الماديين منددين بالشعر والشعراء، قادحين في المعارف الأدبية والعلوم الفنية، مزدرين كلّ ما لا يُصدم ولا يلمس. كأنَّ الإنسان لم يخلق إلّا من المادة فقط، وكأنْ ليس فيه ما يوجب الأعجاب الا التراكيب الكيماوية والكريات الدموية مع ما يتبعها من هيكل عظام وجهاز أعصاب. وقد غالوا في الذمّ والاستخفاف اعتقاداً منهم أن المستقبل للعلم وحده. وفاتهم في تطرفهم أن الفنون ستظل راية المدنية رغم ما للعلم من الفوز الباهر. وأن روح الشعر لا تفارق روح العالم ما بقي القلب في صدر الإنسانية خافقاً، وما دام وميض الأمل في جوّ أحزانها بارقاً. ما هي الحياة بلا أمل؟ وما هي العلوم بلا آداب وفنون؟

تلك موت أمرٌ من الموت. وهذه تمدُّ بين الأقطار الشاسعة صحراء قحطاء جرداء لا يجد المسافر فيها قطرة ماء تروي عطشه، ولا فيء شجرة تقيه القيظ فيذوق تحت غصونها الراحة الضرورية لأتعاب الحياة. فالآداب والفنون أشجار الحياة وإزهارها، وهواؤها وماؤها. ولا يكملُ الإنسان إلا إذا وقف قلبه وفكره أمام تماثيل الطبيعة وأشباح الأحلام، فيميل كل منها الى وجهته، ويقتسمان حظيهما من المشاعر والمدارك والآمال.

---

(1) نشرت في «مجلة سركيس»، عدد حزيران (يونيه) ١٩١٣. وأعادت الآنسة مي زيادة نشرها في الصحائف (١٩٢٤)، ص ٢٣ ـ ٣٣

وما هو الأمل؟

حللّ ما شئتَ وفسّر ما استطعت، لا تجدْ للأملِ إلّا تعريفاً يقربُ من هذا: هو مزيج من الأحلام المتوقع أن تصير حقائق.

أرأيت بعد هذا أن الماديين يسيئون إلى أنفسهم باساءتهم إلى الشعراء؟ انهم يحلمون مثلهم. غير انهم يُلبسون أحلامهم ثوباً حجرياً أو معدنياً. بينا الشعراء يزينون أحلامهم بأنسجة رقيقة وحُجب شفّافة. وهذا كل ما بين الفريقين من الخلاف.

●

ولقد كان الدكتور شميّل من أول الهاتفين بيننا «ان من العلم لسحراً». ويا ليته اقتصر على هذا الهتاف الجميل. لكنه اردفه (وقد خلط الأدباء بالمتأدبين، والشعراء بالمشعوذين، والعارفين بالمدعين، والمخلصين بالكاذبين) بكتابات هذه خلاصتها: «فضونا من غلبتكم يا أُدباتية، يا أولاد الكلب» (هذا كلامه حرفياً). وكان للأدباء المساكين أن يسألوه: «قلمك يقول إننا أبناء القرد، وصوتك يقول إننا أبناء الكلب فأيُّ الوجيهين جَدُّنا؟» ـ وقد فكرت طويلاً في أن آثار من الدكتور شميل فعثرت في كتاباته على سلاح أُصوّبهُ نحوه الآن. وهو قولي أنه شاعر. وسأعرض لهُ من مقالاته وقصائده ما يؤيد هذا القول.

لقد وجدت في بعض قصائده شيئاً غير البحر والسجع والرويّ. وجدت تعبيرات جيلة وخيالات فخمة تتهادى بين أجرام المادة. أجل، وجدت قوة شعرية، لا أقول غزلية، في تلك النفس التي تدّعي احتقار الفنون. قوة من القوى الأولية أخفتها الحياة تحت طيات الاختبار الكثيفة، وحجبتها كبرياء العلم وتعصبه وراء أستار المادة الضخمة. غير أنها لا تنفك باحثة عن منفذٍ تطلُّ منهُ على عالم النور. كالبذرة الكامنة في صدر الأرض تشقّ صلابة ما يعترض بروزها من الحواجز والموانع، وتظهر في معاطف الجبال حياة جديدةً حاملة بين اليافها ووريقاتها عالم أسرار وألغاز. كذلك كان الشعر في نفس الدكتور شميل... وكذلك هو في نفس كل انسان. لكن قوة التعبير لم تُعطَ إلّا للأفراد.

فطبيبنا شاعر رغم إرادته. وأظنه كاتباً رغم ارادته أيضاً، بمعنى انه لا يكتب الّا في ساعات الغضب والتهيج والاشمئزاز مما يظنه أعوجاجاً وضلالاً. أو عندما يشعر بأن مبادئه تناديه بصوت بشريّ: «انصرني، ايدني، أشهرني!» كما أنه يكتب في الأيام المظلمة عندما ترقد النفس على معهد الشك والأسف والقنوط، ناسجة من كآبتها كفناً

يحول بيننا وبين العالم الذي يؤلمها (اقرأ مقالة «المريض» ومقالة «بمعزل عن الناس» صفحة ١٥٧ وصفحة ١٦٢ في الجزء الثاني من مجموعته).

وهذه المميزات ترفع الحجاب قليلاً عن شخصية شاعرنا الفيلسوف. فيلسوف؟ الدكتور شميل لا يريد أن يُلقب بهذا اللقب العظيم. وينفي الفلسفة عن نفسه بحدة تكاد تكون غضباً: فهو اذاً فيلسوف على رغم منه. بل هو هو على رغم منه. ألا ترى في هذا الارغام المتواصل شيئاً من أخلاق الأطفال؟

●

طباع متعاكسة متناقضة، غريبة في شدّتها ولينها. هذا الرجل القاسي الذي يودُّ أن يقبض بيديه على صواعق جوبيتر ليلقيها على رأس الهيئة الاجتماعية مبيداً كل ما فيها من الشرائع والأنظمة، يقف متردداً بين الشفقة والتوسل أمام المجرم ويفكر قائلاً: ما ذنب هذا المسكين اذا اكسبته الوراثة جراثيم الجرائم؟ هل يعاقَب المصدور على علته والمجنون على جنونه؟ هذا المتحامل على الأدباء الذي يحسب فنَّ الكلام داء عصرياً، يأتيك بالبراهين العلمية الجافة بأسلوب شهيّ لذيذ، ويقيس قبل التحبير مقاطع الألفاظ، ويزن كلامه بالأفكار كيلا يقلل من هذه ولا يزيد من ذاك. هذا الساخر بالشعراء يعلم الشعراء التحوُّل في الشعر. هذا المادي يسكر لأنين العيدان ولا يلبث ان يئنّ مع الأوتار منشداً:

فيا نوح الحمام على هديلِ   بكينا معه كل صد شريدِ
فما أحناك من صوت شجيّ   وما أوفاه من خل ودودِ

هذا الطبيب الذي يكوي بناره، ويجرح بمشرطه، ويؤلم بلمسه، ويعذِّب بعلقم أدويته يقف متأملاً أمام صفحة الأرض، هامساً في أذن الأحياء مع الشاعر:

خفف الوطء ما أظن أديم الـ   ارض إلا من هذه الأجسادِ

هذا الرجل الكئيب الذي يخيل أحياناً حاملاً في صدره أحزان الخريف، وغيوم الشتاء، ووحدة البحار الواسعة تضحكهُ فكاهةٌ صغيرة ولا تفوته نكتة مبهمة. هذا المستبد في علمه الراسخ، الثابت في أحكامه المُطلقة، هذا الضاحك من اللادريين تسأله: ما هي المادة؟ فيستشيط غضباً لأنك وضعتهُ إزاء أمرٍ لا يعرفه بشر. ويتردد حيناً ثم يدفعه إخلاصه وعلمه إلى الجواب: لا أدري!

كم وكم من الفلاسفة باحوا بهذا الاقرار: لا أدري!

هذا المتأله في تصلُّب يقينه «الحجريّ» يشعر بقشعريرة الزمان متمشية في أعماق

كيانه أمام يتيمة الفنون وارملة الأجيال قلعة بعلبك. فيهوي جاثياً على ركبتيه، ممرغاً جبهته في تراب آلهة الماضي. أجل، الماديّ الجاحد تهزهُ هيبة المكان فيسجد لقوة القوى المجهولة، لأنّ أشعة القمر الحزينة تفتقد عند انتصاف الليل هياكل عشتروت المحطمة!

●

بقولي أن الدكتور شميل شاعر لا أعني أنك تجد في قصائده رقة شوقي الذائبة إذ يحدثك انه «ابن الظل والماء» أو عذوبة الخليل الجارحة إذ يضع يده على قلبه باكياً:

ان لي قلباً خفوقاً   واهن العزم كسيراً

أو دلال ولي الدين المعذَّب إذ يقول:

إن ضلَّ حنانكِ عن قلبي   فأنا بولوعي ارشدهُ

لا. الدكتور شميل بعيد عن هذه النغمات لسبب رئيسي وهو أنه يكتب بفكره فقط. ويندر جداً أن تسمع عواطفه متكلمة لأنّ شعره كثره ينحدر من دماغه. ومع ذلك فاقرأ كيف يحدد الشعر:

هو للنفس حياة   ولكرب النفس مسربْ

وتعثر في قصائده على مثل هذا الوصف الجميل:

وإذا الشمس وما في الـ   شمس من معنى محجَّبْ
تتجلى فوق مرج   اخضر الوشي مذهب
مثل بحر زاخر   والموجُ فيه يتقلب
تستقي الأزهارُ منهاً   ماء حسن ليس ينضبْ
وعليها برواء   وبريا تتسحَّب
حبذا زهر الربى   من كل صاف ومخضّب
مثل فجر مستطير   أو كأفق قد تلهب
يتهادى في نسيم   كتهادي الطفل يلعب
والندى من فوقه   حيران كالدمع تصعّب
قلق مما يعاني   قلق القلب المعذّب

في البيتين الأخيرين معنى في منتهى الرقة والعذوبة إلا أن شعره غالباً علمي. وأرى عكس ما يعتقده كثيرون. وهو أن هذا النوع من الشعر يزيد في ثروة اللغة

وجمالها. وقد جرى نفرٌ من كبار شعراء الإفرنج على هذا الأسلوب في بعض القصائد. ولا تخلو حتى مجموعة سولي پرودم من القصائد العلمية الفلسفية التي لا تفضل قصائد الدكتور شميل إلا بكون اللغة الفرنساوية تنقاد للمعاني بلينٍ لم تألفهُ اللغة العربية إلى اليوم. وهذا فضل يضاف إلى أفضال شاعرنا العلمي. أسمعْ كيف هو يحدد ناموس الجاذبية في الأجرام الذي هو ناموس الحب في البشر:

شوقٌ تكامل من أدنى الوجود إلى
أعلى فأعلى إلى أعلى أعاليه
حتى تناهى وقلب المرء تلهبه
نار من الحب يذكيها وتذكيه

وأقرأ الأبيات التالية في المعنى نفسه. وهي أفكار لها من العظمة الجوهرية ما يغنيها عن النعت لئلا تعدم شيئاً من قوتها:

هو الحب اكسير الوجود بلا مِرا
ولولاهُ ما كان الوجود كما ترى
فكل الذي تلقاه في الكون سره
وهاديه في أفعاله كيفما نحا
هو الحي مولوداً، هو الميت فانياً
هو النجم قد أسرى، هو الصبح والدجى
هو الكل في كلٍّ معيداً ومبدياً
وما نحن إلا فيه من صور الفنا
وليس فناة ما نراه وإنما
هو العود للأولى، هو البعث للألى
قضوا فحيينا وانقضينا بعودنا
إليهم، وغير الكل ليس له البقا

اعتراضي شديد على كلمة «بلا مِرا» في هذه الأبيات:

ولكن هل سمعت أن الحب «اكسير الوجود»؟ والبيت الثاني يتمم معنى البيت الأول ويجيء القارىء لتعداد الإجرام:

«هو الحي مولوداً، هو الميت فانياً،
هو النجم قد أسرى، هو الصبح والدجى

ويتبعه هذا البيت الجليل حيث تتلاشى جميع الأفكار في فكر واحد شامل، وتتجلّ الحقيقة في سذاجتها المهيبة:

هو الكل في كلٍّ معيداً ومبدياً
وما نحن إلا فيه من صور الفنا

قد يجلب الشطر الثاني حزناً لولا ما يتعلى من أصوات الأمل والحياة:

وليس فناء ما نراه وإنما هو العود للأولى . . .

هنا يشعر القارىء بأن نفسه تتسع وتتباعد منبسطة كذراعين يضمان الكون:

«. . . هو البعث للألى»

قضوا فحيينا فانقضينا يعودنا إليهم وغير الكل ليس له البقا

طويل صدى هذه الأبيات في الروح، طويل عميق. يتسرب تموّجهُ بين ثنيات المدارك وإلى خلايا الافهام، بينا أشباحُ الفناء تمرُّ أمام ناظري الخيالِ ببطءٍ فخم للتلاشي في أبدية القوة الخالدة . . .

هذا شعر الدكتور شميل: أفكار عميقة وحقائق رائعة تجلب التأمُّل والتبحُّر.

●

[سوانح وتذكارات عن الشميّل]

أذكر له [تقصد اسماعيل صبري باشا]* مجالس رائقة عندنا مع المرحوم المطران دريان يتطارحان فيها الشعر. وأمامهما الدكتور شميّل راكباً على كرسيه كالقائد العام يمتطي جواداً في صميم المعركة ويلقي الاوامر الموجزة الخطيرة إلى فيالق الميمنة والقلب والميسرة لتنقض على العدو كالصواعق. كذلك كانت نبرات الدكتور شميّل واشاراته ومعاني عينيه القادحتين شرراً (الا ساعة الهدوء والضحك) على صهوة كرسي الخيزران!

ثلاثة مختلفو العقيدة والمذهب الميل في الدين والعلم والفكر، ولكنهم لم يفترقوا مرة إلا على اتحاد ووئام.

* ـ من مقالة الأنسة مي عن اسماعيل صبري باشا (١٩٢٣). انظر: الصحائف، ١٩٢٤، ص ١٠٩ ـ ١١٢

كان صبري باشا ولوعاً بجمال اللفظ وعذوبة الصوت وبلاغة الالقاء. يطرب لذلك طربه للموسيقى الشجية فيرسل تلك الآهة الطويلة العميقة التي يعرفها له اصدقاؤه وجلاسه. ولعل جميع المصريين في ذلك صبري باشا. ولهم مباهاة بلفظهم ولهجتهم، يصحبها تهكم لطيف بكل لهجة عربية أخرى تقريباً. ومن دلائل ذلك قول بعضهم للعائد من سوريا «كم كلمة جبت وياك من الشام؟» وإذا سمعتهم يقولون في خطيب أو شاعر أو متكلم «دامالو بيرطن كدا يا أخي؟» فاعلم أن الاعتبار الفنيّ انقلب له في نفوسهم ابتساماً. . .

وكان المطران دريان فخم اللفظ، متين المبنى، يحب منظوماته الوجدانية (القليلة) و«يشعر» بكلامه قبل إلقائه. فكان الرئيس يستمع إليه بسرور واهتمام، وبلغ من استحسانه أنه قال مرّة: «هيه؟ والله أنت من عندنا!» فصرخ الدكتور شميل ضاحكاً غاضباً في آن واحد ـ وكان على كرسيه في قلب المعمعة ـ «يخرب بيت هلمصريين شو متعصبين!» وأنت تعلم يا قارئيس، أن الأعوام الطويلة التي قضاها في هذه الديار معرّب «شرح بخبر على مذهب دارون» كانت بالنسبة للهجته كالأبدية في عين الرب. . . .

[«تكلموا لغتكم!»]

. . . . . .

«وظلت كلمات الشيخ صاحب المكتبة، وصورة وجهه المفتون بوطنه في ذاكرتي حتى المساء، إذ اجتمعتُ بطائفة من كرام السوريين رجالاً ونساء. فأخبرتهم عما سمعتُ في ذلك الصباح وتمنيت أنْ يكون لنا نحن الشرقيين مثل ذلك التعلق باللغة التي فكر فيها آباؤنا، وعبّروا بها عن أفراحهم وآلامهم وآمالهم وجهادهم.

فوافق الحاضرون. إلا أن أحدهم ـ وهو من «الطراز الحديث» المكرّر ثلاثاً ـ فتح فاهُ فتحة أنيقة تليق بالقرن العشرين وتكلم قائلاً:

ـ «نعم، ولكن لفظ العربية صعب علينا. فهناك حروف خشنة مثل: (محاولاً إتقان اللفظ)الـ . . . عين والـ . . . حاء والـ . . . خاء، يا إلهي! كل هذا يمزق الحلق فضلاً عن ثقله على السمع». وطفق حضرته يتكلم الفرنساوية جاعلاً الراء منها غيناً غنّاء.

* ميّ زيادة: بين المدّ والجزر ـ في اللغة والفن والآداب والحضارة، بيروت ١٩٧٥، ص ٨٧ ـ ٨٩

فتبادر الى ذهني، انّ المرحوم الدكتور شميل قبل وفاته بشهور قليلة، حضر درس الكونت دي جلارزا أستاذ الفلسفة يومئذٍ في الجامعة المصرية. وكانت المحاضرة في فلسفة أرسطو. فمضت عشر دقائق تقريباً والدكتور يصغي بانتباه تام. إذ ذاك لفظ جناب الكونت كلمة «الطبيعة» ثلاث مرات في جملة واحدة. فمال نحوي الدكتور شميل وسأل:

ـ «أوطنيٌّ هذا المحاضر أمْ أجنبي؟»

فأجبتُ: «هو مستشرق اسباني».

ذكرت تلك الحادثة متعجبة كيف أنّ أناساً ولدوا في جرود لبنان، أو في أنجاد سوريا، أو في سهول مصر، يجدون اللغة «خشنة يا إلهي! تمزق الحلق» ويحسبون من يتكلمها في المجتمعات «فلاحاً». في حين أن أجنبياً يتقن لفظها ويحسن الإفصاح بها في موضوع فلسفي عويص. يحسن ذلك الى درجة إبهام رجل كالدكتور شميل، وحمله على التردّد مدة عشر دقائق تقريباً، قبل أن يقدم على الاستفهام هل ذلك الأجنبي من أهل اللغة أم من محبّيها.

تكلّموا ما شئتم من اللغات يا بني أمي! ولكن لا تنسوا لغتكم».

[«الصامت والمتكلّم
في
السهرات الراقصات»]

[«واتينا على آخر السهرة* فقلت باخلاص «ما كان اقصر هذه الساعة!».

ففتل شاربيه باناقة، ورنا الى طرفيها باعجاب، ثم انحنى شاكراً لانه متواضع. ثم قال مشيراً الى رجل بطيء الخطى، مهيب المنظر، مرّ على مقربة منا. قال «لا ادري ما اذا كانت قصيرة في نظر هذا».

فسألت «ومن هو هذا؟».

اجاب محدثي «هذا احد اثنين: فاما يظل صامتاً فلا يدرك المرء لسكوته معنى ولو عاشره مليون سنة؛ واما يتكلم . . .

* انظر: مي زيادة ـ ظلمات وأشعّة (١٩٢٣)، ص ٨٥ ـ ٨٩

فينطبق عليه الصامت والمتكلم قول يزعم احد الظرفاء ان الله قاله عن الرئيس ابن سينا!».

قلت «ألا اخبرني بما يزعم ذلك الظريف انه تعالى قاله عن ابن سينا!».

فحدثني نديمي قائلاً: «يزعم صاحبي المليح النكتة انه لما مضى ابن سينا الى ربه جاءه الملكان وسألاه «ما هو الله؟».

فأجاب لفوره: «هو اسطقس فوق الاسطقسات».

فتبادل الملكان نظرة فلم يفهما. فذهبا الى الحق سبحانه وقالا: «ربنا! لقد جاء الساعة عبد من عبيدك البشر، رجل يتكلم كالمتكلمين ولكننا لا نفقه لقوله معنى».

فسأل الحق جلّ وعلا: «وماذا يقول هذا الرجل؟».

فأجاب الملكان: ربنا! سألناه «ما هو الله؟» فقال: «هو اسطقسٌ فوق الاسطقسات».

فاطرق المولى سبحانه وقد البس عليه مغزى الكلام، وقال: «ان امر هذا ارجل لغريب! وما اسمه، ايها الملكان؟».

فقال الملكان: «ربنا! اسمه عبدك الرئيس ابن سينا».

فضحك ذو الجلال وقال: «ها ها ها! لقد عرفته! فدعاه وشأنه. هذا رجل قضى عمره متكلماً فلم تفهم خلائق الارضين كلمة من اقواله».

«ذاك، على زعم صاحبي، ما قاله الله تعالى عن الرئيس ابن سينا».

فضحكت ثم ضحكت، وودعت محدثي قائلة: «حقاً انك رجل ظريف!» وهمست لنفسي مرة اخرى «ليته سرد لي حكايتي لاعلم كيف هي في الغد تكون!»].

الله والعلم

احمد شوقي

(١٩٠٢)

اسرُّ الى المقتطف* هذه الكلمة الفانية على هذه الدنيا الفانية واسأله ان يذيعها تمجيداً لله وتنويهاً بالعلم الذي هوآية ملكه ورسوله الذي لا يموت في العالمين.

ولئن وعظ الاسكندر الناس ساعة مماته اضعاف وعظهم في حياته ففي مرض الملك ادورد وهو يضطلع بالدولة التي ينحسر الطرف في مواكبها ما فيه للنفوس مزدجر وما جمع الله فيه العبر:

لِمَن ذلك الملك الذي عزَّ جانبُه ... لقد وعظ الاملاك والناسَ صاحبُهْ
أَمُلكٌ أيا ادْوَرْد والملك للذي ... يغار عليه والذي هو واهبُهْ
اراد بهِ امرّا فجلَّت صدورهُ ... فأتبعهُ لطفاً فجلَّتْ عواقبُهْ
رمى واستردَّ السهمَ والخلقُ غافلٌ ... فهل يتَّقيهِ خلقهُ او يراقبُهْ
أيبطلُ عيد الدهر من أجل دُمَّلٍ ... وتخبو مجاليهِ وتُطوَى مواكبُهْ
ويرجعُ بالقلب الكسير وفودهُ ... وفيهم مصابيح الورى وكواكبُهْ
وتسمو يدُ الدهر ارتجالاً ببأسها ... الى طنب (الاقواس) والنصر ضاربُهْ
ويستغفر الشعب الفخورُ لربهِ ... ويجمع من ذيل المخيلةِ ساحبُهْ
ويحجب ربُّ العيد ساعةَ عيدهِ ... وتنقص من اطرافهنَّ مآدبُهْ
ألا هكذا الدنيا وذلك ودّها ... فهلّا تأنَّى في الاماني خاطبُهْ
اعدَّ لها ادوردُ اعيادَ تاج ... وما في حساب الله ما هو حاسبُهْ
مشت في الثرى انباؤها فتساءلت ... مشارقهُ عن امرها ومغاربُهْ
وكاثر في البر الحصى من يجوبهُ ... وكاثر موج البحر في البحر راكبُهْ
الى موكبٍ لم تخرجِ الارضُ مثلهُ ... ولَنْ يتهادث فوقها ما يقاربُهْ
اذا سار فيهِ سارت الناس خلف ... وسرَّت مقادير الملوك ركائبُهْ
تحيطُ بهِ كالنمل في البر خيلهُ ... وتملا آفاقَ البحارِ مراكبُهْ
نظام المجالي والمواكبِ حلّهُ ... زمان وشيك ريبهُ ونوائبُهْ
فبينا سبيل القوم أمْنٌ الى المنى ... اذا هو خوفٌ في الظنونِ مذاهبُهْ
اذا نبأ الاعياد في كل مسمعٍ ... تجوبُ الثرى شرقاً وغرباً جوائبُهْ
رجاءٌ فلم يلبث فخوفٌ فلم يدم ... سلِ الدهر ايُّ الحادثين عجائبُهْ
فياليتَ شعري اين كانت جنودهُ ... وكيف تراخت في الفداءِ قواضبُهْ
ورُدَّت علي اعقابهنَّ سفينهُ ... وما ردَّها في البحر يوماً محاربُهْ

* المقتطف، ج ٢٧، اغسطس (آب) (١٩٠٢)، ص ٧٢٧ - ٧٢٨

وكيف افاتتهُ الحوادث طلبةً … وما عودتهُ ان تفوت رغائبُهْ
لكَ المُلْكُ يا من خصَّ بالعزّ ذاتهُ … ومن فوق آراب الملوك مآربُهْ
فلا عرش الاَّ انت وارث عزّهِ … ولا تاج الاَّ انت بالحق كاسبُهْ
وآمنتُ بالعلم الذي منكَ نورهُ … ومنكَ ايادِيهِ ومنكَ مناقبُهْ
تؤمّنُ من خوفٍ بهِ كلَّ غالبٍ … على امرهِ في الارض والداءُ غالبُهْ
سلوا صاحبَ المَلكين هل ملكَ القوى … وأسدُ الشرى تعنو له وتحازبُهْ
وهل دفع الداء العضال وزيرهُ … وهل حجبَ البابَ الممنع حاجبُهْ
وهل قدّمتْ إلاَّ دعاءً شعوبهُ … وساعف إلاَّ بالصلاةِ أقاربُهْ
هنالك كان العلم يبلي بلاءَهُ … وكان سلاحُ العلم تغني تجاربُهْ
كريم الظبى لا يقربُ الشرَّ حدهُ … وفي غيرهِ شرُّ الورى ومعاطبُهْ
اذا مرَّ نحو المرءِ كان حياتهُ … كاصبح عيسى نحو ميت يخاطبُهْ
وأيسرُ من جرح الصدود فعالهُ … وأسهل من سيف اللحاظِ مضاربُهْ
عجيب يرجي «مشرطاً» او يهابهُ … مَن الغربُ راجيهِ من الشرق هائبُهْ
فلو تُفتدى بالبيض والسمر مديةٌ … لألقت قناها في البلاد كتائبُهْ
ولو ان فوق العلم تاجاً لتوّجوا … طبيباً لهُ بالامس كان يصاحبُهْ
فآمنت بالله الذي عز شأنهُ … وآمنت بالعلم الذي عزَّ طالبُهْ

مصر — احمد شوقي

من جبران الى ميّ

نيويورك، ٢ .كانون الثاني، ١٩١٤]

«أنا معجب مثلك بالدكتور شميّل فهو واحد من القليلين الذين انبتهم لبنان ليقوموا بالنهضة الحديثة في الشرق الأدنى وعندي أن الشرقيين يحتاجون إلى امثال الدكتور شميّل حاجة ماسة كرد فعل للتأثير الذي أوجده الصوفيون والمتعبدون في القطرين مصر وسوريا».

[الشعلة الزرقاء. رسائل جبران خليل جبران إلى ميّ زيادة.
تحقيق وتقديم: سلمى الحفّار الكزبري وسهيل ب. بشروئي،
منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٩، ص ٣٣].

العمال في القديم:
قصيدة، مصرية قديمة اعرضها على شعرائنا لعلهم ينظمونها لنا

[المقطم ٧٤٧٣ تاريخ ١٩١٣/١٠/٢٤ ص ١]

حضرات الأفاضل أصحاب المقطم الأغر

يظهر أن الشعر لم يكن في كل العصور كما صار في بعض الأزمنة صناعة الذين لا صناعة لهم غير التزلف للحكام واستنداء أكف أصحاب المال بهدهدة أعصابهم وهم اذا أنصفوا «يجيزونهم» بالظلم والبخل على هذا الكذب. ولا صناعة المتباكين لاستعطاف الحسان وهن يقابلنهم بالأعراض لانهن وان عطفن مرة على المتذلل فلا ينقدن الاَّ الى الأبيّ. ولا صناعة من أذهلهم الترف فظنوا الحياة خبالاً خيالاً وما ظنوا ذلك لو عضهم الجوع عضة جامدة. ولا صناعة من اذا «ما خلا بأرض طلب الحرب وحدهُ والنزالا» فقام يفلّ الجيوش بقنابل الكلام وهو يحفر في الأرض ليختبىء.

بل كان صناعة رجال ونساء كالرجال يعظمون مفخرة ليقتدي بها. ويصفون مظلمة لينتبع اليها. ويضربون الباطل لينصروا حقيقة. ويدونون حكاية حال ليعول التاريخ عليها. ـ وأمامي قصيدة مصرية قديمة منذ بضعة آلاف من السنين تصف حال العمال في ذلك العهد القديم أصدق وصف ما رضي التاريخ المكذوب امس واليوم قط ان يقص رواية أصدق وأبسط منها. فأنا أعرضها على شعرائنا المطبوعين لعلهم ينظمونها لنا أو ينظمون ما هو نظيرها في عصرنا لأن حالتنا وان اصطلحت في بعض المجامع بعض الشيء فإنها تنضح بالمظالم. وعساهم اذا فعلوا ان لا يعرجوا في سبيلهم على قصور المدح واكواخ القدح لئر تغلبهم السليقة فيركبوا متن المغالاة ويطمسوا الحقيقة. بل ان يكون نظمهم من قبيل الشعر الوصفي التقريري البسيط فان البساطة حينئذ تكون أدنى الى البلاغة والفائدة من التعمية والتحشية بكثير. ولكني أخشى عليهم حينئذ أن تخونهم الالفاظ اذا دخلوا الى دكان الصانع او جالوا في حقل الزارع لان اللغة العربية ـ بفضل الجامدين ـ لم تنحت للأرضيات الاجتماعيات بل للأحلام والسماويات ولعلهم اذا سمعوا لفظة المعول او الطين في بيت تغلبهم «نكتة» العاجز فيقولون ما اشبه هذا الشعر «بالطين» ليقولوا انهُ ليس بشعر، كما لو وقع للكاتب المتقعر شباه لفظة «المليم» أو «الاتوموبيل» أعرض عنها وقال هذا ليس بعربي واستغنى عن الاسم ولو لم يستغن عن المسمى لئلا يشبهوا حينئذ ذاك الذي ادعى أنهُ ألم بلغة الفرنسيس وهو لا يدري الا القليل منها. فسألهُ أحد الظرفاء عن اسم علة وسماها لهُ بالعربية. ولم تكن من الالفاظ الشعرية ولا مما يرد في انشاء البلغاء ولكن العامة تفهمها جيداً. فقدح صاحبنا زناد فكرهِ ولم يشأ أن يقر بجهلهِ وأجاب: هذه العلة لا توجد عند الفرنسيس! عسان أن نعلم انا كنا في عصر ونحن اليوم الى عصر كانت وستكون فيهِ أشباه لفظة المعول والطمي أفضل من المرود والكحل وكائنا نحن اليوم في فترة بينهما.

أما القصيدة موضوع كل هذه الطنطنة فهي: «لم أرَ حداداً سفيراً ولا صهاراً في رسالة بل رأيت الصانع في المعدن منكباً على عملهِ امام حلق كورهِ وأصابعهُ خشنة كجلد التمساح ورائحتهُ نتنة كرائحة بيض السمك».

«الصانع الذي يشتغل بالمقص لا يتحرك قدر ما يتحرك العامل بالرفش: ولكن حقلة الخشب وعمله المعدن. فلبينا ذاك حر في الليل هذا يشتغل بيديهِ في الليل على ضوء السراج فوق شغله في النهار».

«النحات الذي ينحت الحجارة الصلبة متى كسب شيئاً وكلّت يداهُ استراح في آخر النهار ولكن اذا رأوهُ عند طلوع الشمس جالساً شدّوا ساقيهِ الى ظهرهِ».

الحلاق يشتغل من الصبح الى السماء ويأكل وهو راكض من حارة الى حارة يبحث عن عمل لهُ. فاذا كان نشيطاً أشبعت يداهُ بطنهُ فهو أشبه شيء بالنحلة التي تأكل على قدر جناها».

«أُحدثك عن البنّاء وما يقاسيه من العناء؟ هو معرض لكل الرياح. فبينا هو لا يجد على بدنه من الكساء سوى منطقة مشددة على وسطه وبينا طاقة اللوتس المعقلة النيلوفر المعلّقة على البيوت التي فرغ بناؤها بعيدة عنهُ يضني العمل ذراعيهِ. ومؤونته (اكلهُ) مبعثرة هنا وهناك مع سائر اقذارهِ. هو يأكل نفسهُ اذ ليس لهُ من الخبز الا خبز يديهِ حتى يهبط مرة واحدة. هو يضنى من شدة التعب لان امامهُ (على الدوام) صخراً يلزم ان ينقلهُ الى هذا البناء أو ذاك والصخر عشر أذرع في ست. فإذا فرغ من العمل فان بقي معهُ خبز رجع الى البيت حيث يجد أولاده قد شبعو من الضرب في غيابهِ».

«الحائك يقيم في البيت بحال هي شر من حال المرأة وهو منكب على ركبتيهِ وركبتاهُ في معدتهِ. لا يستطيع ان يتنفس. فإذا أبطأ الحياكة في النهار ربط كاللوتس [النيلوفر] في الحوض. ومنع عنهُ النور الا اذا أعطي حراس الأبواب خبزاً».

«الصباغ اصابعهُ نتنة ورائحتها كرائحة بيض السمك وعيناهُ مقفلتان من التعب ويدهُ لا تقف!! وهو يشتغل على الدوام بقص الخرق القديمة ولذلك ترى اثوابه بحالة تفشي النفس».

«الاسكافي حالتهُ سيئة جدّاً. هو يشكو على الدوام وصحتهُ كصحة السمك الذي يبيض وهو يأكل الجلد بأسنانهِ».

«الخباز يعجن ويخبز معاً وبينا رأسه في الفرن يمسكهُ ابنهُ برجليهِ فإذا أفلت منه سقط في النار». انتهى

شبلي الشميل

أما القصيدة موضوع كل هذه الطنطنة فهي: «لم أر حداداً سفيراً ولا صهاراً في رسالة بل رأيت الصانع في ا لمعدن مكباً على عمله أمام حلق كوره وأصابعه خشنة كجلد التمساح ورائحته نتنة كرائحة بيض السمك».

«الصانع الذي يشتغل بالمقص لا يتحرك قدر ما يتحرك العامل بالرفش. ولكن حقله الخشب وعمله المعدن. فبينا ذاك حر في الليل هذا يشتغل بيديه في الليل على ضوء السراج فوق شغله في النهار».

«النحات الذي ينحت الحجارة الصلبة متى كسب شيئاً وكلّت يداه استراح في آخر النهار ولكن رأوه عند طلوع الشمس جالساً شدوا ساقيه إلى ظهره».

«الحلاق يشتغل من الصبح إلى المساء ويأكل وهو راكض من حارة إلى حرة يبحث عن عمل له. فإذا كان نشيطاً اشبعت يداه بطنه فهو أشبه شي بالنحلة التي تأكل على قدر جناها».

أُأحدثك عن البناء وما يقاسيه من العناء؟ هو معرَّض لكل الرياح. فبينا هو لا يجد على بدنه من الكساء سوى منطقة مشدودة على وسطه وبينا طاقة النيلوفر المعلقة على البيوت التي فرغ بناؤها بعيدة عنه يضني العمل ذراعيه. ومؤونته (اكله) مبعثرة هنا وهناك مع سائر أقذاره. هو يأكل نفسه إذ ل يس لـه من الخبز إلاّ خبز يديه حتى يهبط مرة واحدة. يضنى من شدة التعب لأن أمامه (على الدوام) صخراً يلزم أن ينقله إلى هذا البناء أو ذاك والصخر عشر أذرع في ست. فإذا فرغ من العمل فإن بقي معه خبز رجع إلى البيت حيث يجد أولاده قد شبعوا من الضرب في غيابه».

«والحائك يقيم في البيت بحال هي شر من حال المرأة وهو مكب على ركبتيه وركبتاه في معدته. لا يستطيع أن يتنفس. فإذا أبطأ الحياكة في النهار ربط كالنيلوفر في الحوض ومنع عنه النور إلاّ إذا أُعطي حراس الأبواب خبزاً.

«الصباغ أصابعه نتنة ورائحتها كرائحة بيض السمك وعيناه مغمضتان من التعب ويده لا تقف. وهو يشتغل على الدوام بقص الخرق القديمة وكذلك ترى أثوابه بحالة تغثي النفس».

«الاسكافي حالته سيئة جداً. يشكو على الدوام وصحته كصحة السمك الذي يبيض وهو يأكل الجلد بأسنانه».

«الخباز يعجن ويخبز معاً وبينا رأسه في الفرن يمسكه ابنه برجليه فإذا أفلت منه سقط في النار». انتهى

شبلي الشميل

وشاءَت المقتطف إيراد القصيدة التالية مباشرة في أعقاب رسالة شميّل.

مساء السبت

في شوارع بورتلند أُرِغن

بقلم أحد العَمَلة

[المقتطف، ج ٤٣ (نوفمبر) ص ٤٨٩ - ٤٩٠].

حبالُ الشمس مُدَّت في الفضاء ... لا يقاعي باشكراك العناء
بسجن مظلم احيي نهارِي ... واقضي الليل في سجن الشقاءِ
أَلَا مَن يرفع الاغلال عنا ... ويعتقنا سوى رب العلاءِ
ومن يمحو ظلام الجهل يوماً ... عن العمَّال غير الاذكياءِ
(نقلنا الصخر عن فتن عوالٍ) ... على جسر المروءَة والأباءِ

* * *

دنا الأحد المبارك في رفاق ... مساءَ السبت وافوا باللقاءِ
فجلنا في المدينة وهي تزهو ... كلؤْلؤَةٍ بنور الكهرباءِ
فازرى حسنها بالافق لَّما ... تألّقت الشوارع بالضياءِ
وزينت القصور بكل نورٍ ... فاشرق بالسنا وجه السماءِ
واقبلت الغواني في مغانٍ ... تسير مع السراةِ الأغنياءِ
فيا لله ما احلى عقوداً ... على لبَّات ربَّات البهاءِ
قدود كالغصون مهفهفات ... تهادى بين عطف وانثناءِ

* * *

ارى هذي المناظر شائقات ... ولكن لا ارى فيها هنائي
ذروني انَّ عيني قد ارتني ... بها كفّاً تخضب بالدماءِ
هي الكف التي اجرت دماءً ... لتحيي ذا النضار على رخاءِ
دعونا نبتغي صرف الحميا ... فبين كؤُوسها سلوى البلاءِ

* * *

وميل عن السبيل بنا قليلاً ... فاشرفنا على روضٍ وماءٍ
وحانوتِ تعبُّ الراح فيهِ ... وتشدو الغيد فيهِ بالغناءِ
بكأس اذ اداروها اداروا ... بها رأسي كدولاب الهواءِ

* * *

افيقوا يا سكارى رُبَّ كأس ... تسوق المال منكم للفناء

بورتلند

ن. خ

فكرة الخير والشر

قال الشاعر العربي:

والظلم من شيم النفوس فان تجد ... ذا عفةٍ فلعلةٍ لا يظلمُ

وقال المقتطف: «كنا نراقب في هذه الاثناء ولدين صغيرين صبيّاً وبنتاً عمر الصبي نحو سنتين وعمر البنت نحو اربع سنوات فرأيناهما يكذبان ويخدعان ويحتالان. ولو رآهما علماء الفلسفة الادبية الذين يقولون ان اصول الآداب مودعة في نفس الانسان ولا تنفك عنها البتة لغيروا اعتقادهم».

وذهب فريق الى ضد ذلك فقالوا ان اصول الآداب مودعة في الانسان فهي في نفسه وعقله وان فكرة الخير عامة مطردة في البشر وهي لازمة ضرورية وغير ممكن ان تنفك عن القوى البتة. ومنهم صاحب حياتنا الادبية.

قرأت ذلك في المقتطف وتذكرت المثل: «النفس امارة بالسوء» وقلت في نفسي: لماذا هذا الاختلاف العظيم بين جمهور المفكرين فلا بد ان يكون هناك اسباب جعلت كلًّا من الفريقين يرى رأياً مضاداً للآخر. فما هي هذه الاسباب.

كل انسان علت مداركه او انحطت تراهُ اثنين في آن واحد يحدّث فيأمر بالمعروف ويعظ فيحث على الفضيلة ويكتب فينهى عن المنكر ثم يفعل فتجد افعاله في الغالب مناقضة لاقواله. ويشتدُّ هذا التناقض اكثر عند النظر الى هذا المعروف الذي يأمر به والمنكر الذي ينهى عنه بحسب الوجهة التي ينظر اليها منها. فلا بدَّ لذلك من سبب جوهري يغفله الباحثون في هذا الموضوع.

اكثر الباحثين في افعال البشر ينظرون اليها كأنها افعال مجردة وقلما ينظرون الى العلاقة التي بينها واذا نظروا اليها فمن اطرافها البعيدة وهي شديدة الاختلاط كثيرة التضاعيف كالحلقات المتسلسلة يحال العقل فيها ان لم يردها الى بسائطها.

افعال الانسان قائمة على مبدأ مشترك بين سائر الكائنات فناموس الالفة في الجماد وحب الذات في الانسان من مدار واحد وغايتهما واحدة اي حفظ كيان كل واحد منهما وافعالهما البسيطة اي المجردة عن كل روية واحدة ايضاً في دفع الاذى وجلب المنفعة وتسمى طبيعية في الجماد وبديهة في الحيوان والانسان وهي كائنة ايضاً في النبات ولا عبرة بالاسم وانما العبرة في ان كلًّا من العوالم الثلاثة من جماد ونبات وحيوان خاضع لنفس هذا الناموس في حفظ كيانه فاذا نظرنا الى هذه الافعال والغاية المترتبة عليها وهي حفظ الذات لا يسعنا الَّا ان نقول ان الغاية الاولى منها ليست الشربل الخير. وخير المحبة ما ابتدأ بالذات كما في المثل المعروف.

ولا ينكر ان هذه الافعال يترتب عليها حدوث الشر ايضاً فان الجماد الذي يفك ائتلاف سواهُ لخيره الذاتي انما يضرُّ بذاك السوى اذا اعتبرنا مثل هذا الحلّ إضراراً وكذلك النبات الذي

تنطبق اوراقه على الذباب الواقع عليه حتى يموت. والحيوان الذي يفتك بسواه لمصلحة نفسه. فان مثل هذا الفعل المترتب عليه الخير الذاتي لم يقع بدون إضرار. فان كان القصد من البحث في هذا الموضوع معرفة الفكرة الاولى المرتبة عليها هذه الافعال فلا يسعنا الاّ ان نقول انها الخير لان الشرّ حدث معها عرضاً ضرورة لتعذر وقوع ذلك الخير بدونه. واما اذا كان القصد الخير مجرداً والشر مجرداً فالبحث حينئذٍ يستنفد قوانا ولا يأتي بطائل لان الخير والشرّ مجرَّدين ليسا في هذا العالم.

وفي افعال الانسان تختلط الامور كثيراً جداً لاشتراك الروية فيها وتختلف ايضاً لاختلاف هذه الروية وما استفادته من الاختيار ولكنها لا تختلف في الغاية التي تصبو اليها وهي حفظ الذات حتى ولو انكر الانسان نفسه واتى افعالاً تخالف هذا المبدأ في الظاهر فلا ينكرها من جهة الاّ حباً بها من اخرى خوفاً من عقاب او طمعاً بثواب.

ومهما اختلفت الروية فمحورها واحد. هنا اثنان كلٌ منهما ينظر الى مصلحة نفسه فهذا تدله مداركه على ان مصلحته لا تتأتى له مع مصلحة فيستأثر بالمنفعة او ما يظنه كذلك ويتعمد الاضرار بسواه ويقدم عليه مطمئن الضمير معتقد انه يفعل خيراً كما في منازعات الاديان والاوطان مثلاً. وهذا يرى باختياره ان مصلحته لا تقوم الاّ بمصلحة سواه فلا يخطئها وهو عالم كما في مسائل العمران عموماً.

واما الاستشهاد بالطفلين وكذبهما واحتيالهما وخداعهما فليس بالدليل القاطع فالكذب ليس من طبيعة الطفل ولا من موجب له لديه فالطفل يصدق حتى يعلم ان صدقه قد يجني عليه فيعمد الى الكذب دفعاً للضرر. فالكذب عارضٌ على الطفل من جنس تربيتنا له. خذ طفلاً ارتكب ما نعده نحن ذنباً ولم يعرض له في نفسه ولا شاهد في سواه ما يحمله على التروي قبل الاقرار واسأله من عمل هذا؟ فلا شك انه يجيبك على الفور بقوله انا فاذا عاقبناه عليه كما هو الغالب افتستغرب بعد ذلك اذا لم يصدقك اذا اتى امراً غير جائز في عرفنا نحن لا في عرفه هو لان الطفل لا يعرف الجائز من غير الجائز في اول الامر ولا يعرفه الاّ منا وكيف يعرفه منا الاّ بالعقاب ولا يرى نجاته حينئذٍ الاّ بالكذب فيكذب ويكذب حتى في ذنب ارتكبه على مرأى منك وهذا ما حملني على القول في بعض مباحثي «نحن الذين علمنا الانسان ان يكذب لأنا عاقبناه على الصدق» وانا لا اظن ان هذه القاعدة تخلُّ اذا احسنا المراقبة جيداً وعلى فرض انها اخلت فلا يكون ذلك حجة على هذا المبدأ بل تأييد لناموس آخر هو ناموس الوراثة اذ لا يخفى ان الصفات الادبية حسنة كانت او ردية تنتقل بسهولة في النسل. ومن الجاني حينئذٍ على هؤلاء الاطفال الابرياء ألسنا نحن الذين نعاقبهم على ذنب تطرّق اليهم منا.

وياليت الامر اقتصر على ذلك بل نحن في كل اعمالنا امامهم مثال رديء وهم اطوع من ظلنا في تقليدنا واشد طواعية من السمع في انطباع افعالنا فيهم نكذب امامهم ونكذب عليهم ونعلمهم ان يكذبوا عنا ونروعهم ونمنيهم بكل ما يتبين لهم كذبه بعد قليل فماذا تنتظر من طفل ينشأ في مثل هذا الوسط. على ان الكذب على ما يظهر قد صار شراً لازماً في هيئتنا الاجتماعية

كما هي فهو عدة التاجر الماهر والسياسي المحنك والامام الهادي والقاضي العادل والمحامي الفاضل والطبيب النطامي والصحافي الصادق والوطني الغيور وقد حلق الشاعر فوقهم بقوله.

الصدق ان القاك تحت العطبِ   لا خير فيه فاعتصم بالكذبِ

الدكتور

شبلي شميل

[المقتطف] لما قرّظنا كتاب «حياتنا الادبية» في الجزء الماضي من المقتطف اشرنا استطراداً الى الرأيين الشائعين من آراء الفلاسفة الرأي القائل ان الآداب فطرية في نوع الانسان لم تنفك عنه من حين وجد على وجه البسيطة والرأي القائل انها مكتسبة بالارتقاء الطبيعي والطفل يولد الآن وفيه جراثيم اميال كثيرة بعضها مما يمدح وبعضها مما يذم كأنها خلاصة تاريخ ما جرى عليه نوع الانسان في ارتقائه. وقد جاءنا صديقنا الفاضل الدكتور شميل الآن بمسألة فرعية فقال ان الغاية الاولى المترتبة على افعال الانسان والحيوان والنبات هي حفظ الذات فهي ليست الشربل الخير ولو اعتدى على غيره. وتفصيل الدكتور حسن جداً ولكنه لا ينفي ما قدمنا كما يظهر مما يلي: ـ انظر الى ثلاثة من الاخوة معهم ثلاث من اخواتهنّ كل اخ مع اخته واعطِ كلاً من الاخوة رغيفاً من الخبز ليأكل نصفه ويعطي النصف الآخر لاخته فاذا رأيت الاول كل الرغيف كله ولم يعط اخته شيئاً منه وهي تبكي جائعة والثاني اكل نصف الرغيف واطعم اخته النصف الآخر والثالث حرم نفسه من الاكل وصبر على الجوع واعطى الرغيف كله لاخته فانك تقول للحال ان الاخ الاول جائر لانه فضّل نفسه على اخته ولو دعاه «حفظ الذات» الى ذلك والاخ الثاني عادل لانه لم يفضل نفسه على اخته ولا اثرها على نفسه والثالث فاضل لانه فضل اخته على نفسه. والظاهر ان خلق الولد الاول هو الخلق الشائع في النبات والحيوان فالنباتات والحيوانات تعنى بحفظ ذاتها ونسلها ولكنها قلما تهتم بحفظ غيرها ولو من نوعها. انظر حبة الحنطة تزرع في الارض فتمتص كل ما تستطيع امتصاصه من الغذاء ولو ماتت كل حبوب الحنطة التي تزرع حولها من قلّة الغذاء ولا يخطر لها ان المصلحة مشتركة بينها وبين اخواتها. وانظر الى اشبال الاسود في بستان الحيوانات والحارس يرمي لها اللحم فكلٌ منها يختطف كل ما يستطيع اختطافه وحالما يلتهمه يعتدي على اخيه ويحاول اختطاف ما معه ولا يخطر بباله ان حال الاثنين تكون اصلح اذا اكتفى كلٌ منهما بما قُسم له.

واذا كانت الموجودات الارضية صاعدة في سلم الارتقاء كما هو مذهب اكثر الحكماء الطبيعيين وكان العدل وتفضيل العمومية على المصلحة الخصوصية ارقى من الجور وتفضيل المصلحة الخصوصية على المصلحة العمومية واذا كانت الاخلاق والاميال تنتقل بالوراثة كما هو معلوم وتظهر آثار اقدمها اولاً ثم آثار ما تلاه في سلم الارتقاء صح ما قلناه عن الطفلين اللذين اشرنا اليهما في تقريظنا لذلك الكتاب وهو ان اخلاقهما تتهذب متى كبرا في السن اي تظهر فيهما الاخلاق الفاضلة التي اكتسبها اسلافهما بالاختبار. وهذا كله لا ينقض شيئاً مما قاله الدكتور الفاضل عن مسؤولية الوالدين وشرور الهيئة الاجتماعية الحاضرة ولكننا نرجو ان يبقى الارتقاء مستمراً فلا يمكث في الارض الاّ ما ينفع الناس.

«حياتنا الأدبية» [صالح بك حمدي حماد]

[المقتطف، باب التقريظ والانتقاد، يناير (١٩٠٨) ص ٨٣ ـ ٨٤].

هو فصول في الفلسفة الأدبية ألّفه حضرة السري الأديب صالح بك حمدي حماد وتابع فيه القائلين أن أصول الآداب مودعة في الانسان فهي في نفسه وعقله وان فكرة الخير عامة مطّردة في البشر وهي لازمة بالضرورة وغير ممكن أن تنفك عن النفوس البتة. ولا يخفى أن الباحثين في هذا الموضوع غير مجمعين على ذلك بل بعضهم يقول كما قال أبو الطيب:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلّة لا يظلمُ

أو كما قال بولس الرسول ان أردتُ أن أفعل الخير أرى الشر حاضراً عندي . كنا نراقب في هذه الأثناء ولدين صغيرين صبيّاً وبنتاً عمر الصبي نحو سنتين وعمر البنت نحو أربع سنوات فرأيناهما يكذبان ويخدعان ويحتالان ولو رآهما علماء الفلسفة الأدبية الذين يقولون إن أصول الآداب مودعة في نفس الانسان ولا تنفك عنها البتة لغيروا اعتقادهم ولكننا نرجح ان أخلاق هذين الطفلين تتهذّب متى كبرا في السن أي تظهر فيهما الأخلاق الفاضلة التي اكتسبها أسلافهما بالاختبار كما ظهرت فيهما الصفات الطبيعية التي ورثاها من أسلافهما.

وفصول الكتاب سبعة عشر ومن مواضيعها المسؤولية الأدبية والحرية الأدبية وواجبات الانسان نحو ذاته وواجبات الزوجين وواجبات القرابة والصداقة وآداب الرؤساء والمرؤوسين والعدالة والاحسان والوطن والهيئة الاجتماعية ووظيفة الحكومة وأدب الحقوق الدولية، الخ . وقد طبّق المؤلف كل فصل منها على حالتنا الاجتماعية فانتقد أو حث أو نصح حسب ما رآه لازماً. من ذلك انه صوَّب الانتظام في الجندية ولام المصريين لأنهم ينفرون منها مع أن جمهوراً من فلاسفة العصر وتولستوي الفيلسوف الروسي في مقدمتهم يقولون إن الجندية من أكبر الويلات على نوع الانسان ويغرون اتباعهم بالامتناع عن الخدمة العسكرية ويعيرون الحكومات لأنها تنفق أموال الأمة في سبيل تمرين رجالها على قتل غيرهم. قال المؤلف : «والذي يشاهد فرح الشبان المقترعين في البلدان الأوروبية وعائلاتهم عند الانخراط في سلك الجندية ليأسف على تلك الأحوال الشائنة المزرية التي تشاهد لدينا من مناحات العائلات وتكدر نفوس الشبان الذين يؤخذون لهذه الخدمة الوطنية الشريفة بل المدرسة التهذيبيَّة الجليلة» . وقد أصاب في أنه لا يليق بأحد أن ينوح ويندب على أخذ ابنه للعسكرية ولا يليق بشاب يؤخذ لهذه الخدمة ان يظهر الجبن والأسف الشديد. ولكن الحق يقال إننا لم نرَ الأوروبيين يسرون بأخذهم للعسكرية بل يسلمون بذلك كواجب لا بد لهم من قضائه فيذهبون إلى الخدمة العسكرية كما يذهب العامل في الصباح إلى المعمل حيث يتعب ويكدح لعياله. وبعضهم يفتدون أنفسهم بالبدل. والانكليز الذين الخدمة العسكرية عندهم غير اجبارية يحتالون على الشبان احتيالاً بالمشروبات والرشي حتى يكتبوا أسماءهم في الجندية وكثيرون من هؤلاء يندمون على ما فعلوا ولكنهم لا يعودون يستطيعون التخلص مما ارتبطوا به. ولا شبهة أن الجندية مكروهة بنوع عام وهي من الشرور التي لا بد من ازالتها حالما تكسر شوكة المنتفعين منها وتتعلّم الممالك أن تحكّم العدول في فصل خصوماتها كما يحكّم الناس القضاة في فصل خصوماتهم. وسيحتقرنا أبناء العصور التالية على تقريرنا نظام الجندية أكثر مما نحتقر الفراعنة الذين سخروا رعاياهم لبناء الاهرام.

والكتاب يقع في مئتي صفحة وهو كثير الفوائد فنثني على همة مؤلفه الفاضل.

المأساة الكبرى

١٩١٥

رواية تشخيصية في الحرب الحاضرة

(في خمسة فصول)

بقلم الدكتور شبلي شميل

مصر (مطبعة المحروسة) ١٩١٥

مقدمة

المأساة الكبرى

وضعت هذه الرواية* في الحرب الحاضرة وجعلتها على أسلوب الروايات التشخيصية لكي أجعل لأشخاصها في كلامهم وأفعالهم صوراً خاصة تدل عليهم وتنطق عنهم بلسانهم لتكون العبرة من ذلك في معرض الفكاهة أوقع في النفس.

وقسمت الكلام فيها قسمين: قسم حقيقي واقع وصفت فيه مقدمات الحرب والأعمال التي جرت فيها. وقسم تخيلي منتظر جعلته توطئة «للمحاكمة» المقصودة من كل هذه الرواية والتي تظل صحيحة مهما تكن النتيجة لمثيريها أو عليهم عسى أن تنجلي هذه الأمور الاجتماعية البسيطة للجمهور فيصون نفسه ومصالحه من عبث العابثين وينزه مداركه عن أن يكون كالآلة العمياء في أيدي السفاحين المخربين لقضاء أغراض لهم سافلة في غالب الأحيان. كما هي الحال في هذه الحروب الشنيعة التي تضحى الناس فيها بالملايين لأحلام ومطامع لا يجوز أن تصدر في هذا العصر خاصة إلاّ من مصدعين مجانين ولا يقبلها إلاّ المغفلون.

ولا غرو فجنون العظمة والغرور كلاهما جنون كما هو شأن امبراطور الالمان اليوم متعاظماً بعراقة محتده وبسطة ملكه وقوة أمته. وهذا أقل عيوب الأسر المالكة. وكما هو شأن أمته مغترة بما وصلت إليه من النجاح الباهر في العلم والصناعة والتجارة في هذا الوقت القصير. فأصابها من ذلك خمار كخمار محدثي شاربي الخمرة. وللمحدثين في كل شيء حتى في العلم خمار أيضاً فانقادت بحكم التربية المصنوعة إلى مطامع امبراطورها الجنونية وصبت الويلات على العالم غير

حاسبة للأضرار التي تلحق بها من ذلك حساباً كأنها فعلت كل ذلك عن غير روية أو عن روية غير ناضجة أو هي مختمرة اختماراً فاسداً. فأتت أعمالاً تحاسب عليها حتى الأمم الجاهلة ولا تليق بأمّة مثلها سمت سموها في العلم والحضارة. ولما فعلت ذلك لو أنها شاءت أن تدرك مبادىء علم الاجتماع الطبيعي كما ينبغي أن يكون.

فأنا توخيت من هذه الرواية أغراضاً أربعة:

(١) ان أصف وصفاً بسيكولوجيا (أخلاقياً) الأشخاص الذين ذكروا فيها ينطبق على أخلاقهم ومطامعهم وأحلامهم ومراميهم على ما فيها من الغرابة والحمق اليوم للتنفير منها.

(٢) ان أصف الوقائع بالاشارة إليها وصفاً تقريرياً في الجانب الحاصل منها. ويكاد يكون نتيجة لازمة في الباقي الغير الحاصل بناء على أنه في حالة الاجتماع الحاضرة لا يجوز أن تصح نتيجة أخرى مهما تقلبت أحوال الحرب ومهما طال أجلها.

(٣) ان أشير إلى بعض انتقادات في أمور اجتماعية كائنة لأنها كانت لا تهضمها معدة الاجتماع الراقي.

(٤) ان أبحث بحثاً سوسيولوجياً (اجتماعياً) في ما يجب أن تكون نسبة الأمم بعضها إلى بعض ولا سيما الراقية بناء على ما هي صائرة إليه طبقاً لمرامي العلم الطبيعي الصحيح المفهوم كما هو لا كما يؤوله أصحاب الغرض وأصحاب النظر القصير.

فإذا كنت لم أبلغ غاية الاجادة في الوضع كرواية تمثل على المراسح ـ فأنا لم أنظر فيها إلى ذلك بقدر ما نظرت إلى الغاية التي قصدتها منها وهي القضاء على ما في العقول من السخائم وتأييد مصلحة الاجتماع بمقاومة ما فيه من النظامات الفاسدة التي لا تتفق مطلقاً مع هذه المصلحة. ولا سيما في هذا العصر الذي ينبغي فيه على الأمم الراقية أن تكون متضامنة للبلوغ بالاجتماع إلى الغاية القصوى من العمران. فلقد نظرت إلى جسم الاجتماع كما ينظر الطبيب إلى الجسم الحي ليتعهد كما يتعهد هذا الجسم في صحته وفي مرضه بتوفير الأعضاء الصحيحة. ومداواة الأعضاء المريضة بما يصلحها ان أمكن وإلاّ فبالقطع أو البتر إذا كانت لا ترجى لئلا يمتد فسادها إلى المجموع لا أن تعكس الآية ويقوّض الصحيح النافع من الأمم ويوالي الفاسد الضار من الدول التي لا ترجى. وكل

عمل اجتماعي يخالف ذلك هو خرق وهمجية مهما يكن مقام صاحبه. هكذا يجب أن يكون طب الاجتماع لقوم يحرصون على صحة هذا الجسم ونمائه.

على أن هذه الحرب مهما تكن اليوم شنيعة فظيعة مدمرة مثكلة مثيرة للعداوات باعثة على التخاذل والتقاطع مفككة لأوصال الأمم فإن الاجتماع سيجني منها فوائد أدبية كبرى تفوق جداً الخسائر المادية اللاحقة به منها والتي ضررها يقتصر على المعاصرين المساكين إذ تكون له كالصرخة في أُذن الغاط المستبحر في نومه أو كالعصا على كفل الحمار البليد فتستفز الأمم للانتباه إلى حقوقها ومعرفة مقامها في الاجتماع فتهب لاصلاح نظاماتها وشرائعها وتضع حداً لمنازع أصحاب الامتيازات الموروثة أو الطامعين فيها من سواهم والذين هم قيد في رجل الاجتماع وغل في عنقه وسيف مسلول فوق رأسه وتنزلهم عن عروشهم المغتصبة إلى مستوى ترفع إليه الجمهور وتشتغل بما يحقق لها الفوز على الطبيعة ويذلل لها مصاعب الحياة القصيرة وتخلص الاجتماع ممن هم فيه بمنزلة (البقر) وما عددهم في كل أمة حتى اليوم بقليل وتسرع في الانتقال بهم إلى مقام البشر الحقيقيين سعياً وراء سيادة الكل لأجل مصلحة الكل وهي نتيجة لازمة ومن حسنات الطبيعة في تطورها مهما توالى عليها من التقلبات والنكبات والوقوف والتقهقر الوقتيين. فإن النتيجة وان أبطأت بذلك فإنما هي إلى الارتقاء أخيراً وما الثورات حتى الطائشة مثل التي نشهدها اليوم إلاّ مهماز في جنب الاجتماع الخامل للاسراع في السير لبلوغ هذه الغاية.

الفصل الخامس

«المحاكمة»

(وهي منظر واحد)

يؤلف مجلس من خمسة عشر محكّماً. سبعة عن اليمين وهم مندوبو انكلترا وفرنسا وروسيا وبلجيكا والسرب والجبل الأسود وإيطاليا.

وسبعة عن اليسار وهم مندوبو اميركا واليابان واسبانيا وسويسرا والصين ومندوب عن دول البلقان وآخر عن دول الشمال.

ويرأس هذا المجلس رئيس جمهورية «سان مارينو»

والمدعي هو الرأي العام

والمحامي هو شبح الدهور في سالف العصور

* * *

(المدعي لهيئة المجلس)

أيها القضاة المحترمون

لم يسبق للقضاء في ما مضى أن ينظر في قضية مثل القضية المعروضة عليكم اليوم ولا أن يستهدف لتبعة مثل التبعة الملقاة على عاتقكم منها. . .

(الرئيس للمدعي ممتعضاً)

شكراً لك. إنك قد علمتنا ما لم نكن نعلم

(المدعي مسترسلاً)

ولا عجب فإنكم لو قلبتم التاريخ منذ البدء لما وجدتم مثيلاً للجاني الماثل أمامكم ولا للجناية المنسوبة إليه. هذا الجاني المطلوب منكم أن تنصفوا الهيئة الاجتماعية منه عقاباً له وعبرة لسواه. . .

(الرئيس للمدعي قلقاً)

ألسنا نحن هنا لذلك؟ فمتى تفرغ من هذا. . . العجن؟

(المدعي مسترسلاً)

ولا أظن أنه يوجد في القانون نص للعقاب الذي يقتضيه مثل هذه الجناية وينبغي أن يعامل به مثل هذا الجاني فأعروني سمعكم لعلكم تجدون في هذا القانون الموضوع لصغار المجرمين أو في حكم العقل ما يجيز لكم التوسع في التطبيق. عسى أن يكون حكمكم الصائب سابقة يُهتدى بها لكبح جماح الظلام المعتدين. . .

(الرئيس ساخراً)

نحن في جمهوريتنا لا يقيدنا قانون لا يكون العقل فوقه ولا يلزمنا كل هذا الشرح لتوقيع العقاب.

(المدعي للرئيس مستاء)

أرى حضرة الرئيس يقاطعني كثيراً!

(القضاة للرئيس هامسين)

الرجاء أن لا تقاطعه كثيراً إلّا إذا خرج عن الموضوع. دعه يكمّل. هذا حق له. وهو من ملح الخطابة والكتابة للتأثير.

(الرئيس للقضاة مباسطاً)

يظهر أنكم تستملحون هذا. . . التزويق ولا ترونه خروجاً وأما نحن فلا نتأثر له أو نعتبره لباس الباطل. ولا نتأثر إلّا للحقائق البسيطة. وسأحاول أن أتعوّده مثلكم وأتدرع بالصبر.

(ينظر إلى لباسه البسيط ولباس بعضهم المزوق باسماً)

وأنتم مزوّقون أيضاً

(ويلتفت إلى المدعي جاداً)

سِرْ في حديثك على ما ترغب وكما تعودت. ولا عدت تخشى مني مقاطعة.

(المدعي يكمل)

وليس ذلك لأن جناية مجرمنا لا مثيل لها بفظائعها. فقد يكون في تاريخ المجرمين والسفاحين في الماضي ما لا يختلف عنها إلّا في الكمية لا الماهية. وفي السعة لا النوع. بل لاقترانها بمصاحبات لم تكن للناس في الماضي كان يجب أن تمنعها. وهي تجعلها شنيعة فظيعة جداً اليوم

فجانينا لا يُعذر كما لو ادعى الجهل وقد نال من العلم نصيباً غير قليل. وهو

لقدره العلم والفنون قدرها لم يكتف بمفاخر الملك. بل أراد أن يضيف إليها مفاخر العلم لغروره الزائد. فحاول أن يمتاز بهذه أيضاً حتى أنه عانى فن الرسم وحاول التأليف في الموسيقى على ما فيهما من العناء وما يحتاجان إليه من المواهب التي ليست له. وعوَّل في جناياته الفظيعة على الكيمياء ولم يحترقها كما فعل نابليون عن كيد وقد خبط فيها فوصفها انها (أي الكيمياء) مطبخ الطب وان الطب صناعة السفاحين تحقيراً لهما[1].

فهو غير جاهل حتى يلتمس له عذر يخفف من جرمه كما قد يلتمس لسفاحي العصور الماضية الذين كانون يحتقرون العلم ويأبون تعلم صناعة الكتابة لشدة احتقارهم لها. ويعتبرون صناعة «السيف» أي الطعن والضرب أشرف الصناعات التي يجب أن يمتاز بها الرجال العظام. فهم إذا كانوا قد شنعوا وفظّعوا ودمروا وقتّلوا، الخ. فإنما هم كانوا في أعمالهم على اتفاق تام مع أنفسهم.

وكانوا متفقين مع عصورهم أيضاً. فالناس في تلك الأزمنة البعيدة كانوا جاهلين مثل أوليائهم. فكانوا عبيداً لأسيادهم مختاريخ يملكونهم حتى على رقابهم كأنهم خراف في يدي الجزار ولا يرون في ذلك أقل اعتدا على حقوقهم ولا يشعرون منه بأقل غضاضة في نفوسهم.

وليس الأمر كذلك اليوم. فإن الأمم لكثرة انتشار العلم بينها وشدة أقبالها عليه قد ارتفعت بمستواها العقلي فصارت حياة الأفراد والمجموع ثمينة جداً في نظر الحاكم والمحكوم معاً. وصار الحاكم مقيداً بنظامات وقوانين لمصلحة الجمهور لا يجوز له تخطيها وصرفها لغرضه الخاص من دون أن يرتكب جناية يستحق أن يعاقب عليها.

وهنا تعرض لنا مسألة وإن بدت أنها خارجة عن الموضوع فإنها من المسائل الاجتماعية التي لا يجوز للانسان أن يمر بها غير مكترث. وتحملنا على تشديد اللوم على الهيئة الاجتماعية نفسها. كيف انها تصبر على أن يقوم فيها من يستبد بها ويتحكم فيها. بدعوى امتيازات اغتصبها من يوم لم يكن للأمم أقل كلمة في تدبير شؤونها. ثم صارت هذه الامتيازات له حقاً مشروعاً. وهذا منتهى العار على هذه الأمم اليوم. كأن العبودية طبع في الانسان وكأنه لم يخلق حراً. . .

---

(١) كان ذلك في المجمع العلمي في مصر أيام الحملة الفرنسية وكانت المناقشة في الكيمياء فأراد نابليون أن يشترك فيها وهو يجهلها اغتراراً منه بأن من كان في منصبه لا يجوز له أن يجهل شيئاً كمقلده امبراطورنا اليوم. وهو شأن كل الناجحين في جمع المال أو نيل الرتب ولو اختلاساً وزحفاً على البطن فيتوهمون أنهم علماء أيضاً. فما جال نابليون في المناقشة جولة حتى أخذ يتخبط. فبدت حينئذ ابتسامة معنوية من طبيب الحملة «ريجنت» فلحظ ذلك نابليون ومن شدة غيظه لم يجد له مخرجاً من هذا المركز الحرج سوى كلمته تلك. ولكن «ريجنت» لم يسكت له بل أجابه من فوره «كيف إذن تعرفون سعادتكم صناعة الغزاة الفاتحين؟»

(قلق وتململ من جانب أكثر القضاة)

(الرئيس للمدعي وكأنه لم يلحظ)

أحسنت. بالغ ما شئت في هذا المعنى. نحن في جمهوريتنا لا نعرف هذه الامتيازات ولا نجيز مثل هذه الحقوق. وأنا إذا كنت لا أستبد بقومي فليس ذلك عفة مني. بل لأن قومي لا يدعونني استبد بهم. وهم بذلك يحترمون أنفسهم ويحملون سواهم على أن يحترمهم.

(المدعي مسترسلاً)

فإن هذا النظام يسلب الانسان كل مزاياه ويرده إلى الحيوان ويُنمي فيه الأخلاق الوحشية في القوة. وكل أنواع التسفل في الضعف. ويفقده الشجاعة الأدبية. وإن اتفق وكان له حسنات فإن له نزعات لو ساءت مرة أفسدت كل الحسنات. وشاهدنا على ذلك مجرمنا اليوم. فإنه بعد أن أورد أُمته موارد النجاح - أو على الأقل لم يعترضها في ارتقائها - عاد فأودى بها في نزعة مطامع جنونية وأوشك أن يخرب العالم معها. فإذا كان هذا شأن هذا النظام أو البقية منه مع الأمم الحية فكيف به في الأمم الميتة كالأمة العثمانية وحكامها البغاة حلفاء طاغيتنا اليوم وأصدقاء أعدائه في الماضي.

قلت أصدقاء أعدائه. لأن هؤلاء إذا عدوا عليه ذلك ذنباً فهل هم كانوا أبرياء؟ . .

(أكثر القضاة يتطلعون إلى الرئيس كاحتجاج صامت)

(الرئيس للمدعي)

عرِّج عن هذا الآن وإن كان كلامك في محلّه.

(المدعي يمتثل)

وإنه لغريب جداً أن أمة كالأمة الالمانية حاصلة على قسط وافر من العلم تخضع خضوعاً أعمى لنظام امبراطورية كنظام امبراطوريتها عريق في الاثرة والاستبداد وأغرب من ذلك دعواها بأنها وهي في رق هذا الحكم ذات «كولتور» Kultur يجعل تربيتها أرقى من تربية سائر الأمم العريقة في الحضارة. ونحن مع اعترافنا بأنها بلغت شأواً بعيداً في العلم والصناعة ونالت امتيازات جمة على سواها. إلاّ إنه لا يجوز لنا أن نجهل أن هذا الكولتور الذي تفاخر به يجعلها عبدة لنظام حكومة يديرها فرد أو أفراد غير مسؤولين حقيقة. وقط ما كان العبد أرقى من الحر. وإذا كان في علمها وعملها شيء كثير من الاتقان فإنك قلما تجد فيها شيئاً من الابتكار. لأن العبد إذا كان أصبر

على العمل. فالابتكار من امتيازات الحر وحده. وإذا كنا نراها تتعمد الشر كثيراً لسواها وتستخدم علمها لهذه الغاية خلافاً للآخرين فلأن ذلك من أخلاق العبيد أيضاً.

ولولا أن تكون هذه الأخلاق غريزية في هذه الأمة لما مالأت امبراطورها على جنايته الكبرى مع ما هي عليه من العلم. ولأدركت حينئذٍ أن الأمم التي قامت لتذلها وسعت لتبيدها لكي تحل محلها إنما هي أعضاء نافعة في جسم العمران. بل لعرفت أن نجاحها هي نفسها لا يتم لها بدون التعاون معها. ولجعلت تنازعها معها تنازع مباراة لمصلحة هذا الجسم. ولما استأنست بحلفاء السوء الذين هم لصوص الاجتماع وكان ينبغي التحالف عليهم. ودعواها الطويلة العريضة ان مستواها أرقى من مستوى هذه الأمم ويخوّلها حق السيادة عليها دعوى تحتاج إلى دليل ومنشأُها غرور المحدثين وهو ابن عم الجهل المركّب أو عينه. وهي لو غلب عقلها هواها لعلمت ما يعلمه كل واحد. وهو أن المفاضلة بينها وبين الأمم المذكورة في العلم والصناعة هي حتى الآن في مصلحة هذه الأمم لا في مصلحتها.

فالالمان حقيقة هم تجار علم أكثر منهم علماء وهم مستثمرو اكتشافات سواهم أكثر منهم مبتكرين مخترعين. ونعني بسواهم اليوم الطليان والانكليز والفرنساويين خاصة حتى في أيام كبوتهم وهؤلاء ـ أي الفرنساويين ـ أنجبوا في قرنين من أبطال رجال العلم المبتكرين اثنين لو اجتمع الالمان أكداساً بعضهم فوق بعض لما بلغوا مأبض ركبتها. وهما لأمرك مكتشف نظام الأحياء الكبرى الطبيعي وأبو دروين الشهير. وباستور مكتشف الأحياء الدنيا وصاحب مذهب التعقيم والاختمار. والذي يعلم ما كان لهذا الاكتشاف من النفع العميم في الطب والزراعة والصناعة يستطيع وحده أن يقدر فضل الرجل. فالأمة التي تنجب مثل هذين البطلين اللذين لا يقاس بهما أبطال هل يجوز أن يقال إنها أمة يستغنى عنها ويجب سحقها؟ وهل يمكن سحق أمة هذا جوهرها مهما يبد عليها من التواني؟ ولقد أدرك الالمان اليوم على حسابهم أن السيد لا يصير عبداً للعبد وقد رأوا ما فعلت هذه الأمة المجيدة في هذا الوقت القصير حينما انصرفت إلى ما هم منصرفون له منذ نصف قرن. ولكنها أمة أنبل من أن تخدم العلم لتصرفه للشر نظيرهم فدعوى الالمان لأنفسهم على سواهم دعوى فاسدة تُستغرب منهم لولا أن الغرور يُعمي ويصم ويذهب بالعقل كل مذهب.

وتستغرب منهم لولا وجود أُناس فيهم كبرناردي* يعلمون أن تآخي البشر وتعاونهم لا يجوزان إلاّ في الأمة الواحدة. وإلاّ انقلبا إلى عداء والحرب حينئذٍ بفظائعها فضيلة من فضائل الاجتماع ـ ولا أعلم مبلغ الدراهم التي قبضها على هذا القول

الضليل خدمة لمقاصد امبراطوره الشنيعة والعلم عندهم لا ينفع إلاّ إذا تجمد مالاً ـ وعلى هذه القاعدة الفاسدة جرت أمته في هذه الحرب الفظيعة عن علم وقصد لا يصفح عنهما لا عن ضلال وجهل يستنكران ولكن قد يعذران. فدمرت وقتلت وسوّغت لنفسها كل شنيع وقبيح.

وإنه ليعجبني من قائل هذا القول قصر نظره مع طول دعواه لأنه يزعم أنه يسير على مبدأ العلم الطبيعي ولم يعتبر للعقل مزايا على الحيوان في التنازع ولم يدرك الغاية من هذا التنازع حتى في الطبيعة الغشيمة وهي التوازن في نظام هذا الكون وضم المتماثلات من الجزئي إلى الكلي لا العبث بهذا النظام.

ولو أنه كان أقصر نظراً ووقف في التنازع عند حد الفرد ـ وهو كل بنفسه ـ لا في أطراف الأمة لربما كان له من سوء فهمه في علمه عذر. ولكنه ـ وقد امتد بنظره إلى أطراف الأمة الواحدة وقرّر وجوب التعارف بين أفرادها حتى تضحية النفس في سبيل مصلحة الكل ـ لم يبق له عذر في عدم أطلاقه هذا المبدأ على كل المجتمع البشري ناظراً إليه نظر الفزيولوجي ومتصرفاً فيه تصرف الطبيب في الجسم الحي. فإذا كان أفراد البشر أعضاء في جسم الأمة فالأمم مجاميع أعضاء في جسم العمران. فإذا كانت الأعضاء ومجاميعها سليمة كان التنازع بينها تنازع مباراة وتواصل لمصلحة الكل. ولا يكون تنازع تقاطع مفككاً لأوصالها إلاّ إذا كانت فاسدة كلها أو بعضها.

فعلم منافع الأعضاء في الجسم الاجتماعي ينبغي أن يكون بنفس المقام الذي له في الجسم الحي. وطبّ الجسم الاجتماعي ينبغي أن يكون كطب الجسم الحي للذين يدّعون أنهم في تعاليمهم يهتدون بهدي العلوم الطبيعية. وكم هم كثار الذين يفترون على هذه العلوم بسوء فهمهم ولو أنهم برناردي وقومه من ذوي الأقدار. ولو اقتصر الأمر على هؤلاء وحدهم لهان ولكن علوّ مقامهم يدفع كثيرين وراءهم من المتظاهرين بالفهم فيتعلقون بزمكّاهم ويقولون قولهم ليقال إنهم يفهمون ولو أنهم. . . على أنفسهم.

فالجسم الحي لا يصحّ ويقوى إلاّ إذا سلمت أعضاؤه كلها وإلاّ تشوّه ويفضي ذلك به إلى الموت إذا كانت الأعضاء المألوفة جوهرية. كذلك الجسم الاجتماعي لا يصح ويقوى إلاّ إذا سلمت له أعضاؤه وتعاونت على انهاضه. وأعضاؤه هم الأمم. فإن لم تتعاون وقامت بعضها على بعض ضعفت هي وأضعفته معها وقط ما كانت الأمة الاجتماع كله. وهذا التنازع الهمجي بين الأمم هو السبب في تباطؤ ارتقاء العمران لتقهقره أجيالاً ووقوفه أجيالاً بسبب ذلك. وطب الاجتماع كطب الأحياء يداوي ما يداوي ويبتر الأعضاء الفاسدة إذا تعذر شفاؤها. ولا يجوز كما يذهب

برناردي ومشايعوه بتر الأعضاء السليمة النافعة ومحاولة تهشيمها وهم يدَّعون خدمة العمران بذلك كما هي الحال في هذه الحرب. وأنكى من ذلك مشايعة الدول التي لا ترجى والتي بقاؤها في جسم العمران كبقاء الأعضاء الفاسدة في الجسم الحي والتي ينبغي بترها صيانة له. بل كان يجب بترها منذ زمان طويل لولا أن الدول ذات الكلمة الراجحة كانت يومئذٍ جميعها ذلك الرجل...

(بعض القضاة يمتعضون)

ويا ليت الأمة الالمانية اقتصرت من العلم على الغاية الكبرى منه وهي خير المجتمع كما قصد جنّر الانكليزي وباستور الفرنساوي وماركوني الطلياني. واستثمرته مالاً ما شاءت كما فعل كوخها وأهرليخها وزاحمت العالم بذلك ما استطاعت حتى بذّته. لكان لها من كل ذلك عمل مشكور وفضل مأثور. ولكوفئت عليه بسبقها إلى ما تصبو إليه في هذا السباق المشروع بين الأمم الحية. ولكنها لم ترض بهذا. بل صَرَفَت العلم عن هذه الغاية الشريفة إلى أقبح أوجه استعماله واستعملته للتقتيل والتدمير والقرصنة والرجوع بالعالم إلى عصور التوحش بقيام الأمم السليمة بعضها على بعض وتعمد الشر بعضها لبعض. حتى قلبت الغاية منها إلى ضدها. وحتى صار الناس يحمدون عليه الجهل. وما كان الجهل قبل ذلك قط محموداً.

* * *

وليس الملام على الأمة الالمانية المتضامنة مع حكومتها في السراء والضراء مهما أساءت فهم مصلحتها بقدر الملام على مجموع الهيئة الاجتماعية التي يجب عليها أن تكون هي نفسها متضامنة لدفع الشر عنها وتوفير المصلحة لها عموماً. وهذا انحطاط في هذه الأمم وحكوماتها يُخجل منه اليوم. فعوضاً من أن تهب جميعها هبة واحدة لنصر المجتمع والقبض على الجاني تركته يسرح ويمرح ويعيث في الأرض فساداً وادَّعت الحياد كأن لأناقة لها في ذلك ولا جمل. وزعمت أنها تستفيد من ممالأته فشرعت تنصره في السر وهي تدعي العزلة في الجهر. وهو لو أتيح له النصر لما كان حظها منه إلّا الاذلال.

وكيف يكون غير ذلك وحظ حلفائه منه ليس أفضل. انظروا إلى حليفتيه العظيمتين النمسا وتركيا كيف أنه قبض عليهما بيد من حديد واستخدمهما لمصلحته دون مراعاة أقل مصلحة لهما. حتى لو أرادتا الانفصال اليوم عنه لما استطاعتا كأنهما جزء من مملكته أو مستعمرة من مستعمراته. بل انظروا إلى معاملة جنوده لجنودهما فكأن هؤلاء درع لأولئك يضعونهم في مقدمتهم ويستقبلون بهم المهالك. وما كان

جزاؤها لو تم له الانتصار إلّا الاستلحاق - لا للضم والشم - بل للاستثمار والاستعباد وخاصة تركيا. وهذا أقل ما كان ينويه لهما من الغنم. وكان ينوي أن يكون عليهما كل الغرم في الانكسار لو بقي له بعض الحول. وغريب جداً أن ترضى أمة بمثل هذا المقام لولا الجهل وسهولة ابتياع ذمم الحكام الطغام

نعم أن الذنب الأكبر في وجود مثل هذا الجاني إنما هو على المجتمع الذي حتى الساعة لا يفهم مصلحته الكبرى من انضمام الأمم فيه كأنها أعضاء من جسمه للتعاون على العمار لا القيام بعضها على بعض للفساد والدمار. ولو كان يفهم لأطفأ منذ زمان جذوة النار التي أوقدت هذه الحرب ولم يذرَّ عليها الرماد كلما أوشكت أن تفنى[1] ولكانت له اليوم أمة عظيمة نافعة أو أمم يفتخر بها عوضاً من استمرار هذه المجازر الدائمة التي أقلقت الزبانية في جهنم والملائكة في السماء وعوضاً من هذا التذبذب الشنيع من هذه الدويلات الطامحة إلى الاستقلال والراسفة في الاغلال تتخبط في الحال والمصير. ولكان له أراضٍ واسعة تدر الخير عليه وعلى أهلها عوضاً من هذه الصحاري القاحلة التي تأوي إليها وحوش الحيوان وتعيث فيها فساداً لصوص الانسان. فمَن من الدول الراقية لا يحس اليوم بثقل ما كان يرتاح إليه في الماضي. بل من منها يستطيع أن يقف أمام محكمة العقل العليا ويقول إنه كان فاهماً جيداً حقيقة التعاون وسعى لمصلحته من وراء مصلحة المجتمع. «وما هذا الوحل الذي يتخبط العالم فيه اليوم إلّا من ذلك المطر».

وإذا كنت أُشدد اللوم على الهيئة الاجتماعية عامة والأمة الالمانية خاصة فليس ذلك لأني أريد تخفيف العقاب عن المجرم الأصيل. فالهيئة الاجتماعية قد يلتمس لها عذر الغفلة وقد عوقبت عليها شر عقاب. والغفلة من جهة لا تشفع بجريمة التعمد من الجهة الأخرى. بل تجعلها أشد قبحاً إذ لا شيء أقبح من اغتيال الأمن المطمئن والغدر به حتى أن البشر في عصور توحشهم كانوا يأنفون أن يأخذوا عدوهم على غرة ويفتخرون بأن ينذروه لينازلوه نزال الرجال للرجال والأبطال للأبطال. لا كما فعل هذا المجرم العاتي مع البلجيك خاصة وقد شن عليها غارة أقل ما يقال فيها إنها حرب الجبناء أو حرب الأفاعي الخبيثة التي يترفع عنها إباء الأسود الضراغم. والقوة تحتقر وتهان إذا لم تقترن بالنبل والشهامة وحماية الضعيف. ولا سيما إذا كان الضعيف نظيفاً صحيحاً. نظيفاً في عقله. نظيفاً في أعماله. وكان خصمه القوي على ضد ذلك نتناً في أفكاره قذراً في مطامعه معتلاً في بنيانه كمجرم اليوم.

(1) إشارة إلى المسألة الشرقية وحزب البلقان الأخيرة.

والأمة الالمانية جزء منه فهي شريكته في جريمته ولا تخفف شيئاً من عقوبته. فإذا كانت هي يده الأثيمة فهو رأسها الشرير فإذا قطعنا يد السارق فهل أتينا على ما في «معمل» رأسه من الأفكار الشيطانية والمطامع الجهنمية؟ وإذا كانوا قد قالوا إن الوظيفة تولد العضو. فالوظيفة هنا في الرأس لا في اليد أو هما كالأسباب المعدة والمتممة كما في الطب. والحقيقة إنهما شريكان متضامنان كما في العلوم الاجتماعية فكما أنهما ينويان الاشتراك في الغنم يجب أن يكونا شريكين في الغرم.

على أن الأمة الالمانية نالت حتى الآن شيئاً غير قليل من هذا العقاب. إذ قتل أبناؤها ورُمّلت نساؤها ويتم أطفالها. وبارت تجارتها وسلخت منها مستعمراتها وأضاعت في هذا الزمن القصير ما أحرزته من النجاح الباهر بعد تعب أكثر من نصف قرن. نالت جزاءها هذا بالشرائع الطبيعية التي لا تغفل ذنباً بلا عقاب لا بالشرائع الوضعية الاجتماعية التي كثيراً ما تغفل عن ذلك ولعل هذه الشرائع تعرف اليوم كيف يجب أن تعاقب الأمم المسؤولة إذا أهملت واجباتها وطمحت إلى سلب حقوق سواها قوة واقتداراً ولا تكتفي بالعقاب الطبيعي وحده الذي يذهب غالباً بدون أن ينتبه إليه وبدون أن يكون له الأثر النافع في الاجتماع. بخلاف العقاب الاجتماعي فإن به وحده العبرة غالباً. والعبرة هنا لازمة لتنبيه الغافلين وكبح جماح أصحاب المطامع الغير الموزونة.

* * *

ولكن المجرم الأكبر الذي هو سبب كل هذه المصائب ماذا يؤثر فيه كل ذلك؟ فإنه لا يؤثر فيه شيئاً ولا سيما إذا عرفنا أطواره وأمياله وهيامه. فهو مفتون بحب الشهرة أكثر من تمسكه بالسلطة وإن كان في هذه يفوق كل نظير. فهو لو وضع على خازوق لما شكا بقدر ما يسر من أن ذلك يلفت النظر إليه. وهو بهذا المركز الذي هو فيه أمامكم اليوم مفعم قلبه حبوراً بأنه شغل العالم به وبأن التاريخ سيتكلم عنه طويلاً حتى لا يدع لأحد من كبار السفاحين ذكراً بجنب ذكره. وقد فاته أن يكون واحداً من عظام الرجال المصلحين. فالشهرة هي غايته الوحيدة مهما يكن السبيل إليها. والشهرة الفائقة في الشر أسهل جداً منها في الخير والأنكى أنها تستهوي «بقر» الاجتماع كثيراً فيعظمون صاحبها ويحترمون فاعل الخير أقل جداً مما يعجبون ببأس الشرير لأن أكثر الناس حتى اليوم عبيد يدينون للخوف أكثر مما ينقادون للمعروف. ولم يخف ذلك على مجرمنا ولأجله أمعن في التفظيع والتدمير للارهاب.

ولكن فاته أن جانباً عظيماً من البشر مع ذلك مفتونون بالحرية ولا سيما الذين قصد اذلالهم وهم أرقى منه جداً في جوهرهم فوقفوا في وجهه سداً لا يقطع وأفسدوا

عليه كل حسابه وأوصلوه إلى الحالة التي هو فيها اليوم مقهوراً في مطامعه مرذولاً من المجتمعات الراقية محكوماً عليه بما هو شر من الاعدام لقوم يعقلون ويشعرون. ففظائعه الشنيعة التي توسل بها للوصول إلى غرضه القبيح كانت شر اعدائه.

وفظائعه تعدُّ ولا تعد. وأي شيء أفظع من تحويل العالم كله إلى ميدان حرب. فكيف سرت اليوم لا تجد سوى جنود تحشد وعدد تعد ومهمات تنقل وخيول كسرب القطا تقرع بحوافرها الأرض. وتثير شر الحماسة في النفوس بعامل البغض. وسوى سيوف تلمع. ومدافع تصدع. ولا تسمع بسوى معارك تتطاحن فيها ملايين الرجال. كأنهم وحوش الأدغال. وفيها تتساقط القتلى بالألوف ومئاتها حتى غصت بهم المقابر وأتخمت النسور وحتى استأنست الوحوش في فلواتها من كثرة شبعها. وبينها أنين الجرحى المهشمي الأعضاء المقطَّعي الآمال يفتت الأكباد لمن لهم أكباد. ويحرق الفؤاد لمن له فؤاد. وعليها تتناثر دموع الثكالى والأيتام من آماق مقرّحة فوق أشباح تجلببت بالسواد. كأن العالم كله في مأتم وكأن الناس جميعهم في حداد. هذا عدا عن الفظائع التي ارتكبت في الناس الآمنين من نساء وعجائز وأطفال اعتداء وصلفاً. كأن الحرب والأذى غاية الانسان من هذا الوجود المنكود. ومن سبب كل ذلك غير هذا العاتي الشرير وشهواته القبيحة؟

بل أي شيء أفظع من تحويل العلم عن غاياته الجميلة النبيلة التي يقصد منها تخفيف المشاق عن البشر في حياتهم التعبة القصيرة إلى أقبح أوجه استعماله؟ فصار آلة للدمار بعد أن كان يرجى للعمار. ومن الذي حول العلم إلى هذا الغرض الشنيع غير هذا الظالم الغاشم؟

والغريب أنه وجد بين علمائه الأعلام أُناساً خربي الذمم شنيعي المقاصد دنسوا اسم العلم وسلحوه بالغازات الخانقة والنيران الحارقة يقذفونها على الناس والمدائن ليمعن في التقتيل والتدمير وهو بحمقه يطلب النصر من ورائها وإخضاع الأمم له. وما هي من عوامل النصر في شيء بل هي من عوامل الانتقام الكامن في نفوس اللئام. بل أي نصر يرتجى من ضرب المدن الغير المحاربة والفتك بناسها الآمنين بطياراته؟ وتغريق السفن التجارية بغواصاته وفيها من الناس العزل من السلاح الساعين في مناكبها من رجال ونساء وأطفال من لا يرضى لهم أذىً أي جبار ذي نفس أبية. ولكن ماذا يعمل العلم «إذا كان الطباع طباع سوء». بل ما ذنب الآثار التي وجّه إليها مدافعه الضخمة ودمرها تدميراً وهي فخر الاجتماع على مدى العصور؟ وما دمرها إلاّ لأنها آثار سواه وهو لا يفتخر إلاّ بآثار همجيته. والمضحك المبكي منه اعتذاره لتبرئة نفسه ـ كأن به بقية حياء ـ «إن هذه الآثار كانت ثكنات للجنود وقلاعاً للمدافع». فهل جُنّت الأمم حتى تعرّض آثارها للتدمير؟ وهي لعمري منه اعتذارات وحجج

تأنفها صبيان الاجتماع. فكيفما قلبتم أعمال هذا الرجل فإنكم لا تجدون عقاباً له يفي بفظائعها. وعندي أن أعظم عقاب له على جنايته هذه الكبرى لا القتل ولا النشر ولا التعذيب بكل أنواع عذابات ديوان التفتيش بل بمقاومته بما كان يصبو إليه. وهو السيادة والشهرة ولا سيما هذه الأخيرة لأنه يصبو إلى أن يقرع فيها كل من تقدمه. فيحذف اسمه واسم بيته من التاريخ ولو بشناعاتهم ـ لاحظوا عليه امتعاضه عند سماعه ذلك ـ ثم يترك طريداً شريداً فيجهله كل انسان. أما أمته فعقابها أن يذكر التاريخ لها كل هذه الفظائع بدون أدنى إشارة إلى من ملكها من هذا البيت. وان تجزأ ممالك صغيرة ليأمن العالم شرها وتنقطع هي نفسها لاستثمار مواهبها النافعة عساه إذا تفرغت لها أن تنفع المجتمع نفعاً كبيراً.

هذا ما يشكو الاجتماع منه وما يرتأيه في هذا المجرم الكبير وأمته عرضناه على حضراتكم أيها السادة الكرام ورأيكم الموفق فوق كل رأي.

(الرئيس)

هل للمتهم دفع؟

(المحامي عن الجاني)

أيها القضاة المحترمون

لا أريد أن أجول مع حضرة المدعي في المخارج التي عرّج عليها ـ وعرج فيها ـ لئلا أطيل الكلام على حضراتكم على غير طائل. وكل ما جاء به الخصم ليس إلاّ خلابة لسان التأييد أمور ما أنزل الله بها من سلطان ولا تركب على عقل انسان. وأنا على تمام اليقين بأنكم تنظرون إليها نظيري. فقد عشت الدهور وشهدت آتيلا وتيمورلنك وجنكيز خان حتى عبدالحميد ولم أسمع أن أحداً شكى منهم مثل هذه الشكوى ولا طلب من التاريخ أن يعاملهم هذه المعاملة الشنيعة الفظيعة. ولو فعل لما جاز له أن يخص سواهم من الفاتحين بالذكرى المقرونة بالاعجاب وكلهم متشابهون سفاحون طماعون طلاب سيادة وحبّابو شهرة إلاّ عبدالحميد فإن الدافع له لم يكن حب الشهرة بل هوَساً للذود عن نفسه خوفاً عليها لما كان بها من الهواجس. فأنا ـ وقد قُسم لموكلي أن لا يكون ظافراً إلى النهاية والمغلوب مغلوب في كل شيء ـ أطلب إليكم أن تعاملوه كما عومل سواه قبله بالعزل والابعاد حتى التكبيل والتنكيل إذا كنتم معتقدين أنه الجاني المسؤول وحده ولم يكن في السوابق أو المصاحبات ما يشفع له بتخفيف الجرم كما أنا متيقن وإذا كنت لا أبسطها لديكم فلأن زميلي قد أشار إليها ضمناً فما رأيتكم مستعدين لسماعها أو قبولها. عاملوه معاملة المغلوب في كل شيء

فقط لا تلحقوا به هذه الإهانة التي لم يعامل بها أحد من زملائه السالفين مع أنه يعلو عليهم علواً كبيراً. وقد اعتبرهم التاريخ من الرجال العظام وخلد ذكرهم إلى الأبد. على أن هذا الحكم الغريب المطلوب من حضراتكم أن تنطقوا به ليس له نص في القانون ولا سابقة في العرف فهل تريدون أن تأتوا فيهما ببدعة اليوم وتقولوا إنكم حكمتم بالعدل وضمائركم مطمئنة. فأنا لا أطلب إلاّ العدل والعدل أساس الملك وأنا لا أخشى عليه وأنتم هنا اليوم نصراؤه.

(الرئيس)

لقد اكتفت المحكمة.

(يختلي القضاة للمداولة ثم يرجعون وينطق الرئيس بالحكم الآتي:)

حيث أن هذه الحرب التي أثارها المدعى عليه عن سوء نية. هي حرب تهوُّر ليس فيها شيء من التعقل لأن ضررها لاحق به كما هو لاحق بسواه وأشد.

وحيث أنه كان ينوي بها إرغام الآخرين له ليفتخر بأنه أذلهم ولو أنهم من أهم أركان المجتمع وليخلو الجو له وحده ولو أدى به الأمر إلى تقويض العمران. فهي إذن حرب اعتداء على المجتمع نفسه لا حرب دفاع عن النفس لمصلحة العمران.

وحيث أنه كان ينويها منذ زمان طويل كما تدل استعداداته الهائلة لها من دون أدنى موجب غير مطامعه الجائرة التي لا تتفق مع مصلحة عامة أو خاصة. ومن دون مراعاة لزمان أو مكان.

وحيث أن الأعمال الفظيعة وسائر الموبقات التي ارتكبها أو أوعز بارتكابها في هذه الحرب والتي لا يجوز أن يقدم عليها في هذا العصر حتى ولا أجهل الناس وأعرقهم في التوحش تدل دلالة واضحة على أن به شذوذاً يحمله على حب الاضرار بالغير.

«وحيث أنه ثابت من تقارير الأطباء عنه أن به عدم توازن ـ إلى الشر ـ في القوى المحركة والمستولية عليه هو سبب هذا الشذوذ فيه وذلك يجعله في القانون غير مسؤول.»

وحيث أن المسؤولية الحقيقة في مثل هذه الحال يجب أن تقع على المجتمع نفسه الذي تسمح نظاماته بأن تتأصل فيه مثل هذه البذور الفاسدة. وعلى أمته خاصة التي جارته على أهوائه ونصرته فيها غير ناظرة إلى حقيقتها ونسبتها هي نفسها إلى المجتمع ونسبة المجتمع إليها.

فلأجل ذلك كله حكمت المحكمة العليا حكماً حضورياً نهائياً لا يقبل استئنافاً ولا نقضاً بأن يعامل المجرم معاملة أمثاله ويوضع في «عزلة» تحت مراقبة أطباء دوليين. وتحرم عيلته من جميع امتيازاتها التي تخولها حق الحكم وتنزع منه ومن أسرته مالهم من أملاك وأموال وحصص تجارية وصناعية وتنفق أثمانها على منكوبي البلجيك وتنقل الأثريات في قصوره إلى مدينة لوفين بدل ما أتلفه فيها وتلزم أمته وحدها بالتعويض على الآخرين.

وأما المجتمع فيكفيه ما ألمَّ به من المصائب التي لا تعوض عقاباً له على غفلته.

وعلى الدول تنفيذ هذا الحكم.

الامضاء

في مدينة ... يوم ... شهر ... سنة ...

انتهت الرواية

قد يستغرب القارىء وقد انهيتها بهذه الصورة مع أن الالمان حتى الآن في انتصار ولكن من يتدبر الأمور بعين الناقد البصير يعلم ان الالمان من بعد فشلهم في حملتهم على باريس لم يعد يرجى لهم تحقيق حلم. وما انتصاراتهم الجزئية اليوم إلا تطويل لأجل الحرب. ولذلك هم اليوم يتخبطون ويبذلون آخر ما عندهم من الجهد عسى أن يحرزوا من النصر ما يحمل الآخرين جميعاً أو فرادى لعقد صلح لا يغبنون فيه ولا يثلم مقام امبراطورهم لدى أمته التي جر عليها كل هذه المصائب على غير جدوى أو بخسائر لا تعوض. لأنه يستحيل اليوم أن يرجع العالم ويثق بهم ويخلص لهم ويفتح أبوابه لمتاجرهم ويحسن الظن بعلمهم وعلمائهم كما كان في الماضي. فهم في هذه الحرب خاسرون كل شيء: المقام الأدبي والمركز الاقتصادي التجاري وكلاهما كانا في الأوج لا عن غير استحقاق ولكنهم كانوا مع ذلك وهم بهذا المقام والمركز قد تمكنوا من استهواء العالم حتى صار ينظر إلى كل ما يصدر عنهم بعيون مكبرة ويسلم بكل ما يقولون من غير تمحيص كثير ولو في كذبهم على العلم كما فعل كبيرهم «هكل» في تقرير ما كان في غنى عن تقريره لأنه سواء كان حقيقة أو فرضاً مزعوماً لأنه ارتأى انه ينبغي أن يكون. فالعلم الطبيعي في غنى عن ذلك إذ صحته وعدمها لم يكونا ليتوقفا عليه.

وانتصار الالمان على الروس اليوم وحفظ مراكزهم في الأماكن التي احتلوها في الغرب لا يستغربان لمن يعلم انهم منذ أكثر من نصف قرن ولا سيما في عهد امبراطورهم الحالي هم يستعدون لهذه الحرب ويعدون لها العدة. بخلاف خصومهم فقد ثبت أنهم من قلة حذرهم منها وفراغهم من العدة لم يكونوا ينوونها ولا كانوا يتوقعونها وهذا ما يدحض دعوى الالمان وامبراطورهم بأنهم هم المفترى عليهم وأنهم قسروا على الحرب قسراً لا أنهم توسلوا إليها بخلق الأسباب فإذا كان الالمان حتى الآن أقوياء أشداء فذلك طبيعي وهم ما خاضوا غمار هذه الحرب إلّا وكانوا على أتم الأهبة لها. لكن إذا كان الالمان وهم في منتهى قوتهم لم يتمكنوا من تحقيق حلمهم وخصومهم في غفلة وغير مستعدين. فهل يرجى ذلك لهم بعد سنة وهم في تناقص وخصومهم في تزايد؟ هذا أمر لا يقبله العقل. ولا سيما إذا رأينا ما تؤول إليه حالهم بحصر البحار عنهم. فإذا كان المدخر عندهم حتى الساعة لم ينفد فهو لا يعوض أو يعوض بعضه عن طريق الدول المحايدة بالاسم والمتاجرة بالفعل. فكلما طالت الحرب وزاد التضييق عليهم أشتد الضيق بهم حتى تفرغ جعبتهم وتفنى سهامهم فيهوون إلى الأرض. فالحرب هنا حرب تفان والأقدر على المصابرة أقدر على المجالدة والفوز أخيراً له.

والفضل في هذه المقاومة هو لجيوش الحلفاء في البر ولو لم ينالوا منهم حتى الساعة منالاً سوى وقوفهم في وجههم حتى تفنى ذخائرهم وتهلل صفوفهم من كثرة النقص فيها. وانتصاراتهم على الروس اليوم التي طلبوا فيها وزمروا وزينوا وعيدوا ليست إلّا مجزرة تساعد الحلفاء في ما يرمون إليه ولا سيما أن الروس في انسحابهم لا يعدون منكسرين حقيقة ما دامت قواهم سالمة لهم. وتوغل الالمان في أرضهم قد يعيد عليهم التاريخ وينزل بهم ما نزل بجيوش نابليون في حملته تلك الجنونية التي كانت سبب فشله بعد كل ذلك العز. ووقوفهم حيث هم الآن لا يرجى منه أن يلين شكيمة خصمهم. ولا بد لهم من أن يدعموا مراكزهم هناك بكل القوى التي وطدوه بها. وإلّا ارتد الروس وكانت الحرب بينهما رقصاً افرنجياً تقدماً وانسحاباً. وأخذاً ورداً كالرقصة المعروفة وتكون النتيجة افناء الذخيرة وإفناء الرجال والروس في هؤلاء أغزر مورداً. أما مركزهم في الميدان الغربي فهو اليوم مجالدة مكابرة للتدمير والتخريب وصد الفرنساويين عنهم لا للزحف عليهم لأنه قد تبين أن الفرنساويين هم اليوم أكفاء لهم وفوق الأكفاء.

على أن الفضل الأكبر بل منتهى الفضل في احباط حلم الالمان والقضاء عليهم إنما هو للانكليز الذين غلّوا أيديهم عن كل حركة في البحار وقيدوا اسطولهم في مكمنه كأنه لم يكن. وقضوا على مراكبهم التجارية وفصلوهم عن مستعمراتهم وسلبوهم إياها. ولولا الانكليز لكان الالمان اليوم في فوز باهر لأن حركات اسطولهم كانت قد

ساعدتهم كثيراً ولا سيما في الاعتداء على الموانىء الفرنساوية وتعرضها في نقلها لجيوشهم من مستعمراتهم. ولذلك ترى الحلفاء اليوم مطمئنين إلى نتيجة الحرب ولا سيما انكلترا لأنه مهما يكن من مجالدة الالمان فإن مصيرهم إنما هو إلى الفشل المؤكد بمصابرة الحلفاء في البر ومقاومة الانكليز لهم في البحر ولو اضطر هؤلاء لأن يسلكوا معهم مسلكهم مع نابليون وهم سالكون معهم هذا المسلك بعينه حتى ينهكوا قواهم ويقضوا على كل مطامع غليوم ولو طال المطال - ما دام المال متوفراً وقد زادت موارده عليهم. وما دام الوقت حليفهم لاعتمادهم على عزلتهم في جزيرتهم وقوتهم في البحر.

ولهذا كله نرجع ونكرر القول إن انتصارات الالمان اليوم ليست إلّا تطويلاً لأمد الحرب وأن مصيرهم في الآخر إلى الفشل التام. ولكننا نقول أيضاً بملء الأسف ان الحرب لا تزال طويلة لأن المانيا لا يبلغ بها الوهن حده في زمن قصير. ولكن في وسع الحلفاء الصبر إلى المنتهى. ولا أمل بالصلح قبل ذلك إلّا إذا ثارت الأمة الالمانية على حكومتها ومن الأسف أن هذا بعيد عن أخلاق القوم.

كتب في مصر في ١٥ اغسطوس سنة ١٩١٥

الدكتور شبلي شميل

وكان الفراغ من تبيض الرواية في أواخر شهر يونيو سنة ١٩١٥ وكان الابتداء بنشرها في جريدة البصير التي تطبع في الاسكندرية في أواخر شهر يوليو سنة ١٩١٥ والفراغ منه في ٢٣ اغسطوس سنة ١٩١٥ في ٢٢ عدداً من أعداد الجريدة.

«هذه الحرب الجنونيّة، اسأمتني حتى أسقمتني»

المأساة الكبرى

[المقتطف. ج ٤٨ (فبراير ١٩١٦) ص ١٩٤]

رواية تشخيصية في الحرب الحاضرة وضعها الغني عن التعريف الدكتور شبلي شميّل ونشرها اولاً في جريدة البصير في الصيف الماضي ثم جُمعت في كراسة فملأت ١١٥ صفحة وهي اجتماعية فلسفية قال في مقدمتها إنّهُ رمى فيها إلى أربعة أغراض الأول وصف الأشخاص الذين ذكروا فيها وصفاً بسيكولوجيًّا ينطبق على اخلاقهم ومطامعهم ومراميهم للتنفير منها. والثاني وصف الوقائع وصفاً تقريبيًّا في الحاصل منها ويكاد يكون نتيجة لازمة في الباقي غير الحاصل. والثالث الإشارة إلى أمور اجتماعية تستوجب الإنتقاد. والرابع البحث الإجتماعي فيما يجب ان تكون نسبة الأمم بعضها إلى بعض.

والرواية حسنة الأسلوب تستهوي قارئها بما تضمنتهُ من الخبر الصحيح والنقد المحكم والتهكم الفاضح والتنبوء المدهش فوق ما يراهُ فيها من استيفاء الأغراض المذكورة آنفاً. وغني عن البيان إنها تمثل مثيري الحرب الحاضرة الذين اشتغلوا السنين الطوال في تمهيد أسبابها وهم امبراطور المانيا وخاصّة اعوانهِ. وحبذا لو اهتمَّ بعض الممثلين بتمثيلها فإن قليلاً من التنقيح يجعلها من خيرة الروايات التمثيلية.

كتبت مجلة المقتطف، مجلد ٤٨ (فبراير - شباط ١٩١٦)، ص ١٩٤ في باب «التقريظ والانتقاد» الكلمة التالية عن رواية «المأساة الكبرى»:

«رواية تشخيصية في الحرب الحاضرة وضعها الغني عن التعريف الدكتور شبلي شميّل ونشرها أولاً في جريدة «البصير» في الصيف الماضي ثم جمعت في كراسة فملأت ١١٥ صفحة وهي اجتماعية فلسفية، قال في مقدمتها أنه رمى فيها إلى أربعة أغراض:»

١ - وصف الأشخاص الذين ذكروا فيها وصفاً بسيكولوجياً ينطبق على أخلاقهم ومطامعهم ومراميهم للتنفير منها.

٢ - وصف الوقائع وصفاً تقريبياً في الحاصل منها ويكاد يكون نتيجة لازمة في الباقي غير الحاصل.

٣ - الإشارة إلى أمور اجتماعية تستوجب الانتقاد.

٤ - البحث الاجتماعي فيما يجب أن تكون نسبة الأمم بعضها إلى بعض.

«والرواية حسنة الاسلوب تستهوي قارئها بما تضمّنته من الخبر الصحيح والنقد المُحكم والتهكم الفاضح والتنبؤ المدهش، فوق ما يراه فيها من استيفاء الأغراض المذكورة آنفاً. وغني عن البيان أنها تمثل مثيري الحرب الحاضرة الذين اشتغلوا السنين الطوال في تمهيد أسبابها وهم امبراطور المانيا وخاصة أعوانه. وحَبَّذا لو اهتم بعض الممثلين بتمثيلها فإن قليلاً من التنقيح يجعلها من خيرة الروايات التمثيلية.»

المأساة الكبرى

[المقتطف. ج ٥٢ (فبراير ١٩١٨) ص ١٣٤]

«هي رواية اخلاقية بديعة دبجها يراع المرحوم الطيب الذكر الخالد الأثر الدكتور شبلي شميّل ونشر بعض اقسامها في الصحف اليومية قبل وفاتهِ وقد نقلها الآن إلى اللغة الفرنسوية شعراً حضرة ابن اخيهِ الشاعر البليغ ماريوس بك شميل واهداها إلى روح الفقيد الكبير.

وقد جاءَت الرواية في خمسة فصول ونحو ثلاثة آلاف بيت شعر واستهلها بقصيدة شائقة في وصف سورية. وجعل ثمن النسخة ٢٥ غرشاً.

ومما يزيد هذه المنظومة قدراً في نفوس الذين يطلعون عليها ان ناظمها وقف ريعها على إعانة منكوبي الحرب من السوريين. فالذين يشترونها يبلغون بهذا الشراء مأربين الأول قنية كتاب أدبي سامٍ في المعاني التي اودعها اياهُ كاتبهُ المأسوف عليهِ بديع في الصيغة الشعرية التي جادت بها قريحة ناظمهِ. والثاني قضاءُ مبرة إذ الدريهمات التي تشترى بهِ تقف في سبيل الله لاعانة ذوي البأساءِ. فعسى ان ينال من اقبال أهل البرّ ما هو جدير بالغرض الذي وضع لهُ».

Le Grand Fléau

المأساة الكبرى

وما أوردته مجلة الهلال، ج ٢٨ (١٩١٩ - ١٩٢٠) ص ٦٠٤:

«ترجمت المأساة الكبرى إلى الفرنسية وخصّ دخل الترجمة بإعانة منكوبي المجاعة في لبنان.»

Shibli Shumayyil, Al-Ma'sat al-Kubra "la grande tragédie", drame en cinq actes sur la grande guerre.

Impr. "Al-Mahrusa", Le Caire, 1915; 116 pages.

Curieuse piéce qui retrace la genése de la guerre dans les conseils de l'empereur Guillaume II, et se termine par la révolution allemande, suivie d'une scéne de jugement des coupables. Une préface explique les intentions de l'auteur qui veut montrer les conséquences du pouvoir absolu. Il est persuadé que cette guerre, malgré son horreur, sera utile au genre humain, car le progrés est invincible. Quelques pages d'épilogue exponsent les raisons pour lesquelles l'auteur, à la date du 15 août 1915, croyait fermement à l'issue victorieuse pour les Alliés. Ceux qui ont vécu ces années grises retrouveront, sous l'assaisonnement de la fiction, le goût de cendre des sourvenirs.

J. Lecerf.

وفاة الاستاذ بوشار

١٨٣٧ - ١٩١٥

[المقتطف، ج ٤٨ (يناير ١٩١٦) ص ٩٨].

بين مشاهير المتوفين في أواخر السنة الماضية الاستاذ **بوشار الفرنسوي** استاذ الباثولوجيا في جامعة باريس وبين تلاميذه **كثيرون من أطباء هذا القطر**. وقد عرفهُ المصريون شخصياً عند اشتراكه في المؤتمر الطبي الذي عقد في القاهرة سنة ١٩٠٢. وُلد سنة ١٨٣٧ فيكون عمره عند وفاته نحو ٧٨ سنة. وعُيِّن استاذاً للباثولوجيا في الجامعة المذكورة سنة ١٨٧٣. وفي ١٨٨٧ عُيِّن عضواً في المجمع العلمي المعروف (الانستيتو). وبعد ذلك أنعم عليه بنشان اللجيون دونور وأنتخب رئيساً لاكاديمية العلوم الفرنسوية. ومن أشهر مؤلفاته كتاب في الباثولوجيا يعلّم في مدارس الطب الفرنسوية أينما كانت.

هذه الحرب الجنونيّة... الشنيعة

هذه الحرب الجنونيّة. فقد اسأمتني حتى أسقمتني فوق ما بي من ذلك. فوددت لو اني انصرف ببقيّتي إلى ما يلهيني عن مطالعة حوادثها المروعة وسماع اخبارها الشائنة. فعمدت إلى كتب الأدب وما كانت لتشغلني في الماضي. على انّي تخطّيت حديثها إلى قديمها ـ وذلك إما لأني اعتبرت ان لهذا الحديث يداً سوداء في هذه الحرب الشنيعة أو لأنه قرَّ كدليل إلى سواء السبيل.

فتحي رضوان يصف روح العصر

«واتصل الشبان الذين يكتبون في الصحف الثلاث: [**اللواء، المؤيد، الجريدة**] بأدب الغرب. وعرفوا روسو وبنتام وقرأوا كارليل وديكنز، وداروين ونيتشه وآنس خطاهم الأولى **فرح أنطون**، في **مجلة الجامعة**، **وشبلي شميّل** بصوته الجهوري، وأحاديثه المتصلة عن مذهب النشوء والارتقاء في الصالونات الأدبية، وعلى المقاهي وفي غرف رؤساء التحرير». (ص ٢٣).

سلامه موسى ونظرية داروين

«وقد كان يقربني منه أكثر من سبب، فقد كان يكتب عن نظرية داروين، وكنت قد قرأت عنها في دائرة معارف فريد وجدي ثم في كتاب إسماعيل مظهر أصل الأنواع، وألفيت وأنا بعد تلميذ في السنة الأولى الثانوية وألقيت على زملائي في حي السيدة زينب محاضرة عنها وكانوا مجموعة من الأطفال والبنات والصبيان، وكان يبدي حماسة للحضارة الفرعونية وكنت من أشد المعجبين بها، هذا إلى أنه من المديرية التي ينتسب إليها والدي».
(ص ٢٥١).

(*) فتحي رضوان ـ **عصر ورجال** (مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة: ١٩٦٧).

«هذه الحرب الجنونيّة، اسأمتني حتى أسقمتني».

فاتحة الحرب

[**المقتطف**. ج ٤٦ (ايلول ١٩١٥) ص ٢٦٢ ـ ٢٧٩: ص ٣٢٢ ـ ٣٣٩]

وضع السر توماس باركلي رواية بديعة عمّا تخيَّل حدوثهُ في قصر امبراطور المانيا بين الرابع والعشرين والحادي والثلاثين من شهر يوليو في العام الماضي قُبَيْل اعلان الحرب نشرها في الجزء الأخير من مجلة القرن التاسع عشر فاقتطفنا منها ما يلي:

الفصل الأول في ٢٤ يوليو

الامبراطورة جالسة في القصر الجديد ببتسدام امام شباك مفتوح وإلى جانبها مائدة عليها صور فوتوغرافية وازهار وادوات الحبك ودخلت الغرافن أما احدى وصيفاتها لابسةً ثياباً سوداءَ ووقفت وقفة الوقار والاحترام والامبراطورة غائصة في بحار الأفكار ويداها تشتغلان في الحبك فلما رأتها قالت لها لقد ازعجتني يا اما لماذا تدخلين سرقةً هكذا:

اما: أأقرع الباب قبِل دخولي.
الامبراطورة: مثل خدم جدتي. كلاَّ.
اما: إن صاحب السمو الامبراطوري وصل الآن وهو يسأل جلالتكِ هل تسمحين بمقابلتهِ.
الامبراطورة: نعم ليأْتِ حالاً.
تخرج اما ويقرَع الباب فتقول الأمبراطورة ادخل فيدخل ولي العهد ويعتنقها وينزع سيفهُ بحمائلهِ ويعلقهُ.
الامبراطورة: ماذا حدث يا ولدي.
وليّ العهد: أمور هامَّة جداً يا اماهُ الحرب على الأبواب.
الامبراطورة: لا سمح الله مع مَن.
البرنس: مع كلِ احد وكيفما كانت الحال فالحرب واقعة لا محالة.
الامبراطورة: كلاَّ كلاَّ ما منا مَن يريد الحرب.
البرنس: الحرب لا مناص منها وقد اتيت لاشرح لكِ واقعة الحال.
الامبراطورة: ماذا يقول ابوك.

البرنس: لم يعرف حتى الآن.

الامبراطورة: ماذا تقول ألا يعرف أبوك شيئاً ممّا اتيتَ لتخبرني به.

البرنس: بلى يعرف ولكنهُ كثير الصبر وهو يحسب ان الأمور تصطلح من نفسها أما الأمة فقد فرغ صبرها علينا لأننا في تأهب دائم للحرب ومع ذلك لا نقدم عليها حاسبين ان البنادق والمدافع تحارب وحدها.

الامبراطورة: لا شبهة ان اباك كثير المشاغل ولا يصغي إلى أحد إلاّ إلى ذلك الأستاذ وإلى اصدقائهِ اليهود.

البرنس: وهذا شيءٌ لا يطاق. وهو الآن في بُلهلمن ومعهُ اربعون بارجة يؤاكل اناساً لا شأن لهم ويترك قواد الجيش واقفين مكتوفي الأيدي حاسباً ان البطالة تريحهم.

الامبراطورة: لا تتكلم عن أبيك إلاّ بالوقار.

البرنس: ليس في يدي يا أماهُ فقد ضاق صدري وفرغ صبري وكأن أبي نسي إني ولي عهدهِ واني سأخلفهُ فلا يسمح لي ان اذاكرهُ في شؤون مملكتنا.

الامبراطورة: إليك عن هذا الكلام فإني لا اسمح لك به.

البرنس: المعذرة يا اماهُ ولكن بلغ السيل الربى. أما الآن فقد قضي الأمر والفضل لغيرنا. وهذا ما اتيت لأخبرك به فاسمعيني واعذريني اذا ذكرت أبي وانا محتدٌّ ولا تنسي ان الولد سرابيه وإذا لم اذكرهُ بالاحترام الواجب فيكون لأنهُ هو لم يكن يذكر اباهُ بالاحترام فاورثني هذا الخُلق.

الامبراطورة: قطّبت جبينها وعبست في وجههِ ولم تتكلم.

البرنس: لا بأس فانتِ يا اماهُ من دم الماني قح ليس فيهِ نقطة من الدم الإنكليزي من فضل الله.

فقال الامبراطورة وهي متبسمة ان اولاد خالك يقولون إنك انت اشبه اخوتك كلهم بالإنكليز.

البرنس: كثّر الله خيرهم ولكن ما لنا ولهذا لنعد إلى موضوعنا ألا تعلمين ان المانيا صارت اضحوكة في الدنيا مثل كل مَن يجري بجوادهِ في ميدان السباق إلى ان يصل إلى الحفرة التي تثب الخيل فوقها ثم يدور ويرتدُّ بهِ راجعاً. فإن هذا ما فعلناهُ دائماً منذ رقي والدي العرش.

الامبراطورة: وقد حفظ السلم.

البرنس: ولكنهُ صار هزءاً وسخريةً. والآن صارت اصغر الدول تستطيع ان تصفعنا على وجهنا ولا تخشى شرًّا أما الدول الكبرى فانظري هذا الاجتماع في بطرسبرج فإن رئيس الجمهورية الفرنسوية عبر إلى روسيا مارًّا حول المانيا كاننا لسنا شيئاً يعبأ بهِ. هذا أمر يفوِّر الدم. وانظري ما فعلت ايطاليا وهي حليفة لنا فإنها اقتطعت افضل قطعة من افريقية من غير ان تستشيرنا ونحن نتذلّل حتى ننال شيئاً من مستنقعات افريقية ممّا إستغنت عنهُ كل الدول. انظري كيف تقف انكلترا وتأمر وتنهي ونحن لا نستطيع إن تأخذ محطة للفحم لأن انكلترا تأبى علينا ذلك ولا نستطيع ان نتم سكة حديدية ابتدأنا

بها لأن انكلترا اعترضت علينا. اخذت فرنسا الجانب الأكبر والاخصب من افريقية ونحن لم يسمح لنا ان نأخذ منهُ اصبعاً مع ان تجارتنا هناك أهم من تجارتها ولماذا ذلك لأن انكلترا وقفت وقالت لا. لقد فار دمي ولكني أبي...

الامبراطورة: دع اباك جانباً

البرنس: لا اقدر يا اماهُ لا اقدر ولكن لا بأس. ان هذا الذل يميت النفس وكلنا نشعر به.

الامبراطورة: كلنا!

البرنس: نعم، كلنا الشعب الالماني كلهُ ولم يبقَ لأبي إلاّ امرٌ من امرين اما ان يسير مع شعبهِ أو يسير الشعب وحدهُ ويتركهُ.

الامبراطورة: ماذا تعني.

البرنس: اعني إنهُ لم يعد لأبي المقام الرفيع الذي كان لهُ في عيون الشعب.

الامبراطورة: ولماذا لم تكلم اباك بذلك.

البرنس: لا فائدة من الكلام معهُ لأنهُ لا يكترث للأمر وإذا كلّمتهُ قال لي ان لا غرض لهُ إلاّ نجاح المانيا وحفظ السلم ومتى آل الأمر فانا وشأني، ألا ترين يا اماهُ انه يظلمني بذلك لمجرَّد حبهِ الراحة واللهو.

[ص ٢٦٢ - ٢٦٤]

نقلنا هذا الجزء من رواية «فاتحة الحرب» على سبيل المقارنة بينها وبين ما كتبه الدكتور شميّل في روايته التشخيصيّة: **المأساة الكبرى**. ومن المؤكّد ان شميّل نشر مسرحيّته في **المحروسة** قبل ترجمة **المقتطف** لرواية باركلي عن «فاتحة الحرب».

ڤون برنهاردي Von Bernhardi

ثيودور ڤون برنهاردي (الأب)

مؤرّخ ودبلوماسي. مولد في برلين (٦ نوفمبر، ١٨٠٢)، وتوفي بتاريخ ١٢ شباط، ١٨٨٧، في مزرعته بمقاطعة سيليزيا. شغل منصب المفوض البروسي لدى القيادة العسكرية الإيطالية عام ١٨٦٦، وحتى العام ١٨٧١ المفوّض العسكري البروسي في كلّ من فلورنسا واسبانيا والبرتغال.

كاتب عسكري بارز في زمانه من خلال أعماله ومؤلفاته في التاريخ الحربي:

- **«ملامح وميزات فكريّة من حياة البارون تول»**، في أربعة مجلّدات (١٨٥٦/١٨٥٨).
- **«فردريك الأكبر كقائد ميداني»** (في مجلّدين، ١٨٨١).
- **«تاريخ روسيا والسياسة الأوربيّة: ١٨١٤ - ١٨٣١»** (١٨٦٣ - ١٨٧٧).
- **«كتابات متفرقة»** (في مجلّدين: ١٨٧٩).
- **«مذكرات: من حياة فردريك فون برنهاردي»**، (في ثمانية اجزاء ١٨٩٣ - ١٩٠١. أصدرها ابنه).

كلاس فردريك ڤون برنهاري (الابن) Class F. Von Bernhardi

مولود في ٢٢ كانون الثاني، ١٨٤٩، بمدينة بطرسبرغ.

توفي عام ١٩٣٠ (في كونسدورف بمقاطعة سيليزيا) كاتب عسكري وجنرال الماني ومن أشهر منظري فكرة الجامعة الألمانيّة Pan-germanism.

حارب في أشهر معارك الحرب البروسيّة - الفرنسيّة وكان أول الألمان الذين دخلوا بارس في ١ آذار (مارس) ١٨٧١. شغل منصب الملحق العسكري البروسي في برن (سويسرا) عام ١٨٩٠. واصبح عام ١٨٩٣ قائداً للفرقة البروسيّة العشرين. ترأس منذ ١٨٩٧ دائرة التاريخ الحربي في هيئة الأركان العامّة البروسيّة.

تضم مؤلفاته ما يلي:

- **«فردريك الأكبر، دلبروك وكلاوسفتز»** (١٨٩٢).
- **«عناصر الحرب الحديثة»** (١٨٩٨).
- **«سلاح الفرسان في الحرب القادمة»** (١٨٩٩).
- **أصدر مذكرات والده.**
- **«المانيا والحرب القادمة»** (١٩٠٥). من أشهر مألفاته في التنظير العسكري الجرماني للحرب باعتبارها **«فريضة اخلاقيّة»** (un devoir morale).

ومن أقواله التي ذاع صيتها خلال الحرب العالميّة الأولى، وتناقلتها اوساط الحلفاء الفكرية في محاولة لإدانة السلوك الألماني والنظرة الجرمانية إلى الحرب، نقتطف العبارة التالية:

> «الحرب... ليست مجرّد عنصر ضروري في حياة الأمم، بل هي عامل لا غنى عنه من عوامل الحضارة، حيث تجد الأمّة المتمدّنة حقّاً أسمى تعبير عن القوة والحيويّة... الحرب تعطي قراراً عادلاً من الناحية البيولوجية، لأن قراراتها تستند إلى طبيعة الأشياء بالذات... وهي ليست قانوناً بيولوجياً فحسب بل إلتزام اخلاقي، وبوصفها كذلك تؤلّف عاملاً لا غنى عنه من عوامل المدنيّة».

> «إن القوانين ليست إلّا واسطة للتسكين، والعبرة كلّها بالقوة. القوانين للضعيف والقوة للقوي».

ومما يجدر ذكره ان الدكتور شبلي شميّل أشار مراراً إلى آراء فون برنهاردي في مقالة عنوانها «الفلسفة والعلم والألمان والحرب» (١٩١٦)، كما عمد إلى محاكمة افكار المنظّر العسكري والحربي الألماني في مسرحيّة «المأساة الكبرى» (١٩١٥).

وفي كتاب وضعه الدكتور اميل رايخ بعنوان: **رأس المانيا المنتفخ Germany's Swelled Head by Dr. Emile Reich.**

عرّبت مجلّة **المقتطف** (ج ٤٧، ايلول ١٩١٥، ص ٢١٧ - ٢٢٢) المقاطع والفقرات التالية لتبيان افكاره:

> وقال الجنرال **ڤون برنهاردي** (مؤلف كتاب **«المانيا والحرب القادمة»** الذي ذاع صيتهُ في الخافقين) في خطاب القاهُ امام جمعية برلين في ٢٣ يناير سنة ١٩٠٥: «إنهُ رغماً عن المعاهدات ومؤتمرات السلام فإن المشكلات لا تحل إلّا بالسيف».
>
> **ومما جاء في كتابات هذا القائد ما يأتي:**
>
> «ان الشعب الألماني اعظم شعب متمدن ذكر في التاريخ».
>
> «ان الجنس البشري مديون بتقدمهِ للشعب الألماني».
>
> «الحرب هي العامل الوحيد الذي يغلّب التقدّم على التأخر».
>
> «الحرب واجب ادبي وعامل من عوامل التمدن لا غنى عنهُ».

«كل مسعى يسعاهُ الناس لابطال الحرب جهالة ومخالفة للأداب وأمرٌ غير لائق بالجنس البشري».

«يلزم سحق فرنسا حتى لا تقف امامنا مرة اخرى».

«ان الاتفاق السلمي مع انكلترا أمرٌ وهمي لا يليق بالساسة الألمان اتباعهُ».

«علينا ان نحارب الحرب القادمة لحماية مصالحنا ومصالح العالم أجمع وليكن شعارنا السيادة على العالم أو السقوط».

«هذه آخرة مَن يقرأ شميّل»

ثم وقعت خصومة شديدة بينه [إسعاف النشاشيبي] وبين ابيه، وكان ابوه قد كتب جانباً كبيراً من املاكه على اسم ولده، وكان ينتظر ان يكون ولده من رجال من رجال الأعمال يحافظ على املاكه ويستثمرها، فوجد انه قد تعلق بالأدب، والأدب لا يغني ولا يسمن. وفي ذات يوم بلغه ان ولده باع قطعة ارض في يافا، فثار جنونه وطلب من البوليس ان يفتش عنه ويلقي القبض عليه، الى ان ظفر به في باب الخليل، فهرب الولد فتبعه الأب والبوليس وامسكوه في السوق الجديدة، فتجمع الناس، وذهبنا نحن اصدقاء الولد الى مكان الحادث لعلنا ننقذ الولد او نترضى الأب ولكن على غير جدوى. وكان الولد يصيح: «أتضرب يا عثمان فخر بلادك؟!» ثم ركب الأب بغلته وجعل يخاطبني: «يا سكاكيني! هذه آخرة من يقرأ مقدمة شميّل.» يعني مقدمة كتاب شميّل على مذهب دارون.

قضى اسعاف اياماً غير قليلة في السجن، وكنا لا ننقطع عن زيارته ونطيب خاطره، ولكن تمكن الحقد في صدره على ابيه*.

---

* خليل السكاكيني: كذا انا يا دنيا، الطبعة الثانية، بيروت: ١٩٨٢، ص ٣٨٢

نشوء جامعة الزواج والعائلة

خلاصة كتاب للعلامة الطبيعي شرل لاتورنو
مدرّس في مدرسة الانثروبولوجيا
أي علم الإنسان بباريس

[الشفاء. جزء ٦، سنة ٣ (تموز ١٨٨٨) ص ٢٢٥ - ٢٣١]

د. شبلي شميّل: تمهيد وديباجة (١٨٨٨)

ان العلماءَ والفلاسفة اليوم يميلون إلى البحث في الأشياء عموماً بحثاً طبيعياً فلا يعتمدون في تقريرها إلاَّ على المراقبة والاختبار ولا ينظرون إليها إلاَّ بالنظر إلى ما بينها من العلائق النسبية والسببية. وهذا ما يمتاز بهِ هذا العصر على ما تقدمهُ من العصور الخالية التي كان فيها للتصوُّر والانقياد للمخيَّلة المجال الأعظم. وما ذلك إلاَّ لبلوغ العلوم الطبيعية في هذا العصر مبلغاً لم يسبق إليهِ بها ان لا يرتضي إلاَّ بما يقوم عليهِ الدليل الحسيّ أو ما جرى مجراهُ كالاستقراء المبني على هذا الدليل. ومعلوم ان العلوم الطبيعية من اصدق العلوم التي تهذِّب العقل وتصلح الذوق. والتعلق عليها يوجب اعتبار كل شيء من اشياء هذا الكون مهما كان في الظاهر حقيراً ومحاولة تعليلهِ بما قد يكون بينهُ وبينها من الروابط التي تربطهُ بها مهما ظهر في بادىء الرأي غريباً. حتى افعال العقل الذي حارت فيهِ الفلاسفة وذهبوا فيهِ مذاهب لا تخرج عن هذا القياس. ولا تعجب إذا قلنا لك انهم يبحثون اليوم في افعال العقل بحثاً فزيزلوجيًّا مرتبطاً بالدماغ باعتبار الدماغ عضواً مركباً والعقل افعالاً مختلطة كما يفعلون في سائر الأعضاء وينظرون إليهِ بالمقابلة مع ما سواهُ نظر النشوء والتحوُّل كما ينظرون إليها. بل يبحثون في الاخلاق والعادات واللغات وسائر ما يتعلَّق بالإنسان في نظام الهيئة الاجتماعية هذا البحث ايضاً فيقابلونها مع ما هو من طبيعتها في سلسلة نظام هذا الكون ويستقرونها إلى اصولها ولا يعتبرون الفواصل التي بينها إلاَّ انتقاليَّة لا استقلالية إذ ان آفاق اشياء هذا العالم متداخلة مهما ظهرت لك الأشياء في بادىء الأمر متباينة.

الشوق يربط ذرّات الجماد

ولا تستغرب ذلك فالمحبَّة التي تضطرم نارها في قلب الإنسان إذا تأملتها تجدها من طبيعة الشوق الذي يربط ذرَّات الجماد بعضها ببعض ويحفظ نظام هذا العالم كلهِ:

شوقٌ تكاملَ من ادنى الجماد إلى ... أعلى فأعلى إلى أعلى أعاليهِ
حتى تناهى وقلب المرء تُلهبهُ ... نارٌ من الحبِّ يذكيها وتذكيهِ

ولا ابدع ولا اكمل ولا اجمل ولا افيد للعلم والفلسفة من تقرير هذا الإرتباط البسيط عند من يذوقهُ وجمالهُ ببساطتهِ. وهو بالحقيقة ارتباطٌ قد شعر بهِ الإنسان في كل عصر إلاّ ان الفضل في بسطهِ وتقريرهِ إنما هو لهذا العصر.

عصرنا هو عصر التوحيد في العلم

ولقد كثرت اليوم المباحث العلمية والفلسفية أُصولها وفروعها المبنية على هذه الوجهة فتكلموا في الإجتماعات الحيوانية عموماً والبشرية خصوصاً وفي العادات واللغات والأخلاق ولم يتركوا امراً إلاّ وقد نظروا إليه هذا النظر كأنَّ الوحدة شاملة لأشياء هذا العالم والأمر بالحقيقة كذلك **وعصرنا هذا هو عصر التوحيد في العلم**. وليس مرادنا هنا ان نشبع الكلام في هذه العموميات إذ يضيق بنا المقام ولا ان نبسط الشرح على جميع هذه الفروع وإنما مقصدنا الوحيد ان نذكر لمعاً مما يتعلق بمسألةٍ من أهم الروابط في الهيئة الإجتماعية. ألا وهي مسألة نشوء جامعة الزواج والعائلة بناء على مؤلفٍ حديثٍ وضعهُ في ذلك العالم والفيلسوف الطبيعي شرل لاتورنو مدرّس علم الانثروبولوجيا أي علم الإنسان بمدرسة باريس وما نقصهُ عليك هنا إنما هو بالحصر خلاصة افكار هذا الكاتب ومعلوماتهِ المبثوثة في هذا الكتاب لتعلم كيف ينظرون اليوم إلى كليات المسائل ودقائقها عسى ذلك ان يحرّك فيك حب البحث أما مطاولةً إلى المجد لعلهُ يقال فيك يوماً ما:

إذا النـاس مـدوا بـأيـديهم   إلى المجـد مـدَّ إلـيـهِ يـدا
فـنـال الـذي فـوق ايـديهم   من المجـد ثم مضى مصعدا

وإلاّ فاقتداءً بهم عَمَلاً بقولهِ:

فتشبّهوا ان لم تكونوا مثلهم   ان التشبه بالكرام فلاحُ

التشديد من عندنا

* نقلت مجلّة المقتطف تمهيد الدكتور شميل وخلاصة الكتاب بتصرّف. [المقتطف. ج ١٢ (١٨٨٨) ص ٦٦١ - ٦٦٥].

تباين المدارس في التربية

«رجال الغد»

١٨٩٨

والتربية ناقصة كذلك واكثر القائمين بها اناس يجهلونها فيعدون العقاب ومعاملة التلامذة بالخشونة والقساوة من القواعد الأساسية ويساوون فيها بين العموم لا يفرقون بين تلميذ وتلميذ جاهلين الحكمة من قول الشاعر:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى   مضرّ كوضع السيف في موضع الندى

أي ان استعمال العصا حيث يمكن الاكتفاء بالتوبيخ اللطيف مضر كاستعمال هذا في موضع ذلك والامثلة على ذلك كثيرة وكل واحد منا في وسعهِ ان يذكر كثيراً منها واروي لك مثالين وقعا لي في مدرستين متباينتين في التربية وبينهما فترة طويلة احدهما إني كنت ذات ليلة قبل ميعاد النوم واقفاً مع صفي في مكان مكشوف للهواء وفي ايام الشتاء فخانني الصبر من طول الانتظار وقرصني البرد فتأففت من ذلك طالباً العجلة فلم يرُق ذلك في عيني الملاحظ علينا وكان رجلاً احمق اسمهُ الأب بيانكي احق بهِ مستشفى المجاذيب من مدرسة يتولى تربية الصغار فيها فعاقبني للحال عقاباً أوسخ من عقله فاعترضت فشدد العقاب فرضخت للظلم لصغر سني وضعفي وحفظت الغل في قلبي حتى اليوم ولو كان لي حينئذٍ قوة تمكنني من الدفاع عن نفسي لنتفت ذقنه شعرة. ثم وقع لي بعد ذلك بسنين في مدرسة اخرى ما اخجل انا نفسي من ذكره فاني طلبت يوماً ما وأنا على المائدة طعاماً غير موجود وكان ذلك جائزاً لنا فأباه العشي عليَّ فغضبت لذلك جداً وقمت من عن المائدة واندفعت إلى المطبخ كالالة العمياء وتناولت الشيء الذي طلبتهُ ثم رميت بهِ إلى الأرض ودستهُ تحت قدمي. ثم رجعت إلى مكاني وانا انتظر العقاب على ذلك واقله الطرد. وكان للمدرسة رئيس من افاضل الرجال عاقل حكيم اسمهُ الدكتور بلس اطال الله بقاءه فابلغوه الأمر فكأنه نظر إلى سوابقي الحسنة وربما راعى اجتهادي في الدرس كذلك فامهلني يومين ولم يقابلني وانا انتظر من دقيقة إلى اخرى ان يطلبني فلما كان اليوم الثالث كنت في ساحة المدرسة وحدي فرأيتهُ مقبلاً عليَّ وبيده كتاب فجمدت في مكاني وعلاني اصفرار الوجل وخفق قلبي فلما دنا مني تبسم ومال إلى اذني كأنهُ يريد ان يسر إليَّ امراً وقال لي بصوت منخفض «اذا غضبت مرة اخرى فلا ترتب على غضبك عملاً الا بعد اربع وعشرين ساعة» وتركني فبقيت جامداً في مكاني لا اتحرك وعلاني احمرار الخجل واستولى عليَّ الدوار ولا اعلم كم بقيت في هذه الحالة لا انتقل من مكاني وانما الذي اعلمهُ انني اعتبرت بهذا العقاب كثيراً وحسبتهُ اشد من الضرب والطرد وادعى إلى الاصلاح.

واي قساوة وحشية تفوق ما ارويه لك عن معاملة المعلمين للتلامذة في بعض هذه المدارس الكبرى فإني يوم كنت تلميذاً وسني بين ١١ و١٢ سنة كان ملاحظ غرفة منامتنا كلما رأى تلميذاً مكشوفاً وهو نائم يوقظهُ بضربه بعصا رفيعة على رجليهِ عوضاً ان يغطيه كما كان يفعل ابوه أو أمه مع ان عمل الضرب لا يوجب على حضرته صرف قوة اقل مما يوجب عمل التغطية فماذا يفعل هذا الطفل المسكين القاصر عن معرفة الجائز وغير الجائز وعن معرفة متى يكون مسؤولاً ومتى لا يكون اذ يرى مثل هذا الوحش المتولي امر تربيته يفعل ذلك سوى ان يقوم في اعتقاده ان تكشفه في نومه ذنب لا يغتفر ولكنهُ ذنب ليس في طاقته ان يجتنبهُ فتقل ثقته بنفسه ويقع في رعب قد يؤدي بهِ إلى الخمول. واذكر اني كي اتقي هذه المعاملة الوحشية عمدت إلى اللحاف وثبّته في السرير ثم فتقت بلحفته وصرت ادخل جسمي بين اللحاف والملحفة كأني في كيس ولكني كنت حينئذٍ كالمستجير من الرمضاء بالنار فقد اتقيت بهذه الحيلة عصا الرقيب ولكني وقعت بين انياب البق لان مسامير اللحاف كما يسمونها كانت ملآنة بقاً.

مجاراة الارتقاء:
نشر التعليم واطلاق حرية الفكر والقول

[الشفاء، جزء ٣، السنة ٤، أول نيسان (ابريل) ١٨٩٠، ص ١٠٦ - ١٠٧]

....

واحسن السبل لمجاراة الارتقاء نشر التعليم واطلاق حرية الفكر والقول واحسن الوسائل لنشر التعليم تكثير عدد المدارس والصحف على انواعها ولهذه الأخيرة مقدرة كبرى على تحويل الأفكار والانتقال بها من حال إلى حال فلكي تنتقل بها من ضلالٍ إلى رشاد ومن جهل إلى علم ومن ضعةٍ إلى رفعة ينبغي ان تطلق لها حرية القول لكي لا تنطق إلا بالصدقِ ولا تصدع إلاّ بالحق لا ان تقيّد حريتها لئلا تمسي كزبور أو مبخرةٍ تصلّي لهذا وتبخّر هذا فإن الضرر الذي يتأتى عنها والحالة هذه للإجتماع لا يقدَّر. وعارٌ **وايم الحقّ على الجرائد واربابها ان يقبلوا بمثل هذا المركز ولو تحت ضغط السيف وانهُ لأجلَ لهم من ذلك ان يكسروا اقلامهم تكسيراً ويقفلوا «دكاكينهم» إقفالاً لئلا يبثوا مثل هذه المبادىء السيئة في عقول الأمة فيدحرونها بالخديعة والكذب إلى الوراء ويردونها إلى اخلاق الأطفال عوضاً من ان يسيروا بها بالاخلاص والصداقة إلى الامام ويربُّوا فيها مزايا الرجال ـ فكلمة الحق لا ينخفض صوت قائلها.** ـ ولا خوف من هذه الحريَّة ولا خوف إلاّ من التضييق عليها ولا يخاف إلا ضعيف أو جبان. وما مثل الحكومة التي تضيّق على امتها وتحظر على جرائدها بازاء الأمم الأخرى المطلقة الحرية من حولها إلاّ مثل من القى اسدهُ للمصارعة بعد ان غلّهُ بالحديد وأسود غيرهِ من حولهِ تتيه بخيلاء حريتها فلا شك ان اسدهُ مغلوبٌ وهو خسران. فإنذر الحكومات والأمم التي هذا شأنها انها على شفا جرف هاوٍ.

شبلي إبراهيم شميّل
في ذاكرة نعوم ديب

(معمّر من كفرشيما: ١٩٥٧)

جرت هذه المقابلة مع السيد نعوم ديب وهو رجل مسنّ جداً يبلغ التسعين من عمره ولكنه ما زال يتمتّع بقواه العقلية الكاملة.

س ـ هل كان الدكتور شبلي متزوجاً؟

ج ـ لا اعرف.

س ـ وهل رزق اولاداً أم لا؟

ج ـ كلا، لم يكن له أولاد.

س ـ كم هي عدد المرات التي جاء فيها الشميل إلى كفرشيما؟ ومتى؟ وهل تذكر متى سافر الشميّل إلى مصر للمرة الأولى؟

ج ـ سافر الشميّل إلى مصر سنة ١٨٧٥ ورجع إلى كفرشيما سنة ١٨٨٢ (عند اندلاع ثورة عرابي) ثم رجع وسافر إلى مصر سنة ١٨٨٣.

س ـ كم كان عدد اخوة الشميّل؟

ج ـ كان عدد اخوته أربعة ملحم، وأمين وأسعد وخليل.

س ـ هل كان لديه اخوات أم لا؟

ج ـ كلا، لم يكن له اخوات.

س ـ متى توفي ابوه وهل يذكر عنه شيئاً، وهل سافر مع شبلي إلى مصر أم بقي في كفرشيما؟

ج ـ أصل بيت الشميل من عاليه (كانت اكثر عاليه ملكاً لهم). لم يسافر ابوه معه إلى مصر. وفي حوادث ١٨٦٠ لم تتضرّر كفرشيما بفضل والد شبلي ورجل يدعى غالب فرح.

س ـ بما كان الناس يتحدثون عن الدكتور شميّل؟

....

س ـ هل حاول رجال الكنيسة الكاثوليكية في كفرشيما ان يخطبوا في الناس اثناء القداس أو خارج الكنيسة ضد الدكتور الشميّل؟

ج ـ كلا.

س ـ هل كان والد الدكتور الشميّل غنياً؟

ج ـ نعم.

س ـ هل تذكر كيف تمكن ومتى تمكن الشميّل من الذهاب إلى أوروبا للدراسة ومتى عاد من هناك إلى لبنان؟

ج ـ لا اعرف.

س ـ هل يذكر شيئاً عن طفولة الشميّل أو هل سمع شيئاً بذلك الصدد؟

ج ـ لا اعرف.

س ـ هل لديه قصص يريد التكرم بها علينا عن الدكتور الشميّل أو هل سمع عنه شيئاً؟

ج ـ يقال عنه ان احدهم سأله

شبلي افندي، كيف معلقة هذه النجوم

ـ بقوة الجاذبية

ومن خلق الجاذبية؟

ـ الله.

يقال إن احدهم كان ذاهباً إلى محكمة بعبدا لحضور جلسة الحكم في دعوى كان قد اقامها ضد شخص، فالتقى بالدكتور الشميّل ـ وكان رئيس المحكمة صديقاً للشميّل ـ وطلب منه ان يعطيه توصية لرئيس المحكمة، فكتب الشميل على قصاصة ورقة ما يلي:

«ان حامل هذه البطاقة أمله فيَّ كيقيني فيك فحوّل امله إلى يقين».

سيكارة المدّعي العمومي

[البرق. عدد ١٠٩، سنة ٣ (١٩١٠) ص ٦٥]

مدعي عمومي الاستئناف في حلب رجل لبنان هو سعيد بك زين الدين ـ في ما عرفت وفي ما نقلت السنة الحق عنه إنه فاضل وله على عدلية حلب يد لا تكفر. ـ ذلك ما اعترف لي به حتى في حلب نفسها.

ذنب الرجل إنه حرف «سيكارة» في رمضان المبارك وبصر به وكيل القاضي على الحالة هذه. وكانت لبعضهم قيامة على الرجل اشغلت بها رصيفتنا **الاتحاد العثماني** عواميدها على أسابيع ولما تزل.

الحكومة نفسها قلقت للأمر فكان لها بعثات إلى **الشهباء** وكان للشهباء مؤتمرات في دار حكومتها.

غداً يعزل الرجل بسيكاره. وتكفي لبيباً إشارة.

القرود ليسوا من طائفتنا

كان الدكتور شبلي الشميّل أول مفكر عربي اعتنق نظرية دارون في النشوء والارتقاء، في أواخر القرن التاسع عشر، وكانت مجلة **المقتطف**، مع ما عرف عنها من اهتمام وترويج للمواضيع العلمية تنشر مقالات الشميّل عن أصل الإنسان بتحفظ وعلى مسؤولية كاتبها، مع العلم ان الأديان السماوية وقفت جميعها موقفاً معادياً من نظرية دارون هذه التي تزعم ان الإنسان لم يكن انساناً منذ الأزل إنما كان حيواناً من فصيلة القرود، وقد تطور مدى ملايين السنين حتى صار على ما هو عليه الآن.

قيل ان احد الكتاب اللبنانيين ذهب يستمزج رأي أحد رجال الدين، عند وفاة الدكتور الشميل سنة ١٩١٧، بشأن جنازته فقال رجل الدين: «يزعم الشميّل انه ينتمي بالسليلة إلى فصيلة القرود، وهو لا شك صادق بزعمه، مع العلم ان القرود ليسوا من طائفتنا والحمد لله».

* * *

ولعل الشاعر الياس فرحات، ابن قرية كفرشيما ـ مسقط رأس شبلي شميّل ـ إنما اراد ان يثأر له عندما قال:

«إذا كان الشميّل والمعرّي ورهطهما هنالك في السعير

فقد فضّلت سكنى النار معهم على سكنى السماء مع الحميرِ»

[سلام الراسي: لئلا تضيع، ج ١، مؤسسة نوفل، بيروت: ب. ت.، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١]

من الدكتور شميّل إلى صاحب المنار (١٩٠٩)

إلى غزّالي عصره السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار*

أنت تنظر الى محمد كنبي فتجعله عظيماً وانا أنظر اليه كرجل واجعله أعظم. ونحن وان كنا في الاعتقاد (الدين أو المبدأ الديني) على طرفي نقيض فالجامع بيننا العقل الواسع والاخلاص في القول وذلك أوثق بيننا لعرى المودة.

من صديقك الدكتور شميل

الحق أولى أن يقال

دع من محمد في سدى قرآنه	ما قد نحاه للحمة الغايات
اني وان أك قد كفرت بدينه	هل أكفرن بمحكم الآيات
أو ما حوت في ناصع الالفاظ من	حكم روادع للهوى وعظات
وشرائع لو انهم عقلوا بها	ما قيدوا العمران بالعادات
نعم المدير والحكيم وانه	رب الفصاحة مصطفى الكلمات
رجل الحجا رجل السياسة والدها	بطل حليف النصر في الغارات
ببلاغة القرآن قد خلب النهى	وبسيفه أنحى على الهامات
من دونه الابطال في كل الورى	من سابق أو لاحق أو آت

«كلمة مرة ولكنها حرة[1]»

موسى نظر الى شراهتهم وضررها بالصحة فدلهم على النافع من الطعام ومحمد الى قذارتهم فأمرهم بالنظافة وعيسى الى اختلال آدابهم وضررها بالاجتماع فحثهم على الفضيلة فعفواً ايهاء الانبياء الكرام على مذهب المؤمنين ويا ايها الرجال العظام على مذهب العقلاء عفوكم عفوكم الف مرة على ما يأتيه اتباعكم من الاعمال ويثيرونه من المباحث الدالة على سخافة العقول وهم يدعون انهم ابناء هذا العصر الذي يزعم اصحابه انه عصر المدنية والعلم.

---

* انظر: مجلة المنار، ج ١٠، مجلّد ١٩ (١٩١٧)، ص ٦٢٥ - ٦٣٢

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠٤ على اثر مناقشات الجرائد في الموقوذة وهل يجوز للمسلم ان يأكل من ذبيحة النصراني حتى صمت الا ذان وقزت النفوس من هذه المباحث السخيفة. اعيد نشرها في الجزء الثاني من مجموعة الدكتور شميّل (١٩١٠)، ص ٢٧٨

بين الدكتور شميل والكاتب الأمريكي* (١٩١٥)

منذ شهرين تقريباً نشر الدكتور شبلي شميل رسالته إلى العالِمَ الالماني هكّل، باللغة الفرنساوية، وأردت أن أعرف رأي الأجانب في الرسالة ومؤلفها، فبعثت بها إلى كاتب أمريكاني زار مصر وأحب وادينا حباً جماً. وشفعت الرسالة بتفاصيل عن الدكتور وأطواره الغريبة التي تجعل له شخصيتين تكاد الواحدة منها تناقض الأخرى. وأخبرته أن الدكتور شميل غاضب على الامريكان لأنهم لا يساعدون الحلفاء على دحر المانيا، وانه يقول عنهم انهم أنانيون. فجاء الجواب وها أنا أنشره ضاحكة، لأنه يهمني كثيراً أن يتخاصم الرجلان وهما على مسافة ستة أميال بين الواحد والآخر:

«قرأت باهتمام ما كتبته عن الدكتور شميل ورسالته إلى هكّل، وسأبعث بنسخة من هذه الرسالة إلى المستر روزفلت.

يسرني وجود رجل كالدكتور شميل في الشرق لأن هذا الرجل لازم لهدم الأفكار القديمة التي يتقبلها الناس بلا بحث ولا جدال، كأن ليس لأفكارهم أهمية إلّا بقدمها. أفكار يزيد في ثقلها صدأ الأجيال ويحاول حفظها التعصب الذي يحيط بها بقوة ودقة كأنه نسج العنكبوت. فأمثال الدكتور شميل يمزقون خيوط العنكبوت ويبيدون الصدأ وقاعدته دفعة واحدة، ولا بأس من هيجان المجموع لهذه الفوضى، فهياجه ضروري بل لابد منه. أمثال الدكتور هم العنصر الهادم ما في الجمعيات والأديان من الغلو والإفراط، وهم فاتحو الطريق للذين سيقيمون أسساً جديدة ملائمة لمطالب العصر ومعارفه. والآخرون لا يتمكنون من العمل إلّا إذا عمل قبلهم الأولون.

تعجبين لماذا لا يشيد الدكتور شميل أثراً مكان الأثر الذي يهدمه. لكن لا عجب في ذلك. اذكري ديكارت تعلمي أن الأمرين لا يُطلبان من رجل واحد. فالطبيعة وحدها مدمرة معمرة.

أما ما في أخلاق فيلسوفكم من التناقض فلا بد راجع إلى الوراثة، نام بالظروف. لا بد أن يكون الدكتور عنيف الطبع حاد المزاج، ولهذا الخلق جماله. على اني أحب الخلق الهادىء الذي يترك الآخرين يتخاصمون حتى إذا ما سمع ما يقولونه من الحقائق. والخرافات أعرض عن التافه من أقوالهم وتمسك بالصواب. فلا يتحول عنه، بل كلما مرت الأيام زاد به ثقة وحباً.

---

* مقالة كتبتها ميّ زيادة عام ١٩١٥ ونشرتها في سوانح فتاة (دار الهلال، ١٩٢٢).

«لا ادري لماذا يقول الدكتور شميل أن الأمريكيين أنانيون. هل عرف حضرته بعض أبناء وطني فحكم على أمة لأجل أفراد، أم هي فكرة تناقلتها الألسن الأقلام فأثرت في فكره؟»

«ما هي البينات التي تقنعه بأن الأمريكان أكثر أنانية من غيرهم؟ أود أن أسأله إذا حلت على العالم الويلات فمن يسارع إلى المساعدة قبلنا، ومن يفتح قلبه وكيسه قبل أبناء أمريكا؟ كم من الملايين أرسلت إلى الحلفاء في هذه الحرب الطاحنة؟ غذاء بلجيكا وكساؤها يذهبان من وراء البحار وأمريكا ترسل إليها ٣٦ مليوناً شهرياً. بعض السيدات من أجمل نساء أمريكا تركن أزواجهن وأولادهن وذهبن لمعالجة الجرحى في ميدان القتال. الرجل الأمريكي أحسن زوج في نظر الفتاة الإنجليزية، لا لأنه أناني، بل لأنه يحترم المرأة ويعترف بمواهبها العالية ويعاملها المعاملة التي تستحقها رقتها وسمو عواطفها. أعظم المستشفيات في باريز أمريكية وينفق عليها من ثروات أمريكية فردية. قد يرى الدكتور شميل في كل هذا أنانية، ولكنها أنانية كريمة جميلة».

«العالم الجديد جديد في كل شيء. اختباره، واعتقاده، وعمله وأسلوبه، وحريته. ولكن ليس فيه الأنانية التي تظنون.»

«تضحكين من أمريكا لأنها تبعث باحتياجاتها يمنة ويسرة. وأنا أضحك. صحيح أني لا أريد أن أكون في موقف الدكتور ولسن في هذه الأيام. إن هذا الرجل المسكين لا يدري على أي رجل يرقص بين عشرة ملايين من الأمريكان الالمان المحتجين في أذنه اليمنى، وباقي ملايين الأمة المحتجة في أذنه اليسرى؛ هذا مع حالة المكسيك الحاضرة التي تكاد تشتعل اشتعالاً».

«أمريكا رغماً عن شعبها الالماني الأصل تجاهر بميلها إلى الحلفاء بلا خوف ولا تردد. لا أعني الحكومة بل الشعب. هناك أمر لا يحتمله أمريكاني حرٌّ ربي على فكر الحرية وشرب لبنها كما شربه من قبله آباؤه ـ وهو مهاجمة بلجيكا وغزوتها. هذا لن نغفره لألمانيا قط».

«قولي هذا للدكتور شميل إذا شئت. واسأليه أن لا يصدق كل ما يكتبه عنّا كتّاب فرنسا وانكلترا كما أني لا أصدق شيئاً مما يكتب عن الشرق والشرقيين. قولي له ذلك واهديه احترامي».

ها أنا قلت لك ذلك وأهديتك احترامه مشفوعاً باحترامي، يا سيدي الدكتور. أفعل ذلك مترقّبة بعض صواعقك عربية كانت أم فرنجية، فقد أوحشتنا كثيراً نارها العذبة.

مداعبة

(شؤون فلسفية اجتماعية بقالب روائي)

١٩١٣

أشخاص الرواية:
الدكتور شبلي شميل
الشيخ اسكندر العازار
جبران خليل جبران
أمين الريحاني
حنا سمعان (من قضاء البترون لبنان)
المكان ـ قهوة المنظر الجميل في عاليه
الزمان ـ مساء أحد والشمس جانحة إلى الغروب

(يدخل الدكتور شميل والشيخ العازار والريحاني وجبران ويجلسون على كراسي واطئة حول مائدة وكل منهم مسحور بجمال المناظر وهيبة الشمس وألوان الشفق المتدرجة من الأصفر، إلى الأحمر الناري. وبعد سكينة يلتفت الدكتور شميل إلى رفاقه ويقول بصوته الجهوري): يا ترى هل كان لألوان الشفق تأثير على فطرة القرد الذي تحدر منه الانسان حسب الناموس المعروف بتأثير الوسط؟

العازار ـ بالله عليك دع دارون ومذهبه مدفونين بين صفحات الكتب ولا تشوه مجلس هذا المنظر بذكر القرود. ألا يكفي ما عندنا من القرود البشرية؟

جبران ـ يذكّرني هذا المنظر بصورة للرسام تيرنار الانكليزي تمثل رجوع عولص من جزيرة كاليبسو.

الريحاني ـ لقد ضاعت الطاسة بين قرود دارون ورسوم تيرنار، وكلا الرجلين من أمة ثلجية الأخلاق، رمادية العواطف.

شميّل ـ ابتدأنا بفطرة القرود وانتهينا بأمة الانكليز..

العازار ـ أوليس الانكليز والقرود متشابهين؟

جبران ـ أنا، مع اني أكره امة الانكليز كافة، أجّل منها نوابغها، فليس بين الروائيين كشكسبير، وليس بين الشعراء مثل كيتس.

الريحاني ـ أنت وكيتس على وفاق يا جبران، ولكن لا تنس أن كيتس مات تعساً غريباً، ولم يفده الخيال شيئاً.

شميّل ـ ما دامت فتياتنا مشغوفات بكيتس وأمثاله فليس لهذه البلاد نصيب من الرقي.

(هنا يدخل حنا سمعان وعلى وجهه سيماء التهيب والاحترام ويقترب من الجماعة ببطء لا يخلو من الوجل ثم يجلس قائلاً):

ـ مسيكم بالخير يا أفندية.

(فيجيبون على تحيته بلهجة باردة، غير انهم يعودون إلى متابعة الحديث كأنه غير موجود بينهم).

شميّل ـ أقول ثانية: إذا كانت الناشئة السورية تتغذى بالأطعمة التي طبخها شكسبير وكيتس والفرد دي موسه وفكتور هوغو، فلا أمل لنا بالحياة بل نظل على حالنا خياليين، قدريين، نتعلق بخيوط الشمس ونترك الحقيقة مشغولة عنا بالغربيين.

جبران ـ الحقيقة؟ وهل الحقيقة مشغولة عنا بالغربيين؟ أوليست الأحلام الشرقية حقائق رأيناها في المنام فتناولها الغربيون وبنوا عليها دعائم مدنيّتهم؟

حنا سمعان ـ لا تواخذوني يا أفندية، أنا انسان بسيط واسمحوا لي بكلمة من دون ثقلة: بشوف ان كلام هالشاب فيه زبد والفرنج مش أحسن من العرب والقلب ما يهف ليهن.

العازار ـ (يلتفت إلى حنا سمعان وفي نظراته نبال ورماح ويقول): نحن في واد وأنت في واد وبيننا هوة عميقة، لا منا إليكم ولا منكم إلينا.

حنا سمعان ـ أنا ما بفهم بالنحو ولكن ما بحب الفرنج.

شميل ـ حسن يا عم ان تبقى على ما أنت عليه.

العازار ـ وهذه هي مصيبتنا، فإذا بقي كل منا على حاله فبشّر البلاد بسوء المصير.

الريحاني ـ أجل وقد جاء في الحديث: لا يغير الله...

حنا سمعان (للريحاني) ـ بيظهر حضرتك مسلم؟

(يقهقه الجميع ضاحكين، ثم يلتفت جبران قائلاً): لقد أبان كلامك شأنك يا أمين، وهذه نتيجة الخلط بين المسيحية والاسلام.

الريحاني ـ لن يعلو شأن هذه الأمة إلّا برجال يوفقون بين النبيل في الاسلام والجميل في المسيحية.

حنا سمعان ـ يعني بيصير الدين مثل المخلوطة.

شميّل ـ (وقد أعجبه كلام حنا سمعان) نعم، يا عم، فالدين مخلوطة يجتمع فيها عدس الترهات وحمص الخرافات وبرغل الأوهام وبصل الأساطير مع قبضة من ملح الخيانة وغرفة من زيت الجهالة.

الريحاني ـ (لشميل) وقد نسيت يا دكتور فلفل السمادير.

حنا سمعان ـ الدين عند المتفلسفين مخلوطة، ولكن عند البسطاء مثلي خروف محشي برز وسمن (موجهاً الكلام إلى جبران) ما قولك يا أفندي؟

جبران ـ الحق معك فالدين الصحيح وليمة فاخرة جامعة أشهى الألوان بأطيب الخمور.

العازار ـ وماذا تعني يا جبران بالدين الصحيح، وكل أمة تدعي صحة دينها وفساد ما بقي من الأديان؟ أجبني ولا تك خيالياً.

جبران ـ ليس الدين في شرعي تعاليم ووصايا وتقاليد بل هو عاطفة نفسية تحول نثر حياة البسطاء إلى شعر، وتمزج مرارة أيامهم ولياليهم بقليل من الحلاوة.

العازار ـ الصبر جميل! قلت لك يا جبران أن تترك الخيال جانباً.

حنا سمعان ـ دستور كلمة. أنا ما بعرف بالنحو لكن ما معنى كلمة الخيال هوني؟

الريحاني (متجلداً) ـ الخيال هي الأفكار والأحلام التي لا علاقة لها بالأشياء المادية.

العازار (وامئاً إلى الريحاني) ـ لو كنت مكان الريحاني لشرحت كتب ابن رشد والقديس اوغسطينوس باللغة العامية.

الريحاني ـ حبذا طريقة تبلغنا إلى التوفيق بين اللغة العامية واللغة الفصحى.

شميل ـ إن العامة ولغتهم ودينهم وأميالهم وكل مالـهم كالهباء المنثور ولو تركت المدينة الحاضرة ناموس بقاء الأنسب وشأنه لما بقي في العالم عامة، بل أصبح جميع الناس من المنتخبين. وهذا أحد مبادئي.

جبران ـ أنت يا دكتور تنتقل عقلاً بين تعاليم دارون ومبادىء نيتشي، وأنا شريك لك بعقيدتك، ولكن هل استطاع دارون أو نيتشي ان يبين لنا ما هو الأفضل حقيقة؟ أو ما هو الأنسب حقيقة؟ فإن ما يراه نيتشي مملوءاً بالعزم والنبالة قد يكون مجلبة للضعف والمذلة. أي بشري يستطيع ان يقول إن الاحلام البعيدة التي تراود نفس الصوفي ليست من العناصر التي تختارها الطبيعة آلة لحفظ الأنسب وبقاء الأفضل؟ أنا من عبدة القوة غير انني أحب جميع مظاهر القوة لا واحدة منها.

شميل ـ إذن تحسب العزم الذي جعل نابليون ان يدوّخ أوروبا كالأشباح الضئيلة السقيمة التي أوحت إلى الفارض أن يكتب قصائده؟

جبران ـ نعم، وكلا القوتين من مصدر واحد دعاه نيتشي «إرادة الوجود».

حنا سمعان ـ ما فهمت كل كلامكم ولكن أنا بحب نابليون بونابرت وبحب الفارض وليش لا؟ هلي بيحب الكوسا المحشي بيقدر يحب الدجاج المحمر أيضاً.

العازار ـ والله لقد أصاب، وكل شيء يبلغ حداً سامياً يصير قوة.

(الريحاني (مبتسماً) مشيراً إلى حنا سمعان) ـ أراكم يا اخواني توافقون على أفكار العم.

حنا سمعان ـ استغفر الله يا أفندي. أنا انسان بسيط وما بنتظر أحد وخصوصاً العلما ان يوافقوا على كلامي. كل انسان عنده نور، وأنا نوري صغير وبسيط وبحب اسمع كلام العلم من أجل الافادة.

اسكندر العازار ـ ابق على نورك وبساطتك يا عم ولكن كن مخلصاً لبلادك وأمتك.

جبران (مخاطباً حنا سمعان) ـ لا. لا تسمع ما قاله لك، بل كن مخلصاً للحسن في بلادن والشريف في أمتك. فمن كان مخلصاً لغير الشريف والنبيل والعادل كان مسرفاً باخلاصه والاسراف في العواطف أكثر ضرراً من الاسراف في الرزق.

حنا سمعان ـ ضاعت الطاسة بين العلما: واحد بيريدني أكون مخلص لكل الناس، والثاني بيريدني أكون مخلص لبعض الناس، والثالث ما بيريدني أكون مخلص أبداً. لو ما كنت انسان بسيط القلب وما بدخل لعقلي كل ما بسمعه لكنت جنيت، والله يساعد عشير العلما، والله يساعد زوجاتهم.

الريحاني ـ وأنا أيضاً يا عم.

حنا سمعان (وقد انبسطت ملامحه وأبرقت عيناه) ـ اسمحوا لي أحكي بحرية يا أفندية. شو بينفع علمكم وشو بينفع حديثكم النحوي وشو بينفع الكتب لهالبلاد الفقيرة إذا كان ما فيها شبان يقروها. انتو بتألفوا الكتب واللي مثلي بيخلف الشبان اللي بيقروا الكتب. سامحوني اذا تطرفت بالحديث، لكن بدي أقول الحقيقة ولو على قطع راسي: الواحد منكم بيكتب مقالة أو بينظم قصيدة بالنهار ولما بيجي الليل بيروح لعند عشيقته أو مرت جاره وعذره بذلك ان العالم ما عنده وقت للزيجة والعيلة ومتاعب البيت. اسمحوا لي ان أفيدكم بأن عندي ست ولاد وثلاث بنات وكل واحد منهم مثل الأسد وجميعهم بيفلحوا وبيزرعوا وبيستغلوا الأرض وبيدفعوا مال الميرة للحكومة وكل صباح أحد بيحطوا قرش أو قرشين في صينية الكنيسة. وأنا بنتظر من كل واحد منهم ان يخلف سته أو سبع أولاد. هيك أنا عشت وهذا اللي عملته في حياتي فأيش انتوا عملتوا؟ ألفتوا كتب؟ ظريف! على راسي. حررتوا جرايد؟ ظريف! على عيني. ولكن أنا اللي خلفت الولاد ليقرو كتبكم وجرايدكم. إذا كان اللي سمعتوا منكم بها الجلسة دليل على حالكم فأنا افضل منكم مع بساطتي. لا تواخذوني على هالوقاحة، ولكن الحق ما بيعرف صديق من عدو. (يقف إذ ذاك ويهم بالذهاب ويقول): الله يمسيكم بالخير يا أفندية. استروا ما شفتوا مني. العلم شي والمعيشة شي ثاني. خاطركم. لا تواخذوني مسيناكم بالخير يا أفندية. (يخرج حنا سمعان هازاً رأسه وعلى شفتيه ابتسامة سلام واطمئنان).

جبران ـ ما أشبه صاحبنا بيوليوس قيصر، فقد أتى، فرأى، فانتصر ـ انتصر عليكم وعليَّ ثم تركنا غارقين في بحر من الأفكار والآراء والمبادىء والتعاليم. نعم نحن غارقون والأفضل له ان يبقى واقفاً على الشاطىء.

الريحاني ـ قد أعجبني بساطته وحرية ضميره وعدد أبنائه وبناته.

العازار ـ لا تتطوح يا أمين بالاعجاب فأنا كنت وسأبقى معجباً بأبي العلاء وسوف أكتب على قبري ما كتب على قبره:

هذا ما جناه أبي عليَّ　　　وما جنيت على أحد

شميّل ـ نعم، وهذا أفضل للجنس البشري وعلى اتفاق مع ناموس بقاء الأنسب.

العازار ـ زدت في المعرفة حتى انقطعت يا دكتور (ثم يلتفت منادياً صاحب القهوة بصوت عالٍ قائلاً): اعطنا يا يوسف أربع كؤوس من العرق الزحلاوي والمازة.

جبران ـ كنا غارقين في بحر من الأفكار والآراء والمبادىء والتعاليم فلنغرق الآن في بحر من العرق.

أحد تلاميذ حفار القبور

«الفنون» ـ العدد ٨، تشرين الثاني، ١٩١٣

نقلاً عن كتاب جان دايه: **عقيدة جبران**، منشورات سوراقيا، ١٩٨٨، ص ٢٣٨ ـ ٢٤٢.

دفنس وخلوى

هي قصة يونانية يرجح ان واضعها رجل يوناني او روماني وضعها في القرن الثاني او الثالث للميلاد وقد ترجمت الى الفرنسوية منذ سنة ١٥٥٩ ثم اعيدت ترجمتها الى الفرنسوية مراراً وترجمت الى الانكليزية وغيرها من اللغات. ومن حسنات الدهر ان ترجمت الآن الى العربية ووضع عليها اسم الدكتور شبلي شميل* فلا بدَّ من ان يكون حضرة الدكتور قد القى نظره على الترجمة ووضع لها المقدمة والحواشي التي شرح بها غوامض القصة. فان في المقدمة حقائق فلسفية واجتماعية قلما يجود بها غير عقل عالم كبير خدم العلوم الاجتماعية والفلسفية كالدكتور شميل. والقصة في حلتها الجديدة حَرِيّة بأن يقتنيها كل احد من قراء العربية وعسى ان يعيد الدكتور نظره عليها في طبعتها الثانية فتصلح بعض اغلاطها اللغوية والنحوية.

الاستاذ هكِل وتهمة التزوير

نشر المقتطف (الجزء ٢، مجلّد ٣٦، ١٩١٠، ص ١٠٥ ـ ١٠٦) مقالة عن العالم الطبيعي الألماني ارنست هكِل Ernst Haeckel. وفي عدد نيسان (ابريل من العام نفسه، ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩)، إلى «باب المسائل» رسالة من احد القرّاء في الاسكندرية (سليم قدسي) يقول فيها صاحبها ما يلي:

قرأت في المشرق ان الدكتور ارنولد براس كذَّب الاستاذ ارنست هيكل في شأن لطفة الانسان والقرد من غير ان يذكر لنا مستنده. وقرأت في كلمة نيويورك ان الدكتور ارنولد براس اعترض على هيكل في عدم صحة الرسوم البيولوجية المزورة المذكورة في تأليفه وايد مستنده بجريدة فولكس وجريدة ستراسبرج فما هي الحقيقة وهل يمكنكم ان تفصلوا لنا هذه القضية.

وسأل احد ائمة الدين الدكتور شميل بعن ذلك فاجاب بما معناه «ان كان هيكل قد كذب مرة فالكذب ليس محتكراً لغيره ثم انشد بيتين لاحد قوالي لبنان يقول فيهما:

غنـمـة في ارض الـوعـرة　　　سكّـت سكّـة عَـديـهـا

رفعت لـيَّـتـها مـرّة　　　ضحكت الـعـنـزة عـلـيـهـا

* المقتطف، مجلد ٤٤، ابريل (نيسان) ١٩١٤، ص ٣ ـ ٤ ـ ٤٠٤.

رسالة شميّل الى ارنست هكل

تؤلّف هذه الرسالة أو الكتاب المفتوح ردّاً من الدكتور شبلي شميّل على البيان الذي وقّعه ٩٣ عالماً من العلماء الألمان الكبار لتبرئة حكومة المانيا من وصمة الحرب وإلقاء اللوم على بريطانيا. ويدافع شميّل عن نظرية التطور (النشوء والارتقاء)، دون ان يبرّىء ساحة المفكرين الألمان، من فردريك نيتشه إلى الجنرال والكاتب العسكري فون برنهاردي. كما يؤكّد ان الحرب الكبرى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) ليست من نتائج الفلسفة المادية، بل هي أقرب إلى الجنون التويتوني الجرماني ومقدّماته الفكرية والفلسفيّة.

عالم الماني يعتذر

Max Planck

[المقتطف. ج ٤٩ (اغسطس ١٩١٦) ص ٢٠٧]

يذكر القراءُ المنشور الذي كتبهُ ٩٣ عالماً من كبار علماء المانيا في اوائل الحرب ونشروهُ في جميع انحاء المسكونة يبرئون فيه حكومتهم من وصمة هذه الحرب ويلقون كل اللوم على الحلفاء. على ان احدهم وهو الأستاذ بلانك استاذ الطبيعيات الرياضية في جامعة برلين ارسل اخيراً كتاباً إلى صديق لهُ من علماء انكلترا اعترف فيهِ بأن لهجة المنشور كانت شديدة إلى حدّ افضى إلى سوء فهم العواطف الحقيقية التي كانت تدبّ في صدور كاتبيهِ وهذا مما يبعث على الأسف. قال «أما رأيي الذي يشاركني فيهِ اربعة من زملائي (وقد ذكر اسماءهم) فهو ان المنشور كتب وامضي في اسابيع الحرب الأولى والعواطف الوطنية في أوج حدتها وشدتها. ولا يمكن احداً الآن ان يبدي رأياً معقولاً مبنياً على الحقائق العلمية في المسائل التاريخية العظيمة المتعلقة بهذه الحرب. ولكن الذي اريد ان اوجه انظاركم إليهِ هو إنهُ بالرغم من الحوادث الهائلة التي تجري حولنا بت اعتقد ان وراء حدود حرب الأمم هذه بقاعاً ادبية وعقلية وان التعاون الشريف وتنمية العلاقات الثمينة بين الأمم المختلفة واحترام رعايا الأعداء احتراماً شخصياً ـ هذه كلها لا تناقض البتة حبّ المرءِ لبلدهِ حباً جماً وخدمتهُ اياهُ بجميع جوارحهِ».

Lettre du Dr. Shibli Schemeil
à M. Ernest Haeckel.

"El-Mokattam" 1915; 20 pages.

Cete réponse au manifeste des Quatre-vingt-treize traduit un douloureux étonnement. Lorsque, dans sa brochure précédente, au moment de la guerre des Balkans, l'auteur espérait l'avènement d'une ère nouvelle grâce à l'Europe, il avait compté, declare-il, sans le gouvernement militariste de l'Allemagne. Il comptait sur le peuple allemand, et sur les savants allemands. S'est-il trompé? Il ne peut le croire. La responsabilité doit retomber sur l'empereur et la caste militaire. Cette guerre est une folie car si l'Allemagne avait su attendre, elle aurait conquis le monde.

Il est vrai, ajoute-t-il, qu'il avait toujours négligé les effets de la philosophie de "l'incohérent Nietzsche" et de Bernhardi. Aussi ne peut-il pas croire que les maîtres de la philosophie évolutionniste aient cédé à l'entraînement aveugle. "Professeur Haeckel, conclut-il, je persiste à croire que vous n'avey pas signé".

Si l'on se reporte aux remarques bien connues de Nietzsche sur la formule de Darwin et la "lutte pour la vie", on voit qu'elles ont la portée d'une correction importante. La lutte pour la puissance est un fait universel, qui parfois contredit le premier. D'ailleurs la vie elle même n'est qu'une conquête incessante et les deux formules ne sont, peut-être, pas si inconciliables que le ponse Shumayyil.

On saisit, dans ces deux écrits, à quel point la théorie de l'évolution, simple explication scientifique exclusive de la finalité, est devenue une sorte de foi au progrès indéfini, déjà chez Haeckel, encore mieux chez Wells, et indiscutablement chez Shumayyil. Suivant les remarques de Bertrand Russel[1] il y a là une incursion injustifiée de préoccupations pratiques dans la philosophie: "Un processus conduisant de l'amibe à l'Homme, aux yeux des philosophes parut être un progrès — bien qu'il ne soit pas dit que l'amibe se soumette à cette opinion". C'est une interprétation anthropocentrique de l'histoire probable du passé, qui singulièrement rétablit la finalité sur le domaine dont elle semblait bahhie. L'évolutionnisme de Shumayyil porte sa date. Maix il avait tout ce qu'il lui fallait pour séduire les imaginations dans les pays en progrés rapide.

(1) Mysticism and Logic, traduction française De Menasce. Paris (Fayot), 1922; p. 40-43.

«Lettre du Dr. Shibli Schemeil à
M. Ernst Haeckel»

كتاب مفتوح أو رسالة من الدكتور شميّل الى العالم الألماني ارنست هِكل، نُشرت بالفرنسّية في مطبعة المقطم، ١٩١٥، وفي ٢٠ صفحة.

وكان العالم هِكل (١٨٣٤/٢/١٦ - ١٩١٩/٨/٩) قد أصدر في شهر آب (اغسطس) ١٩١٤ نداءَه المشهور عمّا اسماه «جريمة انجلترا في الحرب الكونيّة»

Englands Blutschuld am Weltkrieg.

وفي خريف العام ١٩١٥ - بعد مضي عام على اندلاع الحرب - أصدر هِكل مقالته المتمِّمة للنداء الأول وعنوانها: «الأبديّة وخواطر في الحرب العالميّة حول الحياة والموت، والدين، ونظرية التطور.»

«Ewigkeit, Weltkriegs gedanken Über Leben und Tod, Religion und Entwicklungslehre» (1915)

وفي المنشورين تبنّى نصير السلام الاسبق (١٩١٣) أهداف الحرب التي اعلنها حزب الوطن الألماني. مطالباً بقيام المانيا الكبرى التي تمتدّ من انتورب إلى ريغا، بالإضافة الى امبراطورية من المستعمرات التابعة لها في افريقيا ومن جملتها الكونغو.

ولم يستأنف هِكل ابحاثه العلمية الرصينة إلاّ في العام ١٩١٦، حين بلغ الثانية والثمانين من العمر، وقبل وفاته بثلاث سنوات.

رسالة من الدكتور شميل الى الاستاذ هيكل

هي رسالة باللغة الفرنساوية بعث بها الدكتور شبلي شميل الى الاستاذ ارنست هيكل احد كبار العلماء الالمان وزعيم مذهب الموحدين (Monisme) على اثر توقيعه على المنشور الذي اصدره علماء الالمان للدفاع عن خطة المانيا. وقد انتقد فيها الدكتور شميل سياسة المانيا وابان اضرارها للجنس البشري من جميع الوجوه*

* مجلة الهلال العدد ٢٣ (١٩١٤ - ١٩١٥) ص ٥٣٧

الرجحان

قصيدة فلسفية طبيعية للدكتور شبلي شميل نظمها وشرحها واثبت فيها آراءه
وآراء جمهور كبير من فلاسفة هذا العصر الروحيين والماديين
فجعل آراء الاولين في معرض الزعم وبسطها وعللها فقال:

خبروني ما دام منها وفيها — اين يُرجى معادهُ المحبوبُ
حلَّ فيها وكان منها سليماً — ثم يمضي وقد عرتهُ الكروبُ
خبروني عن حكمة من مجيءٍ — لمآب تعدّ فيه الذنوبُ
ولماذا هذا الثواب المرجّى — ولماذا هذا العقاب الرهيبُ

الى ان قال:

فدعونا من الخلود المعنى — ان نرحب فبالفنا الترحيبُ
واصرفونا في ارضنا عن سماءٍ — صوت املاكها الينا نعيبُ
ارضنا للنهى خزانة علمٍ — وهي حقل للعالمين خصيبُ
علمونا ان الحياة جهادٌ — ومجال الجهاد فيها رحيبُ
علمونا ان الهنا من هنـ — ـاءِ الغير منا صحيحهُ مكتوبُ
لا تقولوا الاديان فينا لاْ مَن — ان تقولوا فقولكم مكذوبُ
قابلوا عصرنا بظلم عصورٍ — سادها الدين ثم بعدُ اجيبوا

والظاهر ان الدكتور نظم هذه القصيدة وشرحها قبل شبوب الحرب الحاضرة وما انتجته الفلسفة المادية.

اما ما ذهب اليه من ان كل شيء في الارض من الارض فمردود بان القوة تأتي الارض من الشمس وتأتي الشمس من مصادر اخرى. واذا كان العقل حالة من حالات القوة فهو مستمد بحسب ذلك من غير الارض. وهذا العقل يرى بداهة او استقراءً ان الموجودات المادية لا تستطيع ان توجد نفسها فلا بدَّ لها من موجد فاذا كان للموجودات موجد وهي على ما هي عليه من العظم والانتظار والاتقان والحكمة والقوة حتى يتولد بعضها من بعض وتولد القوة حركة والحركة حرارة ونوراً وكهربائية وادراكاً وتفكيراً فهذا الموجد يلزم ان يكون عظيماً منظماً متقناً حكيماً قويّاً. والموجودات مالئة الكون فوق ما هي عليه من الانتظام حتى اذا سار النور من بعض النجوم الينا بسرعته المعروفة وهي نحو مئتي الف ميل في الثانية من الزمان لم يصل الينا في اقل من الوف كثيرة من السنين لبعدها الشاسع عنا. فقدرة هذا الموجد اشمل من كل ما يمكن تصوُّرهُ وهي لا تختص بالكبير من الموجودات كالشموس والاقمار والضخم من الاحياء كالحوت والفيل والانسان بل لتتناول ما نعدُّهُ صغيراً حقيراً بالنسبة الينا. رأينا قبيل كتابة هذه السطور قطعة من الجبن في احد جوانبها بقعة صغيرة تغيَّر لونها عمّا يجاورها فنظرنا اليها بمكرسكوب

صغير واذا عليها حيوانات صغيرة جداً لا ترى بالعين لصغرها شكلها كالخنافس بيضاء الى الصفرة لكل حيوان منها فم ومعدة وايدٍ وأرجل وغير ذلك من الاعضاء مثل اكبر الحيوانات وكم في الارض من ملايين وملايين الملايين من مثلِ هذا الحيوان او اصغر او اكبر وقد وجدت بقدرة هذا الموجد او بالنواميس التي وضعها وسلّطها على المادة.

في هذا العالم المادي امور كثير لا نفهم مؤداها او لا نراها تجري على قوانيننا واحكامنا. فالاسراف كثير في ما يتولد من بيض السمك وثمر الشجر. والحيوانات يفترس بعضها بعضاً. والامراض تتاب اناساً لا يستحقونها. والشرير يسود والصالح يداس. ولكن ان كنا لا ندرك ما في ذلك كله من الحكمة فاللوم على قصر عقولنا. وقد ادرك الباحثون المتعمقون منا الحكمة في بعض ما كان يعد قبلاً مظنّة الجهل. وقد ندرك الحكمة في كل شيء وهب اننا لم ندركها فجهلنا الشيء لا ينفيه.

والدكتور شميل لا يوجب نفي ما لا نعلمه بل يحث الناس على التمسك بما نعلمه ولذلك قال «ارضنا للنهى خزانة علم» البيت. ولعله يريد بالارض النظام الشمسي كله وكل ما في الكون من مادة وقوة مما يؤثر فينا. واذا ثبت ما استنتجه بعض العلماء الآن من ان المواد كلها حالات من حالات القوة وتأيّد مبدأ الاتصال ثبت ان الانسان بجسمه وعقله جزء من القوة الشاملة وانه خالد بخلودها. وما ادرانا ان وجدانه لا يبقى معه بعد تغير صورته الجسمانية وان وجوده الوقتي في هذه الارض انما هو حلقة من حلقات وجود اوسع واعظم وحينئذٍ يصير للوجود الارضي معنى سامٍ والاّ عسر فهم المراد من هذا البناء والهدم المترادفين.

وآراؤنا في الكون لا يلزم ان تكون دائماً قرينة الصواب لا سيما وانها كثيراً ما تتوقف على حالنا من الصحة والمرض والراحة والتعب وحال المعدة من القوة والضعف*.

* قصيدة **الرجحان**، أو كما دعاها الدكتور شميّل: «منظومة ومشروحة» (طبعت في مطبعة موسى روديتي وشركاه بمصر، ١٩١٦؟) تقع في ٢٣ صفحة من القطع الكبير. ويبدو انها نشرت للمرّة الأولى في العدد الثاني من مجلّة **المستقبل** الاسبوعيّة - ١٤ مايو (أيار) ١٩١٤ - والتي أصدرها سلامة موسى في ٧ مايو (أيار) ١٩١٤. ويستفاد من تقريظ **المقتطف** المنشور في عدد آذار (مارس) ١٩١٦، ان قصيدة الرجحان نُظمت ونشرت قبل اندلاع الحرب العالميّة الأولى. فاقتضى هذا التنويه.

ولا بأس من إيراد السطور التي قَدَّم بها شميّل لمنظومة الرجحان، حيث قال:

* نَظمت هذه الأبيات وشرحتها للذين يقرأون ويتدّبرون الامور عن رويّة ولو خالفت معتقدهم. أما الذين لا يقرأون ولا يتدبّرون ولكنهم إذا سمعوا بنبأ يخالف ما قد تربّوا عليه، قاموا عن هوى يصخبون، فهؤلاء لا شأن لنا معهم حتى يهتدوا، ولسوف يهتدون».

* **المقتطف**، ج ٤٨، مارس ١٩١٦، ص ٢٩٩ - ٣٠٠

الفلسفة المادية:
حقيقتها، ونتائجها

المقتطف، باب المراسلة والمناظرة، ابريل ١٩١٦ ص ٣٩٣ - ٣٩٩.

عزيزي الدكتور صروف*

أشكرك أولاً. ثم استميحك الإذن في الملاحظة الآتية

في كلامك على «الرُّجحان» في المقتطف قلت:**

«والظاهر أن الدكتور نظم هذه القصيدة وشرحها قبل نشوب الحرب الحاضرة وما انتجته الفلسفة المادية».

فهل أنت من المعتقدين أن الحرب الحاضرة وفظائعها نتيجة هذه الفلسفة؟

إذا كان العلم اليوم زاد العدة فتكاً والسطوة اتساعاً، ولم يهذّب الطبائع كما ينبغي، ولم ينظف العقول كما يجب، ولم يمنع الحروب الجائرة، فهل كانت الحال في الماضي أصلح، وهل كانت الحروب أقل، أم كانت أكثر جسوّاً وفظائعها أشنع كذلك «بطبيعتها» منها اليوم، مع شدة شناعة الحرب الحاضرة؟ وهل يجوز في أحكامنا أن ننسى تاريخ المقابلة؟

وما هي الفلسفة المادية، وما هو تعليمها في الاجتماع؟

يقولون إن الفلسفة المادية إنما هي فلسفة المصلحة، وان المصلحة سبب الحرب اليوم. وكلا القولين صحيح. ولكنهم يقولون أيضاً - والجرائد صرعتنا(١) بترديد هذا القول - ان فلسفة المصلحة من شر التعاليم. فهل هذا صحيح؟

ألم تكن الحروب في الماضي لأجل المصلحة؟ أَوَليست المصلحة الدافع لنا في أعمالنا جميعها حسنة كانت أم غير حسنة، مادية أو أدبية، دنيوية أم غير دنيوية، وهل أحد منا يسعى لغير مصلحة؟

فبماذا تُشان المصلحة أن تكون مهمازنا في أعمالنا؟

ولكن المصلحة ما هي؟ وأين هي؟

هذا الذي يختلف الناس فيه، وقلَّ منهم من يفهمه على جليَّته، أو يعمل به وإن فَهِمَه ان لم يرسخ في طبيعته.

(١) بالمعنى العامي الدارج.

أكثر الناس في الاجتماع حتى اليوم يعملون كأن مصلحتهم لا تتفق على مصلحة سواهم وهذا سبب أكثر مصائب الاجتماع وتثاقله في ارتقائه. وكان ذلك في الماضي أكثر منه اليوم فمن كان المسؤول في الماضي؟

الفلسفة المادية أساسها علم الطبيعة[1]. فماذا يعلّمنا نظام الطبيعة في أمر هذه المصلحة؟

الطبيعة تنظر إلى المصلحة العامة في كل أعمالها. ولكن المصلحة العامة تتوقف على المصلحة الخاصة، وإلاّ لم تنتظم مجاميع من وحدات، ولم تنتظم أجسام من مجاميع، فهي لذلك تنظر إلى المصلحة المشتركة أيضاً.

نعم إن في الطبيعة شيئاً كثيراً من القسوة، لأن فيها كثيراً من الإسراف كما في مثال بيض السمك وأزهار النبات الذي ضربته. والقسوة هنا شرط لازم لتوفير المصلحة العامة، وإلاّ عم الموت وبادت المجاميع وبادت الأنواع لعدم كفاءة القوت. فعمل الطبيعة هنا معقول.

والإسراف هنا ليس تبذيراً، بل هو عمل اقتصادي من جنس الأعمال الاحتياطية لسلامة الكل. ولذلك هو يكثر في ما كان كثير التعرّض للطوارىء كما في الاحياء التي لا تحضن بيضها، ويقل في ما كان قليل هذا التعرض كما في الحيوانات التي تحضن بيضها وأولادها ومنها الانسان. فالعمل هنا في غاية الأحكام والغرض الكلي منه متوفر.

والتنازع بين وحدات الجسم الواحد ومجاميعه مهما اشتد فهو تنازع انتخابي لمصلحة الجسم وليس هو غالباً العداء المفكك لأوصاله. ولا يكون كذلك إلاّ بين المتغايرات لمصلحة المتماثلات.

هذا ما يعلمنا إياه نظام الطبيعة الغشيمة وتطبعه فينا فلسفتها المادية. وللعقل شأن كبير في ذلك في الاجتماع. ولكنه لا يخرج فيه عن هذه القاعدة حتى يقع في الحيف. وخروجه عنها حتى اليوم كثير.

فهل الحرب الحاضرة تنطبق على هذه الفلسفة أو هل تعاليم مثيريها في الاجتماع معقولة ولو أنهم أساطين في العلم؟

الاجتماع كالجسم الحي. جسم متماثل له وحداته ومجاميعه نظيره هي الأمم والأفراد ونظامه كنظامه.

(1) كان حقها أن تسمى الفلسفة الطبيعية أو فلسفة الطبيعة لما كانوا في الماضي يلحقون بلفظة «المادية» من الشبهات من أنها فلسفة شهوانية لدفع ما قد يكون من ذلك عالقاً في ذهن البعض حتى اليوم.

فهل في نظام الجسم الحي ما يوجب هذا التنازع التقاطعي المفكك إلاّ في أحوال معينة أوضحناها هناك كالقضاء على وحدات فاسدة لصيانة المجموع أو على مجموع غير صالح إن لم يمكن اصلاحه لصيانة الجسم. وما خلا ذلك أفليس نظام هذا الجسم يعلمنا أن التنازع في الأجسام المتماثلة مهما راح فيه من الضحايا فهو تنازع تعاوني إذا جاز لي أن أسمي هذا العمل للمصلحة العامة هكذا؟

والمراد من قولنا المتماثلات والمتغايرات يتضح جيداً من قول اليازجي الكبير:

اني رأيت الأسد أحسن خلّةً — من جنس هذا الناطق المتمرّدِ
الناس تقتل كل يوم بعضها — والأسد تقتل غيرها إذ تعتدي

فهل يجوز أن تكون الفلسفة المادية أو فلسفة المصلحة سبب هذه الحروب وفظائعها وهي في جسم متماثل وبين أعضاء صحيحة وعلى مصلحة غير متوفرة لأحد؟ أم الأولى أن يكون سببها سوء فهم هذه المصلحة لا انها نتيجة هذه الفلسفة؟

وما هو شأن هذه الفلسفة في الاجتماع والعلم لم يتخلل طبقات العامة. ولم يختمر ولم ينضج في رؤوس الخاصة أنفسهم.

والشواهد على ذلك كثيرة من تقاعس المجتمع عامة وخاصة عن المشروعات العمومية النافعة له كأن العامة لا تدري وكأن علم الخاصة «عذري».

بل شاهدنا هذه الحرب نفسها التي تراق فيها الدماء بحاراً وتذهب المصالح فيها جزافاً لمطامع جنونية في رأس مفتون تحف به زمرة من تجار وسياسيين وعلماء خربي الذمم أو مسرّدي الروية. وهل ينقاد للسفاحين المخربين غير المغفلين؟

فالفلسفة المادية غير مسؤولة عن هذه الحرب. وكان يجب أن تنهى عنها لو كانت النفوس متشبّعة منها ومدركة لها عملاً بالمصلحة المشتركة التي لا تتوفر المصالح عامة بدونها ـ وما المسؤول عنها حقيقة غير الطمع الجائر والجهل المطبق. والجهل بين الأمم الراقية حتى اليوم أكثر جداً مما يُظنّ.

ألا ترى الأصوب أن تقول معي أن السبب الحقيقي اليوم لهذه الحرب الكبرى هو الانتقال في الاجتماع من قديم راسخ إلى جديد لم يستقر وأنت تعلم كم هي أطوار الانتقال في الطبيعة عنيفة وشديدة الخطر. لأن الانسان إذا كان حتى اليوم لا يعرف مصلحته في الاجتماع كما ينبغي ففي الطبيعة نواميس تعاقب الذي يقف في وجه المصلحة العامة وتقضي على افتتانه وتردّه إلى هذه المصلحة التي فيها مصلحته أيضاً. وسيخرج الاجتماع بعد هذه الحرب إلى حال أصلح تتقشع فيها شيئاً السحابات

الكثيفة التي تغمُّ على العقول. ولكن بعد عنف شديد من أثر ذلك التباطؤ وتراكم المتباينات. وكان ينبغي على العقل أن يقيه شر ذلك لو كان أنقى وأرقى.

* * *

وإما ما ذكرته من أمر الاتصال والانفصال والوجود والخلود واحتمال بقاء الوجدانات، الخ. فلا أُطيل فيه لئلا يردنا إلى نظريات يطول الأخذ والرد فيها على غير جدوى وشأن العلم فيها ضعيف.

وكلامك في ذلك قسمان علمي وغير علمي أو طبيعي واحتمالي. فالطبيعي لا محل للخلاف فيه. وأما الاحتمالي فمذهبك فيه ما عدا أنه يخالف الشائع المعروف هو مزيج أقرب تارة إلى اللاأدرية. وتارة إلى المذاهب العلمية الطبيعية. ولكنه يختلف عنها باحتمال بقاء الوجدان بعد فناء الجثمان في القوة الشاملة الخالدة المتصلة على صورة يصعب تصورها. فإما أن يكون بقاؤه ضمن الطبيعة. وحينئذٍ يجب أن يكون فيها على غير ما يُعلم عن بقاء قوى سائر الموجودات الطبيعية التي تنشأ منها وتفنى فيها. وما دليلنا عليه؟ وإما هو خارج الطبيعة وحينئذٍ يبقى علينا أن نفهم فوق ذلك كيف يكون هذا الانفصال عنها مع ذلك الاتصال بها. والاجتهاد هنا بينٌ. والحكمة التي سردت عليها الأدلة في نظام الطبيعة على صورة خلابة ليست كذلك إلَّا إذا كان النظام المذكور طبيعياً اضطرارياً. وإلَّا لم تكن لكثرة النقص الذي لا يذهب عليك فيه من مثل الإسراف الذي ذكرته. ومن مثل الأعضاء الأثرية وكثرة تبدد القوى في الطبيعة كما لا يخفى. وكان ينبغي اتقاؤه لو كان العمل غير طبيعي. اللهمَّ إلَّا أن تكون فيه على مذهب استاذنا الأكبر الدكتور ڤان ديك «من أن الذي يصنع ساعة تصنع ساعات هو أعظم من الذي يصنع كل ساعة وحدها» فيكون الشأن بعد ذلك للطبيعة. على أن ذلك معما فيه من الحكمة للتسامح الذي فيه لأجل العلم لا يجلو مسألة الخلق من طبيعي تارة وغير طبيعي أخرى بالنظر إلى مقامه من هذا الاتصال والانفصال في آنٍ واحد، ولا يبين مكان الاستقلال للصانع، وكيفية بقاء الوجدان للمصنوع. وإذا كنا لا نفهم المراد من هذا البناء والهدم المترادفين لغرض غير طبيعي فماذا يهم الطبيعة من ذلك والغرض الطبيعي منه متوفر لها في تطورها. ولا بأس من ذلك كله إذا كانت النفوس ترتاح إليه وإذا كان لا يقف في سبيل العلم. واليوم لا يقف كما كان يقف منذ خمسين سنة فقط. والشوط الذي قطعه العقل في هذه المدة من هذا القبيل يفوق كل حساب. أذكر ذلك هنا ليس لأنه من موضوعنا ولكن لأُبدي سروري من التحوُّل البديع الذي حصل في العقول في هذه البرهة الوجيزة بالمذاهب العلمية الحديثة التي كان لمقتطفكم الأغر الفضل الأول والأكبر في نشرها بيننا. ـ واقبل فائق احترامي.

الدكتور شبلي شميل

[المقتطف]:

لم نكد نقرأ قولكم

قابلوا عصرنا بظلم عصور   سادها الدين ثم بعد اجيبوا

حتى تمثلت امام اعيننا فظائع الحرب الحاضرة واستعداد الالمان لها مادياً وادبياً. مادياً باعداد العدة الكثيرة لها من القواد والجنود والمدافع والقنابل والغازات والجواميس والقواعد التي تنصب عليها المدافع في بلاد العدو. وادبياً بسعي فلاسفة الالمان وعلمائهم الى استخدام العلوم الفلسفية والبيولوجية لاقناع الشعب الالماني انه ارقى الشعوب كلها ويجب ان يسودها ويستحل في سبيل هذه السيادة كل محرم. ولذلك ظننا انكم نظمتم قصيدتكم وشرحتموها قبل شبوب هذه الحرب وما انتجته هذه الفلسفة المادية. وعسى ان تطالعوا خطبة الفيلسوف برغسن التي افتتحنا بها هذا الجزء ومقالة صديقكم الدكتور ابي خاطر فيه.

ونريد بالفلسفة المادية الفلسفة التي تعلم الناس ان يحصروا نظرهم في المادة ونواميسها وينفوا كل ما سواها. فهي لا تكتفي بقول الفيلسوف سبنسر ان الخالق غير معروف ولا يعرف بل تنفي وجوده مستقلاً عن المادة كما قال الفيلسوف لوتز. واذا صحَّت هذه الفلسفة وجدت فيها فظائع الالمان اقوى مبرر لها والَّا فكيف لا يجوز للانسان ان يقتل الذين يرى انهم واقفون في سبيل تقدمه كما يجوز له ان يقتل الاسود والذئاب والبعوض والذباب. ولماذا لا يجوز لابن باريس وبرلين ان يقتل الزنوج الذين يمنعونه من دخول غابة في قلب افريقية ليصطاد فيها كما يجوز له ان يقتل قرداً او افعى يمنعانه من دخولها. ألا ترون ان المانع الذي يمنع الناس من ان يغبن اقوباؤهم ضعفاءهم هو في الغالب شيء غير المادة وغير نواميسها.

ولا يقيد الاحتجاج بالعجماوات ان طوائفها عائشة على تمام الصفاء كما في النمل والنحر والجراد لا يفني بعضها بعضاً ولا وازع لها غير الناموس الطبيعي فإن العجماوات مرَّ عليها ملايين كثيرة من السنين وهي على حال واحدة تقريباً فرسخت فيها غرائز يتعذر نزعها منها. وأما البشر فشذوا عن سائر أنواع الحيوان من هذا القبيل مهما كانت أسباب هذا الشذوذ وتمكنوا من التغلُّب على طباعهم والتطبُّع بغيرها. فإذا قام في نفوس جماعة انهم أرقى من غيرهم وانه يجوز لهم ان يتسلطوا على الغير ويمتهنوه فعلوا ذلك. وهذا كان شأنهم من قديم الزمان ويظهر لنا انه زاد في هذه الأيام حيث بنى على قواعد علمية كما بناه فلاسفة الالمان حتى ان الشاعر كبلنغ الانكليزي وهو من أهل الخيال الذين ينتظر منهم أن يكونوا أبعد الناس عن الغطرسة وأقربهم إلى السجية السمحاء طلب من قومه في بعض قصائده ان يعاملوا أهالي جنوب افريقية كما يعاملون أنفع المواشي لهم. وأناس يقولون هذا القول لا يكثر عليهم أن يذبحوا تلك المواشي إذا نشرت عليهم أو استحبوا لحمها. والظاهر ان الالمان يفعلون مثل ذلك في مستعمراتهم ولكننا نعتقد أن الشعب الانكليزي لا يزال متمسكاً بقواعد دينه الذي يعلّم ان الناس كلهم اخوة ومن دوم واحد فهو ارأف من الالمان بسكان افريقية وبكل مستضعف.

* المقتطف، باب «المراسلة والمناظرة»، ج ٤٨، ابريل ١٩١٦، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٩.

ورب قائل يقول إن الفلسفة المادية تمنع ارتكاب الفظائع وتنهي عن اثارة الحروب وتوجب على الناس ان يعيشوا عيشة راضية. ولكن القول شيء وتأييده شيء آخر لا سيما وان المشاهد ينفي هذا القول ويثبت ان الفلسفة المادية مسؤولة عن هذه الحرب وان عدم نهيها عنها كان كيث النفوس مشبعة منها. أما سائر البلدان حيث النفوس غير مشبعة منها فارتكاب الناس للفظائع قليل جداً. وقُبيل كتابة هذه السطور وقع نظرنا على المقطم الصادر اليوم (٢٤ مارس) وفي تلغرافاته واخباره الفقرات التالية:

(١) «كان في محطة سكة الحديد (في مدينة زيبروج) قطار الماني فيه ٣٥٠ جريحاً من الالمان فلم تقذف الطيارات والبوارج (الانكليزية والفرنسوية) القنابل عليهم»

(٢) «وقد أنقذ الروس جميع بحارة الباخرة» (والباخرة المانية)

(٣) «ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان جميع الدوائر العسكرية البريطانية تطري الضباط والجنود العثمانيين على ما أبدوه من الشهامة والرجولية في حربهم وتقابل بين هذه الصفات العسكرية الرائعة وبين ما فعله الالمان.»

والتقينا نحن ببعض الذين عادوا من غليبولي من ضباط الجيش البريطاني وسمعناهم يثنون الثناء المستطاب على الجنود العثمانية وقد ذكروا لنا بعض أفعالهم الدالة على شهامتهم ومروءتهم وقالوا إنهم لم يروا منهم شيئاً يعاب عليهم.

(٤) إن الضباط الترك والضباط العرب عاملوهم (أي عاملوا الأسرى البريطانيين الذين كانوا في أسر العرب في حدود مصر الغربية) بالرفق والانسانية والشفقة وان الشفقة التي عانوها لم تنشأ عن سوء المعاملة بل عن قلة الطعام واللباس والأدوية وان آسريهم كانوا مثلهم وقاسوا معهم ما قاسوه من هذا القبيل».

فقابلوا أيها الدكتور الفاضل بين أفعال هؤلاء الانكليز والفرنسويين والروس والترك والعرب وبين أفعال الالمان تلامذة الفلاسفة الماديين وما فعلوه بركّاب السفن التي اغرقوها وبالأسرى الذين أسروهم وبالنساء والبنات اللواتي احتلوا بلادهن.

وكل ما تقدم لا يحط من قيمة العلوم الطبيعية ونفعها الكبير ولا ينفي وجوب الحث على تعلمها والعمل بها ولكنه يدل على حاجة الانسان إلى التعاليم الأدبية مهما كان أساسها ـ التعاليم التي توجب على ال ناس الحب والرحمة والحنان وتصرفهم عن القسوة والغطرسة والايثار.

أما سائر ما استطردتم إلى ذكره مما تقوم عليه أدلة علمية أو فلسفية أو لا يزال في معرض الفرض فالاسهاب فيه يبعدنا عن الموضوع المقصود بالذات. وإننا نشكركم على ما وصفتم به المقتطف وهو يفتخر بأن قراءه استفادوا مما تتحفونه به آونة إلى أخرى من الفوائد العلمية والأدبية والفلسفية.

الفلسفة والعلم والألمان والحرب

[المقتطف. باب المراسلة والمناظرة. ج ٤٨ (مايو ١٩١٦) ص ٤٩٠ - ٤٩٤]

الذي شرَّد الالمان، وأضرَّهم، وأضرَّ العالم به اليوم، ليس العلم الطبيعي وفلسفته المقيدة به، بل تعلُّقهم على الفلسفة المطلقة المنتشرة بينهم أكثر مما هي بين سائر الأمم والتي كانت دائماً شؤماً على الاجتماع في كل العصور. ودكاترتهم في هذا الباب يقرعون دكاترة العالم أجمع عدّاً في كل الأبواب.

فهذه الفلسفة العريقة فيهم، والتي لا علاقة لها بالعلم الطبيعي هي التي ضلَّلتهم في المسائل الاجتماعية وحملتهم على هذه الجناية الكبرى على الاجتماع وعلى أنفسهم. وهي التي مكنت سوّاسهم منهم للمغامرة بهم سعياً وراء أحلام غير موزونة هي في هذا العصر خاصة جنون مطبق. وأعمت حكامهم عن أن يروا نتيجة ذلك عليهم. فأسرة هوهنزلرن اليوم في احتضار وسيُجهز عليها متى ثاب القوم إلى رشدهم، وعبر هذه الحرب ستجعلهم يثوبون مهما غلظت اتباعهم وأظلمت عقولهم. وما هو شأن العلم الطبيعي وفلسفته المادية في أمة يجوز عليها الاعتقاد في نفسها أنها شعب الله الخاص، وفي حكّام يزعمون أن الآلهة تناجيهم ويعملون السيف معولين في النصر عليهم.

فأنا لا أدفع عن الالمان فظائعهم حتى أُحجَّ بها. ولا أظنُّ أحداً حسبها عليهم أكثر مني حتى اني استهدفت لمطاعن الحمقى الجبناء المتشيّعين لهم من مقوّسي الظهور الراتعين اليوم في بحبوحة من نِعَم الذين أغدقوا عليهم خيرات الأمن فكانوا لهم من الثالبين. وإنما أُنكر دعوى الذي ينسبون ذلك فيهم إلى تأثير العلوم الطبيعية والعمل بفلسفتها المادية كما يقولون. كأن الالمان اليوم بين أمم أوروبا الراقية هم المستأثرون بهذه العلوم وحدهم، وشأنهم فيها فوق الجميع، وهو وهمٌ. وكأن هذه العلوم ترمي حقيقة إلى ذلك وهو وهم أيضاً. وأي تعليم فلسفي أو سواه كان يحكم العالم في العصور الخوالي يوم كان التفظيع والتشنيع يستنفد كل ضروب التفنن، ويوم لم تكن للعلوم الطبيعية وفلسفتها المادية عين ولا أثر.

وأنا وإن كنت اسلّم بحسن صنيع الآخرين في هذه الحروب في معاملة الناس والآثار كالانكليز والفرنساويين خاصة، وأحمدهم عليه، فلا أُسلّم بأن السبب انحرافهم عن تعليم العلوم الطبيعية وفلسفتها، وشأن هذه العلوم عندهم أعظم مما هو عند الالمان من كثرة فلاسفة هؤلاء وقلة فلاسفة اولئك مما يدل على أن فهمهم لهذه العلوم أتم ونظرهم من خلالها إلى المصلحة أوسع.

وإني ليسرني أن أعلم اليوم، ولو بدهشة، ان الاتراك مع خلوهم من كل علم، صاروا ممن يضرب المثل بهم في حسن الصنيع في الحروب، على الرغم مما كتبوه عن أنفسهم في سفر خروج الأرمن من هذه الدنيا الفانية إلى العالم الباقي. وهي نعمة تهبط أحياناً على الناس من علٍ ولا علاقة لها بالعلم، وقد يكون لها علاقة بغير العلم مما لا يزال الاجتماع يئن منه. وإن كنت أعذرهم على فظائعهم وأعذر سائر الشعوب الذين في مرتبتهم لجهلهم بالنسبة إلى الالمان الذين لا عذر لهم لاتصافهم بالعلم عن حق.

فلندع العلوم الطبيعية وفلسفتها المادية جانباً ولا ندنسها بفظائع الالمان في هذه الحرب، ولنبحث عن السبب الصحيح في تعاليم أخرى غير هذه التعاليم.

لا ريب في أن الذي دفع الالمان إلى هذه الأعمال الخرقاء في هذه الحرب الشنيعة هو تعاليمهم الفلسفية المنطبقة على طباعهم من جهة وعلى مرامي سوّاسهم من جهة أخرى، وقد ظنوها الطريق المثلى إلى بغيتهم. ولا ريب أنهم اخطأوا، وخطاؤهم هنا لقصر نظر اجتماعي لا لشيء آخر.

وأما الظن بأن تعاليمهم هذه مستخرجة من العلوم الطبيعية. ومنطبقة على فلسفتها المادية فهو بعيد عن الصواب بعد الثريا من الثرى. فإن كان في تعاليم بعضهم ما يرمي إلى مثل هذه الدعوى لدعم نظرياته الفلسفية السابقة فهو وهم أو تضليل مقصود، كما أبنت ذلك في غير هذا المكان، وكما يستفاد من مقالة زميلي الدكتور أبو خاطر التي عبر بها عن أفكاري بأحسن مما كنت استطيع. فمطالعتي لها لا تضعف حجتي بل تؤيدها، وإن كان يرميهم فيها بسوء الفهم فقط، وأنا أرميهم فوق ذلك بسوء القصد.

وكلام حضرة الزميل هنا هو أبلغ وأعظم قيمة من كلام الفيلسوف برغصن في هذا المعنى. والسبب هو أن برغصن فيلسوف يعالج العلوم متأثراً بالموهوم، وزميلي طبيب طبيعي لا يتلّمس في طيات الغيوم وبين النجوم.

وكلامي هذا لا يحط من قدر مقالة الفيلسوف برغصن في بابها. صاحب كتاب الارادة الحرة، وهي ليست حرة إلّا في دائرة الراجح من موروث ومجبور. كما أن زميله الفيلسوف ريشه الشهير هو من زعماء الأسباب الغائيّة، ولكنها ليست المجرّد المطلق ولا الطبيعي المقيد، كل ذلك من سيئات سطو الفلسفة على العلم، والواجب الضد.

فالفيلسوف المذكور لا يتعرّض هنا للطعن في فلسفة العلوم الطبيعية، وإنما هو يقرر ما في أخلاق الالمان من الشذوذ، وفي أفعالهم من الخرق. وقد وصفهم أنهم أهل شعر وفلسفة منذ زمان طويل، أي قبل أن يكونوا علماء. وهذا الميل فيهم صرفهم إلى

تحويل كل شيء إلى «صورة صناعية» أي غير طبيعية. فلما انتشر العلم الطبيعي بينهم لم يعانوا استخدام ما فيهم من الميل الفلسفي لاستخراج كليات هذا العلم كما هي حقيقة، بل حوّلوا هذه الكليات إلى غرضهم المرسومة «صورته الصناعية» في ذهنهم طبقاً لفلسفتهم الخاصة حسب مرمى اهوائهم، بناء على انهم «أهل فكر وخيال لا تهمهم حقائق الأشياء» كما قال عنهم الفيلسوف المذكور. وكان المنتظر أن العلم والاختبار يصرفانهم إلى هذه الحقائق في الأمور الاجتماعية، فلم يكن شيء من ذلك، وكل ما تم لهم أنهم انتظموا كالآلة الميكانيكية العمياء التي يسهل عطبها لأقل عطل فيها. فالالمان إذا كان العلم رقاهم في الصناعة، وزادهم قوة كما زاد سائر الأمم التي انتشر بينها، فشرودهم في فلسفتهم حملهم على بذل هذه القوة لغرض اجتماعي لا ينطبق على ما يستفاد من نظام الأحياء، فلم يتبصروا ليدركوا حقيقتهم في جسم المجتمع البشري، ونسبتهم فيه إلى سائر أعضائه وبالتالي ليصونوا مصلحتهم بصيانة مصالح المجتمع التي لا تقوى مصلحتهم إلّا بها، فكان منهم هذا التهور الذي جنى عليهم حتى اليوم أكثر مما جنى على الآخرين.

ولا عبرة بالقول إنهم طمحوا حينئذ بأنظارهم إلى ما هو «مادي محض»، فإن هذا لا يجعل ماديتهم نتيجة الفلسفة المستخرجة من كليات العلم الطبيعي، ولا يجعلهم بالحقيقة ماديين أكثر من سواهم، وربما فاقهم سواهم كالانكليز خاصة في الحياة الاجتماعية العملية المتوفرة بها مصلحتهم. فالالمان نظير كل الأمم طلاب مصلحة. والمصلحة لهم ولسواهم «مادية» قبل كل شيء. فامتلاك بلاد والانتفاع بأناسها وأرضها ومناجمها، الخ. كل ذلك «مادي». ولكن الذرائع الموصلة إليه قد تكون مادية، وقد تكون أدبية حسب المقام من جهة، وحسب الفهم والإدراك من جهة أخرى. فكل ما لا يوصل إلى هذه المصلحة من هذا أو من ذاك، فالتعويل عليه خرق يعاب كما في قول الشاعر:

ووضع النَّدى في موضع السيف بالعلى ... مضرٌ كوضع السيف في موضع النَّدى

وما من عاقل اليوم يقول إن الالمان ينالون بغيتهم في المجتمع بسحقه، لا بإدماجه، بالطرق التي ساروا عليها حتى الآن. فقد ظهروا أنهم، مع علمهم الغزير، جاهلون لطبائع العمران. فهم إذا كانوا اليوم علماء مبرزين، وصناعاً ماهرين، فهم قبل ذلك فلاسفة مشرّدوا الروية. وإذا سطت الفلسفة على العلم، وحوّلته لغرضها، ولم ترتبط به، ولم تُبْنَ عليه، كان شرها أعظم جداً مما لو كانت بدونه كما في البلاد التي معولها على العلوم الكلامية والعلم الحقيقي منها مفقود.

ولقد سبق لي أن أسهبت الكلام في ذلك في خاتمة المجلّد الأول من مجموعتي،

ثم في رسالة «آرائي» بعد ذلك حيث افتتحت الكلام بقولي: «أنا لا أحب أن أعنى كثيراً بالفلسفة إلّا ما كان منها من قبيل الاستقراء العلمي فقط، لما تجر إليه غالباً من السفسطات البالغة إذا شردت عن العلم».

ومن حسنات هذه الحرب أن مجرى الأفكار في الفلسفة وسائر العلوم الكلامية وفي المباحث الأدبية كالرومان، أخذ اليوم يتغير كثيراً. فقد كثر طعن الفرنساويين أنفسهم على كتابهم في اسلوبهم في أقاصيصهم الموضوعة، وما فيها من التأنق في تصوير ما لا ينطبق على الحقيقة. ولقد قرأت أخيراً خطاباً لأحد أطبائهم في العلم والفلسفة ألقاه في إحدى الجمعيات الطبية بباريس اقتطف منه ما يأتي ولو انحرفت قليلاً عن الموضوع، ليعلم ذلك الذين هاجوا عليّ وماجوا يوم قلت إن فلسفة ارسطو واضرابها أضغاث أحلام، وخبط في أوهام. قال:

«إن كلود برنار أوضح لنا التضاد الكائن بين الفلسفة والعلم وهو برسمه لنا قواعد الطب الامتحاني، قال يحذرنا من الفلسفة التي ترمي، نظراً لما في عقلنا من الضعف وحب الاثرة إلى أن تكون ذات تعليم استبدادي، وإلى السطوة على العلم بالمنطق وحده وهذا يحول دون التثبت بالدرس. وهو يقول بوجب اقتران الفلسفة بالعلم، لكن إذا كانت الفلسفة خالية من السند العلمي، لتسبح تائهة في طيات الغيوم، فالعلم في غنى عنها». ومن كلامه» قوله: «أرى أن العلماء يستطيعون عمل اكتشافاتهم ونظرياتهم والقيام بعلمهم من غير «الفلاسفة». فالعلماء والمخترعون هم بالحقيقة المحسنون الحقيقيون للانسانية. وماك آدم[1] «وستفنسون[2] عملاً لتقريب الناس بعضهم من بعض أكثر من افلاطون في جمهوريته التي لا تُسكن، أو من أئمة الفلاسفة الانسيكلوبيديين[3]. والفلاسفة بوجه العموم لم يكونوا بركة على الانسانية بل بالضد. وهاك ما قاله بونابرت عن روسو[4]. قال: «لم يكن أقل ضرراً على الانسانية من توماس موروس[5] بآرائه الخيالية، أو من فنلون[6] بمدينته صَالَنْت عاصمة

(١) مهندس انكليزي مخترع رصف الشوارع بالطريقة المعروفة باسمه Macadam.

(٢) مهندس انكليزي مخترع اوتوموبيل السكك الحديدية.

(٣) فلاسفة فرنساويون في القرن الثامن عشر منهم دالمبار وديدرو وفولتير، الخ.

(٤) جان جاك روسو فيلسوف فرنساوي وكاتب شهير.

(٥) فيلسوف الماني من طراز الفلاسفة الاقدمين Thomas Morus.

(٦) واضع كتاب تلماك لارشاد وريث عهد مملكة فرنسا فقد جاء فيه وصف مدينة خيالية أطلق عليها هذا الاسم وزعم انه بها يرشد تلميذه إلى حسن الحكم في الرعايا.

المستحيل. فإنه، أي روسو، صنع انساناً لا وجود له إلّا في مخيلته أطلق عليه اسماً رومانياً هو (اميل). وجعله بين الرجال نموذجاً فذاً، إذ رباه» «تربية عالية ارستوقراطية حَمَلَتْ الطامعين المستبدين على التشبه به للسطو على الجماهير وإلحاق الضرر بهم لشدة أمانتهم بالكاتب نظراً لما في إنشائه البديع من الخلابة المؤثرة فيهم»[7] ا. هـ. وربما نقلت الخطاب كله في المقتطف.

فالفلسفة المادية التي اصطلح البعض بأن يطلقها على الكليات المستخلصة من العلوم الطبيعية ليست فلسفة الالمان حقيقة، ولا هي سبب هذه الحرب وفظائعها. وما سببها إلّا فلسفتهم الخاصة الخارجة عن مدار العلم الطبيعي، وهي فلسفة أثرة غير اجتماعية خيالية عريقة في الغموض والابهام.

الدكتور شبلي شميل

(٧) La Médecine Internationale, Mars 1916. Allocution du D.P.J. Larrieu, Paris.

«وإنّما الأرضُ له سكنُ»

لا يصلح الانسان مجتمعاً ... ما دام فيه الدينُ والوطَنُ
ولم يزل من علمهِ خطلٌ ... يضيع فيهِ العقل والزَّمنُ
محلّقاً في الغيب مختَبَلاً ... كانما الغيب لَهُ عَطَنُ
ويهمل الارض وما كنزت ... وانما الارض لَهُ سكنُ
وعلمُهُ ان لم يكن عملاً ... يرتاض فيهِ العقل والبدنُ
يستخرج الاسرار ما خفيت ... وتصدق العين بها الأذنُ
وشرعهُ ان لم يكن شرعاً ... وسنَّة الكون لَهُ سننُ
يقتسم الاعمال مشتركاً ... لا واسنٌ فيهِ وَلا وسِنُ[1]
وليس فيه مرهِق نهمٌ ... وليس فيهِ مرهَقٌ يهنُ
موطنهُ العالمُ اجمعهُ ... ودينهُ السلام لا الفتَنُ

**

لكنما القوم الألى ظعنوا ... لغيبهم هم الالى ضغنوا[2]
حبائل الدين لهم شركٌ ... لصيد قوم دونهم غبُينوا
ان لم يكونوا مركباً لهم ... أخنى على أيديهم الثَّفنُ[3]
ظلمٌ عليهم منهمُ وبهم ... من جهلهم في رأسهم رسنُ
والمرءُ ان ما اعتاد متربة ... فان تصنهُ فهو يمتهَنُ

---

(١) لا يقظ ولا خامل
(٢) مالوا الى الدنيا
(٣) يراد به العمل الشاق

الانتخاب الطبيعي
وفلسفة الالمان في الحرب*

للالمان ولع شديد بالفلسفة وهي عندهم فن عقلي تهتز به اوتار قلوبهم كما تهتز بالانغام الموسيقية وقد يبلغ بعضهم فيها حد الاعجاز فيغلق على القارىء فهم معانيه وادراك مبادئه فيتوهم ان الكاتب في منزلة سامية من المعرفة لا يدركه الاَّ الراسخون في العلم. وقد قيل عن احدهم انه اذا راجع ما كتب تعذر عليه فهمه لان الصور الخيالية اذا مازجت الحقائق العلمية شوهتها وافسدت مبادئها ولهذا فاغلاق معانيهم على افهام العامة ناجم من خلط الاوهام بالحقائق ومن توغلهم في عالم الخيال وخوضهم في بحر السفسطات. وفي هذه العجالة لا نتولى البحث في كل مبادئهم الفلسفية لكشف النقاب عن اغلاطهم وشرودهم عن الحقيقة بل تقتصر على نقد فلسفتهم في الحرب بحيث يبين للقارىء شذوذهم العقلي الذي ادَّى الى غرورهم واغراق العالم في بحر من الدم طغى عجاجه فهدم معالم الانسانية وشوَّه محاسن المدنية وحط كثيراً من معالم العلم والادب.

يقول بنهاردي: «ان الحرب عمل عادل لانه ينطبق على مبادىء البيولوجيا (علم الحياة) وبما ان الحرب ناموس بيولوجي فالغؤها غير مستطاع عدا عن انها واجب ادبي وعامل ضروري للتمدن».

نقول ان تفنيد هذا الرأي لا يحتاج الى عناء كبير ودرس طويل ويظهر فساده اولاً من ان بروسيا امة حربية من اول نشأتها وقد استعدت لهذه الحرب استعداداً لم يسبق له مثيل في التاريخ بما هيأت لها من وسائل الهلاك فجعلت النواميس البيولوجية مبرئة لعملها ولا غرابة اذا تمكن هذا الاعتقاد في اذهان الناشئة التي تعدها السلطة الحاكمة للحرب ليكون لها منها درع منيع بقواها العقلية فوق ما هيأت من القوات المادية.

ويقول كثيرون غيره من فلاسفة الالمان «ان الحرب تنازع بقاء وانها نتيجة الانتخاب الطبيعي وبما ان الامة الالمانية امة قوية وجب ان تنازع الامم الضعيفة حياتها حتى يغنى الضعيف ويبقى القوي جرياً على هذا الناموس الطبيعي».

يظهر فساد هذا الزعم من تفهم الانتخاب الطبيعي وادراك عمله الحقيقي فمبدأ الانتخاب الطبيعي يقوم على قاعدة تكاثر النسل فاذا كثرت المواليد كما في الاحياء الدنيا هلك الجانب الاكبر منها الذي لا يصلح للحياة وبقي القليل الصالح للحياة فناموس الانتخاب هو بقاء الاصح كما يقول سبنسر. وهنا يظهر خطأ الالمان في تفسير هذا الناموس لانهم لم يقولوا ببقاء الاصلح بل ببقاء الاقوى وفاتهم ان القوة البدنية ليست هي الاصلح للحياة لاننا اذا حبسنا اسداً في زريبة مسيجبة مات فيها جوعاً واما اذا حبسنا انساناً فقد يعيش لانه يفتكر دائماً بوسائل النجاة وحفظ الحياة. واذا جمعنا في الزريبة الاسد والانسان فالاسد يفترس الانسان مع انه ليس اصلح منه للبقاء. فاذا جعلنا الانتخاب الطبيعي مبرراً للحرب وجب ان نعتبر تنازع البقاء تنازعاً افرادياً اي صراعاً بين شخص وآخر وهذا من السخافة بمكان كما لا يخفى.

عرفنا من علم طبقات الارض ان انواعاً كثيرة من الكائنات الحية انقرضت بموت بعضها وتنوع البعض الآخر بتطبيق كيانه على ظروف وجوده فبقي حياً متنوعاً ومختلفاً عن اصله وذرية تلك الانواع الباقية هي الكائنات التي تعيش الآن على سطح الارض. هذه هي الحقيقة ولا حاجة للبيان ان الاحياء التي غلبت عاديات الايام وعاشت الى الآن هي الاصلح للبقاء ولا يمكن ان يكون بقاؤها نتيجة تغلب الافراد على العوامل الكثيرة التي عملت في ادوار التقلبات الكثيرة التي مرت بها الكرة الارضية كتقلبات الحرارة وتنوع والعوامل الكيماوية وجزر البحار وغيرها من العوامل الكبرى العمومية. ولم يكن ولا يمكن ان يكون في وقت من الاوقات ان ما تعمر به الارض من الكائنات الحية كان نتيجة تنازع افرادي اي قتال بين شخص وآخر وقتل الواحد وبقاء الاخر. واذا كان لهذا النوع من تنازع البقاء بعض العمل فهو قليل لا يعتد به ولا اهمية له. ومن المعلوم الذي لا ريب فيه ان الحيوانات الكبرى المفترسة وذات القوة الفائقة قد انقرضت وما بقي منها سائر الى الانقراض.

---

* المقتطف، المجلد ٤٨ (ابريل ١٩١٦)، ص ٣٢٧ - ٣٣١ وقد آثرنا ايراد هذه المقالة بكاملها استكمالاً لأبعاد النقاش حول فلسفة الألمان في الحرب.

ففلسفة الالمان اذاً في الحرب لا تستند الى ركن علمي صحيح لان البيولوجيا لا تدل اقل دلالة على جوازها وتحبيذها وليس في نواميسها ما ينطبق في الحالة الحاضرة من العلم على الروابط التي تربط الامم بعضها ببعض. وناموس الانتخاب الطبيعي اقل كلِّ النواميس الطبيعية دلالة على ذلك لان عوامل التمدن تعمل على الدوام في تنويعه وابطال عمله كما يتضح مما يأتي بيانه.

عندما يكتسب نوع من الانواع نمّاً كافياً من العقل يؤهله لنوع من الاجتماع تظهر فيه حينئذٍ معرفة ما نسميه بالواجب. اما الشعائر والعواطف النبيلة التي في الانسان كالحب والحنو والكرم وغيرها فانها لم تظهر فيه فجاءة بل سارت مرحلة فمرحلة حتى بلغت الدرجة السامية في الانسان المتمدن الراقي. فقد كانت في البداءة متجهة الى الاولاد وهم اطفال يحتاجون الى مساعدة والديهم ثم امتدت الى افراد العائلة الى الاقرب اولاً ثم الى الابعد واما احترام الشيوخ فهو من مراحل التمدن الاخيرة لان الامم المنحطة في سلم المدنية لا تزال تقتل شيوخها. ثم امتدت الى العشيرة فالقبيلة فالأمة. وقد قضت الضرورة بذلك بسبب تكاثر النسل الذي دعا الى اجتماع فئات كبيرة في مساحة ارض واحدة يستمثرونها ويعيشون من نتاجها وحاصلاتها فكان من الضرورة ان يتولد في افراد تلك الفئة المجتمعة الشعور بالتضامن فنشأ من هذا شعور اكبر واعتم وهو الميل الجنسي وحب الوطن ونما هذا الشعور فصار اكبر واعتم ودعا الى حب الانسانية واحترامها وهذه آخر مرحلة من مراحل الامم الكبرى وهي مرحلة الرقي والنمور ويعرف مكانها من الامة بكيفية استعمارها.

كلما ارتقى التمدن والعلم زادت قوة الانسان بالتحكم في الطبيعة وهذه القوة تظهر باستخدام القوة الطبيعية بالمعنى المفهوم منها في علم الطبيعة اي باصطناع الآلات القوية وحفر الترع وخرق الجبال بالانفاق وتظهر ايضاً في الكائنات الحية الحيوانية والنباتية وبها يقوم الانتخاب الصناعي مقام الانتخاب الطبيعي فيستخدمه الانسان لفائدته ومنفعته لان كل التنوعات الحيوانية والنباتية التي يستخدمها هي نتيجة الانتخابات الصناعية ولكنها ليست ثابتة وتفقد اذا فقد الانسان او لم يوال الاعتناء بها. ومن يلتفت الى الحدائق التي يعتني بها يندهش مما يرى فيها من النباتات الجميلة والازهار البديعة والبقول المفيدة والفاكهة الطيبة وهي كلها عمل الانتخاب الصناعي الذي يتولاه الانسان ويزول ويختفي بعد اهمال الحديقة وعدم الاعتناء بها. فالانسان الذي لا يركن الى الانتخاب الطبيعي في الحدائق ويستعيض عنه بالانتخاب الصناعي لا يعقل ان يترك نسله تحت رحمة هذا الانتخاب الاعمى والاّ لما كان للطب وعلم الصحة لزوم لتقليل معدل وفيات الاطفال ولجاز ان يترك العجزة والمعوهين عرضة للهوان والعذاب. فاذا لم يجز ذلك والالمان لا يجيزونه لانفسهم أفيجوز تطبيق الانتخاب الطبيعي على الامم المتمدنة؟ ذلك لعمر الحق لا يصدر الاّ من ادمغة مختلة التركيب وفاسدة العلم.

ليس من سداد الرأي ولا هو في شيء من العلم ان تكون القوة ركناً للانتخاب الطبيعي لان قوة الفرد لا تدل على كونه الاصلح للبقاء فاذا تصارع باستور وجونسون فلا ريب في ان باستور يكون مغلوباً كما انه لا ريب في انه اصلح كثيراً للبقاء من جونسون لانه خدم العلم والانسانية خدمات جليلة ومفيدة عدا عن ان القوة البدنية في الحرب ليست العامل الوحيد للنصر ولان النصر يستوجب صفات ممتازة من العقل والاخلاق.

يزعم الالمان انهم يمتازون بصفات سامية لا يتحلى بها شعب ذو رخاء وترف كالشعب الفرنساوي وانهم اذا اتخذوا في محاربته طريقة الارهاب ذل حالاً وسحقوه بسهولة وقد اخطأوا في هذا كما اخطأوا في ما سبق لانهم خلطوا بين التمدن والانحطاط فحسبوا ان الفرنساويين سائرون الى الانحطاط والانقراط رغم كونهم يرقون في السلم الاعلى والاشرف من المدنية واذا كانت فئة من الامة الفرنساوية تمثل بمقامها الاجتماعي الامة بمجموعها وظهرت فيها بعض ظواهر الانحطاط كعدم الكفاءة والاختلاص والانغماس في الملذات وتبرئة المجرمين فليس ذلك دليلاً على انحطاط الامة بكاملها لان رخاء الامة الفرنساوية كان نافعاً لها في ازمتها الشديدة اذ ادركت جيداً وسريعاً الخطر الذي يهدد كيانها فهمت للدفاع عن نفسها بروح واحدة وانتبهت فيها روح الحماسة والشجاعة الكامنة في دم ابنائها ويعتر لهم بها العالم بالاجماع وقد ظهرت تلك الروح جلية بقوة دفاهم وحسن بلائهم.

رسخ في ذهن الالمان ان قياد فرنسا قياد شخصي متطرف وان روح الوطنية فيها معدومة وقد اخطأوا في هذا ايضاً لان تلك الروح الشريفة روح الوطنية كانت كامنة بما كانت عليه الامة من الترف والنعيم فانتبهت بمنبه الخطر الداهم فعادت الى تقاليدها المعروفة وقامت قومة واحدة تنتصر للحق والانسانية واظهرت بخدمة هذا المبدأ كل ما لها من الصفات النبيلة التي يعترف لها بها العالم بالاجماع واخطأ ظن الالمان بضعفها او زوالها. وكان من حدة ذكاء

الفرنساويين انهم طبقوا احوالهم على حالة الحرب الحديثة وهم لم يكونوا مستعدين لها فاعدوا عدتهم من ذخائر واسلحة الى حد من الاتقان ربما فاق حد عدوهم بدون ان يلجأوا الى الوسائل المحرمة التي استعملها العدو.

ومن اغلاط الالمان المنطقية ان الفرنساويين بما هم عليه من الرخاء والرفاء لا يستطيعون الثبات طويلاً بل يتولاهم الضجر والقنوط لان الثبات على الحالة الحاضرة من الحرب العنيفة القائمة الآن لا ينطبق على حال بها الرفاهة وفاتهم انه لا يمكن لامة ان تبقى على سكينتها ورخائها بعد ما يحل بها ما حل بفرنسا من الدمار ولا سيما اذا كانت ذات انفة وشمم كالامة الفرنساوية.

وسنرى بعد هذه الحرب ان المستقبل لا يكون للامة التي تثير الحروب وتجعلها غايتها العظمى ووجهة قوتها المعنوية والبدنية لان كل النظامات الاجتماعية تقضي بالسير الى الامام في سبيل سعادة الانسان ولان الانسانية تأبى الرجوع الى الوراء الى ادوار الهمجية والبربرية فالامم التي يجب ان تنقرض ليس الامم التي تكره ان تخصص كل قواها ومجهوداتها للامور الحربية. فلا تنقرض الامم الضعيفة والصغيرة بل الامم التي تحاول العبث بمبادىء الانسانية كالاستقامة والصدق والمحافظة على حسن العلاقات بين الامم والتي تغدر وتذبح وتنهب وتدمر وترغب في الاستيلاء على العالم بهذه المبادىء وهذه الوسائل.

يحاول فلاسفة الالمان ان يستخرجوا المبادىء الادبية من الناموس البيولوجي فهم يجهلون البيولوجيا والادب معاً او انهم يغالطون في تفسير كلمة الناموس فيخلطون بين معناه العلمي ومعناه الاجتماعي فالنواميس العلمية ثابتة لا تحتاج لتطبيقها الى وساطة الانسان واما النواميس الادبية والاجتماعية فاتفاقات وضعت لتنظيم الحياة على نظام مشترك. واذا بلغت الجسارة من كبار امة الى القول بوجوب ارتكاب الجرائم وعدم استنكار الاعمال الخارجة عن حد الادب كان من الواضح ان تلك الامة قد آلت على نفسها ان تخرج من دائرة الانسانية وحق عليها القول انها سقطت الى اسفل دركات الانحطاط لان الانسان في دور الهمجية كان يفرح باعماله الهمجية ليرضي بها غريزته ولكنه لا يدعي الادب ولا يحاول ان يقنع سواه بحسن عمله. واما همجية شعب متمدن يدعي بلوغ المنزلة السامية من الرقي بل يتبجح بالكمال وينسب لسواه النقص فوصمةٌ عليه لا تمحى لان همجيته تكون سبباً لخسارة المدنية خسارة فادحة قد لا يرجى تعويضها كما حصل في هذه الحرب المشومة من خسائر النفوس والنفائس التي لا تقدر بثمن ولا يرجى تعويضها.

الدكتور

امين ابو خاطر

الى صاحب مبحث اجتماعي

الدكتور شبلي الشميل

[المقطم. العدد ٧٤٦٧، تاريخ ١٩١٣/١٠/١٧]

مع احترامي لصاحب مبحث الاصلاح الاجتماعي اياً كان واية كانت افكاره وللمقطم الذي ينشر ذلك والذي أعدّه في مقدمة جرائدنا الحرة لا اقدر ان اخفي ما احدث بي هذا المبحث على الوجهة التي طرقها حضرة الباحث من القنوط والاستغراب بتحامله على الاشتراكيين والعمال كأنهُ يريد ان ينصر بذلك مبدأ الاثرة في الاحكام وان يجمل الميزة لرأس المال على العمل. متذرعاً الى ذلك بادلة وحكاميات وفكار من عهد «العرش» كما يقول الافرنج أي اقرب الى عصر الطوفان منها الى عصرنا اليوم.

ولو نظر حضرة الباحث نظرة اجمالية قارن فيها بين الماضي والحاضر لظهر له الفرق جلياً ولكفى نفسهُ والقراء معهُ هذا الشرح الطويل ولعرف أن امتياز الحاض ر على الماضي الذي لا ينكرهُ أحد ليس الا من انتشار فكرة الاشتراك في ادارة المصالح العامة وتطبيقها شيأ فشيئاً على العمل. ولعرف كذلك أن الوقوف على بعض الحوادث الجزئية والحبوط فيها أحياناً لا يعول عليها كثيراً في المسائل العمومية لتوقف ذلك حينئذ على اسباب كثيرة خاصة وعامة ليس للصالح وعدمه دخل فيها واهمها المباينة بين النظام الجديد المنبوذ والقديم السائد ومخالفة ذلك لمجرى الافكار الغالية حتى لقد يظهر الحسن بمظهر القبيح وينقلب الشيء الصالح الى ضده. والحكم الصائل لا يكون الا بالقاء نظرة مقابلة عامة بين الاشياء الغالب فيها احد هذين المبدأين في العصور.

وليس مرادي في هذه الكلمة ان ادخل مع حضرة الباحث في مناقشة لا أظن انهُ يطول بهِ الامر حتى يوافقني فيها بل كل ما أريده ان ألفت نظره ونظر القراء الذين قد يسترسلون معهُ الى هذا النظر الاجمالي الذي كثيراً ما يستخف به الباحثون متلهين عنهُ بالحوادث الجزئية وتأويلها على غير مأخذها الحقيقي. وليس أصلح من هذا النظر البعيد الواسع لمعرفة الصالح من الطالح في نظامات الاجتماع وفي كل شيء ولا اقل من ان يقف الانسان «بقلبه» اليوم ان لم يقف «بعقله» على مناجم «كرديف» وما جاورها ليعلم عظم الشقاء والمخاطر المعرض لها العمال لاستثمار المال لاصحابه والذي بدون عملهم لا قيمة له مطلقاً. ومع هذا كله نجد حتى اليوم أناساً يستكثرون على هؤلاء العمال بلغة عيش يتبلغون بها وساعة راحة يطبلونها ولا يستكثرون على أولئك الذين يكنزون الاموال من وراء هذه الأعمال مرحهم فلي النعم. فمن وظيفة الباحث الاجتماعي ان يزيل الغشاوة عن بصائر الاجتماع وباهراته لا أن يسدلها عليها سميكة رفقاً بهذا الاجتماع الذي هو واحد منهُ.

مصر في ١٦ اكتوبر سنة ١٩١٣

الدكتور
شبلي الشميل

رد على رد

[المقطم العدد ٧٤٧٠ تاريخ ١٩١٣/١٠/٢١ ص ١ و٢]

حضرات الأفاضل أصحاب المقطم الأغر

اطلعت في مقطم يوم الجمعة الماضي على ما كتبهُ حضرة العالم الفاضل الدكتور شبلي شميل انتقاداً على «صاحب» البحث الإجتماي الذي نشر في المقطم فشاقني من حضرتهِ عطفهُ على العمال واكبرت اشفاقهُ عليهم ولكن فليسمح لي ان خالفهُ في سائر ما جاء في رده لانهُ لا برهان يؤيدهُ ولا دليل يقوم عليهِ وكل مقال لا برهان عليهِ ولا دليل لهُ هو رأي خاص لا يعتد بهِ. على انني اشفقت ان يؤخذ بعض القراء بما كتبهُ جناب الدكتور شميل لما لهُ من المكانة السامية في نفوسهم فأتيت بهذه العجلة اذود بها عن الحقيقة فارجو من حضراتكم أن تتكرموا بنشرها ولكم الشكر.

قال حضرة الدكتور في مقدمة ردّه «كاني (بصاحب البحث) أراد ان ينتصر لمبدأ الأثرة في الأحكام وان يجعل الميزة لرأس المال على العمل». ولكن الباحث لم ينتصر للمبدأ الأول بل أراد في ما كتبهُ تقرير الحقيقة الناصعة. فان الأثرة في الأحكام وسواها لا تزول من هذا العالم حتى يزول التباين العظيم في قوى الناس وطبائعهم واخلاقهم والا فما دام فيهم القوي والضعيف والمقدام والخامل والنشيط والكسول والعاقل والاحمق والطماع والقنوع الى آخر ما هنالك من التباين في القوى الجسدية والعقلية والنفسانية فهذا المبدأ ثابت ثبوت الجبال الراسيات لا يزول الا بزوال الناس وانقراضهم. واصدق شاهد على صحة ذلك ما أوردهُ الباحث عن استبداد زعماء اتحادات العمال واستئثارهم بالحكم في اخوانهم العمال المتحدين الذي هم أصل وجود هذه الزعامة ومصدر رزق أولئك الزعماء وهذا ما نراهُ الآن جارياً في انكلترا واميركا.

ثم ان صاحب البحث لم يجعل المزية لرأس المال على العمل بل جعلها للطب أو المقطوعية دونهما فقال ان قيمة الشيء لا تتوقف على مقدار العمل الذي فيهِ بل على الطلب عليهِ والمقطوعية منهُ ولا يستفاد من ذلك انهُ ميز رأس المال على العمل. فهذا محصول القطن في القطر المصري إذا زاد الطلب عليهِ بازدياد المقطوعية منهُ ارتفعت أسعارهُ والعكس بالعكس مع ان المال والعمل اللذين تستغرقهما زراعتهُ وجنيهُ لم يقلا بل زادا نوعاً.

واستغرب حضرته من الباحث استشهادهُ بحوادث قديمة قال انها «من عهد العرش» ولكنهُ لو أعمل فكرتهُ قليلاً لرأى أن الباحث اختارها لانها أدل على الحقيقة التي أراد تبيانها من سواها. فاذا كان حضرة الدكتور يتهكم على هذه الشواهد بحجة أنها قديمة فليتكرم علينا بسواها من الحوادث الجديدة التي تقوم مقامها وتدل دلالتها. وعلاوة على ذلك فان الباحث اضطر ان يستشهد ببعض الحوادث القديمة كالثورة الفرنسوية وحكومتي الكومين في فرنسا وغيرها اضطراراً لانهُ لا مثيل لها في التاريخ - الا اذا كان هناك شواهد سواها خفية على الناس.

وقد خلط حضرتهُ بين الاشتراك والاشتراكية مع أن الفرق بينهما عظيم جداً لا يخفى على أحد. فالاشتراك الاجتماعي أو التعاون الانساني هو من سنن الكون والمحج الذي يندفع اليه الناس بحكم التقدم والارتقاء وهم مسيَّرون فيهِ لا مخيّرون بل ان هذا الاشتراك هو اعظم

نواميس الحياة والبقاء وأرفعها شأناً. في حين أن الاشتراكية هي تعاليم خيالية ومبادىء نظرية لا قياس لها حتى ان زعماء الاشتراكيين أنفسهم مثل ليبنخت وكوتسكي وانجل وشال وسترن وبيل وديتيزجن وفون فولمر وماركس ومالون وولتمن اختلفوا في تحديد ماهيتها وان كانوا قد اتفقوا على الغرض المقصود منها وهو قائم باعتراف الاشتراكيين نفوسهم على الأركان الثلاثة التالية:

أولاً ـ المساواة بين الناس على اختلاف أجناسهم وتباين أخلاقهم وأطوارهم ومواهبم وقواهم الجسدية والعقلية والنفسانية.

ثانياً ـ انشاء نظام اجتماعي جديد يستغني به عن الحكومات والشرائع وحَفَظَة الأمن.

ثالثاً ـ تقويض اركان تنازع البقاء.

فأي عاقل يقول بأن تحقيق هذه الأمور ممكن وان مخالفة نظام الكون وسننِهِ ومقاومتها ميسورتان للإنسان من غير أن يجلب الشقاء على نفسهِ؟

وقال حضرتهُ: «ولو نظر الباحث نظرة اجمالية قارن فيها بين الماضي والحاضر لظهر لهُ الفرق جلياً ولكفى نفسهُ والقراء معهُ هذا الشرح الطويل ولعرف ان امتياز الحاضر على الماضي الذي لا ينكرهُ أحد ليس إلا من انتشار فكرة الاشتراك في ادارة المصالح العامة وتطبيقها شيئاً فشيئاً على العمل». وهنا عاد حضرتهُ فخلط بين الاشتراك والاشتراكية. فان الباحث لم ينف فوائد الاشتراك بل بالضد فقد قال وأن أحوال العمال تحسنت في نصف القرن الماضي تحسناً عظيماً فزيدت أجورهم وقللت الساعات التي يعملون فيها وعني بأمرهم من الوجهة الصحية وصاروا يعوضن مما يصابون به الى غير ذلك مما عددهُ في بحثه وكل ذلك بفضل تعاونهم وتآزرهم. ولكنهُ نفى فوائد الاشتراكية وابان ما عان بهِ تعنت غلاتها من الاضرار على الأعمال والعمال وعزّز ذلك ببراهين قاطعة لا تقبل رداً ولا جدالاً.

أما قول حضرتهِ: «وليس مرادي في هذه الكلمة ان أدخل مع حضرة الباحث في مناقشة لا أظن انهُ يطول بي الأمر حتى يوافقني فيها» فظن لا أوافقهُ عليه لاسيا وان علماء الاجتماع قد خاضوا في هذا البحث فلم يتركوا فيه باباً الا طرقوهُ فلا أقلَّ من ان يستعير الباحث أفكارهم وأراءهم ليحج بها حضرتهُ.

وختم حضرتهُ مقالتهُ بما حل بالعمال الذين احترق بهم منجم الفخم في كرديف فقال: «ولا اقل من أن يقف الانسان «بقلبه» اليوم ان لم يقف «بعقلهِ» على مناجم «كرديف» وما جاورها ليعلم عظيم الشقاء والمخاطر المعرض لها العمال لاستثمار المال لاصحابهِ والذين بدون عملهم لا قيمة له مطلقاً». وهنا اسأل حضرتهُ اذا كانت النكبات محصورة في العمال دون غيرهم من الناس. فما قوله في نكبة الباخرة «تيتانك» واصطدامات قطرات سككالحديد والزلازل والبراكين والاعاصير وسواها من النكبات التي تنزل ببني البشر فتصيب جميع طبقاتهم على السواء.

على ان القائلين بالاشتراكية التي ينادي حضرة الدكتور بها لا يحصرونها بالعمال كما يرى من محاولتهم لتعميم مبادئها ولكنهم كانوا اكثر اهتماماً بالعمال وسواهم لبساطة قلوب العمال وسهولة اثارة خواطرهم وتحريك عوامل السخط والاستياء في صدورهم وما على الدكتور شميل الا مراجعة تاريخ الاعتصاب في انكلترا في السنوات العشرة الأخيرة ليتحقق صدق ما تقدم.

واني أتحدى الدكتور شميل وسواهُ من انصار الاشتراكية ليثبت لي ان شركات سكك حديد وأصحاب مناجم الفحم في انكلترا مثلاً هم أكثر ربحاً من عمّالها.

وقد سبق الباحث فأثبت ان قيمة الشيء لا تتوقف على العمل الذي فيهِ. فهب ان الطلب على الفحم قل في العالم او زال تماماً فما هو الربح الذي يعود على اصحاب الأموال حينئذ من استثمار أموالهم في استخراج الفحم من مناجم كرديف وغيرها وما هي قيمة العمل في ذلك؟

هذا وما من أحد يستكثر على العمال بلغة من العيش يتبلغون بها وساعة راحة يطلبونها بل يستكثرون عليهم غلّوهم في المطالب واغراقهم فيها اغراقاً لا يتفق مع ما تتطلبهُ الصناعة والزراعة والتجارة وتوجبهُ احوالها في هذه الايام.

وأبلغ ما يحج بهِ حضرتهُ هو ما ذكرهُ الباحث في مقدمة بحثهِ اذ قال: «ان أهم ما يقتضيهِ الاصلاح الاجتماعي الآن هو السعي للتوفيق بين العمال واصحاب المال وافهام الفريقين ان مصلحتهما واحدة لا تتجزأ وحملها على التعاضد والتعاون والاقلاع عن الحروب الاقتصادية التي يشهرها احدهما على الآخر والغاء الضرائب الفادحة التي فرضها التشريع الاشتراكي على الاملاك ورؤوس الأموال وعادت بالخراب على جميع طبقات المجتمع». وقال أيضاً في التمهيد الذي مهدهُ لبحثه «فهذه الحال تفضي على كل صاحب ذمة ومن في قلبه ذرة من الشفقة والحنان وكل من يؤمن بالله والمعاد ان يهتم باصلاح الشرور العديدة التي تحيق بالناس من جراء ما افسدتهُ القوانين من شؤونهم وان يسعى الى التقريب بين طبقات البشر ويرسخ في الأذهان ان الهيئة الاجتماعية على اختلاف مراتبها متكافلة متضامنة فما يصيب صاحب العمل أو البائع أو المؤجر من خير وشر يسيب العامل والمشتري ايضاً والعكس بالعكس. وان يوثق الربط العائلية لانها اسس الربط البشرية عامة بل جذور شجرة الاجتماع ومصدر حياتها وعلة بقائها».

فأقوال مثل هذه لا تدل على تحامل الباحث على طبقة العمال وانما الحقيقة اوجبت عليه كما توجب على كل باحث ان يذكر ما ذكرهُ في بحثهِ واحدث القنوط والاستغراب في نفس حضرة الدكتور.

«باحث»

مذهب داروين ووجود الله

[مجلة الهلال، ج ٢٥ (كانون الثاني ١٩١٧) ص ٣٤٠ - ٣٤١].

سؤال من **اسيوط**: عبده أفندي بخيت عوض

هل مذهب داروين ينفي وجود الله؟ وما هو الأساس الذي بنى عليه نظريته وكيف برهن عليها؟ وهل وجد بين فلاسفة الأقدمين من جاهر باعتقاد كهذا؟

مجلة الهلال: ليس في مذهب داروين ما ينفي وجود الله مطلقاً وأكبر برهان على ذلك ان داروين نفسه كان مؤمناً متديناً إلى آخر لحظة من حياته. وترى كثيرين من علماء هذا العصر يسلمون بهذا المذهب مع بقائهم على ايمانهم. نعم، ان التسليم بمذهب داروين يقتضي التنزل عن بعض العقائد الشائعة وينافي صريحاً ما جاء في الكتب المقدسة عن الخليقة وأصل الانسان (ان لم تفسر تلك الأقوال تفسيراً ملائماً) بل قد يضطر من يقبل ذلك المذهب إلى تغيير نظره في الله وتصوره لصفاته ولكن كل ذلك لا يحتم نكران قوة أزلية غير مدركة هي المرجع الأول والأخير لكل ما في الكون.

ولعل السبب في الوهم الشائع عن مخالفة مذهب داروين للدين كان من جهة مقاومة رجال الدين له مقاومة شديدة وتعصبهم عليه لاعتباره بدعة دينية ولمخالفته الآراء المتوارثة جيلاً بعد جيل، ومن جهة أخرى تطرف رجال العلم الذين خلفوا داروين في تفسير مذهبه والشطط في النتائج التي توصلوا إليها. على ان هذا الخلاف اليوم آخذ في الزوال بعد أن خف تعصب رجال الدين كما خفّ تعصب رجال العلم.

ولا بد لنا هنا من التمييز بين النشوء والارتقاء (أو نظرية التحول) ومذهب داروين. فليس مذهب داروين إلّا تعليلاً لتلك النظرية، فإن نظرية النشوء والارتقاء تقرر تدرج الاحياء في النشوء وتسلسلهم. أما مذهب داروين فإنه يعلل ذلك التسلسل بما قد سماه الانتخاب الطبيعي أي ان تهافت الأحياء على موارد العيش المحدودة يؤول إلى تنازع البقاء وبقاء الأنسب. وقد يسلم الانسان بنظرية النشوء والارتقاء ويراها معقولة ولا يسلم بمذهب داروين أي بتعليله الخاص.

وقد علل لامارك قبل داروين النشوء والارتقاء تعليلاً غير هذا التعليل. فقال ان النشوء والارتقاء إنما ينجم عن تكيف الأحياء وفقاً لبيئتها وتوارث الصفات المكتسبة. كذلك قام هوجو دفريس أخيراً بتعليل جديد هو «التحول الفجائي» أي أن تباين المخلوقات لا يتم بالتدريج كما قال داروين بل يحدث فجأة.

وعلى ذلك فإن كثيرين من الفلاسفة أدركوا الاتصال بين المخلوقات الحية منذ قديم الزمن وقالوا بوجود قرابة بين الانسان وسائر الحيوانات ولكنهم لم يتوصلوا إلى إيجاد تعليل وافٍ يبين «كيف» تم ذلك. وفضل داروين على العالم هو انه قضى حياته في جمع الحقائق والوقائع إلى ان استخلص منها نظريته المشهورة

الصداقة والحوار بين شميّل وميّ

فكانت ميّ تحاوره تارة بجد وبرهان وتارة بدعابة وتهكم، قائلة لشيخها المعجب بنبوغها:

فيضحك الطبيب الشيخ شبلي لحوارها الهازل وقولها له: إنه متعصب لإلحاده متشبث بعناده.

وكان يناديها برسائله الأدبية التي يبعث بها إليها مع مقالاته لنشرها في جريدة أبيها المحروسة: «صغيرتي الحلوة» وإذا شاء أن يرق في إعجابه بأدبها جعل كلامه منظوماً، فيرسل إليه أبياتاً من نظمه تزيدها دعابة في نقدها لآرائه.

ولما توفى الدكتور شميل كتبت «ميّ» حواراً جعلت فيه «ابن سينا» بطل الفكرة وهي تعنى به صديقها العنيد الملحد، فمما جاء في موضوعها، أن ابن سينا سأله الملكان المحاسبان بعد وفاته:

ـ من ربك يا هذا؟.

فأجاب:

ـ ربما ما كان أن كان فهو قد كان..

ولم يفهم الملكان هذا الجواب، فعادا إلى ربهما يقولان:

ـ جاءنا رجل من الدنيا، وسألناه عن ربه فقال:

ـ ربما ما كان أن كان فهو قد كان... وقد حيرنا هذا الكلام فلم نفهم منه شيئاً.

فسألهما الإله:

ـ ما اسم الرجل؟

فأجاب الملكان:

ـ ابن سينا...

فقال الله:

ـ بقى ابن سينا هذا ـ أو شبلي شميل ـ يردد في حياته مثل هذا الكلام، فلم أفهم منه شيئاً، فكيف تريدان أنتما أن تفهما قوله هذا بعد وفاته؟

انظر: وداد سكاكيني ـ ميّ زيادة في حياتها وآثارها، دار المعارف، مصر ب.ت.

«شبلي شميّل واسلوب المصارع في حلبة الفكر والشعور.»

وردت هذه العبارة على قلم عبّاس محمود العقّاد حين تحدّث عن ندوة الثلاثاء في منزل الآنسة مي وأتى على ذكر الرجال الذين عرفهم حول ميّ زيادة. انظر: **رجال عرفتهم**، كتاب الهلال، اكتوبر ١٩٦٣، العدد ١٥١، ص ٢٠٨ - ٢٠٧

كان للدكتور شميل دور الاب العصري الذي يحض فتاته على (التحرر) من قيود التربية العتيقة، وكان رفع الكلفة مع الناس جميعاً طبعاً من طباع الدكتور شميل لا يتكلفه مع أحد. فاذا استقبلته يوما في الندوة، فلمح على محياها أثرا من آثار الوجوم والاحتجاز، صاح بها صيحته - الغضنفرية - : ما هذا يا صغرتي!.. انا حاضر هنا الى صغيرة مثل بناتي.. فماذا ارى؟ شيخة اناديها يا أم شولى؟

وكان شميل يملك حريته كلها في الندوة، كأنه صاحب الدار وصاحبته هي الضيفة الزائرة فيه.. فرفع عصاه ذات يوم على الخطاط المشهور نجيب هواويني ولم يدعه حتى اخرجه من الباب، وذنبه الذي استحق عليه هذا الطرد العنيف انه كتب قصيدة كان الدكتور يلقيها ويقول فيها على ما اكذر:

ماذا دهاك وكنت دين سياسة
ورئاسة يأيها الاسلام

فكتب الخطاط (الكسلان) بدل الاسلام، وثارت ثورة الدكتور على الرجل الذي يبلغ من غبائه ان يكتب في القصيدة الواحدة قافية بالنون بعد قافية بالميم، وابى ان يكون لمثل هذا حق في حضور ندوة يحضرها من يقرءون ويكتبون!

وكثيراً ما كان شميل يحمل على «الادبا» في عصره حملاته المنكرة، ويصيح بهم كأنهم حاضرون امامه يخاطبهم ويخاطبونه:

- فضونا من غلبتكم يا ادباتية يا اولاد الكلب..!

وكانت الآنسة تجيبه ضاحكة كلما صاح هذه الصيحة:

- قلمك يقول اننا اولاد القرد ولسانك يقول اننا اولاد الكلب.. فمن من الوالدين الكريمين تستقر نسبتنا اليه!.»

ومن مطران مورد «مي» الاكبر من النوادر المسوعة والفكاهة المنقولة عن المصادر العربية، منه سمعت نادرة «الاسطقسات» التي تعودت ان تعيدها في بعض المناسبات

كلما ذكرت الفلسفة، وقيل ان غموضها داء يسكن العقل ولا يفارقه بفراق الروح للجسد:

مات «ابن سينا» فصدرت الاوامر السماوية الى الملكين الموكلين بأهل المقابر لسؤاله عن ربه ودينه قبل ان يستعد للحساب بفلسفته المعهودة، وسأله منكر:

- ما ربك؟

قال: انه اسطقس فوق الاسطقسات!

فنظر الملك الى صاحبه مستفسراً وأومأ اليه ان يعيد هو سؤاله لعله يسمع ما لم يسمعه، فقال له نكير:

- من الهك؟

قال الشيخ مرة اخرى: قلت لك انه اسطقس فوق الاسطقسات.. الا تسمع؟

فلبث الملكان لحظة يتبادلان النظر، وهما لا يفهمان شيئاً، ولا يدريان كيف يتممان الحساب ويخلصان من هذه المهنة مع هذا الميت المتعب، واتفقا أخيراً على الرجوع الى الله ليأمره بما يراه..

فلما رويا القصة سألهما: ومن هو الرجل؟

قالا: اسمه ابن سينا ولقبه «الشيخ الرئيس»

قال جل وعلا: ويحكما.. تريدان ان تفهما من هذا الرجل حساباً؟.. انه قضى عمره يزعم انه يتكلم في صفاتي الالهية ولا اسمع منه كلاما مفهوما وأنا صاحب الصفات.. اتفهمانه انتما في سؤال وجواب.. دعاه ولا تعودا اليه..».

* عباس محمود العقاد - **مطالعات في الكتب والحياة**، المطبعة التجاريّة الكبرى، مصر ١٩٢٤، ص ٢١٣ - ٢١٤.

جريدة «البصير» في الاسكندرية

أنشأها رشيد خليل شميّل (١٨٥٥ ـ ١٩٢٨) في مدينة الاسكندرية كصحيفة يوميّة، وصدر العدد الأول منها بتاريخ أول أيلول (سبتمبر) ١٨٩٧. ورشيد شميّل هو ابن أخ الدكتور شبلي شميّل من أبيه ابراهيم شميّل. درس في الحكمة (بيروت) ثم انتقل إلى مصر للعمل في جريدة **الأهرام**. وأصدر عام ١٨٨٩ «رواية الهوى العذري» معرّبة عن الافرنسيّة.

أما جريدة **البصير** التي نشر فيها الدكتور شبلي شميّل الكثير من مقالاته وآرائه، فقد وصفها لنا الكاتب المصري عباس محمود العقاد في «حياة قَلَم» وإبّان فترة الحرب العالمية الأولى، على النحو التالي:

«وكانت **البصير** صحيفة القطن والتجارة. لا تُعرَض للبيع في خارج الاسكندرية، ولا تُعرَض للبيع في الاسكندرية نفسها، إلّا على مقربة من البورصة ومخازن الميناء. وكانت الصحيفة تعيش باشتراكات التجّار والسماسرة ورسوم الاعلانات القضائيّة من المحاكم المختلطة، ولا تُذكر فيها شؤون السياسة المصريّة إلّا كما تذكر في صحيفة «خارجيّة».

(**حياة قَلَم**، مكتبة غريب. القاهرة: ب. ت. ص ١٧٢)

انظر: **الكتاب التذكاري لجريدة البصير في عيدها الذهبي** (١٨٩٧ ـ ١٩٤٧)، مطبعة البصير، الاسكندرية ١٩٤٨.

حول كتاب «الصحائف» لميّ

قرأت فيما قرأت من هذه الصحائف مقالة «الدكتور شميّل شاعر» فتبسّمت وأنا أقرأها لأنني تذكرت نكتة للمرحوم صبري باشا روتها الآنسة لنا في صدد الكلام على شعر الدكتور شميّل. ومعرض النكتة ان الطبيب والشاعر اجتمعا مرة في مجلسها الزاهر الذي تستقبل فيه الزائرين كل ثلاثاء وتجري فيه المساجلة الممتعة في الأدب والعلم والفكاهة. فجعل الطبيب ينشد الشاعر من شعره الإلحادي الذي يعرفه قراء المعاطس وهذا ساكت كالمصغي المتجلّد لا يبدي رأياً حتى فرغ الطبيب من إنشاده وسأله ما قولك؟ فالتفت صبري باشا كأنه قد أدى كل ما عليه من الصبر وقال له:

ـ «هذا كفر أم شعر؟ فإن زعمته كفراً فهو كفر بلا مراء... أما أنه شعر فلا يا صاحبي! لا». ولا تسل عن سخط الدكتور ورطانته الأعجميّة بعد هذا الجواب!!

ولكني قرأت فيما روته الآنسة من نظم الشميّل شعراً هو شعر ليس بالكفر لا كذلك الكفر الذي ليس بالشعر. فعلمت أنه قد ظلم شاعريته كما ظلم سائر الشعراء. لأن من يستطيع أن يقول من بعض نظمه:

حبذا زهر الربى من كل صافٍ ومخضّب
مثل فجر مستطير أو كأفق قد تلهّب
يتهادى في نسيم كتهادي الطفل يلعب
والندى من فوقه حسير ان كالدمع تصعّب
قلق مما يعاني قلق القلب المعذّب

من يستطيع أن يضرب على هذا الوتر ولو مرة واحدة في حياته قد كان قادراً ولا شك أن يعيد النغمة مراراً وان يكون أشعر مما كان لو أراض قريحته على معاني الشعر وعباراته؛ لولا شدة تعصبّه للعلم.

... أما أنا... فأتشفّع لطبيبنا عن الآنسة (ميّ) فأبرئه من تهمة الفلسفة كما برأ نفسه منها. وكيف يكون فيلسوفاً من يرى أن مذهب دارون قد فضّ مغالق الوجود وأبطل الحدس في ألغازه ومسائله ونقض ما تقدم وما تأخر من مذاهب الفلاسفة وقطع بحكمه الفاصل قول كل

* عباس محمود العقاد: حياة قلم، مكتبة غريب، القاهرة، ب. ث. ص ١٧٢.

خطيب؟ على أنني لست أرحم من الآنسة مي كما أريد أن أزعم . . . لأنني سأقول أن الدكتور شميّل متديّن!! نعم متدين شديد التديّن بدليل حماسته في الالحاد واشتغاله به طول حياته، ولا يكون الالحاد شغلاً شاغلاً وحماسة متقدة إلّا إذا مازجته روح الدين؛ أو كانت فيه على الأقل إثارة منة.

كانت في الثغر الاسكندري ثلاث صحف يومية هي: البصير، ووادي النيل، والأهالي.

وكانت «**البصير**» صحيفة القطن والتجارة، لا تعرض للبيع في خارج الاسكندرية، ولا تعرض للبيع في الاسكندرية نفسها إلّا على مقربة من البورصة ومخازن الميناء، وكانت الصحيفة تعيش باشتراكات التجار والسماسرة ورسوم الإعلانات القضائية من المحاكم المختلطة، ولا تذكر فيها شؤون السياسة المصرية إلّا كما تذكر في صحيفة «خارجية».

الصين: أمّ الجرائد

الصين مستقبلها لها:

من قبل ومن بعد

(١٨٩٨)

حضرات أصحاب المقتطف الأفاضل

بمناسبة ذكركم أقدم الجرائد في مقتطفكم الأخير أبعث إليكم بالمقالة الآتية وقد نشرتها في البصير سنة ١٨٩٨ أي منذ أربع عشرة سنة فلعل تدوينها في مقتطفكم الزاهر يكون به بعض الفائدة التاريخية وجوهرها مأخوذ عن المجلة الأدبية الزرقاء الفرنساوية وأغتنم هذه الفرصة لشكركم على عنايتكم بانتقاد آرائي وأغبطكم كثيراً على أن معدتكم أوسع جداً من معدتي واقبلوا فائق احترامي أما المقالة فهي]*:

«المشهور أن الجرائد من مخترعات أهل أوروبا وان أول جريدة مطبوعة ظهرت في مدينة البندقية (فينيسيا) في القرن السادس عشر للميلاد. والذي علم لنا اليوم أن هذه الدعوى باطلة فالصحافة ليست من منشئات أهل أوروبا فقد عرفها أهل آسيا قبلهم بزمان طويل كما عرفوا أميركا قبل خريستوف كولمبوس والطباعة قبل غوتنبرغ وكما عرفوا البارود والبوصلة التي عليها المعول في فن سلك البحار وكما عرفوا كذلك صناعة الخزف ونسج الأقمشة البديعة التي لا يجاريهم فيها مجارٍ حتى اليوم والبلاد التي سبقت أوروبا إلى كل ذلك هي مملكة الصين أوسع ممالك الدنيا أرضاً وأكثرها سكاناً».

«فمن ضمن الجرائد المعمرة التي تقرأ حتى اليوم في مملكة ابن السماء كما يسمون مملكة امبراطور الصين يوجد في مدينة بكين (ومعناها عاصمة الشمال) جريدة يومية تدعى «كين بان» ومعناها المجموعة السنوية ظهر أول عدد منها منذ ألف ومائة سنة وجريدة أخرى شهرية تدعى «تسين راو» ومعناها المجلة ظهر أول عدد منها منذ أربعة عشر قرناً والحروف التي استخدمها الصينيون لطبع هاتين الجريدتين من الخشب».

«فتسين راو» ابتدأت شهرية أي تصدر مرة كل شهر وبقيت كذلك حتى اليوم وأما «كين بان» فابتدأت شهرية كسالفتها ثم وسعت مواضيعها ولم تقتصر على ما يهم الخاصة بل تقربت من العامة فأكثرت نسخها وانقلبت يومية منذ سنة ١٨٣٠ للميلاد

---

* انظر المقتطف، ج ٤١، اكتوبر ١٩١٢، ص ٣٨٣ - ٣٨٥، باب «المراسلة والمناظرة». وقد أعاد شميّل نشرها تحت عنوان «أم الجرائد» في الجزء ٢ من مجموعته.

ثم زاد انتشارها كثيراً فأخذت تصدر ثلاث مرات في اليوم وسبقت أميركا وأوروبا في استعمال الورق الملون للدلالة على طبعاتها المختلفة فطبعة الصباح لون ورقها أصفر وطبعة الظهر أبيض وطبعة المساء رمادي.

«وفي أول نشأتها كانت مقتصرة على تقييد الحوادث السياسية المهمة من دون أن تبدي فيها رأياً وذكر جميع الأخبار ذات الشأن الذي كانت تأتيها من كل جهات الصين وملحقاتها اليابانية والأنامية والكورية نسبة إلى بلاد أنام وكوريا وهكذا كانت توقف قراءها على حوادث أيام السنة واصفة الأعياد والاحتفالات والجمعيات ولم تحرمهم كذلك من فكاهات القصص والحكايات الخرافية ولا من ترويض العقل بنشر الأشعار التي كان يوفيها بها مشاهير الشعراء».

«ثم صارت تبدي رأيها في الحوادث السياسية ولكن مع التزام جانب الاعتدال وتذكر كل ما يقال ويجري في المدينة كما تفعل أعظم جرائد باريز ولوندرة. ومما يستحق الذكر أن هاتين الجريدتين لم ينصب عليهما غضب الحكام بالتعطيل والالغاء ولا ثار عليهما الشعب بالمظاهرات العدوانية والسبب اعتدالهما في كلامهما واتفاقهما على مبادىء هي بين الصينيين واحدة لتمسك البلاد كلها بشريعتها كأنها فيها رجل واحد ولعدم وجود الأحزاب بسبب ذلك وربما كان هو السبب أيضاً في أن تلك البلاد التي هي بالحصر مهد الانسان ومنشأ العمران وأم الجرائد التي هي من أقوى عوامل المدنية لم تتقدم منذ مئات من السنين بل لبثت واقفة كالبلية رأسها في الولية حتى حركت عليها مطامع الدول الأوروبية من عظيمة وصغيرة وغنية وفقيرة فاندفعت نحوها كل يطلب نصيبه انكلترا وروسيا والمانيا وفرنسا حتى ايطاليا(1) هاجتها المطامع فكأنها أصبحت كما في قول الشاعر:

لقد هزلتْ حتى بدا من هزالها ... كلاها وحتى سامها كل مفلس

«ولعل نفس السبب الذي أوقعها في الخمول سيكون السبب أيضاً لوقايتها من الوقوع في حبائل الدول الأجنبية زماناً طويلاً فيتحول خمولها إلى نهضة بمحاكاة الدول الغربية لها واقتباسها عنها أسباب تمدنها فتهب حينئذٍ حزباً واحداً وقوماً واحداً من جنس واحد ولغة واحدة ودين واحد فترد عنها مطامع الاحتلال وتحفظ لنفسها الاستقلال ولذلك يرجح أن الدول الأوروبية تشتغل هذه المرة لمصلحة سواها ضد مصلحة نفسها خلافاً للمشهور حتى اليوم فالصين مستقبلها لها من قبل ومن بعد والآتي أضمن لها».

الدكتور شبلي شميل

(1) منذ نحو ١٥ سنة لم تكن إيطاليا كما هي اليوم.

سابقية العرب في استعمال الجرائد

[المقتطف، ج ٤١ (نوفمبر ١٩١٢) ص ٤٩٣ - ٤٩٤].

حضرة الأفاضل أصحاب المقتطف

ذكر حضرة الدكتور **شبلي شميل** ان أوروبا ليست أول مخترعة للجرائد في رسالته (أم الجرائد) فتذكرت حكاية كنت قرأتها في (كشف اسرار المحتالين) للعلامة الجوبري الدمشقي من علماء القرن السابع الهجري في الفصل التاسع منه تنبيء بسابقية العرب على أوروبا في اختراع الجرائد مضمونها أن رجلاً أعجمياً دخل دمشق في زمن السلطان نورالدين محمود زنكي المتوفى سنة ٥٦٩ هجرية ومعه ألف دينار بردها وخلطها بالفحم وباعها لأحد العطارين باسم طبرمك خراساني بخمسة دراهم ثم اتصل بالأعيان وأظهر انه عالم بصناعة الكيمياء وحالف انه لا يصنعها إلاّ لملك يحلف له انه ينفقها على الغزو وغيره من المصالح التي تعود على المسلمين بالخير وكانت الحرب ناشبة في ذلك الوقت بين الافرنج والسلطان نورالدين فلما بلغه خبره أرسل أحضره وأمره بصنع الذهب على الشرط المذكور فأمر بإحضار أصناف مختلفة ومنها الطبرمك المذكور آنفاً فحضرت وتولى صنعها أحد خدم السلطان حسبما وصف له الأعجمي فاحترقت الحوائج ودار الذهب فصب سبيكة بيعت بألف دينار فلما رأى السلطان ذلك انبهر وأمر بصنعها ثانية فلم يجد (طبرمكاً) بدمشق فأخبر السلطان انه يوجد كثير منه بغار في جبال خراسان فليأمر من يحضره له لأنه لا يتم العمل إلاّ به. فوقع اختيار السلطان على إرساله هو فأرسله بعدما جهزه بمال كثير وكتاب إلى الأمراء الذين يمر بهم بالمحافظة عليه فأخذ ذلك وذهب من حيث أتى.

قال: وكان في دمشق صاحب جريدة يكتب فيها أسماء المغفلين فكتب في رأسها: «السلطان نورالدين محمود رأس المغفلين» فوصل الخبر إلى السلطان فأرسل إليه يحضره فلما مثل بين يديه قال أأنت فلان الذي يكتب أسماء المغفلين قال نعم وكتبت اسمك وأراه الجريدة. قال وأي شيء ظهر لك من تغفلي حتى تكتب اسمي قال ومن يكن أغفل منك وقد جاءك أعجمي واحتال عليك بألف ديا أخذها من مال المسلمين زاعماً انه يأتيك بالطبرمك فإن رجع الأعجمي وجاء به محوت اسمك من الجريدة وكتبت اسمه لأنه لا يكون في الأرض أغفل منه فضحك السلطان وقال أعطوه شيئاً ينفقه.

فصار صاحب هذه الجريدة كلما أفلسد أخذ جريدته وتوجه إلى السلطان وقال له إن الأعجمي لم يأت وهذا اسم السلطان مكتوب فيضحك ويأمر له بما ينفقه.

فإذا نظرنا إلى هذه الحكاية نجد أولاً انه كان لأسلافنا حرية في القول وقوة جأش في اظهار الحقائق مع ما كان عليه ملوكهم من الاستبداد.

وثانياً ان هذه الحكاية وقعت في القرن السادس للهجرة وقد ظهرت أول جريدة أوروبية في القرن السادس عشر للميلاد بمدينة البندقية كما أشار إلى ذلك حضرة الدكتور شميل فعلى ذلك يكون العرب قد سبقوا أهالي أوروبا إلى اختراع الجرائد بأربعة قرون أو أكثر فما قولكم في ذلك.

حامد السيد الطنطاوي

[المقتطف]

إن ما نقلتموه انما يثبت وجود كلمة جريدة بالعربية في القرن السادس الهجري واستعمالها بمعنى الدفتر مثل جريدة الخراج. ولكن العرب لم يستعملوها بمعنى صحف الأخبار ولم تستعمل بهذا المعنى إلّا عندما انشئت صحف الأخبار عندنا في أواسط القرن الماضي وأُطلق عليها اسم الجريدة. ومع ذلك فإننا نرى انه كان يصح أن يسمى مثل تاريخ الجبرتي جريدة بمعناها المستعمل الآن لو استوفى الشرط الأهم من شروط صحف الأخبار وهو أن تكتب منه نسخ كثيرة وتنشر كل يوم أو كل اسبوع. فإذا امكننا أن نثبت أن العرب كانوا يكتبون الأخبار اليومية في صحيفة وينشرون منها نسخاً كثيرة في وقت واحد ثبت لنا انها كانت جرائد بالمعنى الذي نفهمه الآن.

مجلس الدكتور شميّل

مجلة الهلال، السنة ٢٦، ١٩١٨ - ١٩١٩، ص ٧٩ - ٩٠.

اجتمعنا في منزله اجابة لدعوة «الشاعر الممتاز رقة»[١] طانيوس عبده صاحب جريدة الشرق الاسكندري[٢] والراوي ومعرب الروايات المشهورة. وكان الشميّل يومئذٍ «ارمل العشب»[٣] فرأى فيلسوفنا أن يستعيض عن عناية زوجته بأمور بيته ومائدته بالصديق طانيوس عبده وهو آل خبرة في أمور المائدة. والشميّل لا يريد أن يتحمل أقل عناء وفي الوقت نفسه يريد كل شيء كاملاً. فصار متى عاد إلى منزله لطانيوس: «نحن الضيوف وأنت رب المنزل».

واجتمعنا فكنا:

الدكتور شبلي شميل	الفيلسوف
البرنس محمد علي حليم	السري الشريف
أحمد زكي باشا	الموظف العالم
سليم بك بسترس	المحامي
الدكتور صابر بسيط	الطبيب
نجيب أفندي شاهين محرر المقتطف	الأديب
طانيوس أفندي عبده	الشاعر
سليم سركيس	الصحافي

فكنا أشبه بمجمع علمي منا بوليمة وألعاب. والذين يجتمعون في منزل الدكتور شميّل ينعمون بمائدتين: الأولى بيضاء مستطيلة تقبل المزيد، وتملأ العين بهجة، والجوف قوتاً. كريمة لا تضيق بالضيوف وان كثر عددهم كأنها تناجي الجالس بقول الشاعر:

بشاشة وجه المرء خير من القرى   فكيف إذا وافى به وهو ضاحك

والثانية زرقاء مستديرة، تملأ القلب حسرة، والحبيب فراغاً، لا محل حولها لأكثر من خمسة أشخاص وما زاد على ذلك العدد فمن الشرير. ولسان حالها ينشد قول الشيخ نجيب الحداد:

لكل نقيصة في الناس عار   وشر مصائب الناس القمار

(١) حافظ ابراهيم في «سطيح».

(٢) لما انفصل طانيوس عبده عن شريكه في إدارة جريدة الشرق واستقل في عمله نظم قصيدة قال في مطلعها:

الحمد لله لا شريك له   والحمد لله ليس لي شركا

(٣) كذلك يعبر الانكليز عن الرجل الذي تغيب عنه زوجته. وكانت مدام شميّل يومئذٍ تقضي الصيف في الاسكندرية.

جلسنا إلى المائدة البيضاء وتمتعنا بما لذ وطاب من طعام وشراب وأحاديث وآداب. وجلس الشميل في محله من المائدة وقد جلست بجانب صحنه من الجهة اليمنى قطة بيضاء لها حسن ظن به وله تعلق بها فيعاملها معاملة الأب لطفله الوحيد[1] ويحرم نفسه من أطايب الطعام لأجلها. ثم شعر باستغرابنا أمر هذه القطة فقال:

ـ هذه قطة تاريخية قامت عندي مقام الولد ولما كان مدبر هذا الكون قد اختار أن لا يكون لي نسل فقد اخترت أن أعطي محبتي وعنايتي لهذه القطة وقد جعلها صاحبنا ووليّ نعمتنا في هذه الأيام طانيوس قطة تاريخية.

فقال الحاضرون: ـ وكيف ذلك؟

قال: إن طانيوس نظم فيها قصيدة هي من نفيس الشعر. إجابة لاقتراح سليم سركيس وهي في حبيب سركيس وقد احتكرها لتنشر في مجلته.

فاقبلوا عليّ يطلبون سماعها فقرأتها لهم وهي:

الهرة البيضاء يا سادتي   هرة مولانا الحكيم الكبير
بيضاء مثل القطن قد فتحت   أكمامه ملساء مثل الحرير
صماء إلّا حين تغلي القدور   بكماء إلّا حين يأتي الفطير
نرى مثل الليث لكنها   في سائر الحالات ظبي غرير
ما شاقني إلّا التفاتاتها   حين ترى في الغصن طيراً يطير
وحين تلوي عنه من عجزها   ذابلة العين بقلب كسير
تختال عجباً بين أضيافها   كأنها الطفل الوحيد الصغير
ما لذها الضيف ولكنها   قد لذها الأكل الشهي الكثير
حتى إذا أقبل استاذنا   وانتدب الطاهي يعدّ الفطور
نطت إلى أحضانه واعتلت   من صدره عرشاً كعرش الأمير
يضمها شوقاً إلى صدره   وطالما عانقها في السرير
يقول يا بنتي ولو مكنت   قالت له «بابا» بصوت جهير
كم حولت أوراق «دروينه»   إلى فراش مستطاب وثير
يغض عنها الطرف مستضحكاً   واستمتعت منها بجفن قرير
ونحن لو طفنا بأوراقه   لما تلقانا بغير الزئير
وخير ما قد قيل في وصفها   حكمة سركيس الأديب الشهير
إذ قال صفها إنما حسنها   أصدق من حسن ذوات الخدور
والله لو خيرني خالقي   حين يعيد الخلق بعد النشور

(١) والشميّل يقول إنه محروم من «زينة الدنيا» في أبيات منها «لا مال عندي أفنيه ولا ولد».

لاخترت أن يخلقني هرة   ألزمه كالظل وقت الهجير
مؤمنة دون ضمير لها   فإنما الايمان فوق الضمير
أصحب استاذي إلى داره   في ذلك اليوم الرهيب الأخير
عسى أقيه وهو في كفره   بحسن إماني عذاب السعير

ثم انتقلنا إلى غرفة الجلوس وجاءت القهوة وكان لنا حديث افتتحه سعادة أحمد زكي باشا فأشار إلى الحرب الحاضرة وتأفف منها فقال طانيوس:

ـ لو انهم عملوا برأي قيصر الروس ما وصلنا إلى هذه الحرب الطاحنة.

فقال الدكتور شميّل: ـ «يخطىء من يظن ان اعداد السلاح والتأهب للنزال والكفاح مضر بالهيئة الاجتماعية موقف لنجاحها. بل هو بالضد من ذلك موجب لارتقائها. ومن ينكر ان الاستعداد للحرب منذ حرب السبعين قد بلغ مبلغاً لم يسبق له مثيل في التاريخ. ومن ينكر مع ذلك ان تقدم الهيئة الاجتماعية في هذه السنين القليلة في العلوم والصنائع والشرائع يفوق ما حصل الانسان على ما يضاهيه في قرون كثيرة. فطلب نزع السلاح مخالف للنظام الطبيعي من جهة ومن جهة أخرى موقف لحركة الارتقاء. ولعل قيصر الروس يمزح أو يمتحن عقول الناس»[1].

فقال البرنس محمد علي حليم:

ـ إذاً يكون رأيك يا حضرة الفيلسوف ان العقاب أنفى للذنب.

فقال الدكتور شميّل: ـ «ان العقاب لم يوضع في أول الأمر ردعاً للشر لأن الانسان الذي يسعى وراء رزقه لا يعتبر سعيه شراً. وسعيه في أول الأمر كان وراء رزق مباح فما لبث أن حظر عليه باستبداد يد أقوى من يده فيه»[1].

فقال سليم بك بسترس: ـ وما رأيك إذن في الأحكام وما يليها من العقوبات كالسجون مثلاً؟

ـ «إن شرائع الاجتماع في كل العصور السابقة كانت مبنية على الاجحاف بمصالح الجمهور»[3] «بل العقاب على صورته الحاضرة ما زال مفسداً للأخلاق مساعداً على إنماء الشر يدخل به الجاني إلى السجن بشر ويخرج منه بشرور. وخوف العقاب لا يردع جانياً عن جنايته بل يحمله على الكذب وان الانسان ليخجل من أن يكون الدافع له نحو ربه خوف العقاب أو الطمع في الثواب»[4].

(١) المقالة العاشرة ص ٩١.
(٢) القضاء على القضاء ص ١٢٨.
(٣) مقدمة الطبعة الثانية ص ٦.
(٤) المقالة الرابعة عشرة ص ١٢٩.

فقال نجيب أفندي شاهين: ـ لكن لا بد من عقوبة للجناية ولا بد من سلطة تقضي بها.

فقال الدكتور: ـ «إن خوف العقاب هو الذي علم الانسان أن يكذب وخوف العقاب هو الذي يدفعنا إلى الانكار. فأقل شرور العقاب الكذب وهو أم المعاصي. كما لا ينكر تأثير العقاب في افساد طبائع الأطفال»(١) «على ان الانسان في أكثر أعماله وأفكاره ليس ابن غرائزه بل صنع تربيتنا من المهد إلى اللحد ولو ترك لغرائزن لكان في مجموعه أرقى منه اليوم بكثير»(٢).

فقال الدكتور بسيط: ـ وهل تنكر فضل التعليم والتربية يا دكتور؟

ـ «أما أنا فأفتي ـ إذا كان ذلك يعد آفة ـ انه متى بدت لي حقيقة تستهويني حتى لا أعود أضبط نفسي عن إبدائها. وعذري في ذلك أن الحقيقة لا يكفي ان تعلم بل يجب أن تقال أيضاً»(٣). «والحق يقال إن الشر الأكبر من التربية المدرسية فالتعليم في أكثر هذه المدارس حتى في أرقى المعمورة وخصوصاً في التعليم الاعدادي قاتل للمميزات»(٤) بشهادة نجيب أفندي الذي مارس التعليم سنوات كثيرة.

فقال نجيب أفندي: ـ وكيف ذلك؟

قال الدكتور: ـ «إن المدارس عوضاً عن أن تعد العقل وتمهده لقبول زرع العلم على الاطلاق وتقوي فيه مزية الاستقلال في الأحكام تراها تشغل عقل الطفل منذ حداثته وهو ألين من الشمع طواعية وتعدّه اعداداً مخصوصاً لغاية مخصوصة فتنتزع منه استقلاله وكل مميزاته»(٥).

فقال زكي باشا: ـ ولكن التعليم الآن أصبح في أرقى حالاته بعد اختبارات كثيرة.

فقال الشميّل: ـ «أنا لا أطيل الوقوف على المدارس الصغرى فإن عدمها أفضل من وجود كثير منها. وأحصر كلامي في المدارس الكبرى فأقول إن التعليم على ما هو شائع وخصوصاً في مدارس الشرق ناقص جداً ونظام المدارس في التعليم والتربية قديم لا ينطبق في جملته على احتياجات العصر ومقبولات العقل وسنن الارتقاء»(٦) «والتربية ناقصة كذلك وأكثر القائمين بها أناس يجهلونها فيعدون العقاب ومعاملة التلاميذ بالخشونة والقساوة من القواعد الأساسية ويساوون فيها بين العموم»(٧).

---

(١) القضاء على القضاء (مقدمة جزء أول) ص ١٣٠.

(٢) مقدمة جزء أول ص ٢.

(٣) حول مقالتي ص ٧٠.

(٤) مقدمة الطبعة الثانية ص ٢.

(٥) فلسفة النشوء والارتقاء ص ٢.

(٦) رجال الغد ص ١٧٤.

(٧) المقالة الخامسة والعشرون ص ١٧٤.

فقال البرنس: ـ لعلك أيها الدكتور لا تزال ناقماً على المعلمين لأنهم عاملوك بخشونة وقساوة.

ـ هو ما تقول يا أفندينا(١) «فكل واحد منا في وسعه أن يذكر كثيراً من ذلك وأروي لدولتكم مثالين وقعا لي في مدرستين متباينتين في التربية وبينهما فترة طويلة. احدهما اني كنت ذات ليلة قبل ميعاد النوم واقفاً مع صفي في مكان مكشوف للهواء وفي أيام الشتاء فخانني الصبر من طول الانتظار وقرصني البرد فتأففت من ذلك طالباً العجلة فلم يرق ذلك في عيني الملاحظ علينا وكان رجلاً أحمق اسمه الاب بيانكي أحق به مستشفى المجاذيب من مدرسة يتولى تربية الصغار فيها فعاقبني للحال عقاباً أوسخ من عقله فاعترضت فشدد العقاب فرضخت للظلم لصغر سني وضعفي وحفظت الغل في قلبي حتى اليوم. ولو كان لي حينئذٍ قوة تمكنني من الدفاع عن نفسي لنتفت ذقنه شعرة شعرة. ثم وقع لي بعد ذلك بسنين في مدرسة أخرى ما أخجل أنا نفسي من ذكره فإني طلبت يوماً ما وأنا على المادة طعاماً غير موجود وكان ذلك جائزاً لنا فأباها العشي عليَّ فغضبت لذلك جداً وقمت من على المائدة واندفعت إلى المطبخ كالآلة العمياء وتناولت الشيء الذي طلبته ثم رميت به إلى الأرض ودسته تحت قدمي. ثم رجعت إلى مكاني وأنا أنتظر العقاب على ذلك وأقله الطرد. وكان للمدرسة رئيس من أفاضل الرجال عاقل حكيم اسمه الدكتور بلس فأبلغوه الأمر فكأنه نظر إلى سوابقي الحسنة وربما راعى اجتهادي في الدرس كذلك فأمهلني يومين ولم يقابلني وأنا أنتظر من دقيقة إلى أخرى أن يطلبني. فلما كان اليوم الثالث كنت في ساحة المدرسة وحدي فرأيته مقبلاً عليَّ وبيده كتاب فجمدت في مكاني وعلاني اصفرار الوجل وخفق قلبي. فلما دنا مني تبسم ومال إلى أذني كأنه يريد أن يسرَّ إليَّ أمراً وقال لي بصوت منخفض: «إذا غضبت مرة أخرى فلا ترتب على غضبك عملاً إلاّ بعد أربع وعشرين ساعة» وتركني فبقيت جامداً في مكاني لا أتحرك وعلاني احمرار الخجل واستولى عليَّ الدوار ولا أعلم كم بقيت في هذه الحالة لا أنتقل من مكاني وإنما الذي أعلمه انني اعتبرت بهذا العقاب كثيراً وحسبته أشد من الضرب والطرد وادعى إلى الاصلاح»(٢).

فقال زكي باشا: ـ يظهر انك كنت فيلسوفاً حتى في صغرك.

فقال الدكتور: ـ «إنني لا أعلم من الفلسفة إلاّ اسمها ولا أعي من العلوم إلاّ رسمها»(٣) ولكنني من صغري أكره الرياء فإنما الرياء والمواربة والتدليس وما شاكل هي سلاح من يرغب أن يكون مقرباً من الاستبداد متمتعاً بما يمكن تحصيله من خيرات الظلم»(٤).

---

(١) كذلك كان يخاطب البرنس وفي الوقت نفسه كان شديد اللهجة في محادثته.

(٢) فلسفة النشوء جزء ٢، ص ١٧٤.

(٣) مصر الفتاة ١٨٧٩.

(٤) مجموعة جزء ٢، ص ٨.

فقال الدكتور بسيط: ـ وهل تفضل العجرفة إذاً والكبرياء؟

فقال الشميّل وقد ضرب المائدة بيده: «بل أنا أحب ذاتي. أنظر إلى الكبرياء والشرف فهما صفتان متولدتان عن محبة الذات. أولاهما ذميمة متولدة عن اتحاد محبة الذات بالجهل والثانية حميدة متولدة عن اتحاد محبة الذات بالعلم»[1].

فقال سليم بك بسترس: ـ ولكن في الحالتين ميلاً إلى الطمع.

فقال الدكتور: ـ «لقد فطر الانسان على الطمع مع اختلاف في الواسطة والغاية فقد كنت يوماً في محفل وإذا السلطان بأبهى مظاهرهما ثم قفلت راجعاً إلى بيتي فرأيت البواب جاثياً يصلي فقلت قسمة ضئزى. ثم نظرت إلى ما به من الاعتقاد الراسخ فقلت ولكنها تعزية كبرى. فما أصعب الانسان وما أطوعه في الحالية وما أطمعه. ذاك يرث الأرض وهذا يريد أن يرث السماء»[2].

فضحك زكي باشا وقال: ـ عادت حليمة. وأراك في كل مباحثك وأحاديثك تريد الاعتراض على الآلهة والأديان حتى لقد ساءك من البواب صلواته مع أن الدين ملازم لتقدم الأمم والعمران.

فقال الشميل: ـ «إن علاقة الدين بالعمران من حيث تأثيره في ارتقائه وتقهقره ليست إلاّ عارضة وإلاّ لما ارتقى العمران وتقهقر وهو تحت سلطان دين واحد»[3].

فقال البرنس: ـ دعونا من المباحث الدينية ونحن هنا بين مسلم ومسيحي فلا يأمن الواحد أن يزعج الآخر.

فقال الشميل: ـ «بل نحن في كنيسة مختلطة بل في اجيا صوفيا التي هي كنيسة ومسجد معاً فالاتفاق بين الفريقين سهل فإن دين الانجيل يعلمنا التساهل إلى حد أن ينسى الانسان نفسه في مصلحة قريبة ودين الاسلام يجعل الفقير شريكاً للغني في ماله إذ يفرض له عليه نصيباً منه»[4].

فقال زكي باشا: ـ وهل نفهم من قوله هذا إنك تنكر علينا كل فضل؟

فقال الدكتور: ـ «هل ينكر التمدن فضل القرآن عليه يوم كانت الشعوب المعول عليها

---

(١) حوادث وأفكار ص ٨.
(٢) مجلة سركيس سنة ١٩٠٧.
(٣) العمران والقرآن في المؤيد.
(٤) المجموعة ص ٥٧.

في ذلك العهد منغمسة في الترف لاهية به عن العلم فكان الاسلام محيي رفاته وناشر لواءه وحافظ كنوزه ولولاه لربما كان قد قضى على علوم اليونان وآدابهم وفلسفتهم. ولا أقول إنه هو الذي نقلها كلها وإنما صانها من أيدي أولئك الذين لو بقوا وشأنهم لعبثوا به ولم يدعوا شيئاً منها يصل إلينا»[1].

فقال زكي باشا: ـ الحمد لله على هذه الشهادة لنا في خدمة العلم.

فضحك الدكتور وقال: ـ «العلم لا يجوز أن يبني باليد الواحدة ما يهدمه بالأخرى وأن يفعل فلا يجوز أن يسمى علماً»[2].

فقال نجيب أفندي شاهين: ـ أريد أن أن أغتنم هذه الفرصة لأسألك كيف عرفت داروين لأول مرة وكيف تعلقت به وبمذهبه؟

فقال الدكتور: ـ «في سنة ١٨٧١ سمعت وأنا أدرس الطب في المدرسة الكلية السورية في بيروت أنه قام رجل يدعي أن أصل الانسان من القرد فأظهرت اشمئزازي منه ومن قائله ثم ظهر لي ان هذا الزعم سلاح يفتري به خصوم هذا المذهب لتحقيره وإلاّ فمذهب دارون لا يقول إن القرد أصلا الانسان وان الحمار أصل الفرس بل أن الانسان والقرد والفرس وسائر الأحياء في الطبيعة قاطبة من أصل واحد في نشوئها من مواد الطبيعة وبمجرد قواها، وقد تغيرت تبعاً لناموس المطابقة حتى بلغت مبلغها الآن بالانتخاب الطبيعي»[3] «وبعد مبارحتي المدرسة ورحلتي إلى أوروبا واطلاعي على المذهب في مؤلفات أصحابه لم يجد أدنى صعوبة في امتلاكي لأن تربيتي المدرسية لم تسمني بطابعها واعتلال صحتي في حداثتي لم يسمح لي بأن أكون من متخرجي المدارس ما خلا الطب»[4].

فقال نجيب أفندي: ـ أنت ترى ان التخرج في المدارس معرّة فإذاً أي لزوم لانشائها وما الفائدة من اهتمام مصر في هذه الأيام بإنشاء الجامعة المصرية.

فقال الشميّل: ـ «لقد صارت علوم اللغة مماحكات لا طائل تحتها لا كلاماً للتعبير عن الفكر. والشعر اغراباً لا ابداعاً في وصف الحقائق.

والطب شعوذة لاستنزال الأسرار وتحويل الأقدار لا تعرُّف نواميس الطبيعة لتحديها. وعلوم القوانين لاهوتاً ثانياً لا يفهم. وعلم المحامات مخرقة وتفنناً في المشاغبات لا دليلاً مرشداً إلى الحق رادعاً للباطل. وصارت علوم الآداب والفلسفة المترتبة على ذلك كله هياماً في الأوهام

---

(١) المقالة الثامنة ص ٧٢.
(٢) جزء ٢ ص ٢٨٦.
(٣) مقدمة الطبعة الثامنة ص ٢٦.
(٤) مقدمة الطبعة الثامنة ص ٢٧.

لا ضابط لها إلّا الخيال. وعلى هذه المبادىء النخرة شاد الانسان بنيان نظاماته الاجتماعية المتقلقلة التي طالما أن الاجتماع منها حتى بلغ صراخه عنان السماء. وليس العجيب من أن طائفة البداغوجيين يرفعون شأن هذه العلوم إلى حد فائق ويطلقون عليها اسم الآداب العالية بل العجيب من تهجم بعضهم على الحط من شأن العلوم الحقيقية بالنسبة إليها كما جاء في احدى خطب افتتاح الجامعة وجعلها سملاً يرتقى به إليها ومصقلاً للعقول. نعم لو كان ينحى في تدريسها منحى الطبيعيين أي النظر إلى نشوئها وتقلب الانسان في صوابه وخطأه فيها كما يفعل اليوم في الكلام على نشوء الكون لكانت سلماً سليماً ومصقلاً لصقل العقول وأما وهي كما هي سخافات تاريخية كحكايات الغول والعنقاء وفلسفة خارقة العقول وآداب كزينة القبول المكلسة فهي سلم واهي الدرجات متناخر القوائم وصقال كصقال العقدة التي لا تحل. ولو استقرينا تاريخ هذه الجامعات والغاية التي وضعت لأجلها في أولها وآثار هذه الغاية فيها حتى اليوم فما فتنّا باقتباسنا نظاماً أوشك أن يتداعى في أرض منشأه ولاعتضنا منه بإقامة الكليات المنطبقة على احتياجات العصر والتي هي بالحصر سلم الارتقاء الحقيقي»[1].

وهنا عارضه طانيوس أفندي عبده فيما قاله عن الشعر والشعراء.

فقال الدكتور: ـ «إن آثار زملائك التي يتغنى بها التاريخ ويبالغ في كثرتها مبالغة في الفخر وما كثرتها إلّا اتفاق معان واختلاف روي هي بالحقيقة آثار مخلدة لضلال الانسان»[2].

فقال زكي باشا: ـ ولكن ما هو اعتراضك على الشعراء؟

قال الدكتور: ـ «أنت تستطيع أن تترجم شعر هوجو وموسيه وروستان وتستفيد من ذلك غرضاً اجتماعياً وبحثاً أدبياً أخلاقياً وعبرة تاريخية. ولكنك لا تستطيع أن تترجم شعر المتنبي وأبي تمام والبحتري ولا أن تستخلص منه شيئاً من ذلك غير بعض الحكم والأمثال مشتتة في تلك الأدغال ولا رابط ينسقها ولماذا؟ لأن هوجو أطلّ في شعره على العالم أجمع فنظر إلى الحقائق وبما له من قوة الخيال وحسن السبك ربطها وكساها من شعره حلة مهيبة رهيبة في النفس كما كساها موسيه رقة وجمالاً. وروستان نظر إلى الوقائع فأكسبها من قوة خياله ومتانة شعره وقعاً في النفوس جعلها أبلغ في العظة»[1].

فقال طانيوس ـ وكيف تعلل ذلك؟

قال الدكتور: ـ «إن شعراءنا استغواهم ذلك البذخ الذي عاشوا في وسطه واستهوت الخلاعة نفوسهم فأذلوا لها قرائحهم ونهجوا في شعرهم ذلك المنهج الغريب في المدح والغزل والتصابي والاستجداء حتى غلب هذا الاسلوب على صناعة الشعر العربي وألفته الطباع»[2].

(١) صدى النفوس ص ٢٥٤.

(٢) المقالة التاسعة والأربعون ٢٥٥.

قال طانيوس: ـ ولكنها خيال شاعر.

قال الدكتور: ـ «هذا خيال مخيف فكيف يترجم ردف يقعد صاحبه كأنه كثبان عالج. وقلب يحرق بناره الرجلين ويلتهب من الصدر إلى العين. وقد رأيت قلباً خرج من تحت الابط في صدمة قطار لكني لم أر قلباً تخطى سنن الطبيعة في خروجه من الجسم»[3] «بل أين اشعار المعري التقريرية التي تكاد تنقصم صلابة من أشعار الفارض الخيالية التي تكاد تذوب رقة...»

فقال زكي باشا: ـ هذا رأيك في الشعر والشعراء ولكنني سمعتك تعترض على اللغة.

فقال الدكتور: ـ «عندي إن اللغة العامية تعبر أحياناً كثيرة عن معان لا تصل إليها اللغة الفصحى»[4] ولذلك لا أرى أدنى صعوبة في تحويل لغة الكلام العامية المنتخبة في مصر إلى لغة كتابة تعبر عن أحوال العصر ومتحولات الفكر أحسن جداً مما تعبر عنه اللغة الفصحى اليوم»[5].

فقال زكي باشا: ـ أراك تستحسن لهجة مصر فهل تفضلها على لهجة سوريا؟

قال الدكتور: ـ «إن التراوح في خطأ لغة الكلام وإن كان صحيحاً على القطرين فلا شبهة في أن التحريف الذي طرأ على اللغة العربية كان في مصر غالباً للانتقال باللفظ الخشن الحلقي إلى الرقيق اللساني والشفوي. وهذا بقطع النظر عن الدخل الذي يكثر في لغة العامة بحسب مركزها من الاختلاط مع الأمم الأخرى. ولذلك كان هذا الدخيل اليوم في لغة الباعة أكثر جداً في مصر منه في جهات سوريا لكثرة الأجانب ومحترفيهم فإنك قلما تسمع منادياً في السكة من الباعة ينادي على الشيء باسمه العربي وفي ما خلا ذلك فإنك تستعذب جداً سماع اللغة من فم المصري الصميم سواء كان في الألفاظ الخالصة أو المحرفة وفي تركيب الجمل وسهولة التعبير فليس في لفظهم شيء يوقر السمع ولا في إلقائهم شيء من التعقيد مما يكثر في لغات أهل سوريا وكلامهم. وسبب ذلك أن اللغة العربية لما دخلت مصر اكتسبت الرقة من طبيعة الأهالي نظراً لطبيعة البلاد. فلا يخفى أن طبيعة كل بلاد ترتسم على طباع أهلها وفي لغاتهم جبلية كانت البلاد أو سهلية حارة أو باردة أو معتدلة. فإنك إذا نظرت إلى الالماني مثلاً تراه وهو يتكلم كأنه يرتجف من البرد ويظهر لك ذلك في مقاطع الالفاظ البسيطة أكثر من سواها كلفظة (يا. يا) مكررة وهو لا يلفظها غالباً إلّا كذلك لبقاء أثر حالة الانسان الأول على مثل هذه المقاطع وهو بحال الهمجية تائه في الغابات تحت فعل عوادي الطبيعة قبل أن تحميه المدنية من قواسرها. وإذا نظرت إلى اللبناني تراه وهو يتكلم كأنه يناهض صعوبات جبله ويقطع الصلد

(٣) صدى النفوى ص ٢٥٥.

(٤) القضاء على القضاء ص ١٨٨.

(٥) مجلة سركيس سنة ٧، ص ١٠.

من حجاره وهلم جراً. ويتلطف ذلك بالعلم وإنما لا يزول الأثر الأول بالكلية لانغرازه في طبائع السكان من أثر طبيعة البلاد نفسها»[1].

وكان الحديث قد طال والمائدة الزرقاء تصبي العيون والشوق إليها في صدر كل مفتون فأراد طانيوس أن يحوّل القوم عن المباحث الحيوية فقال: ـ أيها الاخوان ان مضيفنا الدكتور شميّل قد اعتدى على صديقنا الشاعر الكبير حافظ ابراهيم.

قال البرنس: ـ لعله ناظره في الشعر.

قلت: ـ . بل هو ينافسه في جمال خلقته.

قال الدكتور بسيط: ـ وكيف ذلك؟

قلت: ـ لقد كتب الدكتور شميل بالأمس مقالة[2] قال فيها: «فإن فولكان بن جوبيتر من بوتون ولد شنيعاً جداً فلما ابصرته أمه راعها ما في صورته الحافظية[3] الجاحظية من القبح».

فقال زكي باشا: ـ ألا تعلم يا دكتور ان عداوة الشعراء بئس المقتنى؟!

قال الدكتور: ـ أنا أعلم ذلك وفعلاً قد جاءني من حافظ رده الشرس على مداعبتي هذه وهو في جيب سركيس الذي احتكر ثمرات العقول لمجلته. وبناء على إلحاح الحاضرين قرأت لهم كتاب حافظ وهذا نصه:

«أيها الفيلسوف الكافر

«لا عجب إذا أنكرت خلقتي بعد انكارك الخالق

«قرأت «الجريدة» فأرمضني قولك وأمضّني تشبيهك ولكن رفّه عني إنك وضعتني في مصاف الآلهة. وهل الذي دهاني منك دهاني بحكم تلك المجاورة فأنكرتني كما أنكرتهم! ـ فبالله لو أنهم قطعوا رأسي ورأسك ووجهوا بهما إلى معرض الجمال في إيطاليا لفاز رأسي بالجائزة دون رأسك ـ ذلك الرأس الذي سلّ من كل شعرة فيه لساناً يصيح بالكفر والالحاد. وقام في كل ذرة من ذراته كافر ينادي أن لا بعث ولا معاد. ـ أقول ذلك ورأسي مطأطىء أمام رأسك الكبير الذي بات يناطح خالقه. ولا يبالي صواعقه. وقلبي ينازعني إلاّ أن يهديك السلام. ويدي تطالبني إلاّ أن أخط داعي الاحترام والسلام»[1].

تلميذك ـ في غير الدين

وخريجك ـ إلاّ في اليقي   حافظ ابراهيم

(١) مجلة سركيس سنة ٧ ص ٩.

(٢) الجريدة. مقالة «الساعة في الماضي».

(٣) تعريضاً بحافظ بك ابراهيم من باب المداعبة.

(١) مجلة سركيس سنة ٧ صحيفة ٧١٧.

فصفقوا طرباً وكان الشميّل يستغرب في الضحك ثم قال:

ـ اجعلوا كتاب حافظ خاتمة أحاديثنا الفلسفية «فالفلسفة وان كان لا يزال لها بعض معنى اليوم فإنها ستصبح مبتذلة في مستقبل الايام فالمستقبل اليوم للعلم وللعلم العملي وحده فقط»[2].

ثم أخذ يحصي (الفيش) ويوزعه على الراغبين.

وكان ما كان مما لستُ أذكرهُ   فظُنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبر

سليم سركيس

الشميّل في رباعيّات فرحات

فلو كان الشُميّلُ والمعرّي
ورهطهما جميعاً في السّعير
لفضّلتُ الإقامة في جحيمٍ
على سكنى النعيم مع الحمير

رباعيّات فرحات

للشاعر الياس فرحات

(٢) مقدمة (د).

فاتحة عـامي

يا عيني

لا تحسب ايها الصديق انني طروب اغنى، فانما انا في سروري مريض بحسد، وقد تعذر عليّ الفهم نحو الشهر الكامل، وصار اطباء العيون في معالجة عيني فانا أتألم وانا قلق.

لم بـطل لـيـلـى ولـكـن لم انـم ونـفى عـني الـكـرى (هـذا الالم)

وذكرت في ساعات الارق الطوال انه اصابني منذ اعوام ارق شديد، فلقيت المرحوم الدكتور شبلي شميل وقلت:

ارجوك ان تصف لي برشاقة تساعدني على الفهم هذه الليالي.

فكان جواب ـ يقال ولا يكتب

قلت ـ هذا دواء ولا تصنعه الاجزاخانات.

قال ـ اذا اردت برشاقة للفهم فاطلبها من طبيب حمار

قلت ـ وكيف ذلك

قال ـ وهل تظن ان البرشامة تنوّمك بالروح القدس، ان بهاشياً قاتلاً يفيدك مؤقتاً ثم تألف استعمالها الى ان تملكك عادتها وشهوتها وهناك الطامة الكبرى. انت تريد ان تنام براحة. فانظر الى موقف العربات واركب واحدة منها الى الجزيرة وتنشق الهواء النقي. فاذا عدت الى منزلك وجدت الفهم سهلاً*.

* * *

كتب اسماعيل ادهم في مقالة له بعنوان «الزهاوي الشاعر» (١٩٣٧) ما يلي:

كان الزهاوي في السنين الاولى من شبابه حتى العشرين ورعاً يؤمن بالدين، غير انه حدث في ذاك الوقت ان طغت موجة من حرية التفكير على البلدان العربية. فقد نشر الدكتور شبلي الشميل كتابه (شرح بخبر على دارون) وجعل له مقدمة مستفيضة كانت آيةً في عمق التفكير وسلامة المنطق وسعة المعلومات في ذاك الوقت. وهذه الموجة أثارت روح التنكر عند الكثيرين لكل ما خرج به الأنسان من ماضيه، فظهرت فئات تجحد الاديان كلها وتتهجم على ما يقدّسه ابناء العالم العربي*». اهـ.

---

* **مجلة سركيس**، العدد ١ و٢. السنة ١٣، ١٩١٨

* **مجلة الإمام**، السنة ٣٧، العدد الثالث، مارس ١٩٣٧، ص ١٠٠ ـ ١٠١

ندوة سبلندد بار في القاهرة

(١٩١٢)

«ندوة دائمة منذ عشرين عاما أو تزيد غير مقيدة بقانون، أسسها فريق من حملة الأقلام وكتاب الجرائد، إذا اجتمع أعضاؤها أو بعضهم جلسوا إلى مقاعد لهم معروفة في سبلندبب بار، ودار جدلهم في متعددا لمواضيع، مواضعها تتناول مسائل القصر، والمسائل العامة، ومسائل دول أوربا الكبرى، غير المواضيع الأدبية والعلمية والفلسفية والاجتماع التي تعلن فيها الخواطر.

وقد جمع أعضاؤها بين معارك أهل الشرق والغرب، ولم يتركوا قولا لقائل.. وكان المرحوم «عبد الرحمن السكواكبي» يقول إن إجتماع الأدباء في سبلندد بار أغنى مصر عن الجمعيات الأدبية المنظمة، وبلغ من شهرة هذه الجمعية أن الشيخ عبد الرحمن عبد العزيز رل ابراهيم من أعيان العرب في الهند اغتنم فرصة وجوده في مصر فقصد سبلندد بار وحضر إحدى جلساتها..

وقد أثرت في عالم الأقطار الأدبية أعظم تأثير، وأن أهم ما يرد في الصحف من الآراء الصائبة يرد ذكره في هذه الجمعية، ولطالما قرأ أعضاء الجمعية مقالات الصحف والمجلات وقصائد الشعراء ورسائل المؤلفين من قبل أن تطبع فحوروا فيها أو حملوا أصحابها على التحوير ولم ير الناس إلا نتيجة ما أقرت جمعية سبلندد بار.

وقد رشحت الجمعية سبع مندوبين لمجلس المبعوثين العثماني على نشر إعلان الدستور ففازوا جميعاً وهم سليمان بستاني، عبد الحميد زهراوي، سعيد ماهر، فريد بك، إسماعيل حق، لطفي فكري، وأشهد أن ما يذكر في محادثات هذه الجمعية هو العلم والصراحة والحرية التامة لأنهم لا يخافون رقيباً، ولا يخشون عقابا على ما يقولون.

وقد اشتهرت هذه المزية عن جمعيتنا حتى أصبح كتاب الإفرنج ومراسلوهم يقصدونها للاستفهام عن حقائق الأمور المصرية.

أما أعضاء هذه الجمعية فكثير عددهم، منهم الدكتور شبلي شميل الذي يدور القوم من حوله ويوسعون له صدر المجلس إذا حضر، لأنه شيخ طائفة الأدباء فإذا كان الكلام دائر على الأخبار السياسية بقي صامتاً لا يحفل بها ولا يلقي إليها بالا، ولكنه إذا فتح باب الكلام في مواضيع الاجتماع والتشريع والعقائد أفاض وأسهب، ولم يبق قول لغيره، وكثيراً ما ينتهي بالحكم الشديد على الدنيا وأهلها وعلى اللاهوت وما جرى مجراه من أمور الآدميين.

وللدكتور شميل ميل إلى النكات الأدبية ولكن السخط غالب في حديثه وهو حر وذو صراحة وإنصاف في أمياله وأفكاره، وله ذاكرة عجيبة تعى ما كتب من نحو ثلاثين عاماً إذا بدأ الكلام في المسائل التي يهتم لها أشار إلى بعض مطبوعاته القديمة وسرد المقالات كلها سطراً سطراً كأنه كتبها منذ يومين.

واشتهر الدكتور شميل يجمع بعض الأعضاء أكثر الأيام إلى الغداء فمائدته معدة دائماً لأكثر من واحد، إذ جعل مدير المطبخ العامر صديق الجميع **طانيوس عبده**.

ومنهم **رفيق بك العظم** المفكر الكبير والعثماني العثور، يعرفه الناس مما قدم من مقالات تدل على الوطنية الصحيحة وواسع الاطلاع بحضر معظم الجلسات، وينصف في في حكمه، ولا يتطرف.

---

* هكذا رسم اسكندر شاهين صورة للندوة الشهيرة عام ١٩١٢ ونشرتها **مجلة سكريس** (١٩١٢). انظر: انور الجندي ـ **الشرق في فجر اليقظة**. (صورة اجتماعية للعصر من ١٨٧١ إلى ١٩٣٩)، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ب.ت. ص ٩٢ ـ ٩٤

وهو من أكابر العاملين ومن أقدمهم عهداً في طلب الإصلاح العثماني ورفيق بك قوى الحجة لا يلقى الكلام جزافاً ولا يتعنت.

ومنهم حقي بك العظم رجل الظرف واللطف وصاحب النية الحسنة والوطنية الصادقة، ولست أعرف رجلاً أبعد منه عن التعصب المذموم.

ومنهم سامي قصيري محرر المقطم، هو على الجملة خطيب الجلسات ولا سيما في السياسة، وله مقدرة عظيمة على إلقاء الكلام. وتمثيل وقائع الزمان وشرح معاني السياسة الحديثة.

منهم سامي أفندي جريديني المحامي وهو من أهل الاجتماع سواء في مواد القانون وشرحه أو في بقية مواضع الكلام.

ومنهم داود بركات رئيس تحرير الأهرام، وهو من الذين يروق الأدباء حديثهم، له معرفة بدخائل الأمور وحقائق المسائل المحلية وأسرارها لا يفوقه علم، ولكنه فطن حكيم لا يقول كل الذي يعلمه في بعض الأحوال.

ومنهم خليل مطران شاعر القطرين وصديق سكانهما أجمعين، لم أسمع برجل كثر أصحابه ومعارفه والسائلون عنه وعن مكانه مثله، ولا عجب فإني لم أسمع رجلاً يحدث الآخرين ويعجبهم بيانه وسحر حديثه مثل خليل مطران، ولو أن الرشيد حي في أيامنا لجعله رئيس ندمائه بلا مراء، وأشهر ما يقال بعد شعره ونثره وجمال حديثه، أنه أوسع الناس صدراً وأعقلهم لساناً.

ومنهم سليم سركيس وهو من ألطف الأدباء حديثاً وأميلهم إلى المحاضرات الفكاهية، يميل إلى مسائل الإجتماع والأدب.

وطانيوس عبده صاحب مجلة الراوي، لا ينظم أبياتاً إلا ولها نكتة أو نكات شعرية انقطع في الأعوام الأخيرة لكتابة الروايات وقد طبع منها حتى الساعة مئات.

والشيخ يوسف الجازن الصحافي المشهور عرف بالذكاء وسعة الأخلاق ورقة الحديث.

والسيد رشيد رضا الكاتب الإسلامي الكبير هو على الجملة مفتي الجمعية لأن الأعضاء يقفون عند قوله في كل ما يتعلق بأحكام الشريعة الغراء، له ولع في تطبيق مواد الدين الإسلامي عى ما يجد من علوم هذا الزمن وأختراعاته.

ومحمد كرد علي صاحب جريدة المقتبس الدمشقية كان عضواً عاملاً مدة وجوده في مصر، ومصطفى الدمياطي، والشيخ أحمد تقي الدين، وانطون أفندي جميل، والدكتور خليل سعاده مؤلف أكبر قاموس إنجليزي عربي، وأمين بستاني، والدكتور مهدي خان شاهين، ويوسف بستاني.

ومن الأعضاء الأكرمين حافظ إبراهيم والشيخ سليم البشري، ونجيب المشعلاني فترى مما تقدم أن جمعية الادباء في سبلندد بار قوة في مصر من القوات الحية العاملة، وأنها أثرت تأثيراً عظيماً في أمور مصر والدولة العلية».

امرأة المستقبل»

[العنوان من الدكتور شميّل]

كتب سليم سركيس في مجلته تحت عنوان استعاره من الدكتور شبلي شميّل ما يلي:

«لقيت في مدينة بوستون اثناء إقامتي في اميركا آنسة من كرائم الاميركان ولها أدب غزير وهي يومئذٍ لم تتجاوز ٢٠ سنة من عمرها. فجَمَعت بين حنكة الشيوخ ودراية العلماء. نشأت بيني وبينها مودّة لا تزال وثيقة العرى بما نتبادله من المكاتبات. وبلغ من اعجابي باسلوبها الكتابي وخواطرها الحسان انني اطلعت على بعض كتبها الدكتور شميل وطانيوس عبده وغيرهما من الادباء فأطلق عليها الاول [الشميل] لقب «امرأة المستقبل» وأراد الثاني ان يضع بعض رسائلها في قالب الشعر العربي. وان امرأة المستقبل هي التي لا تعرف للرجل مزية عليها تحول دون جعل نفسها في مكانته».

* * *

امين الغريّب

قال في الدكتور شميل (١٩٠٨)*

«ثم نظرت إلى الدكتور شميّل - إلى صاحب الفكر الوحيد الذي يبتدع اليوم من فكرة المقدّمات والنتائج - إلى الرجل الذي درس في اول امره كثيراً ثم انقطع عن الدرس إلى التفكير فجاء بالمعجزات - إلى الشرقي الذي من دون ان يعاشر علماء اوروبا واميركا يبثّ الآن في الشرق مبادىء علماء اوروبا واميركا فوقفت امامه وهو ممسك يدي يبشّ ويهشّ وابتسمت ابتسامة معنويّة. رأيت في هذا الرجل الشرق وما يستطيعه لو وافقته الظروف. رأيت مبادىء العمران الشريف في أرض التأخير والخراب. ورأيت الخيال الجميل تعاكسه الحقائق المؤلمة. وكان سروري برؤية هذا المشهد الجميل اشدّ تأثيراً عليَّ من بعض جوانبه العميقة فسدلت على ما جاش في قلبي من حركات الاسف سكون الابتسام والاكتفاء.

---

* مجلة سكريس، ج ١، السنة الرابعة، أيار (مايو) ١٩٠٨، ص ١

* نقلاً عن مجلة سركيس، جزء ٢، سنة رابعة، ١٩٠٨، ص ٦٢.
وامين الغريب هو صاحب جريدة المهاجر الاميركيّة، ومنشىء جريدة الحارس البيروتيّة ١٩١٠/١١/٢.

الدكتور شبلي شميل
في رثاء جرجي زيدان
(١٩١٤)

فقدت لغة العرب بفقد جرجي زيدان عاملاً من اكابر عمالها ومؤرخا من اكبر مؤرخيها وأديبا روائيا من اشهر روائييها. ولقد كانت الخسارة به على اللغة وآدابها فادحة ولا سيما ان الطريقة التي خدمها بها ليست من الطرق المبتذلة التي يجري عليها اكثر الكتاب والمؤرخين. فهو مبتدع وطريقته لم يسبقه اليها احد في هذه اللغة فكست كل هذه المباحث القديمة ثوبا جديداً قشيبا لفت النظر اليها وحبب القارىء مطالعتها.

والفقيد الكريم وان كان قد قضى وهو لا يزال مستلئا قوة وكنا لا نزال كثيري الآمال بتفننه واقتداره وزيادة خبرته او فسح له بالاجل الا ان حياته القصيرة كانت كثيرة البركة وكلها حياة نشاط وعسل فأنجز في أقل من ربع قرن ما يعجز الاقران عن الاتيان بمثله في قرن وتمكن من تقسيم فكرته في خدمة آداب هذه اللغة فوضع تاريخ التمدن الاسلامي وتاريخ آداب اللغة وغيرهما وأوشك ان يختتم حلات روايات التاريخ الاسلامي ـ في هذا الوقت القصير. فهو بطل من أبطال نهضتنا الحديثة القليلين.

على ان الاثر الاعظم لهذا الرجل العظيم ليس ما تقدم بل هو «الهلال» شيخ المجلات الادبية الجامع لكل المباحث العلمية والعمرانية والسائر فيها سير الاجتماع نفسه على قدر ما يحتاج اليه المقام ويسمح به الزمان والمكان متوخيا توسيع العقول «بإسفين» التؤدة واللين خوفا من عواقب «ديناميت» العنف الذي لا يعمد اليه الا في مواقف معلومة*...

* نظير عبود: جرجي زيدان ـ حياته، أعماله ـ ما قيل فيه، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

رسالتان من شبلي شميّل
إلى الريحاني
(١٩١٠)

حضرة الصديق الفاضل امين أفندي ريحاني

وصلتني ريحانياتك واستلمتها مع الشكر وقد خلوت بها جلستين كبيرتين وقرأت اكثرها. وانا يعجبني منك آمران في الكتابة مستحسنان عندي جداً وهما افكارك الجديدة وخصوصاً اسلوبك الخاص بك في تصويرها للقارىء وسررت كثيراً من مقالاتك في مشاهير الرجال كفولطير الخ فانها بديعها في الوصف والنقد وربما سروري من كتاباتك بانك تحك لي على جرب اذ توفقني في فهمك الحوادث وتبسط انت على وجه ادبي الذي انظر اليه نظراً طبيعياً وهذا هو الاسلوب الوحيد في الكتابات الادبية الذي اقر عليه عساه ينقلنا شيئاً فشيئاً من ذلك الاسلوب اللاهوتي الاجتماعي كما اسميه والذي صاحبنا الغريب [امين الغريب] الذي اكلفك ان تهديه سلامي يريد ان يقتل الامة به ـ ولو انك قلت لي انه اراك كتابي له في هذا المعنى لظننت ان الكتاب المذكور لم يصله او انه عده من سخافاتي لانه لم يشر اليه باقل كلمة ولا نشره كما كان يلزم لو استحسنه وهو لو نُشره لما حط بمقام جريدته ولربما كان جعل مفكريه يفكرون وهنا كل ما يطلب من الكاتب لتحريم الافكار بايقاع الريب في ما نعتقده وفعله حينئذٍ يكون كالشرارة فيها اذ يفتح لهم باباً جديداً للقول ـ وبحثا آثر يتبارى به الكتاب يكون موضوعه عوضاً عن المخطئة هي ام مصيبة؟

المخطىء هو ـ اي انا ـ ام مصيب ويبقى اللاهوت الادبي لاهوتاً يملأ به صفحات عشر جرائد كجريدته اذا شاء. ولكنه لم يفعل فبقيت انا المخطىء وحدي.

«نيّالك» اي هنيئا لك اذا اخبرتني انك مسافر الى بلاد الجد والعمل ويا ليتني كنت رفيقك الا تمر علينا بمصر قبل سفركِ فنشاهدك هنا؟ اذا اتيح لي في هذا الصيف الانتقال ارغب من كل قلبي ان ازور اميركا اني لم ازرها حتى الآن ويا حبذا لو كان ذلك بصحبتك.

على الطائر الميمون والسلام على جميع الاصدقاء.

صديقك الدكتور
شبلي شميل

* ـ **الريحاني ومعاصروه**: رسائل الادباء اليه، جمعها وحققها وقدّم لها: البرت ريحاني، (دار الريحاني، بيروت، ١٩٦٥، ص ١٢٠ ـ ١٢٤).

حضرة الاخ الفاضل امين افندي ريحاني المحترم

لا حاجة الى سؤال عما اذا كان كتابي وصل اليك فقد قرأت اليوم في النصير الاغر كلمتي السابقة في الفتاة الانكليزية وتعقيب النصير عليها وعلمت منه اني كنت المخطىء كما حسبت ولكنه ارتكب في درج كتابي اغفال ثلاثة امور اولا التاريخ وهو كتب منذ شهرين فقد يمكن ان اكون قد تغيرت في هذه المدة ثانياً سقوط جملة حيث اقول لان السيل الجارف الذي يتهدد الاجتماع اليوم هو هذا لأن الريب الذي تطرق الى الواحد الخ. فسقطت جملة الذي يهدد الاجتماع واضاعت المعنى وهو غلط مطبعي والثالث حذف جملة عمداً وهي قولي لماذا كبة اللحم المقلية بالزيت فطاري لا صيامي الخ. والكتابة ملك الكاتب لا يجوز التصرف فيها الا باذن فكيف جاز له يا ترى اكل الكبة وعلى اي مذهب اكلها في هذا الصوم. ولعل له ولها يجعل هذا البحث ايضاً من المسائل الخلافية التي لا يجوز التصرف فيها بحسب مقتضى الحال. والحاصل انه كان قد اهملها فكان بامكانه ان يبقيها مهملة ولا يبالي بها.

وانت تعلم انه لولا كتابك لي في هذا المعنى لما ذكرت شيئاً بهذا الخوص لا لك ولا لسواك ولو كنت شديد الرغبة في نشرها لكنت نشرتها في جرايدنا بعد ان رأيت منه كل هذا الصمت. لاني لم اكن اقصد في كل ذلك انتقاداً جارحاً خاصاً به وانما هو فكر ابديته وقد ابديته لمن يخصه ذلك على سبيل الاعتبار في امر مبادلة الافكار. ويسرني جداً ان يكون قد رأى في ما كتبت شيئا يمس العواطف او المعارف.

وفي رده عليَّ اشكره كثيراً على ما خصني به من كلام الاطبراء الذي اعتبر نفسي اني غير جدير به وارجوا ان لا يكون بقي عنده من كل ذلك اثر لا اوده. وانما هو فكر ابديته فمن وجد فيه مصلحة له فليتبعه والا فكلنا في القطار سواء ولا حاجة بي الى القول باني عارف بانني من اجهل الناس في امور الحياة العملية وفي المسائل الاجتماعية وما هو الا بصيص قد يبدو للانسان ان من ورائه عارضاً هتافاً ولا يكون احياناً كثيرة الا برقاً خلباً والسلام عليك وعليه من صديق الاثنين*.

الدكتور شبلي شميل

لا تؤاخذني على هذه الخرطشة
وما ذلك الا لازيدك فضلا في حل رموزها.

عنبرة سلام احتفاءً بصاحب المنار

٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٩

«وأقرّ له بالفضل كثيرون، وشهد بجهاده العظيم الطبيعيّون: فذكر الدكتور شميّل في كتابه فلسفة النشوء والارتقاء ما يعانيه استاذنا الكريم في سبيل إفهام جَهَلة المسلمين وعامتهم وإصلاح أحوال دينهم ودنياهم».

رحلات الإمام محمد رشيد رضا
جمعها وحققها الدكتور يوسف أيبش
(المؤسسة العربية للدراسات والنشر،
بيروت، ١٩٧١، ص ٢٥٠)

المريض: ١٨٩٩

نشرت في البصير سنة ١٨٩٩،
وكان قد اصاب الكاتب روماتزم حاد أضناه اله المبرح

عركت صروف الزمان وجسست باصبعي مصائب الإنسان فلم أجد اشقى من المريض.

رأيت الفقير في أقصى الفقر يسكن كهفاً كالقبر أو يتوسد الغبراء ويلتحف بالسماء فلم اجد أشقى من المريض.

رأيت الفاعل يشتغل في الحرّ والعرق يتصبب من بدنهِ كالقطر ليطعم سواه من جناه ولا يناله من ذلك إلّا نزر يسير لا يفي بحاجة زوجتهِ العارية ولا يخمد صوت اولاده الجياع فيطوون الليل على الطوى ملتفين على انفسهم وبعضهم على بعض ضاغطين معدهم بأيديهم ليخففوا ما يعانونهُ من ألم الجوع وليس لهم ما يتدفأون به من البرد غير حر انفاسهم رأيت ذلك فلم أجد أشقى من المريض.

رأيت الكريم وقد اخنى عليه الدهر واسقطهُ إلى أدنى مهاوي الفقر فلم أجد اشقى من المريض.

رأيت الأم تبكي ولدها والزوجة بعلها والأخ اخاه والابن اباه فلم أجد أشقى من المريض.

رأيت الجاني المحكوم عليه بالقتل واجف القلب مشتت العقل فلم اجد أشقى من المريض.

ذقت ذل السؤال بعد عزّ الافضال وعرفت خيبة الآمال وصبرت على تغطرس أصحاب المال فلم اجد أشقى من المريض.

رأيت المفضول فوق الفاضل والفصيح يداجي الابكم والعالم يخضع للجاهل والعاقل يخاطب من لا يفهم فلم اجد أشقى من المريض.

رأيتك تصنع المعروف فتجازى بالمتلوف وتصادق من يخدعك وتسمع من لا يسمعك فلم اجد أشقى من المريض.

رأيت الغني الشبعان يبلغ الجمل ولا يتستر والفقير الجائع يتلصص لسرقة رغيف من الخبز الأسمر والقانون يكافىء ذاك برفع القبعات ويعاقب هذا بالسجن سنوات فلم اجد أشقى من المريض.

رأيت معالم الظلم تشاد فوق الناس تحت لواء العدل ودعوى الهداية والعالمية تسري عليهم تحت قلانس المكر وعمائم الجهل فلم أجد أشقى من المريض.

رأيت الحرَّ يرى كل ذلك ولا يجد بداً من الصبر عليهِ فلم اجد أشقى من المريض.

وأيٌّ اشقى ممن اظلمت الدنيا في عينيه وارتجت الأرض تحت رجليهِ وصغرت نفسه حتى اصبحت الحياة المحبوبة عبئاً ثقيلاً عليهِ إذا شرب الماء الزلال المعقم وجده مرًّا كالعلقم أو ذكر اشهى الطعام لديه جاشت نفسه عليهِ أو توسد وثير المهاد فكأنهُ يتقلب على شوك القتاد مفكك الأوصال إذا كلف قطع خيط القطن خانتهُ القوى مقطع الآمال إذا قدمت له خزائن الأرض أعرض عنها ورآها هي والعدم على حد سوى ليله طويل بما يعانيه من الآلام التي تحرمهُ لذة المنام فإذا طلع النهار زال ما كان قد امله فيهِ من زوال الاسقام.

الأصحاء يحلمون بالاموال يحشدونها والمدن للكسب يفتحونها والمراتب العالية ينالونها يحلمون بالزوجات والبنين والبنات والقصور الشاهقة والاملاك الواسعة والحدائق الغناء ولا يقفون في احلامهم عند حد والمريض المسكين لا يطلب إلا امراً واحداً يفديهِ بكل حطام الدنيا يفديه بماله يفديه باميالِه يفديه بكل ما له من المطامع من واقع غير واقع يفديه حتى بجزء من عمره بل بعمره كله إذا وجد ان لا خلاص لهم من الاسقام إلا بتجرع الموت الزؤام يطلب ما لا يراه الأصحاء ولا يراه إلا هو يطلب الصحة التي هي تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلاَّ المرضى. بل أي رجل تجوز عليهِ الشفقة اكثر ممن تمكن منهُ الداء وعزّ بهِ الشفاء غنياً كان أو فقيراً صعلوكاً كان أو اميراً حتى لم يبق عنده في قوس الأمل مِنزع ولا في النفس مَنزع فإذا كان هذا حال المريض الأمير فما قولك في حال المريض الفقير. فالفقير المعدم والجاني المكبل بالحديد والثكلى التي لا تريد ان تتعزى والرجل الذي اخنى عليهِ الدهر بعد العز والحر الذي يصبر على مضض البلوى يجدون في نفس شكواهم مصرفاً لهمومهم وفي قواهم الصحيحة منعشاً لآمالهم فالجائع إذا اعيتهُ الحيل تطاير الشرر من عينيهِ وشدَّ حبلاً من مَسَد على حقويه ونهض على ساقيه يطارد بهما الغزلان وشمّر عن ساعديه يتسلق بهما الجدران ولبس من ظلام الليل ثوباً يقيهِ كالحجاب من عين كل مرتاب يتلصص تارةً ويسرق اخرى منتقماً لنفسهِ من ظلم الإنسان ومن فساد ما سنهُ من الشرائع في العمران والثكلى تتناثر دموعها الحرَّى فتخفف ما بها من ألم الجوى كأنها تبدد بها سحب الهموم كما يبدد مطر السماء سحب الغيوم وأما المريض المسكين فلا تفيده الشكوى إلا زيادة البلوى وقد يخفت صوته فلا يقوى عليها وقد تشل حركاته حتى لا يتسطيع ان يعبر عنها فيرسل إليك نظراً منكسراً ذليلاً يقطع الصلب وينفذ القلب يقطع صلباً لا من صلب الحديد بل من عصب وعظم وينفذ قلباً لا من قلب الحجر بل من لحم ودم.

فيا ايها الذين لا يزال بهم بقية تتأثر اكثر قليلاً من الحجر والذين لم تضرب مطامعهم على ابصارهم غشاوة ولم يختم الله المال على قلوبهم ان كنتم من اهل الإحسان الذين يريدون التقرب حقيقة إلى الله المعبود أو من أهل الفخر الذين يفاخرون باشياء هذا الوجود فدونكم واغاثة اخيكم المريض بل اغاثة انفسكم ـ فمن منكم يضمن لنفسه السلامة من الداء ـ بتخفيف مصابهِ وتقليل اوصابه بما في وسع الإنسان بحسب تدرجه في العمران وليس لذلك اصلح من المستشفيات والاكثار منها على ما بلغت اليوم من الاتقان فهي قبل المعابد ان كنتم تفقهون وكأني بكم جميعاً تؤمنون على ذلك ولكن لا اعلم لماذا لا تفعلون أينقصكم فيها المجد وهي عنوان المجد والفخر أم الأجر وهي منتهى الأجر فلينهض منكم بضعة اناس من علية القوم يؤلفون جمعيات متفرقة من كل جنس ومذهب وموطن تجمع المال بالاكتتاب من الفقير قبل الغني كل حسب مقدرته كما تفعلون في بناء المعابد التي تخدمون بها مطامع الإنسان اكثر مما تخدمون بها ارادة الله وانتم أيها الأغنياء خاصة فإني اعرف منكم الغني الكبير الذي جمع من المال القناطير ومات ولم يترك سوى ذكر الاختلاس من اموال الناس أو الذي بنى شاهق القصر الذي لا ينفع لا للسكن ولا للقبر ألم يكن مثل هذا الإحسان افضل ذكرى وادعى إلى الفخر وامام من تريدون ان تفتخروا أليس امامنا فإذا ذممناكم فالذنب عليكم ورحم الله من قال:

ومن يكُ ذا فضل ويبخل بفضله على قومه يستغنَ عنهُ ويذممِ

شميّل ينعي ميخائيل مشاقه

منعى كريم

«نعت إلينا أخبار دمشق الشام وفاة نادرة زمانه العالم الشهير الرياضي والطبيب الدكتور ميخائيل مشاقه كبير عائلة من لبنان معروفة منذ القدم بطيب الأصل وذكاء العقل وله من العمر زهاء تسعين سنة قضاها كلها في التأليف وإنارة أذهان أبناء الوطن».

[الشفاء، ج ٦، سنة ٣، ١٥ تموز (يوليو) ١٨٨٨، ص ٢٤٠].

شميّل يخاطب وطنه (١٨٩٨)

فيا وطني ما خانني فيك خائن ... من الحبّ أو أني رضيت به نـدّا
أريـدك في عـزّ ولـكـنـني أرى ... على غير ما أرضى أرى العزّ قد ندا
فإن جرت في حكمي فما أنا جائر ... وما أنا إلاّ بـاحث لم يجد بـدّا

الحنين إلى الوطن الأول:
١٥ أيار ١٩٠٨

إلى ابنة كفرشيما وصاحبة «فتاة الشرق»:

«فسلام عليك أيها الوطن الأصغر حنين مشتاق طال عليه البعد وجنى عليه الكدّ ولا صبوة له بعد طول العهد إلاّ انه تُضمّ إليك رفاته إذا خانه العود إليك حيّاً».

جرجي نقولا باز (١٩٥٧)
عن أمنية شميّل

«أمنيتي أن تؤخذ رمّتي
إلى وطني الأول»

ذكريات عن مجلة الشفاء

في أول سنة ١٨٨٦ أنشأت مجلة «الشفاء» في الطب ولم يكن حتى الساعة صحيفة طبية في مصر ومجلة الطبيب التي كانت تصدر في بيروت كانت قد توقفت. وكان الطب في مدرسة القصر العيني والمدرسة السورية الكلية لا يزال يعلم باللغة العربية. وقد اشتركت مصلحة الصحة بمائة وخمسين نسخة منه توزعها على أطبائها. واول ما سعيت به عند انشائه تأليف جمعية طبية مصرية عربية. وما مرت اشهر حتى ذاع صيت الشفاء وانتشر وبلغ المشتركون او بالحري الملصقة بهم المجلة عدداً وافراً أيقنت منه النجاح في الغايتين العلمية والمالية ولكن الى حين.

وكأن خبر هذا النجاح كان مهمازاً حرك بعض محبي المعارف لانشاء صحيفة طبية اخرى. وبالفعل ما دخل الشفاء في سنته الثانية حتى كانت مجلة «الصحة» المعروفة قد صدرت فاستقبلها الشفاء بالترحاب كما استقبل آدم حواء وأصبحنا كلانا نرتع في فردوس مصلحة الصحة. والظاهر ان هذا الفردوس لم يكن ليسعنا كلينا. غير ان مجلسة الصحة كانت ذات ضلع مع ادارة الصحة وذات ضلع ناعمة وانعم من ضلع الشفاء. فاول ما شطحت نطحت كما يقول وحيد بك فنشرت في اعدادها الاولى كلاماً مفاده ان بعض الناس يرمي مصالح الصحة المصرية بتعضيد الصحة لماكسة الشفاء الى آخر ما هنالك. وصار رئيس مصلحة الصحة يقرأ الشفاء بعد ان كان لا يقرأه ويجد في ثناياه مغامز كثيرة ضده. وصاحب الشفاء ضيق الحوصلة تأتيه بالورب فيصادرك وجهياً لوجه. فما طال الامر حتى صار القرد كما في المثل العامي يلعب بين مصالح الصحة والشفاء اي اتسع الخلف بينهما. وانتهى بسلب الشفاء تعهد مصلحة الصحة باشتراكاتها بعد ان اجبرها بطريق المحاكم على دفعها له عن السنة الثالثة ايضاً.

وعلى اثر ذلك اشتد الخلف بين آدم الشفاء وحواء الصحة حتى صارت الجال بينهما كما هي بين اكثر الرجال والنساء. فصار الشفاء اذا قال هذا أبيض قالت الصحة بل اسود ولكن الصحة كانت في كل ذلك اكثر لباقة وان كان الشفاء أوضح بياناً واثبت حجة.



ثم حدث ان الجمعية الطبية المصرية العربية المنشودة تألفت وعقدت جلستها الاولى - ولم تطل بعد ذلك جلساتها ككل مساعي الشرقيين - فقام الشفاء على عادة الجرائد يتبجح في انبائه عنها بقوله «هذا الذي طالما نشدناه وطلبناه وتمنيناه و.و.و. الى آخر ما هنالك من تبجحات الصحف التي لا يتم امر في العالم الاّ وقد سبقت وانبأت به. فلم يرق للصحة ان تكون الجمعية قد تألفت اجابة لنداء الشفاء فقامت تدفع مفترياته على زعمها بما كان انه كالنقطة للحوض الملآن او الشرارة للافعال المتجمعة اذ ان الشفاء خلافاً للقياس الطبيعي كان قد حبل من الصحة لكثرة مساعيها المستترة وصاحب الشفاء ليس بالصحافي المدرب ولا هو بالمتنجع الذي

يعرف كيف يستفيد وساءه ما يرى في طبائع اهل الشرق من مساعي التنابذ والتخاذل والمعاكسة والمواربة ينتقد اهل الشرق في ذلك انتقاداً مراً من كبارهم الى صغارهم ومن امرائهم الى صعاليكهم وختمها بهذين البيتين.

سبقتهمُ الى التنبيه طراً بعزم ثابت ح قويّ
وكم حرّضتهم تحريض عيسى ولكن ليس لي سيف النبيٍّ

فجاء هذا الكلام للخصوم «شحمة على فطيرة» وتذرعوا به لدى قلم المطبوعات ـ وكانت طبلة اذنه مستعدة ـ الى اصدار انذارٍ مشدَّد قبل ـ والعهدة على الراوي ـ انهم مددوا الوقت حتى اصدروه ثم ذهبوا وأمضوه من الناظر في بيته. وفي هذا الانذار تهديد للشفاء بالتعطيل اذا عاد الى تخديش الاذهان عملاً بالبند الثالث من قانون المطبوعات.

***

حينذاك خطر ببالي ما كتبته في هذا القانون يوم سنه وما كتبتهُ الى واضع بنودهِ فنظمت كل ذلك شعراً في عرض الكلام على الانذار واثبتُّهُ في الشفاء قلت:

عجبنا كيف اخلفتم عهوداً قد اجلتكم
شرعتم غير شرع الحق ـ ما هذا الذي جئتم
كأنكم اضلتكم سماءٌ قد أظلتكم

***

لكم أعضاءُ قائمةٌ بها الافعال ما عشتم

***

وأنتم مثلنا تدرو نَ ما بالفعل انكرتم
بان المرء مخترع لآلات بها سدتم
لآلات متممة لاعضاءٍ لها حزتم

***

فلم نسمع بمخلوقٍ لعلَّ سمعتمُ أنتم
لينطق أو لكي يمشي يقال له كما قلتم
يقال له ألا استأذن وسبقتم وضمنتم

***

فان نخطىء بأيدينا نعاقب بالذي صنتم
وحكم متمم الاعضـ ـاءِ حكم العضو لا زلتم

وكان ذلك خير ما ظنت الحكومة انها تقدر ان تصلني به على خير ما ظننت اني أقدر ان اخدم الامة والحكومة به اللهم الا اذا عدّت الامة والحكومة ضدين متنابذين. فقد قال لي بعضهم يوم انتقدت قرار الجمعية العمومية في مسألة القنال ما أرويه بالحرف قال. «اليوم الوحيد الذي «فازت» الامة فيه على الحكومة قمت يا حضرة العالم والفيلسوف تنتقد عملنا فدعنا في جهلنا ودع علمك لبلادك» وحتى الساعة لم اكن أدري ان الحكومة اليوم تشتغل بفكرة الشر وانها عدوة الامة وان كنت اعتقد ان الخطأ قد يتسرب الى أشد الاعمال اخلاصاً. وقد مرَّ عليَّ وأنا في مصر نحو «أربعين سنة» ـ ما كفى باناس اليوناني واقل منه لان تتنازعه الوطنية الفرنساوية ـ شاهدتها فيها في الحالين وخبرتها في الطورين. وتعزيتي الكبرى ان وطني أعم من ان ينحصر في بقعة من الارض وان مصر الراشدة اعدل من ان تجور عليَّ بمث لهذا الحكم وقد خبرتني صديقاً مخلصاً كما خبرتها بلاداً تنسيك بحسن وفادتها الاوطان وقماً يعيضونك بجميل عطفهم اهلاً بأهل واخواناً باخوان. أو ان الصديق الصادق هو الاعمى في كل حال والاَّ فهو العدو للدود وبئس مثل هذا الصديق.

***

ودام اصدار الشفاء بعد هجر مصلحة الصحة له سنتين اخريين أيضاً ولكني اضطررت اخيراً ان اوقفه لان «حساب الحقل ما وافق حساب البيدر» فان المشتركين الذين كانوا كثيرين في السنة الاولى على الورق وكانوا سبب هذا النقار والمزاحمة على النضار كانوا قليلين عند الدفع فقمت انقيهم سنة فسنة حتى اصبحوا اخيراً كصبيرة طمسن[1] ـ وزد على ذلك حسن ادارة صاحب الشفاء في الاعمال المالية كما دلت عليه مضارباته بعد ذلك بالبورصة لعله يثري ويستطيع وحده ان يضع أساس مشروع مستشفى طالما حث السوريين عليه فأبوا الا ان يتسكعوا بمرضاهم على ابواب المستشفيات الاجنبية ـ وكأن البعض اليوم يريدون ان يكذبوا على الناس بعد مماتهم كما كانوا يكذبون عليهم في حياتهم ـ وحتى الساعة ليس لهم ذلك وما درى انه بذلك انتقل من «الشفاء» الى بحبوحة «الشقاء» وصاحب الشفاء قليل الصبر لا يحب الامور الا مستعجلة وقد اشار الى كل ذلك في ابيات من قصيدة نظمها يصف مساعه هذا وحبوطه فيه ووقوعهُ في حبائل المشاكل قال:

قلت عليّ وحدي.. فهبّت بي الار ـ ازاء تترى رزءًا فرزءًا دراكا الى قوله يعزّ نفسهُ

ربّ قوم عابوك والعيب فيهم لو سما فرعهم لنلت السماكا
يفشل المرءُ لاقتضاء انطابقٍ ان تولّى اوهى بهِ الإدراكا
ويهون الفتى بأرض هوانٍ لو تسامت لزاحم الافلاكا

---

(١) المستر طمسن مرسل امريكاني جاء بيروت في القرن الماضي فلما قدموا له الفاكهة المعروفة «بالصبر والصبير» ايضاً تناول صبيرة واخذ ينقيها من البذر بالشوكة والسكين فما اتى على آخرها حتى لم يبق منها شيء فذهب صبيرته مثلا

طال سيفي في غمده مستقراً وهو لو سلَّ قلما ان يحاكى
يصدأ السيف ان يُغلَّ وسيفي ان تجلى يطاول الاملاكا
كم جلا الحق لو درى الناس معنا هُ لما الظلم ساد فيهم وصاكا

والتبجح رأسمال المفلس وصاحب الشفاء ليس من غير طينة سائر الناس.

وبعد ان اوقفت الشفاء بأيام قليلة توجهت ذات يوم الى نضارة الداخلية وكان ذلك على عهد الوزارة الرياضية بعد سقوط الوزارة الفهمية. فلما قابلت الوزير الخطير رجل مصر الكبير سألني ما شأنك قلت له على الفور جئت لاعطل صحيفة الصحة فنظر اليَّ مندهشاً وقال لي كيف ذلك؟. فبتسمت حنيئذ وقلت له قد أوقفت الشفاء... وفي اعتقادي ان الصحة «باراسيته» فلا تستطيع ان تعيش بعده وهكذا كان وانقضى تاريخان في الصحافة الطبية كان عمرهما قصيراً.

وأما اليوم فلا شفاء ولا صحة عادا ينفعان بعد ان تحول التدريس في مدارس الطب في مصر وسورية الى الفرنساوية والانكليزية حتى فقدت اللغة العربية العلمية بذلك أقوى ركن لها وصار من الراجح ان لا يعود لها ذلك لعدم وجود علماء باحثين فيها ولسرعة سير العلوم الطبيعية حتى صار يصعب عليها اللحاق بها.

***

وكأن هذ، الانذار الذي ضُربتُ به كان الاخير وأهمل بعد ذلك العمل بقانون المطبوعات وقامت الحكومة تقاضي الصحافيين امام المحاكم وتفتحت لهم ابواب السجون وأمها منهم الصالحون والطالحون فقمت حوالي سنة ١٨٩٨ بحركة في الصحافة وضممت اليَّ مدير المؤيد لالتماس العفو عن مجرمي الاقلام وكان بعضهم مسجوناً لذنوب ضد العائلة الخديوية والبعض الآخر ضد الدولة المحتلة وكأن المعية كانت أقرب الى العفو لولا ان الوكالة البريطانية أبت ان تتداخل في الامر بحجة ان ذلك ليس من خصائصها فلم نُفلح.

ثم انه في سنة ١٩٠١ كثر التطفل على الصحافة والتهجم على اعراض الناس خصوصاً بما حلَّ من طيف حكومة الاستانة على مصر فانتقلت الجاسوسية اليها وأفسحت للجرائد المتدنية موارد الكسب من طرقها غير المشروعة وبالاتفاق مع الجواسيس حتى ضج الناس وشكا اعضاء الجمعية العمومية من هذه الفوضى وطلبوا اعادة العمل بقانون المطبوعات فكتبت المقالة الآتية تحت عنوان «فوضى المطبوعات»[1]

***

(١) نشرت في المقطم سنة ١٩٠١

فوضى المطبوعات

«تشكت الجمعية العمومية من تهجم بعض من اتخذ الصحافة وسيلة للوقيعة في الناس ونهش اعراضهم وانتهاك حرماتهم وطلبت من الحكومة وضع حد لما سمته الجرائد «فوضى المطبوعات» وتبعها اصحاب الجرائد المهمة في هذه الشكوى واخذ كل منهم يصف الدواء بحسب ما تراءى له. فمنهم من طلب وضع قانون للسيطرة على المطبوعات وهو دواء ليس فيه شيءٌ رادع على ما به من تقييد حرية الصحافة والرجوع بنا القهقري اذا تبعته الحكومة. وهذا لا ينطبق على غايات الحكومات الصالحة التي من واجباتها تسهيل سبل الارتقاء. وذهب غيرهم - ومذهبهم اقرب الى الصواب - الى ان القانون كافٍ لتأديب كل معتدٍ. على ان الباحث في امراض الاجتماع كالباحث في امراض الجسم يجب عليه لمعرفة الدواء ان يتعرف اولاً اسباب الداء. وليس من ينكر ان المتطفلين اليوم على صناعة الكتابة المتدنين بها الى الطعن المحكي عنه لا يقصدون بذلك سوى التهويل لاستدرار المنفعة لهم وما الذي يا ترى جرأهم على ذلك. لا شك ان الذي فتح لاصحاب الاخلاق الفاسدة هذا الباب الواسع هو الجاسوسية التي فشا داؤها في هذه البلاد في السنين الاخيرة الى حد لم يعهد له مثيل في مصر حتى في اعظم ايام استبداد حكامها السالفين وما يترتب على هذه الجاسوسية من الاسترضاء. وقد كثرت شكوى الناس والجرائد من هذه الرذيلة التي انتشرت في طول البلاد وعرضها واستغرب العقلاء منهم كيف امكن لها ان تمتد هذا الامتداد في عهد الاحتلال (راجع تاريخ اكثر هذه الوريقات الساقطة). وكثيراً ما يكون للجواسيس اليد الطولى في الحض على هذه المنشورات البذيئة فيقدمون بها التقارير ثم يسعون للاسترضاء فاذا نالوه اقتسموا المنفعة حتى صارت هذه الرذيلة اي الجاسوسية وما يترتب عليها اعظم وسائل الكسب في هذه الايام وحتى كادت تأخذ بتيارها الجارف الكتاب المجيدين بما تزين لهم من المطامع».

«فاذا كانت الجمعية العمومية والجرائد الحرَّة وعقلاء الامة وكبراؤها يريدون ان يضعوا حداً لفوضى المطبوعات كما يقولون فعليهم قبل كل شيء باستئصال الاسباب المحرضة عليها قبل ان تجلب على البلاد شراً ليس في الحسبان. فاذا فعلوا ذلك فانا اضمن لهم بأن المطبوعات تتهذب من نفسها بقوة الانتخاب الطبيعي الذي يميت كل ما كان بذيئاً باغفاله ويحيي كل حسن بالاقبال عليه فلا يقدم حينئذٍ على الكتابة الا كل تحرير واسع الاطلاع نبيل الغاية يقصد النفع لنفسه من حيث ينفع سواه. واذا قلبت الآية وصرفت القوة المبذولة الآن لزرع اغراس الجاسوسية ونشر بذورها لافساد اخلاق الناس بها واستخدمت ما لها من الوسائل لتنشيط الكتاب المجيدين فانها تنقي الكتابة من الادران التي نشكو منها الآن باسرع مما يظن وتخدم البلاد خدمة يشكرها الناس عليها ويذكرها لها التاريخ بالاعظام».

***

وبالرغم من الحاح الجمعية لم يرجع الى العمل بهذا القانون لان مبادىء اللورد كرومر لم تكن ترضى به. ثم سافر اللورد كرومر وخلفه السر غورست ودامت الحال كأن لا حكومة حتى سقطت الوزارة الفهمية الاخيرة وقامت الوزارة البطرسية فكانت باكورة اعمالها اعادة العمل بهذا القانون المدفون فأوجب ذلك زيادة الشكوى على غير فائدة لان القانون لم ينفذ بالحرف والتهويل به احرج الطبائع التي قد تناسته. والظاهر من مسلك الوزارة الحالية انها تنوي تنفيذ هذا القانون بأقصى شدته. غير ان الجمعية العمومية التي كانت تطلبه في الماضي ليست ميالة اليه كثيراً اليوم.

على ان العمل بهذا القانون لا ينيل الحكومة في رأينا الغرض الذي تتوخاه منه الّا اذا كانت تريد ان ترجع بنا الى الاستبداد الاعمى وهذا لا ينطبق على مصلحة البلا خصوصاً اليوم ولا ينطبق على مبادىء الحكومة المحتلة وان انطبق عليها فلا ينطبق على مبادىء أمتها فسيكون وجوده علة للاضطراب والتشويش تارة من هنا وتارة من هناك.

وإذا كان الغاء العمل بقانون المطبوعات في الماضي اوجب التطرف من البعض والتهجم من البعض الآخر فان اعادته في العهد الاخير لم تأت بالمرغوب وزادت الشكوى ايضاً. وذلك لان الحكومة في الامرين لم تكن متوافقة مع نفسها فم لكن حازمة في الحرية ولا مستبدة في المظاهرة بالشدة بل كانت حكومة تهويل متذبذبة في الحالين تشد تارة وترخي اخرى. وما من حكومة تسلك هذا المسلك الا وترمي البلاد هي نفسها في الفوضى ثم تسأل الآخرين بعد ذلك عما وهي وحدها مسؤولة عنه.

فقانون المطبوعات اليوم لا فائدة منه ووجوده مضر في كل حال بل يجب دفنه الى الابد. والحكومة الحازمة يجب ان لا تخشى الحرية ولا يخشاها الا الذي لا يعرف ماذا يريد أو ماذا يلزم فيتذبذب متراوحاً بهذا الذكاء الشرقي الذي يعده البعض دهاء. نعم هو دهاءٌ ولكنه دهاءٌ حبله اليوم لا يطول. إذ لم يعد ينفع في هذا العهد الا الصراحة المقرونة بالعلم والحزم. فلا تجرب الحكومة اليوم ما قد يجر لها المتاعب غداً وعلى البلاد الوبال. فلا تخش الحرية معها الضرب بيد من حديد عند اللزوم لتقويم الاخلاق ما دام رائدها فكرة الخير. ـ ولتعمم قبل كل شيء التعليم الحرّ الذي لا يشوبه كدورة الاغراض. ولا اقل من ان تأتي ذلك في المدارس الاميرية تاركة لاصحاب المنازع الدينية المختلفة ان يتعهدوها في معاهدها الخصوصية ولا تجار الجهلاء الذين لا يفهمون ما يطلبون ولا الحكماء الذين يتوهمون ان سياسة الصراحة لا تنطبق على العمل ـ ولا يدرون انهم بذلك يرسخون سواها ـ ما دام المسلك ليس فيه مصادرة لاحد في خصوصياته. حينئذٍ يقضي ناموس التنازع الطبيعي نفسه القضاء العادل بين الصحف والكتاب حتى لا يعود يؤمها الا كل من توفرت فيه المزايا اللازمة التي تضمن المنفعتين العامة والخاصة بما يؤديه من الخدمة الصحيحة التي يفهمها الناس حينئذٍ ويقدرونها حق قدرها.

حرية الطباعة
وقانون المطبوعات

لم يكن للحكومة المصرية قانون او مشروع قانون حقيقي للمطبوعات قبل سنة ١٨٧٩ و١٨٨٠ لان الحكومة قبل هذا التاريخ كانت حكومة استبدادية قانونها في الواقع ارادة الحاكم ولو قيدت هذه الارادة بنظام في الظاهر. ولان الجرائد كانت قبل هذا التاريخ قليلة ايضاً. ثم كثرت الجرائد واشتدت المراقبة الدولية على اعمال الحكومة فرأت هذه ان تضع قانوناً للمطبوعات فاوعزت الى أحد عمالها الاجانب المقتدرين بوريلي بك ان يضع مواد هذا القانون وظنت انها تستطيع ان تطلقه على سائر المطبوعات العربية والافرنجية. والظاهر انه لم يجد اصلح لذلك من قانون فرنسا بما فيه من بقايا الامبراطورية الثالثة فساء ذلك جمهور الصحافيين واخذوا يتقمقمون.

فكتبتُ حينئذٍ مقالة تحت اسم «حرية الطباعة» ونشرتها في جريدة مصر الفتاة التي كانت تحرر باللغتين الفرنساوية والعربية وتنشر في الاسكندرية والتي انشأها في ذلك العهد[1] بعض رجال الحرية من وطنيين وأجانب تحت ادارة اديب اسحق صاحب جريدة مصر والمحروسة. وكان من أنصارها العاملين المتحمسين «غوسيو» اليوناني احد عمال بنك «الانجلو اجيبسيان» قبل ان يرقى الى رئاسة ادارته. وكان ينشر مقالاته فيها بالفرنساوية فتترجم الى العربية.

وفي هذه المقالة التي فقدت مني[2] ذهبت الى ان الآلات التي يخترعها الانسان ليست سوى اعضاء اضافية متممة لاعضائه الطبيعية فلا يجوز ان تعامل معاملة استثنائية تخالف معاملة الاعضاء الطبيعية نفسها. فكما انه لا يشترط على الانسان لاستعمال رجليه خوفاً من ان يسعى بهما الى الشر أو يديه خوفاً من ان يجني بهما لا يجوز ان يشترط عليه كذلك لاستعمال اعضائه الاضافية. فاذا جنى بها فالقانون الذي يتكفل بمعاقبة جنايات الاعضاء الطبيعية وهو القانون العام يجب ان يتكفل بمعاقبة جنايات الاعضاء الاضافية ايضاً.

وكأني لم اكتف بذلك بل اعتبرت واضع بنود هذا القانون مسؤلاً اكثر فكأني نظرت ان الحكومة ألفت الاستبداد كسائر الحكومات المتقهقرة فهي لا تدرك مزايا الحرية الصحيحة المقرونة بالحزم ـ لان ذلك يتطلب نزاهة وعلماً واختباراً لاستخدام الشدة اللازمة التي تقتضيها

---

(١) لم اتحرَّ التواريخ في كل ذلك بالضبط لان معلوماتي هذه عن ذاكرة فقط.

(٢) كما فقدت مني مقالات اخرى كثيرة نشرت قبل هذا التاريخ وبعده في جرائد مصر والمحروسة والطائف والتبكيت والتنكيت وغيرها.

فكرة الخير من دون أدنى تذبذب وقلما كانت الحكومات الشرقية نزيهة والمستبد صارم ظالم ولكنه غير حزوم - وأما واضع هذا القانون - الاجنبي - فلا يجوز له ان يجعل هذه المزايا وهو يومئذٍ طريد الحرية على المشهور فكأني نظرت اليه نظراً أعلى لزيادة تحقير عمله في تجاهله. فارسلت له المقالة المذكورة ضمن خطاب خاص مختصر كتبته له بالفرنساوية وضمنته الكلام الآتي:

«عجبت كيف انكم قبلتم ان تخطوا مثل مواد هذا القانون وانتم مطرودو الحرية من بلادكم ولكن الظاهر ان لسماء مصر تأثيراً على العقول» وامضيت

ثم مضت السنوات وهذا القانون حبرٌ على ورق ولا سيما ان الدول الممتازة أبت ان تصادق عليه. وقد راق للحكومة مرة - وقد غلبتها نعرة الاستبداد - فصادرت احدى الجرائد المنتمية لحكومة اجنبية فكلفها ذلك تعويضاً واعتذاراً.

وبقي هذا القانون سلاحاً مثلما في يد الحكومة كخيال الكروم عند غيبة الناطور أو حلية - وان لم يكن كذلك - مدفونة كخطوط الحكومة العثمانية الاصلاحية في العهد الماضي - حساب العهد الجديد لم يدخل في التاريخ بعد - حتى سنة ١٨٨٨ على عهد الوزارة الفهمية حيث كان الباعث على اخراجه من قبره سلوك هذا العبد الفقير المخدش للاذهان. وحتى تلك الساعة كنت مخدوعاً بنفسي فلم اكن أعلم بي ذلك. غير ان حكم الانسان وان كان قد يجوز على نفسه أحياناً الا انه لها لا يجوز.

* * *

قانون المطبوعات

[الصادر في ٢٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٨١*

(أمر عالٍ) نحن خديو مصر

مادة ١ - لا يسوغ لأحد أن يكون صاحب مطبعة إلا بعد أن تعطى له رخصة من نظارة الداخلية وبعد أن يودع عشرة آلاف غرش بصفة تأمين. وللحكومة في كل حال ان تنتزع منه هذه الرخصة عند الاقتضاء.

مادة ٢ - لا يجوز لأحد من أرباب المطابع أن يطبع صحفاً قبل أن يقدم لإدارة المطبوعات بنظارة الداخلية كتابة معلنة لعزمه على طبعها وكذلك لا يجوز له بأي طريقة كانت بيع ونشر تلك الصحف بعد طبعها إلا بعد أن يقدم خمس نسخ منها للإدارة المذكورة.

مادة ٤ - يصير حجز وضبط أي مطبوع كان في الأحوال الآتية:

أولاً: إذا لم يبرر صاحب المطبوع وصلا من إدارة المطبوعات لتقديم الكتابة والنسخ المقررة في البند السابق.

ثانياً: إذا لم يتوضح في كل نسخة اسم المحل سكن صاحب المطبعة الحقيقية.

ثالثاً: إذا أقيمت أمام إحدى المحاكم دعوى تتعلق بذلك التأليف (وفي هذه الحالة الأخيرة لا يكون الحجز والضبط قطعيين إلا بعد صدور الحكم على صاحب التأليف المذكور من المحكمة المقاومة أمامها الدعوى).

مادة ٥ - عدم تقديم الكتابة قبل الطبع أو عدم تقديم النسخ اللازمة قبل النشر يوجبان مجازاة صاحب المطبعة بدفع غرامة من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ قرش.

مادة ٦ - إذا لم يضع صاحب المطبعة اسمه ومحل سكنه على كل نسخة من التأليف فيجازى بدفع مبلغ من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ قرش غرامة وإذا وضع اسماً ومحل سكن مفتعلين يغرم بدفع مبلغ من ٢٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ قرش.

مادة ٧ - يجوز في الأحوال المبينة بمادتي ٥، ٦ استبدال الغرامة بنزع الرخصة وقفل المطبعة.

مادة ٨ - يصير إثبات المخالفات بموجب محاضر يحررها مأمورو الأثمان أو مأمورون مخصصون يتعينون للتفتيش على المطابع.

مادة ٩ - يسرى هذا القانون على مطبوعات الحجر وباقي المطبوعات بسائر أنواعها مهما كانت الطريقة المستعملة لطبعها.

مادة ١٠ - يجوز للحكومة في كل الأحوال حجز وضبط جميع الرسومات، والنقوشات مهما كان نوعها أو جنسها سواء كانت معلنة أو معروضة لنظر العامة أو للمبيع وذلك متى تراءى لها أن الرسومات والنقوشات المذكورة مغايرة للنظام العمومي أو للآداب او للدين ويجازى من نشرها أو حملها يو عرضها للمبيع بغرامة من ٢٠٠ إلى ٢٠٠٠ قرش.

مادة ١١ - كل جريدة أو رسالة دورية تشتغل بمواد سياسية أو إدارية أو دينية وتصدر بانتظام واطراد في أيام معلومة أو بدون انتظام واطراد لا يجوز إيجادها أو نشرها إلا بإذن من الحكومة.

والإذن يكون مخصصاً بشخص المعطى له ويجب تجديده متى حصل تغير في صاحب امتياز الجريدة أو النشرة أو رئيس محرريها أو صاحبها أو مديرها.

مادة ١٢ - على أرباب الجرائد أو الرسائل المذكورة في المادة السابقة أن يدفعوا قبل صدورها مبلغاً بصفة تأمين كما يأتي:

إذا تجاوز صدور الجريدة أو الرسالة ٣ مرات في كل أسبوع سواء كان صدورها في يوم معلوم أو بكراريس على غير اطراد فيكون مبلغ التأمين ١٠٠ جم. وإذا كان صدورها ٣ مرات في الأسبوع أو أقل فيكون ٥٠ جم.

مادة ١٣ - يسوغ محافظة على النظام العمومي أو الدين أو الآداب تعطيل أو قفل أي جرنال أو رسالة دورية بأمر من ناظر

داخلية حكومتنا بعد إنذارين أو بقرار من مجلس النظار بدون إنذار. ويسوغ إضافة غرامة من ٥ جم إلى ٢٠ جم لكل إنذار يصدر.

مادة ١٤ ـ جميع التبليغات التي تصدر من نظارة الداخلية بقصد نشرها يجب درجها مجاناً في صدر أول صحيفة تصدر من الجريدة المذكورة.

مادة ١٥ ـ على صاحب الجريدة أو الرسالة أو من تطبع على نفقته أن يدرج فيها الرد الذي يرد إليه من الشخص الذي حصل التعريض به أو ذكر اسمه في تلك الجريدة أو الرسالة ويكون نشر الرد في الثلاثة أيام التالية ليوم وروده أو في أول عدد يصدر إذا كان ميعاد صدوره بعد انقضاء الثلاثة أيام. ومن خالف ذلك يجازي بدفع غرامة من جنيهين إلى ١٠ جم وهذا مع عدم الإخلال مما يترتب على تلك المقالة من العقوبات والتعويضات.

ويكون نشر ذلك الرد بدون أجرة ويجوز أن يكون مطول الشرح خمسة أضعاف المقالة المردود عليها.

مادة ١٦ ـ إذا استمر صدور الجريدة أو الرسالة بعد تعطيلها أو توقيفها تحت عنوانها الأصلي أو تحت عنوان آخر فيعاقب كل من محررها وصاحب امتيازها وصاحب المطبعة بدفع غرامة من خمسة إلى ٢٠ جم عن كل عدد أو صحيفة تصدر منها وهذا فضلا عن نزع رخصة صاحب المطبعة وقفل مطبعته.

مادة ١٧ ـ لناظر داخلية حكومتنا أن يمنع دخول وتداول وبيع الجرائد والرسائل المنشورة في خارج القطر وكل من أدخل أو وزع أو باع أو وجدت عنده بنوع الوديعة جريدة أو رسالة دورية منشورة في خارج القطر المصري وممنوع دخولها يعاقب بغرامة من جنيه إلى ٢٥ جم.

مادة ١٨ ـ كل كتابة غير صادرة من الحكومة سواء كانت بالخط أو بطبع الحروف أو بالنقش أو بطبع الحجر لا يجوز نشرها أو لصقها بالشوارع والميادين، والمحلات العمومية متى كانت تلك الكتابة تحتوي على أخبار سياسية ومن خالف ذلك يعاقب بغرامة من جنيه الى ١٠ جم يلزم بها بطريق التضامن كل من الفاعلين لذلك العمل والمشتركين فيه وهذا مع عدم الإخلال بالعقوبات التي تترتب على الجناية او الجنحة الناشئة من الكتابة المذكورة.

مادة ١٩ ـ على موزعي الكتب والصحف والرسائل والنقوش وعلى الذين يسرحون بالكتب للمبيع أن يستحصلوا أولاً على رخصة تعطى لهم بلا رسم في المحروسة والإسكندرية من مأموري الضبطية وفي باقي المحافظات والمديريات من المحافظ أو المدير ويجوز لجهات الحكومة المعطاة منها تلك الرخص أن تنزعها عند الاقتضاء ومن يخالف ذلك يعاقب بدفع غرامة من ١٠ قروش إلى ١٠٠ قرش فضلاً عن محاكمة محرري وموزعي وبائعي تلك الصحف بالنسبة للجنحة او الجناية التي يكونون ارتكبوها.

مادة ٢٠ ـ تؤخذ الغرامة من مبلغ التأمين وكلما نقص لزم تكميله في ظرف ١٥ يوماً لأجل إبلاغه قيمته الأصلية وإلا فيعتبر كأنه غير موجود.

والحجز والضبط يكون إجراؤهما بالطريقة الإدارية وكذلك التغريم أو توقيف الجريدة أو الرسالة وتعطيلها في الحالات المبينة بهذه اللائحة يكون بأمر من ناظر داخلية حكومتنا والأمر المذكور يكون بتاً لا مراجعة فيه. وجميع هذا لا يمنع من محاكمة من يستحق المحاكمة أمام جهات القضاء.

مادة ٢١ ـ يعفى أصحاب المطابع والجرائد والرسائل الدورية الموجودة الآن من طلب الرخصة ويعطى لهم مهلة شهرين لتقديم مبلغ التأمين.

مادة ٢٢ ـ كل قانون أو لائحة أو أمر أو منشور مخالف لأمرنا هذا صار ملغياً.

مادة ٢٣ ـ على ناظر داخلية حكومتنا تنفيذ أمرنا هذا.

صدر بسراي عابدين في ٢٦ نوفمبر ١٨٨١.

الامضاء

محمد توفيق

ملحم ابراهيم شميّل

١٨٢٦/٤/٥ ـ ١٨٨٥/٢/١٧

تـرديـد الأسـف

لم نكـد نكفكف الدمـع على فقـد البستانيين حتى نكبنا بفقـد العـالم العـامـل والكاتب البليغ ملحم أفندي الشميّل في ١٧ شبـاط سنة ١٨٨٥. اغتـالته المنيّـة فجأة وأودعت في قلوب أقربائه وأصدقائه نار الحسرات على فراقه. وما شاع خبر وفاته حتى أقام له سكّان سواحل لبنان مأتماً عظيماً وسـارت مناعيـه إلى دوائر الحكـومة فبـادر أولو المناصب وأعيان البـلاد إلى مأتمـه وأرسل دولتلو واصـه باشـا صهره وأميـرالاي الجنـد اللبناني مع جانب من الجنود ليشهدوا المأتم ويحتفلوا بتشييع الجنازة. وقد لخصّنا تـرجمة الفقيد في ما يأتي.

ولد في الخامس من نيسان سنة ١٨٢٦ من بيت مشهور بالفضل والأدب وتقلّب في منـاصب التعليم فالتجـارة فالسيـاسة حتى أدركتـه الوفـاة. وكان عـاقلاً ذكيـاً قليل الكلام وإذا تكلّم أفاد وأفحم حتى قال فيه بعض واصفيـه ـ ان كلامـه مُسكِت ـ وكان كاتباً بليغـاً وكتابتـه على طـرفي الايجاز والإعجـاز وقرأ من العلوم علوم اللغـة العربيـة والفقه والعلوم الرياضية وله ارجوزة في علم الجبر والمقابلة. وكان ذا ذاكرة قوية يـذكر بها الشيء كما هو بعد عشـرين سنة ولـو لم يقرأه إلاَّ مـرة واحدة. ولـه مقدّمـة بليغة في علم الحساب اطّلع عليها المرحوم عالي سميث فقال إنها خيـر من كتاب جليـل. وكان شاعراً مجيداً وله قصائدة كثيرة أشهرها القصيدة التـاريخية في مـدح الخديـوي السابق. وحصَّل الطب القديم وقرأ شيئاً من الطب الحديث ومارس صناعة الطب في أول أيامه زمناً قصيراً وكـان له نـظر دقيق في العلاج وكـان ينحو فيـه منحى البساطـة ويقول إن العاقل صيدنيته في مطبخه فإذا احتاج إلى الاسهال فعنده الزيت أو الاستفراغ بـالقيء فالملح أو التبريد فالحامض أو التسكين فالبصل. وكـان كريمـاً محبّاً للفقـير لم يرد سـائلاً وكان يؤثر معاشرة الفقراء على الأغنياء ويحب البساطـة في جميع أعمـاله. وكـان يعرف من اللغـات الانكليزيـة وشيئاً من الايـطاليانيـة ـ وله من مـرثية في زينب هـانم كريمـة الخديوي السابق قوله:

يـوسِعُ القلبَ صـاحبُ الحزمِ صبـرا يـومَ بـينٍ يجـرِّع الـصبُّ صـبـرا
وحـكيـمٌ مـن يـزدري بـحـيـاةٍ كـل يـومٍ تـزداد بـالـطول قصـرا

وقوله :

ليس يدري مقاصد الله عبدٌ ... انّ للّهِ في الخليقةِ سرًّا
خاضت الناس في الظنون ولكن ... صاحبُ البيت بالذي فيهِ أدرى

وقد تعلّق على التجارة منذ نيّف وثلاثين سنة وقطن الاسكندرية نحو عشرين سنة ثم دخل في حكومة لبنان* بعد المهاجرة العرابية وبقي في خدمة وطنه حتى فارق ديار الشقاء إلى ديار البقاء.

[المقتطف. ج ٩ (١٨٨٥) ص ٣٧٧].

(*) تولّى ملحم أفندي شميّل قائمقامية زحلة منذ عودته من مصر أثناء المهاجرة العرابية ١٨٨٢ وحتى وفاته عام ١٨٨٥.
[أسد رستم: لبنان في عهد المتصرفيّة (دار النهار للنشر، بيروت ١٩٧٣)، ص ١٧٦].
وجاء في جريدة لسان الحال (عدد ٦٩٤، ٢١ تموز ١٨٨٤، ص ١) ان ملحم أفندي شميّل يشغل في حكومة لبنان منصب مدير أوراق المتصرفيّة وقد عيّنه المتصرف واصا باشا، عضواً في «اللجنة العلميّة الزراعية» التي أُنيطت بها مهمّة «اصلاح شأن الزراعة وبثّ المعارف وتوفير وسائل العلوم في لبنان».

امين ابراهيم شميل

١٨٢٨/٢/٢٤ ١٨٩٧/١٢/٦

بقلم حضرة المحامي الفاضل ابراهيم افندي جمال تلميذه ومساعده

[المقتطف. ج ٢٢ (١٨٩٨) ص ١٥ - ١٩]

هو ابن المرحوم ابراهيم شميل من محتد كريم ولد في كفرشيما من اعمال جبل لبنان في ٢٤ فبراير سنة ١٨٢٨ ودخل في السنة الحادية عشرة من عمرهِ مدرسة المرسلين الاميركانيين في بيروت فتلقى فيها بعض مبادىء النحو والحساب واللغة الانكليزية وخرج منها بسبب حادثة الجبل الأولى ثم تتبع درس اللغة العربيَّة والفقه عَلَى اساتذة افاضل اذكر منهم السيد محيي الدين افندي اليافي.

وما بلغ الحادية والعشرين حتى كان رجلاً يشار إليهِ بالبنان في المعارف وفصل المشاكل ودليل ذلك انهُ وقع خلاف شديد سنة ١٨٤٩ بين البطريرك مكسيموس مظلوم الشهير بطريرك طائفة الروم الكاثوليك والمطران اغابيوس رياشي مطران بيروت ورفع الفصل في ذلك الخلاف إلى الكرسي الرسولي في روما فاختار المطران رجل الترجمة وكيلاً لهُ وبعث بهِ إلى رومة فوصلها عند دخول العساكر الفرنسوية إليها واقام هناك نحو سنتين ونصف مدافعاً عن حقوق موكلهِ حتى احتدم النزاع بين البطريرك والمطران واحيل الفصل فيه إلى مقام الصدارة العظمى بالاستانة العليَّة فتوجه إليها صاحب الترجمة وكيلاً عن المطران فوصلها في اواسط يناير سنة ١٨٥٢ وتوجه توًّا إلى منزل الصدر الاعظم فعرض عليهِ حقيقة الواقع وطلب منهُ تأليف لجنة من اساقفة الطوائف الكاثوليكيَّة من رعايا الدولة العليَّة في بيروت للحكم في ذلك النزاع فاجابهُ إلى طلبهِ واصدر امرهُ إلى والي بيروت بذلك فانتخب الوالي مطران الطائفة المارونيَّة ومطران الأرمن الكاثوليك ومطران السريان الكاثوليك للفصل في تلك الدعوى الخطيرة فنظروا فيها وحكموا للمطران اغابيوس موكل المترجم بهِ فعاد إلى بيروت ظافراً مسروراً.

وفي يوليو سنة ١٨٥٤ قصد انكلترا وهناك تعرف بأحد التجار المشهورين وهو السيد عبد الله ادلبي قنصل الدولة العثمانيَّة في مانشتر فاتخذه هذا مديراً لاشغاله التجارية ثم ارسلهُ سنة ١٨٥٦ إلى بيروت بمهمة تجارية فانجزها على احسن حال وعاد إلى منشتر واستأذن من السيد عبد الله ادلبي بفتح محل تجاري على حسابهِ الخاص في مدينة ليفربول فاذن لهُ بذلك وشرع من ثم يشتغل بالتجارة.

وفي سنة ١٨٦٢ ترك اخاهُ بشاره في ليفربول يدير حركة محلهِ وجاء سوريا ثم الاسكندرية وفتح فيها محلاً تجاريًّا مكث فيه نحو عشرة اشهر واقترن بالسيدة فرجيني جفروى كريمة المسيو شارل جفروى الفرنسوي ثم ادخل اخاهُ ملحماً في المحل التجاري واطلق عليهِ اسم محل شميل اخوان وشركائهم.

وسنة ١٨٦٣ عاد إلى ليفربول واتسع نطاق تجارتهِ فيها اتساعاً عظيماً حتى كان يستأجر وابورات خاصة لنقل بضائعه من سوريا ومصر إلى انكلترا ومن انكلترا إلى هذين القطرين.

وفي تلك الاثناء ارتفعت اسعار الاقطان وكلفهُ بعض عملائهِ في الاسكندريَّة ببيع ثلاثين الف قنطار على التسليم باسعار تعدل الليبرة فيها ٢٥ بنساً ثم ارتفعت الاسعار إلى ٣٠ بنساً وقصَّر تجار الاسكندرية في تسديد ما عليهم فخسر بسبب ذلك ثمانين الف جنيه.

وسنة ١٨٨٥ جاء القاهرة فاصدر جريدة **الحقوق** واشتغل بفن المحاماة فكان في صناعتهِ موضوع اعتبار رجال القضاء خصوصاً والناس عموماً لما كان مشهوراً بهِ من الصدق والاجتهاد ولين العريكة وسلامة الطوية.

على ان المصيبة التي اصابتهُ بفقد ولديه سنة ١٨٨٦ وعمر احدهما ٢١ سنة وعمر الآخر ١٧ سنة اسست في قلبه الاحزان المستمرة ثم جاءت وفاة ابنته سنة ١٨٨٦ ثالثة الاثافي فقوضت بنيتهُ القوية حتى انتهكت قواهُ واتاهُ القدر المحتوم صباح ٦ ديسمبر سنة ١٨٩٧ ولهُ من العمر تسع وستون سنة وتسعة اشهر.

مقامهُ في العلم والأدب

لصاحب الترجمة في العلوم المتنوعة تآليف اذكر منها ما يحضرني الآن:

١ ـ **الوافي هو تاريخ مشهور للمسألة الشرقيَّة** في كتابين ينقسمان إلى ستة اجزاء كبار طبع جزءان منها والاربعة الأخيرة مبيَّضة ومعدَّة للطبع.

٢ ـ **مقدمات تاريخية علمية** كانت تنشر تباعاً في جريدة الحقوق وهي في علوم مختلفة.

٣ ـ **بستان النزهات في فن المخلوقات**. وهو يشتمل على ثلاثة اقسام:

(الأول): **جامع الأنوار في فن الأسفار**. وفيه جزءان الأول في الرحلة والثاني في تاريخ العرب.

(الثاني): **الدرة المكنونة في علم هيئة الكون وخمسة اقسام المسكونة** وفيه كلام واف عن اديان العالم المختلفة.

(الثالث): **فاكهة العلماء في الميتولوجيا** وهو كتاب جليل نادر المثال (لم يطبع).

(الرابع): **سهام المنايا** وهي رسالة رد فيها على بعض المعترضين على الوافي حذا فيها حذو ابن زيدون في رسالتهِ المشهورة.

(الخامس): **المبتكر**. وهو كتاب مبتكر في بابهِ يشتمل على خمس مقامات تدعى مقامات الأوهام في الآمال والاحكام وخمس وعشرين قصيدة مؤلفة من الف وستة وخمسين بيتاً في شرح درجات حياة الإنسان السبع في حين تصوره في الرحم إلى موتهِ وتواريهِ في التراب (طبع مرتين).

(السادس): **الزفاف السياسي**. وهي رواية تشخيصية رمزية تمثل حالة الدول في ابان حرب الروس سنة ١٨٧٧ (لم تطبع).

(السابع): مقالات ورسائل سياسيَّة عديدة منشورة في جرائد متعددة.

(الثامن): **مشروع البنك الوطني**. وهو رسالة عرض فيها على الحكومة المصرية انشاء بنك وطني اهلي يشتمل على تفاصيل وافية في بابها (مطبوع) ولهُ رسائل ومقالات اقتصادية متعددة.

(التاسع): **نظام الحكومة الانكليزية** (طبع مرتين).

(العاشر): **السدرة الجلية في المباحث القضائيَّة** (مطبوع).

(الحادي عشر): **الحقوق**. ولا نزيد القراء بها تعريفاً انشئت في اوائل سنة ١٨٨٧.

وكان من الشعراء المعدودين ولهُ من القصائد الرنانة ما يجمع ديواناً كبيراً(*) واجل قصائدهِ واشهرها حكمية فلسفية منها في المبتكر الدهرية الكبرى في مطامع الإنسان وتيههِ وغاياتهِ والدهرية الصغرى في صروف الدهر وتقلباتهِ والميزان او لامية الهدى فيها يجب الافتخار بهِ من حماسيات الكهل وهي التي مطلعها:

ما الفخر بالمال ان الفخر بالرجل   مال جمعنا مضى والفخر لم يزلِ

والبرهان في وجود الله والنفس الناطقة.

ولهُ في المدائح والتهانيء قصائد شائقة اكثرها في المرحوم توفيق باشا الخديوي السابق ودولة الوزير رياض باشا وبعضها في سمو الخديوي الحالي.

وله في الرثاء قصيدتهُ المشهور اثر بعد عين التي رثى بها المرحوم اخاهُ ملحم شميل ومطلعها:

شقي الجيوب بنات الحي وابكينا   حواسراً فلقد هانت نواصينا

وفي آية في البلاغة والتأثير.

ولهُ في رثاء ولديه ارثر وفريدريك كلام يذيب الجلمود ومن رثائها قوله:

فنحن صرعى بخطب لا دواء لهُ   غير المنية ان حانت على عجلِ
هناك نجمع ان صحت امانتنا   او نستحيل وجوداً غير منفعل

ولا يسع المقام ان اذكر شيئاً آخر من مختارات اشعاره وكلها درر وغرر وموعدي بها الديوان الذي سأجمعه وانشرهُ لهُ ان شاء الله على اني اذكر هنا بعض ابيات قالها ملمّحاً بها إلى ما نزل بهِ من مصائب الدهر. وهي قولهُ:

اغرتْني الدنيا ومذ عاهدتها   اخذت عليَّ من المصائب تمطرُ
مطراً اكاد اظنهُ في دهشتي   طوفان نوح بل وربك اغزر

جبت البلاد بهمة لا تنثني   عزماً وقلب لا يهاب ويحذر
وطرقت ابواب المعالي اولاً   وبلغت قدراً لم اكن استنظر
لي همة في السعد بحر انما   نجمي لهُ في كل نحس ابحر
فصرفت احلام الحياة ولم اذر   جهداً واني الآن ما قد تبصر

صفاتهُ الشخصية واخلاقه

كان ربع القامة ضخم العضل ابيض اللون اصلع الجبهة حليق الذقن مهيب المنظر.

وكان مقداماً على الاعمال جلوداً على التعب صبوراً على المصائب كثير العناية في اشغاله شديد المحبة لبنيه وافراد عائلته لين العريكة كريم النفس بادىء المروءة حاد الطبع في اواخر عمره سريع الرضا قوي الذاكرة شديد الذكاء عزيز النفس صادقاً حر الضمير واللسان وبالجملة فقد كان مثال الرجوليَّة. اجزل الله ثوابهُ واطال بقاء انجالهِ الكرام تعزية لوالدتهم الحزينة وخير خلف لخير سلف.

وقد رثاهُ اخوهُ الدكتور شبلي بمرثاة نذكر منها الأبيات الآتية:

ذعر الناس انهم مائتونا   جهل الناس انهم ذاهلونا
ان موتاً ليفضلنَّ حياة   كل يوم نذوق فيها المنونا
خلق المرء للشقا ليس يلقى   في سوى الموت راحة وسكونا
حيرة المرء في الوجود حياة   كل يوم تريك منها شؤونا
«منة لو منت بغير المنايا»   وبغير الدموع منا عيونا
«خاضت الناس في الظنون ولكن»   ما درى الناس سرها المكنونا
قال قوم اعياننا باقيات   قال قوم بل اننا فانونا
ان اركاننا تدوم وتبقى   تلك اعياننا تعيش سنينا
ان آثارنا لأثبت منا   تلك آثارنا تدوم قرونا
قسم الناس بين خلق يجازى   ثم قوم يعد ذاك مجونا
بين خلق نعد ذا السعد فيهِ   ونعد المألوم والمسكينا
هل دريتم بما جنيتم فمظلو   مون انتم وانتمُ الظالمونا

ومنها قوله:

لم يمت عائش بآثار فضلٍ   هل يموت المجدّ كالخاملينا
هل امات الزمان سقراط قبلاً   هل امات الزمان افلاطونا
انت حي آثارك الغرّ تبقى   ابد الدهر ترشد العالمينا

(*) حاشية:

لا بدّ من الإتيان على ذكر قصيدتين نظمها امين شميّل ونشرهما عام ١٨٨٥ في كلّ من مجلّة **الجنان** و**المقتطف**:

(١) ـ **القصيدة الشرعيّة**: وهي منظومة شعريّة تتضمّن مائة قاعدة فقهيّة من قلم امين افندي شميّل.

[**الجنان**، جزء ٨، السنة ١٦ (١٨٨٥/٥/٣٠) ص ٢٢٨ ـ ٢٣١].

(٢) ـ **كنز المنى**: وهي قصيدة نظمها إجابة لاقتراح إحدى السيّدات في مجلّة **المقتطف**، وتغزّل فيها باختراعات العصر الحاضر. وذكر ما ترك الأول للآخر.

[**المقتطف**. ج ١٠ (نوفمبر ١٨٨٥) ص ٩٨ ـ ١٠٠].

محتويات حوادث وخواطر

الصفحة

مجموعة اعمال الدكتور شبلي شميّل

١٨٥٠ - ١٩١٧

نستهلّ إصدار هذه المجموعة من أعمال وكتابات الدكتور شبلي ابراهيم شميّل بنشر مذكراته التي بدأ بتسجيلها عام ١٩١٢ واختار لها عنوان «حوادث وخواطر». والمذكرات تظهر للمرّة الأولى في شكلها الحاضر.

أما الكتاب الثاني، فيتضمّن مجموعة مختارة من المقالات والكتابات السياسيّة والإصلاحيّة التي امتدّت على ما ينيف عن الثلاثين عاماً. وهناك كتابات مجهولة في الشأن الاصلاحي والسياسي لم يتسنّ لها ان تبصر النور بين دفّتي كتاب، علماً بان معظمها قد نُشر عل حدة في كرّاسات أو على صفحات **الأهرام والمقطّم والمقتطف والبصير وفتاة الشرق والزهور**.

ومن المؤكد ان **حوادث وخواطر** والمقالات السياسيّة والاصلاحيّة يُكمّل الواحد منها الآخر ويتمّمه.

وارتأينا جمع الكتابات غير المنشورة في مجموعة الدكتور شميّل (١٩٠٩ - ١٩١٠) تحت عنوانين رئيسيين: **على دروب النشوء والارتقاء** و«سوبرمان الشرق». ويمكن للقارىء والباحث ان يتابع التطور الفكري الرائد في ضوء النصوص المختارة والمقالات المجهولة أو التي ذكرها الدكتور شميّل بصورة عابرة في حوادثه وخواطره.

والكتاب الرابع والأخير، سوف يقدّم شريحة مختارة من مجلّة **الشفاء** التي أصدرها الدكتور شبلي شميّل عام ١٨٨٦ وتوقفت عن الصدور بعد اكمال عامها الخامس (١٨٩١ - ١٨٩٢). هذا بالإضافة إلى المقالات الطبّية والعلميّة التي اخترناها من أعداد **الشفاء** وترجمات كتب ابقراط التي قام بها الدكتور شميّل منذ العام ١٨٨٤.

ولنا ملء الأمل بان تسهم هذه المجموعة في تسليط الضوء على الكثير من النواحي المجهولة أو المغمورة من أعمال الدكتور شبلي شميّل، وان تؤدّي إلى ضبط العديد من التواريخ الهامّة والبارزة في حياته العلميّة والعمليّة.

دار النعمـة للطبـاعـة
الرملة البيضاء - شارع اديسون
تلفون : ٨٠٢٢٤٦ - بيروت، لبنان

حوادث وخواطر

مذكرات الدكتور شبلي شميّل

عُنيت في صيف عام ١٩١٢ بتقييد بعض حوادث مما مرّ عليَّ، وتعليق بعض خواطر مما يعنُ لي، عساي أجد فيها ما أشغل به أوقات الفراغ وأفرج كرب العزلة. حتى إذا كاد الصيف ينقضي نشبت الحرب البلقانية، فوقفت في تلك حيث وقفت. وعلّقت على هذه ما علّقت. ثم ضممت إلى ذلك بعض ما يتسر لي العثور عليه من مطويّ لم ينشر، ومنشور مبعثر. وجمعت الكل في هذا الكتاب فجاء «من كل وادٍ عصا» أو من كل نبتة زهرة - على ذوق القارىء - وسَمَّيته حوادث وخواطر.

حوادث هي بعض مذكراتي في حياتي القليلة الاختلاط الكثيرة الاعتزال. إن لم تتسع للرواية فقد تستوقف بدقة التحليل، وإن أقفرت من القديم والمأنوس فقد يكون فيها شيء من الجديد الطلي، وإن كثر فيها الجد فقد لا تخلو من الفكاهة، وإن أكثرت فيها المعلقات الخصوصية فلم أهمل من خلالها المرامي العمومية. * * *

وخواطر هي بعض أفكاري أطلقها تجول في ما حولي، وتمر بي حتى أعماق نفسي، وتنطق عن نظري الخاص ولو خالفت أحكامي سواي. * * *

من مقدّمة مذكّرات شبلي شميّل